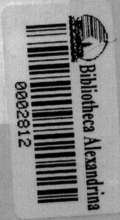
منشورات
جماعة علم النفس
التكاملي
بإشراف
الدكتور يوسف مراد

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي

دراسة ارتقائية تحليلية

تأليف
الدكتور مصطفى سويف





الأسس النفسيّة للتكامل الاجتماعى

منشورات جماعة علم النفس التكاملي

بإشراف الدكتور يوسف مراد

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي

دراسة ارتقائية تحليلية

تأليف

الدكتور مصطفى سويف

دكتوراه في الآداب (علم النفس) من جامعة القاهرة
دبلوم علم النفس الإكلينيكي من جامعة لندن
عضو جمعية علم النفس البريطانية
مدرس علم النفس بجامعة القاهرة

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

إلى

زوجتي : فاطمة موسى

وابنتي : أهداف

حفظ فن الأبوّة ، تلك إحدى المهام الرئيسية للأسرة . فإذا ضاع هذا الفن فقد ضاعت على المجتمع وظيفة لا تقل أهمية — بالنسبة له— عن وظيفة إنتاج الطعام .

جـ . بولبي

تصدير

الطبعة الأولى

ترجع فكرة هذا البحث إلى مصدرين، أولهما مقال نشره الأستاذ الدكتور يوسف مراد فى عام ١٩٤٧ بعنوان « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » ، والآخر ما انتهيت إليه فى بحث سابق بعنوان « الأسس النفسية للإبداع الفنى » من أن العمل الفنى رسالة موجهة من « الأنا » إلى « الآخر » لاستعادة « النحن ». وقد أغرتنى هذه النتيجة بأن أتعمق فى سيكولوچية « النحن » باعتبارها الانعكاس الشعورى للتكامل الاجتماعى .

وتتلخص الخطوط الرئيسية لهذا البحث فى أنه محاولة لإقامة فكرة منظمة عن طبيعة عملية التكامل الاجتماعى . وقد اعتمدت فى ذلك على الدراسة التجريبية من ناحية ، وعلى المساهمات الجزئية المتعددة التى قام بها عدد كبير من الباحثين من ناحية أخرى . ونظراً لأن هدفنا من البحث هو الوصول إلى « فكرة منظمة » لوصف عملية التكامل الاجتماعى وتفسيرها ، لا مجرد تطبيق استخبار وتبويب نتائجه ، أو جمع بضع ملاحظات عشوائية ، فقد كان لزاماً علينا أن نوضح بعض الجوانب النظرية للبحث بمناقشات هى أقرب إلى ميدان فلسفة العلوم ، منها إلى ميدان علم النفس الاجتماعى . وتلقى هذه المناقشات وأمثالها الضيق والتبرم عند الكثيرين من الباحثين المعاصرين . ومع ذلك فإن مورفى G. Murphy يقول : إن التجربة فى جميع البحوث القيمة هى اللمسة الأخيرة التى تتوج هذه البحوث ، فتأتى بمثابة الإكمال التكنيكى للتحليل النظرى . وإذا كان لنا أن نبلغ ما بلغته بحوث علم الطبيعة من الدقة والقدرة فيجب أن نتنبه إلى أن المشكلة الرئيسية التى تبرز أمام الباحثين عن طريق الملاحظات

أو التأمل أو الحساب هى التى تقترح طريق التجربة الملائم لهـــا ، وأن التجربة لم تؤدّ دوراً حاسما فى تاريخ علم الطبيعة إلا لأن الباحثين استطاعوا أن يواجهوا الطبيعة بأسئلة واضحة فعلا . G. Murphy & othere 1937, p. 14

ومن أهم المسائل التى تتعلق بالجانب النظرى من البحث العلمى مشكلة توضيح المفاهيم وتحديدها . ويمكن القول بأن بعض ما تعانيه البحوث السيكولوجية والاجتماعية من تشتت ، إنما يرجع إلى قلة العناية بتحديد المفاهيم المستخدمة . ولذلك فقد حرصنا على توضيح مفاهيمنا وتحديدها فى سياق النص ، وزيادة فى تأكيد أهمية هذه الخطوة أضفنا فى نهاية البحث قاموساً بالتعريفات السائدة لهذه المفاهيم .

أما فيما يتعلق بالجانب التجريبى من البحث فقد قدمنا محاولتين : إحداهما دراسة تتبعية لارتقاء الاستجابات الاجتماعية لدى طفلتنا فى الثلاث سنوات الأولى من العمر . والثانية تطبيق استخبارين على عدد من الأشخاص المصريين للكشف عن مدى تدخل « عامل الصلابة الأجتماعية » فى اختيار الشخص لأصدقائه ، وارتباط ذلك بمراحل العمر المختلفة وبعوامل أخرى . وقد فصلنا القول فى الإجراءات التى قمنا بها فعلا فى هاتين المحاولتين .

كذلك راعينا عند ذكر تجارب الباحثين المختلفين إبراز الإجراءات التى قاموا بها فى تجاربهـــم دون الاقتصار على ذكر نتائجهم ، لما لذلك من قيمة فى الإيحاء بخطط لإجراء التجارب لدى القراء الذين يهمهم مواصلة البحث فى هذا الموضوع أو فيما يمسه من موضوعات قريبة . والواقع أنّ الباحث العلمى يورث الآخرين منهجه أكثر مما يورثهم نتائجه . ومن أهم جوانب العلم فن إجراء التجربة .

إنى مدين للأستاذ الدكتور يوسف مراد بالكثير مما ورد فى هذا البحث ، من حيث المنهج والنتائج ، وشاكر له شكراً عميقاً دعوته لى بنشر هذا البحث

فى مجموعة « منشورات علم النفس التكاملى » ، ولا أزال أعتز بتتلمذى عليه وصداقتى له . كذلك أعترف بأنى مدين للأستاذ الدكتور مصطفى زيور بالكثير من الفضل . فقد قرأت معه معظم فصول هذا البحث قراءة مفصّلة ، ولقيت عنده من التشجيع ما يفوق كفاءتى ولا يتناسب إلا مع كرم نفسه .

وقد لقيت من الدكتور السيد محمد خيرى صادق المعونة فى مراجعة الجزء الخاص بتطبيق الاستخبار (صيغة ب) ولا أستطيع أن أغفل ذكر تعليقاته وإرشاداته القيمة فى هذا الصدد . وكذلك الدكتور عبد العزيز الإهوانى ، فقد قرأت معه قاموس التعريفات بأكمله ، وأفدت فعلا من ملاحظاته بخصوص ترجمة بعض المفاهيم ، وتوضيح التعاريف . أما الأستاذ محمود موسى محمود فقد حمّلته مشقة بعض الجداول والتحليلات الإحصائية اعتماداً على ما بينى وبينه من روابط متعددة قوامها الحب والتقدير المتبادلين . وقد حصلت على إحصاءات المرضى بالفصام فى بعض المصحات العقلية فى مصر عن طريق صديقى الكريم الدكتور حلمى غالى . كذلك ساعدنى عدد من أصدقائى فى تطبيق الاستخبارين على نطاق واسع فى بعض المدارس المصرية ، أذكر من هؤلاء الأصدقاء السيدتين صفية أمين وسميرة عبد الرازق والأساتذة محمد نبيه عثمان ومحمد حامد عويس وأحمد تيسير . كما ساعدنى فى هذه المهمة أيضاً بعض الأصدقاء من طلابى ، وهم الأنسة ثريا حسن والسيد مكرم سمعان والسيد محمد عزت حجازى . وإلى هؤلاء جميعاً أقدم جزيل الشكر والاعتراف بالفضل .

كذلك أقدم شكرى إلى « دار المعارف » عمالها وإدارتها ، فلولا تعاونهم وحذقهم لما تسنى للكتاب أن ينشر فى هذه الصورة الأنيقة .

جامعة القاهرة م . س .

١٦ مايو ١٩٥٥

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الثانى

الفصل الأول

الوليد فى الأسبوعين الأولين من عمره

الفصل الثانى

الطفل منذ نهاية الأسبوعين حتى نهاية السنة الأولى

الفصل الثالث

الطفل منذ بداية السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة

صفحة

الفصل الرابع

الطفل من بداية الرابعة إلى بدء المراهقة

القسم الخامس

الارتقاء الاجتماعي للمراهق

القسم الثاني

الفصل الأول

المستويات والمواقف

الفصل الثانى

الشعور بالنحن

الفصل الثالث

عوامل التكامل الاجتماعى

الفصل الرابع

شروط التكامل الاجتماعى

شروط خاصة بالبيئة

الفصل الخامس

شروط التكامل الاجتماعي

شروط خاصة بالشخصية

القسم الأول

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى
دراسة ارتقائيه

الباب الأول : من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية .

الباب الثانى : ارتقاء الاستجابات الاجتماعية منذ الطفولة .

الباب الأول

من التجمعات الحيوانية إلى الجماعات البشرية

مقدمة

معنى التكامل الاجتماعى – بعض مظاهر التكامل الاجتماعى

معنى التكامل الاجتماعى:

موضوع هذا البحث هو الكشف عن الأسس النفسية للتكامل[1] الاجتماعى. والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى أن نحدد ميدان بحثنا ، لنبين (على وجه التقريب) مجموعة الظواهر التى سوف تكون موضع عنايتنا دون غيرها . وهنا نرى لزاما علينا أن نبدأ بتحديد تقريبى لمعنى التكامل ، علما بأن هذا التحديد سيظل مليئاً بثغرات لن يسدها إلا مضمون البحث نفسه .

لا يقتصر استخدام مفهوم التكامل على مجال الظواهر الاجتماعية فحسب ولكنه يستخدم فى مجالى الظواهر البيولوجية والسيكولوجية كذلك، أى أنه يستخدم فى جميع مجالات الحياة (A. Lalande 1925) . ولذلك نفهم كيف أن باحثاً مثل جدسون هيريك يقرر أن التكامل هو الشرط الأول للبقاء (C.J. Herrick 1949) ، وبعبارة أخرى أن التكامل هو الصفة الأولى والرئيسية للمادة الحية .

فالموسوعة البريطانية وجوليان هكسلى J. Huxley وآخرون يستخدمونه فى مستوى الظواهر البيولوجية ، فى حين يستخدمه أندرسون (H.H. Anderson 1943) وكاتل (R.B. Cattell 1943) وونثروب (H. Winthrop 1946) والدكتور يوسف مراد (١٩٤٨) فى مستوى الظـــواهر السيكولوجية ، ويستخدمه دوركهيم

---

(١) integration

(E. Durkheim 1926) وكاتل في مستوى الظواهر الاجتماعية .

والقسط المشترك بين الاستعمالات الثلاث لدى هؤلاء الكتاب جميعاً هو أن التكامل يشير إلى تآزر [١] مجموعة الوظائف الحيوية (البيولوجية أو السيكولوجية أو الاجتماعية) في سبيل الإبقاء على وحدة الكل ، وبذلك يكون لدينا في النهاية كائن حي أو شخصية أو مجتمع ، لا مجرد مجموعة من الخلايا أو الملكات أو الأفراد .

إلا أن جدسون هيريك يقرر أن التكامل لا ينطوي على معنى التآزر فحسب ، بل وعلى معنى التغاير [٢] أيضاً (C.J. Herrick 1949) . ومن ثم فالتكامل عملية [٣] كبرى ، وليس مجرد حالة . ولهذا الرأي أهمية بالغة في الرد على بعض النظريات الاجتماعية التي لا ترى في المجتمع المتكامل إلا جانب الاستقرار ، فتقرر أنه صفته الكبرى والرئيسية . ومن هذا القبيل نظرية برجسون (م. سويف ١٩٤٩ ، H. Bergson 1932) ذلك أن التكامل هنا تكامل في مستوى المادة الحية ، ومن ثم فلا بد أن يكون تكاملا ديناميًّا لا تكاملا ثباتيًّا (استاتيكيًّا) كالتكامل بين أجزاء الآلة ، إذا جاز استخدام الاصطلاح في هذا المجال .

والتكامل زيادة على ذلك عملية ارتقائية ، تمر بمستويات تعيِّن درجات متفاوتة في كفاءة الكائن الحي أو النظام الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله . ويتم انتقالها بفضل عمليات التغاير أو الإفراد [٤] التي تخل بالتآزر المتحقق وتتجه نحو تآزر جديد أكثر ارتقاء وكفاءة .

فإذا أردنا أن نتبين الأهمية الخاصة لهذا المعنى المفصَّل لاصطلاح التكامل بالنسبة لبحثنا هذا ، قلنا إنه لا يكفي للإبانة عن الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي أن نكشف عن تلك العمليات النفسية الجارية وراء الأنماط أو

---

(١) coordination
(٢) differentiation
(٣) process
(٤) individuation

المنظمات الاجتماعية القائمة بالفعل ، بل يجب أن نكشف أيضاً عما يمكّن من تغيير هذه الأنماط وتطويرها ، وبعبارة أخرى يجب أن نحسب حساب الجانب التاريخي فى هذه الأنماط ، بحيث تستطيع المفاهيم [1] التى نتقدم بها أن تفسرها من حيث هى مستقرة ومتطورة فى آن واحد .

والواقع أن هذا الفهم لمعنى التكامل هو الذى كان مسيطراً على أندرسون H.H.Anderson فى مقاله المنشور بعنوان « السيطرة والسلوك المتكامل فى الحياة الاجتماعية » فهو يقرر أن « عبارة السلوك المتكامل اجتماعياً » تنطبق على الاستجابات التى تتميز بالمرونة ، أى على السلوك الذى يحاول أن يبرز الخلافات القائمة لدى الآخرين ويلتمس بينها أهدافاً مشتركة (H.H. Anderson 1943) . وعلى هذا الأساس نفسه يحصى واردن C.J. Warden من بين الميزات النوعية للحياة الاجتماعية الإنسانية الابتكار إلى جانب التواصل [2] وتكوين العادات الاجتماعية (& P.R. Farnsworth 1942, p. 393) وإلى مثل هذا المعنى يذهب الدكتور ى . مراد عندما يقرر أن صفة R.T.Lapiere التكامل تتلخص فى عملية التآزر والتضامن من ناحية ، وفى عملية الائتمار من ناحية أخرى ، أى خضوع بعض المراكز السفلى لسلطة المراكز العليا فى الجهاز العصبى (ى . مراد ١٩٤٨) ، وعندما يحدد مهمة علم النفس التكاملى بأنها تفسير كيفية انتقال الإنسان من طور الفردية البيولوجية إلى طور الشخصية السيكولوجية والاجتماعية (ى . مراد ١٩٤٨) ، فلا يكفى أن نفسر نمط التكامل القائم بل يجب أن يتضمن تفسيرنا انتقال هذا التكامل من نمط إلى نمط آخر من حيث أسبابه وكيفيته . كذلك نتوسم بعض هذا الاهتمام بالجانب التاريخى فى عملية التكامل عند دوركهيم ، وذلك فى تفرقته بين نوعين من التكامل الاجتماعى : أحدهما هو التكامل الآلى ويسود فى المجتمعات البدائية ، وقوامه التشابه بين أعضاء المجتمع تشابهاً يكاد يكون تاماً ، والآخر هو التكامل العضوى

---

(١) concepts (٢) communication

ويسود فى المجتمعات المتمدينة وقوامه التبادل والتفاعل بين شخصيات المجتمع المتباينة (E. Durkheim 1926) .

والخلاصة أن التكامل الاجتماعى كما سنعرض له فى هذا البحث لا يعنى مجرد التضامن[1] الاجتماعى ، بل يعنى التضامن الذى يسمح بأن يتعدل نمطه من حين إلى آخر ، فهو تضامن دينامى متطور . ولا شك فى أنه يقوم على عوامل متشابكة ، منها الاجتماعى التاريخى والاقتصادى والنفسى والبيولوجى . إلا أننا سنقتصر أساساً على الكشف عن العوامل النفسية ، فإذا عرضنا للعوامل الأخرى فمن حيث تأثيرها فى هذه العوامل النفسية أو تأثرها بها .

وفى هذا الموضع يحسن بنا أن نزيد من توضيح ما نعنى بصفة « النفسية » . فالشائع أن هذا المفهوم مرادف تقريباً لمفهوم « الفردية » (G. Gurvitch 1950, p. 31) ومعنى ذلك أن الحديث عن الأسس النفسية يعنى الحديث عن الأصول الفردية الباطنية ، وبوجه خاص تلك القدرات[2] والاستعدادات[3] الفطرية . إلا أننا لم نقصد إلى هذا المعنى . ذلك أنه مع التسليم بوجود استعدادات فطرية فى الفرد فإن هذه الاستعدادات تبدو فى حدود معلوماتنا الحاضرة من الاتساع بحيث لا يمكن الوقوف عندها لتفسير أشكال السلوك الخاصة كما تصدر عن فرد واحد فى عدة مواقف متباينة ، أو عن عدة أفراد فى موقف واحد . هذا إلى أن الاتجاه العلمى الحديث يمضى إلى تفسير المواقف بالكشف عن الطرق التى تنهجها التفاعلات بين قواها المختلفة ، ولا يكتفى بالكشف عن رصيد الطاقة الذى يمكن من قيام هذه التفاعلات (K. Lewin (a) 1935) أضف إلى ذلك أن تعذر تحديد مضمون فكرتنا عن هذه القدرات والاستعدادات — وهو ناتج عن أننا نجد أنفسنا دائماً بصدد تحقق لهذه القدرات والاستعدادات — يجعل موقفنا ينطوى على

---

(١) solidarity (٢) abilities (٣) aptitudes

تناقض حاد يجب كشفه تمهيداً للتخلص منه . والخطوة الأولى فى هذا السبيل تتمثل فى الإجابة على هذا السؤال : كيف نصل إلى القول بوجود هذه القوى والاستعدادات الفطرية ؟ والجواب أن ذلك يتم عن طريق ملاحظة مظاهر السلوك وتتبع أوجه الشبه والاختلاف بينها . ومعنى ذلك إذا أردنا فعلا أن نسمى الأشياء بأسمائها ، أننا نفسر القدرات والاستعدادات الفطرية عن طريق مظاهر السلوك المتحققة فعلا ، ثم إننا نعود فنحاول تفسير مظاهر السلوك عن طريق القول بوجود هذه القوى . أى أننا ندور فى دائرة مفرغة . والرأى عندنا أن الاستعدادات الفطرية – العضوية والنفسية – يجب عدم الرجوع إليها إلا عندما نكون بصدد التفرقة بين مستويات مختلفة فى السلسلة الحيوانية . أما عندما نكون بصدد تفسير تغيرات السلوك داخل مستوى واحد فيجب أن يكون معظم اهتمامنا محصوراً فى دائرة التفاعلات[1]. وعلى ذلك فسيتجه اهتمامنا أولا وقبل كل شىء إلى هذه التفاعلات التى لا يمكن وصفها بأنها نفسية فقط ولا بأنها اجتماعية فقط بالمعنى التقليدى لهذين المفهومين ، بل هى نفسية اجتماعية تلتقى فى الفرد وتنعكس عليه (G. Gurvitch 1950, p. 31)

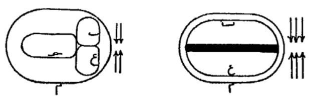
بعض مظاهر التكامل الاجتماعى :

لا نقدم جديداً عندما نتكلم الآن – فى منتصف القرن العشرين – عن وحدة المجتمع وتكامله ، فالواقع أن هذه الفكرة قد احتلت مكانتها فى ميدان البحث العلمى منذ أواسط القرن الماضى ، بفضل جهود أوجست كونت A. Comte ثم إميل دوركهيم E. Durkheim وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية بوجه خاص. ولكن لما كانت النظريات العلمية تتأثر بالمناخ الاجتماعى السائد فى محيطها ، فقد جد من الظروف والتغيرات ما يستدعى إعادة تأكيد بعض القضايا

(١) سنعود إلى معالجة هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى فصول قادمة .

العامة الرئيسية لدى هؤلاء الباحثين ، وعلى رأسها القضية القائلة بأن المجتمع وحدة متكاملة . ذلك أن جو نمو القوميات الذى كان سائداً فى أوروبا الغربية طوال القرن التاسع عشر ، والذى أتاح لتلك النظريات أن تظهر وتعيش وتنمو ، قد تغير اليوم وأصبح جو ضغط على القوميات ، من خارجها (ويتجلى ذلك فى ضغط الحركات الاستعمارية على بعض المجتمعات) ومن داخلها (ويتجلى ذلك فى صراع الطبقات بوجه خاص) ، مما جعلها عرضة لتوترات عنيفة ، وأبرز الحاجة إلى إعادة تأكيد وحدة المجتمع وتكامله .

١ – والواقع أن مانشهده من صراع داخل المجتمع لهو نفسه دليل على وحدته . ذلك أن موقف الصراع إذا نظرنا إليه من وجهة نظر دينامية وجدناه يتضمن عدة قوى متنافرة وعدة قوى متجاذبة . ولا يمكن القول بأنه يتضمن عدة قوى متنافرة فحسب ، وإلا لتباعدت العناصر وانتهى الأمر ، ولما ظهر الصراع أصلا . ولكن وجود القوى المتجاذبة مع القوى المتنافرة فى نفس الوقت هو الذى يجعل الموقف موقف صراع (J.F. Brown 1936; K. Lewin 'a' 1935) . وعلى هذا الأساس نلاحظ أن براون J.F. Brown فى تصويره الطوبولوجى للمجتمع فى حالة الصراع بين طبقاته يصور لنا الحدود الفاصلة بين الطبقات وقد ازداد سمكها فى حين أن الحدود الكبرى المحيطة بها جميعاً (أى حدود الأمة أو المجتمع الكبير وهى تمثل القوى



المجتمع فى حالة صراع طبقاته — المجتمع فى حالة الثورة — المجتمع فى حالة الإضرابات العامة

هذه الأشكال تصور تنظيم المجال الاجتماعى فى مواقف صراع الطبقات والثورة والإضرابات العامة . (على أساس غير كمى) .

م = حدود المجتمع . — ب = طبقة البورجوازية .

ع = طبقة العمال . — ح = الجمهور غير المنتظم فى عضوية طبقية

واتجاه الأسهم يشير إلى اتجاه الصراع .

الجاذبة المؤلفة قد أصبحت دقيقة ، ولكنه لا يحذفها أبداً ، وحتى عندما يصور لنا المجتمع فى حالة الثورة الطبقية لا يستطيع أن يحذف الحدود الخارجية بل يبقى عليها أيضاً (J.F. Brown 1936, pp. 172-193) .

وقد شرح جاك لندساى J. Lindsay هذه الفكرة نفسها بقوله إن المجتمع وحدة دينامية قائمة على أساس معين ، وإن هذه الوحدة تستمر فعالة فى جميع مراحله التاريخية ، وما نسميه صراع الطبقات إن هو إلا توترات داخل هذه الوحدة تزداد شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مرحلة معينة يتحتم فيها قيام اتزانه وتكامله على أساس جديد. كذلك كان ماركس K. Marx يقول « العمال والبورجوازية تناقضان ، ومن حيث إنهما تناقضان فهما يكونان كلا متحداً » ذلك أنهما من نتاج عملية تاريخية واحدة . ومما يؤيد هذه الملاحظة أيضاً ويوضحها ما نشاهده من أن المجتمع إذا تهدده خطر خارجى كالاستعمار مثلا فإن صوت الخلافات الداخلية يخفت ، ويزداد الشعور بوحدة المجتمع وتجانسه أمام هذا الخطر ، مما يدل على أن روابط الوحدة كانت قائمة من قبل لكن تأثيرها كان خافتاً وسط ضجيج التناقضات . وقد أشار براون إلى المضمون الطوبولوجى لهذه الحقيقة بقوله : إن أصوات الصراع الطبقى تخفت عندما يزداد الشعور بالعضوية القومية. كما أن مكدوجل W. McDougall أدخلها فى حسابه عندما كان يحصى من بين الشروط التى من شأنها أن تزيد شدة التكامل الاجتماعى اشتباك المجتمع فى حرب مع مجتمع آخر .

ولزيادة هذه الفكرة إيضاحاً نضرب مثلا بالشخصية العصابية ، فهى تشبه المجتمع المشحون بالتناقضات وضروب الصراع المختلفة ، تسودها التوترات والمنازعات الداخلية ، لكن لهذه التوترات والمنازعات جميعاً دلالة هامة هى أنها دفاع عن

(١) national membership-character

(٢) *The Groul Mind* by W. McDougall (Through : *Psychol*. & *The Social Order*", by J.F. Brown; p. 73)

وحدة الشخصية وتكاملها ، ولذلك فإننا نجد المريض يحتفظ ببعض الاستبصار[١] مما يدل على أن الوحدة العميقة للشخصية لا تزال قائمة لم تصب بسوء ، ولا يفقد هذا الاستبصار تماما إلا فى الحالات الذهانية الحادة ، وعندئذ يكاد يختفى كل أثر للصراع الداخلى .

٢ — وثمة مظاهر أخرى للوحدة الاجتماعية ، نذكر من بينها «الطابع الاجتماعى للشخصية» فمن الأقوال الشائعة أن المصرى يغلب عليه الهدوء ، والدعة والميل إلى النكتة والاستقرار ، والفرنسى يمتاز بشحنته الانفعالية الكبيرة وما ينجم عنها من تعبيرات متضخمة سواء فى نبرات الكلام وفى الإشارات والأوضاع المصاحبة له والصينى مسالم (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 74) ، والألمانى متهور يعبد الدولة ويتحمس لها إلى درجة الجنون (J. Huxley 1943, p. 113) ، إذا تكلم أطلق صوته عالياً حتى وإن جرى حديثه فى جلسة خاصة ، على عكس الأمريكى الذى يتكلم بصوت منخفض نسبياً سواء أكان يوجه حديثه فى جمهور كبير أم كان فى نفر قليل (K. Lewin 'b' 1948) . ولا تصدق هذه الصفات فى حالة المجتمعات المتمدينة فحسب ، بل تصدق أيضاً فى حالة المجتمعات البدائية . وقد أجرت روث بندكت R. Benedict بعض البحوث فى هذا الصدد على أربعة مجتمعات بدائية هى : بعض قبائل الهنود الحمر المقيمين فى السهول ، وقبائل الزونى فى الساحل الجنوبى الغربى ، وقبائل الكواكيوتل فى الساحل الشمالى الغربى ، والدوبوان فى ميلانيزيا . فانتهت إلى أن طراز الشخصية السائد فى كل من هذه المجتمعات على التوالى هو : المهوس[٢] أو الديونيزى Dionysian ، والمعتدل أو الأبولونى Apollonian ، والشخصية التى يغلب عليها جنون العظمة[٣] ، والشخصية التى يغلب عليها الاتجاه الشبيه بالفصامى الهذائى[٤] (J. Gillin 1949; D. Katz & R. Shanck 1947, p. 520) . كذلك أجرى

---

(١) insight

(٢) manic

(٣) megalomanic

(٤) schizoid-paranoid

هالول A.I. Hallowell بحثا مماثلا على جماعتين من جماعات الهنود الحمر ، إحداهما مقيمة بالقرب من الساحل والأخرى بالداخل ، واستخدم في بحثه هذا اختبار رورشاخ (ا . رمزى ١٩٤٦) فانتهى إلى أن الطراز السائد في الجماعة الساحلية يغلب عليه الانبساط[١] وأن الطراز السائد في الجماعة الداخلية يغلب عليه الانطواء[٢] (A.I. Hallowell 1949) كذلك انتهت مارجريت ميد M. Mead إلى تحديد الخطوط الرئيسية للشخصية في مجتمع الماورى بنيوزيلندة بأنها مزيج من السمات الفردية والاجتماعية يغلب عليه الاتجاه التعاونى ، على عكس الشخصية فى مجتمع الأسكيمو (فى جرينلند) فهى ذات اتجاهات فردية إلى حد كبير ، وذات نظرة واقعية ملحوظة مع فقر شديد فى الخيال . (D. Katz & R. Shanck 1947, p. 519)

والذى يهمنا من هذه البحوث وأمثالها هو أن هذه الظاهرة ، ظاهرة الطابع الاجتماعى للشخصية تدل دلالة واضحة على أننا بصدد عملية اجتماعية واحدة فى أساسها ، تصنع من الأفراد — وهم شديدو المرونة لا سيما فى بواكير الطفولة (A.I. Hallowell 1949; H.H. Newman 1947; W. Dennis 1947) نماذج بينها بعض أوجه الشبه التى لا يمكن إغفالها ، والتى يمكن أن تفرقهم فى مجموعهم عن أبناء أى مجتمع آخر . ومعنى ذلك أن الحياة الاجتماعية وإن كانت موزعة بين عدة أجهزة أو مؤسسات إلا أن هذه الأجهزة من التماسك السيكولوجى بحيث تلتقى جميعاً فى مصب واحد ، مما يدل على أنها أجزاء فى مشروع واحد هو المجتمع الكبير . وهذا ما استنتجته روث بندكت ، فكان بمثابة أساس متين لإقامة بحوث « الطابع الاجتماعى للشخصية » (G. Gorer 1950) وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم قول علماء الاجتماع بأن عملية التربية عملية اجتماعية وليست عملية فردية يقوم بها المربى مستوحيا فلسفته الخاصة فى الحياة (ع . عزت ١٩٥١ ;K. Lewin 'b' 1942) ولما كان

---

(١) extraversion (٢) introversion

وجودهذا الطراز[1] دليلاعلى وحدة المجتمع فما لاشك فيهأن استقراره ووضوح معالمه يتأثران بما ينتاب هذه الوحدة من توترات وتمزقات (A. Davis 1943) كما أن مضمونه يتغير بتغير النظم الداخلية التى تستقر عليها الوحدة. (J.F. Brown 1936, p. 126; J. Huxy 1943 p. 113)

٣ — كذلك تعتبر ظاهرة « الرأى العام» مظهرا من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، ونتيجة من نتائجها (W. Bauer; A.N. Holcombe 1928; G. King 1928; J. Maisonneuve 1951) وربما كان من أكثر هذه المظاهر حساسية لما يظهر فى المجتمع من توترات وخلافات ؛ ففيه تنعكس هذه التوترات بسرعة واضحة . ولا أدل على ذلك من نتائج الانتخابات البلدية والبرلمانية ، إذ تظهر بداخل المجتمع عدة فئات ذات مصالح مختلفة وآمال وأهداف متعارضة ، ولكن هذه الاختلافات لا تصل إلى الدرجة التى تقضى فيها على الجذور العميقة للوحدة الاجتماعية ، وإلا لما ظلت الوحدة قائمة والاعتماد المتبادل سارياً فى حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والفكرية جميعاً . وقد أوضح بوير W. Bauer هذه الحقيقة فى حديثه عن العوامل التى تؤثر فى تشكيل الرأى العام وتوجيهه ، إذ ذكر من بين هذه العوامل :

١ — المستوى العام للمدنية أو الحضارة .

٢ — الأدوات الحضارية الشائعة الاستعمال للتعبير فى مرحلة معينة .

٣ — الخصائص القومية التى تمتاز بها الجماعة .

وبدهى أن آثار هذه العوامل تعم جميع الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد ، وبالتالى فهى تعمل على التوحيد والربط بينها فى مقابل العوامل التى تعمل على إثارة الفرقة والخلاف (R. Thouless 1939; A. Davis 1943) ،

---

(١) يعقد أيزنك H.J. Eysenck فصلا فى كتابه 1953 "Uses & Abuses of Psychology" (ص ٢٤٣ — ٢٦٠) يقرر فيه أن البحوث فى موضوع الطابع القومى للشخصية لم تقم بعد على أسس علمية متينة ، لكنه لا يرفض هذا المفهوم . ويشير إلى الطرق العلمية الدقيقة التى يمكن سلوكها نحو بحثه وإكسابه مضمونه .

ولذلك يلاحظ الباحث الاجتماعى المدقق أن هناك أحكاماً وآراء حول بعض شئون الحياة الشخصية والاجتماعية والكون والقدر تظل سائدة لدى الجميع رغم اختلافاتهم المهنية والطبقية . ويمكن القول بوجه عام بأن البناء الفكرى السائد لدى أعضاء المجتمع يتألف من مناطق محيطية سريعة التأثر بما ينتاب أنماط حياتهم من تغيرات ، ومناطق أخرى مركزية شديدة المقاومة للتغير ، فلا تصل إليها إلا آثار التغيرات العنيفة التى تعترى أساس اتزان الوحدة الاجتماعية كلها . وتعتبر الفنون الشعبية على اختلافها (وخاصة الألوان الأدبية منها) من أهم جوانب هذا البناء وأكثرها وضوحاً ، إذ تتضمن « أحكام القيم » التى تصدرها الأغلبية فى كثير مما يعرض لها ، وتكون بمثابة العُملة المعترف بها لدى هذه الأغلبية . وقد فطن كبار الفنانين إلى هذه الحقيقة فجعلوا هذه الآثار الفنية الشعبية هى المصدر الأول لإلهامهم ، وهكذا استلهم إسخيلوس وسوفوكليز قصص هوميروس ، واستلهم شكسبير الكثير من القصص الشعبى الشائع فى مجتمعه ، وكذلك جوته وسائر الفنانين الكبار ، فضمنوا لأعمالهم الذيوع والبقاء .

٤ — ويمكننا أن نضيف إلى الأمثلة الثلاثة السابقة أمثلة أخرى لعدة مظاهر تدل دلالة واضحة على قيام الوحدة الاجتماعية ، كوحدة اللغة ووحدة التقاليد والعادات . لكن هذه الأمثلة أصبحت من شدة الوضوح بحيث لا نرى ما يدعو إلى إسهاب القول فيها . ونكتفى بأن نضيف مثالا واحداً من حياة المجتمعات البدائية لما له من أهمية خاصة .

يلقى تومسون G. Thomson السؤال التالى : ماذا يحدث عندما يقتل المرء أحد أفراد عشيرته؟ ثم يجيب قائلا : يُلعن ويطرد خارج العشيرة ، وبذلك يصبح خليعاً فلا يعود عضوا فى المجتمع (G. Thomson 1950, p. 34). ويقول برستيانى J.G. Peristiany فى أثناء حديثه عن مجتمع الكبسيجيس إنه يكفى لإرغام الفرد على الخضوع لأحد أوامر القبيلة التهديد باللعنة الجماعية (J.G. Peristian 1939, p.5) والنقطة التى نريد أن نوضحها فى هذين المثالين هى شعور المجتمع

البدائى بحدوده بحيث تكون الدلالة الدينامية لطقوس اللعنة هى إخراج الملعون خارج هذه الحدود .

وهناك طقوس أخرى تجرى فى مناسبات مختلفة تبرز أيضاً هذا الشعور بالحدود، ولكن بطريقة مضادة ؛ ومن أهم هذه الطقوس تلقين الأسرار[١] وفى ذلك يقول برستيانى إن ما يجعل لتلقين الأسرار هذه الأهمية الكبرى لدى الكبسجيس هو الختان والطقوس السرية التى يتلقاها الشباب سويا ، مما يجعلهم يشعرون بأنهم يشاركون فى خبرات ومعارف بأشياء لا يدركها الغرباء ، وبذلك ينهض لديهم الشعور بالوحدة والانسجام القبلى (J.G. Peristiany 1939, p. 27) .

ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة « أكل لحوم البشر » أو النمنمية[٢] لدى بعض الشعوب البدائية تمارس فى بعض الحالات كتعبير عن الوحدة والتقارب الاجتماعيين (W.G. Sumner 1930) . ويذكر لوسيان ليفى بريل L.L. Bruhl أن الشعور بهذه الوحدة وهذا التقارب يكون بارزا بشكل ملحوظ لدى بعض القبائل، قبائل البانتو مثلا، إذ تعتبر أمواتها أعضاء فيها ، وبهذا الاعتبار تجرى عليهم طقوس الموت ، وعلى العكس من ذلك لا تجرى هذه الطقوس على جثة الميت الغريب (L.L. Bruhl 1930). ويبدو أن هذا التعبير عن الوحدة كان قائماً فى اليونان القديمة . ولذلك تقرر عدم إجراء طقوس الموتى على بولينيكيز ، أخى أنتيجونا ، لاتهامه بالخيانة العظمى (سوفوكليز) . كذلك جرت العادة فى أثينا قديماً بتقديم الفتيان إذا ما بلغوا سنا معينة تقديما رسمياً إلى العشيرة التى ينتمى إليها آباؤهم ، وتعقد لذلك وليمة خاصة تعرف باسم أباتوريا Apatouria أى وليمة الرجال أبناء العشيرة الواحدة . وكانت تجرى فى أثينا أيضاً طقوس أخرى لها تلك الدلالة نفسها، فعندما كان أحد الأشخاص يعود إلى مسقط رأسه بعد أن يشاع عنه أنه مات ويبكيه أهله ، كانت العادة تقضى بأن يعاد إدخاله

---

(١) initiation (٢) cannibalism

فى مجتمعه بوساطة حفل تقليدى يتألف أساساً من محاكاة للميلاد ، وكان هذا الشخص يوصف بأنه deuteropotmos أى الشخص الذى تلقى نصيبه فى الحياة للمرة الثانية . (G. Thomson 1950, PP. 28, 50) .

وفى هذه الأمثلة عن الطقوس الخاصة « بعبور الحدود » نستطيع أن نرى أثراً واضحاً من آثار الوحدة الاجتماعية . ولا شك أن الظروف المحيطة بالمجتمعات البدائية هى التى تتيح لأعضائها الشعور بالوحدة على هذا النحو من البروز ، ومن هذه الظروف حجمها الصغير نسبياً ، ونمط حياتها ، ودرجة ارتقائها . إلا أن التطور الاجتماعى لايعنى بطبيعته فقدان الوحدة ولا تخلخلها ، لكنه يعنى ازدياد تعقدها نتيجة لازدياد التغاير بداخلها . وهذا التعقد هو ما يضفى الغموض على الوحدة (F.C. Bartlett 1923) .

على أننا سواء انتقينا أمثلتنا من المجتمع البدائى أم من المجتمع الحديث أم من المجتمع فى أية مرحلة من مراحل الارتقاء المتوسطة فسنجد الأدلة المتعددة على قيام الوحدة وظهور آثارها ، لكنناسنجد كذلك كثيراً من الأدلة على قيام الاختلافات داخل هذه الوحدة ، وسنجد الأدلة على أن هذه الاختلافات تزداد أحياناً حتى لتبدو خطراً يتهدد التكامل الأساسى ، وذلك فى فترات الانتقال الكبرى . ويبدو بوجه عام أن المجتمعات المتمدينة أكثر تعرضاً لأزمات التكامل من المجتمعات البدائية ، وكأن هناك تناقضاً حاداً فى داخل هذا التكامل بين عوامل التضامن والتعاون من ناحية وبين عوامل الارتقاء والتغاير من ناحية أخرى . وهذا بالضبط هو التشخيص الذى وضعه برجسون للأزمة الراهنة فى مجتمعات الحضارة الغربية ، ووضع الخطوط الرئيسية لحلها بإعادة تنظيم تلك المجتمعات على أساس نمط الحياة البدائية . (م . سويف ١٩٤٩ ; H. Bergson 1932) .

والسؤال الآن هو : هل يوجد فعلا هذا التناقض بين عوامل التعاون وعوامل الارتقاء ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نبين كيف تتم عملية التكامل

الاجتماعي ، وكيف تتم في أنماط بسيطة أحياناً وفي أنماط أشد تعقداً أحياناً أخرى ، وما هي العوائق التي تصادفها أحياناً وكيف يمكن التغلب عليها .

والبحث الذي نحن بصدده إنما هو محاولة للإجابة على هذه الأسئلة — في حدود تخصصنا . وسيتضح في النهاية أن التناقض الذي توهمه برجسون لا وجود له إلا بشكل مؤقت يمكن التغلب عليه ، مع الاحتفاظ بالثمرات الكبرى للارتقاء ، وهي : التعاون والتغاير ، أو التنظيم والحرية .

الفصل الأول

التكامل الاجتماعى فى التجمعات تحت البشرية

ليست الحياة الاجتماعية وقفاً على الإنسان (C.J. Herrick 1949) ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن حياة الإنسان الاجتماعية بما لها من مطاوعة شديدة وتعقد بالغ وقف عليه . وهذا بالضبط ما يقرره آلى W.C. Allee ويركيز R. Yerkes، ولذلك يفضلان استخدام كلمة التجمعات[1] الحيوانية، مفردين مفهوم المجتمع للإشارة إلى الجماعة البشرية . والنتيجة التى نرتبها على ذلك أن التكامل الاجتماعى ظاهرة كبقية ظواهر الحياة ، تتطور بتطور الأنوع الحية ، وتظهر بمظاهر مختلفة فى المستويات المختلفة من هذا التطور . ومن بين مظاهرها هذا المظهر الإنسانى الذى يختلف اختلافاً كيفياً عن جميع مظاهرها فى المستويات التطورية السابقة .

من هنا يتحتم علينا ونحن نقوم بهذا البحث فى « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » أن نقدم لبحثنا بدراسة فيلوجينية لأسس[2] التكامل الاجتماعى (شروطه ودينامياته) فى الجماعات الحيوانية ، وإلا كان هذا البحث مبتوراً، وإلا كنا كعالم الحيوان الذى يهتم بدراسة الحيوانات الراقية دون الحيوانات الدنيا ، أو كعالم النبات الذى يهتم بدراسة النباتات الزهرية دون أن يلقى بالا إلى الطحالب والفطريات . والنتيجة الأخيرة أننا لن نفهم الدلالة البيولوجية للحياة الاجتماعية ، وبالتالى فسينتهى أمرنا إلى أن نقضى على كل صلة بين السلوك الاجتماعى والحياة بمعناها البيولوجى .

---

(١) associations

(٢) phylogenetic

وقد قسم مرسيل برنان M. Prenant المستويات التطورية الكبرى للحياة الاجتماعية تحت البشرية إلى أربعة مستويات ، هى :

١ — مستوى التجمعات التى تحدث بفعل مؤثر خارجى ، وتزول بزواله . مثال ذلك ما نشهده من تجمع الفراشات حول المصباح المضىء . ومن أهم مميزات هذه التجمعات انخفاض درجة استقرارها ، وعدم تغير سلوك أفرادها فى داخلها عما كان عليه فى خارجها .

٢ — مستوى التجمعات التى تتآزر فيها حركات الأفراد دون أن يشتركوا فى القيام بعمل واحد . ويلاحظ هذا فى أرجال الجراد وفى كثير من الطيور المهاجرة كالخطاف [١] والسمان [٢]. وفى هذه الجماعات يبدو تواقت [٣] الحركات بشكل ملحوظ . إلا أن هذا التواقت يقوم فى مستوى يختلف تماماً عن المستوى الذى يقوم فيه تواقت حركات العمال فى أحد المصانع ، فليس بين التواقتين سوى تشابه شكلى فحسب .

٣ — مستوى التجمعات التى يشترك أفرادها معاً فى القيام ببعض الأعمال الجمعية ، من هذا القبيل جماعات الخارود [٤]، فهى تبنى أكواخها بالقرب من مجارى المياه . وتستعين بالعمل الجمعى فى إقامة خزان للمياه تحت قريتها (التى تتألف من مجموعة أكواخ متجاورة) يرفع منسوب المياه إلى مستوى معين . ومن هذا القبيل أيضاً جماعات التنوط [٥] ، فهذه طيور تنسج أعشاشها متلاصقة ثم تقيم فوقها سقفاً مشتركاً . كذلك تدخل فى هذه الفئة جماعات النمل والنحل .

٤ — وأخيراً هناك تجمعات الثدييات ، وتظهر فيها ظاهرة جديدة لا تتوفر فى الجماعات سالفة الذكر ، ألا وهى أن لها حكاماً فعليين يمارسون

---

(١) swallow (٢) quail

(٣) syncronisation (٤) beavers حيوان قارض يرما فى (شرف)

(٥) weaver-birds

سلطة فعلية على سائر أفراد الجماعة ، وهذه بوادر التنظيم الداخلى .

والفكرتان الرئيسيتان اللتان يجعلهما برنان فى تقسيمه هذا مقياساً للارتقاء هما الاستقرار والتنظيم[١] الداخلى . ففى أدنى المراتب التجمعات العابرة ، وليس لهذه التجمعات من التكامل الاجتماعى سوى المظهر . وفى أعلى المراتب التجمعات المستقرة ذات التنظيم الداخلى ، كجماعات النسانيس النابحة والبابون والشمبانزية . وهذه الجماعات على درجة من التكامل الاجتماعى لا يمكن إنكارها . فالتجمع فيها قائم بغض النظر عن كثير من العوامل الفيزيقية فى بيئتها ، وبذور التغاير واضحة فى هذا التنظيم الداخلى للعلاقات بين أفرادها . ويتفق آلى W.C. Allee مع برنان فى اتخاذ هاتين الفكرتين أساساً للتقسيم التطورى للحياة الاجتماعية (W.C. Allee 1935) .

هذه النظرة التطورية إلى الموضوع هى السبيل الأوحد إلى تحاشى التورط فى أحد تطرفين كلاهما لا تبرره الوقائع . فهناك من ناحية بعض الباحثين الذين يرون فى بعض التجمعات تحت البشرية صورة دقيقة للمجتمع الإنسانى (A. Manhattan 1951) ، ومن ناحية أخرى باحثون يرون فى الحياة الاجتماعية ميزة إنسانية خالصة . وكلا النظرتين لا تبررها الوقائع . فالجماعات تحت البشرية فى أرقى مستوياتها — تجمعات النسانيس النابحة والبابون والشمبانزية — لا تتوفر فيها بحال من الأحوال هذه الدرجة من التغاير والتعقد التى نشهدها فى الجماعات البشرية حتى البدائية منها (T.C. Schneirla 1941) ويكفى أن نذكر هذا الفارق الهام بين جميع التجمعات تحت البشرية وبين المجتمع البشرى ، وهو أن نمط[٢] التنظيم الاجتماعى فى أى تجمع تحت بشرى نمط متحجر إلى حد بعيد ، لا يكاد يتطور دون أن يصحبه تطور بيولوجى ينتاب أفراد التجمع ، أو تغير ينتاب البيئة الفيزيقية التى يحيا فيها التجمع ، فهو إذن مرتبط بالخصائص البيولوجية للفصيلة أو النوع[٣] ، أو مرتبط بخصائص البيئة الطبيعية المحيطة .

---

(١) organization (٢) pattern (٣) species

وهكذا لا نجد فى الجماعات المختلفة التابعة لنوع واحد والتى تحيا فى بيئة طبيعية واحدة عدة أنماط للتنظيم الاجتماعى بل نجد نمطاً واحداً. وعلى الضد من ذلك ما نشهده فى المجتمع البشرى ، فنمطه قد تغير وتطور فى أنظمة متعددة منذ المجتمع البدائى حتى المجتمع الحديث ، ولم يحدث تطور يوازيه فى الخصائص البيولوجية للنوع ، كما أن السلالات [1] البشرية المختلفة تحيا فى أنظمة متشابهة فى كثير من الأحيان ، أضف إلى ذلك أن كثيراً من المجتمعات البشرية قد تطورت فى حياتها الاجتماعية مارة بكثير من النظم أو الأنماط دون أن يكون ذلك مصحوباً بأى تغير يذكر فى بيئتها الطبيعية . وبعبارة أخرى ليس ثمة ارتباط بين الخصائص البيولوجية للسلالة وبين نمط الحياة الاجتماعية القائم ، أو بينه وبين خصائص البيئة الطبيعية (وفيما يتعلق بهذه الحقيقة الأخيرة يلاحظ أنها تزداد وضوحاً كلما تقدم المجتمع وازداد ارتقاء) .

هذه الحقيقة ، لا سيما شطرها الأول ، على جانب كبير من الأهمية ، وسنرى أنها جوهر إنسانية الإنسان ، فهى ترتبط ارتباط جوهرياً بمرتبته العليا فى سلم التطور من حيث إنها عنوان قدرته الكبيرة على التكيف مع بيئات متباينة تبايناً شاسعا ، وتدل دلالة واضحة على ما تمتاز به الطبيعة البشرية من مطاوعة شديدة لا تتوفر فى أى مستوى من مستويات التطور تحت البشرية . وتلك حقيقة تتفق تماماً مع الحقيقة السيكولوجية التى يجمع عليها علماء النفس ، والتى تقرر أن نطاق الاكتساب ضئيل جداً فى سلوك الحيوان إذا ما قورن بنطاقه فى سلوك الإنسان (ى . مراد ١٩٤٣ ص ١١٣) . والفرق بينهما من الضخامة بحيث يحتم وضع الإنسان فى مستوى تطورى فريد . وقد عبر أمرسون A.E. Emerson عن ذلك تعبيراً طريفاً بقوله : لما كان الأفراد فى الجماعة البشرية يستطيعون أن يعتدوا على النظم الاجتماعية القائمة فقد وجدت الجماعة البشرية

---

(١) races ويمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى كتاب :

(Klineberg, O. *Race* & *Psychology* Paris, Unesco, 1951.

نفسها فى حاجة إلى إقامة عدة أجهزة تشريعية وتنفيذية وقضائية لضبط السلوك الاجتماعى بداخلها ، أما الحشرات الاجتماعية فليس لديها هذه الأجهزة لسبب بسيط هو أنها تكاد تكون اجتماعية بالفطرة . (O.E. Plath 1935) .

على أن التطرف المضاد الذى يمضى إلى حد القول بعدم وجود أية حياة اجتماعية تحت بشرية تطرف تدحضه عدة وقائع كذلك . فتجمّع عدد من الأفراد وحياتهم معاً لفترة قصيرة أو طويلة ظاهرة شائعة فى السلسلة الحيوانية لدى كثير من الحشرات والأسماك والطيور والثدييات (F. Alverdes 1935 ; S. Freud 1940; C.J. Herrick 1949; M.F.A. Montagu 1947) ولا نستطيع إغفال هذه الظاهرة لاسيما وأنها ليست غالباً نتيجة لمؤثرات فيزيقية من بيئة الحيوان ، ومن المحقق أن إغفالنا إياها سوف يجعلنا عاجزين عن إدراك الفرق بين سلوك الحيوانات الاجتماعية وسلوك الحيوانات الانعزالية ، كما أنه سيجعلنا عاجزين أيضاً عن إدراك خصائص سلوك الحيوانات التى تتجمع فى بعض الفصول وتتفرق فى بعضها الآخر ، والفرق بين سلوكها فى فصول التجمع وسلوكها فى فصول التفرق . وبوجه عام ستتورط عندئذ فى مثل ما تورط فيه بعض دارسى السلوك الإنسانى الذين اعتبروا الفرد وحدة سلوكية قائمة بذاتها ، وأغفلوا علاقاته بجوانب البيئة الخارجية المختلفة ، وكأنه نظام من الطاقة مغلق . والواقع أن هناك جوانب من السلوك الحيوانى لا يمكن تفسيرها إلا من خلال سلوك الحيوانات الأخرى التى تقوم بمثابة جزء من بيئته (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

فمن الحقائق الهامة أن هذه الحيوانات فى تجمعها لا تكون بمثابة كائنات متجاورة فحسب ، بل إنها لتتفاعل فيما بينها أيضاً ، ويتجلى أثر ذلك فيما يطرأ على سلوك الأفراد من تغيرات . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ظاهرة «تدرج السيطرة» الملحوظة لدى الطيور والثدييات ؛ فمجموعة الطيور أو الثدييات التى تعيش معاً تنتظم علاقات الأفراد فيها فى صورة نظام للسيطرة يتدرج من أشد الأفراد سيطرة إلى أكثرها خضوعاً ، ويكون لهذا النظام درجة

واضحة من الاستقرار ، ويبدو أثره أكثر ما يبدو فى أوقات تناول الطعام ، فإن أكثر الأفراد سيطرة ينال أكبر قدر من الطعام وأكثرها خضوعاً ينال أقل نصيب . على أن ترتيب الحيوان فى سلم السيطرة يؤثر فى جميع جوانب سلوكه الأخرى ، وقد أجرى جيمس W.T. James دراسات تجريبية فى هذه الظاهرة عند الجراء ، فانتهى إلى أن تأثير السيطرة قد يصل إلى درجة أن الجرو الخاضع يتوقف لديه سيل اللعاب بمجرد ظهور الجرو المسيطر فى مجاله ، كما أنه فى العملية الجنسية تعطى المكانة الممتازة للجرو المسيطر (W.T. James 1949) كذلك أجرى واردن وجولت C.J. Warden & W. Galt دراسات فى هذه الظاهرة نفسها لدى النسانيس ، فلاحظا أن مجرد ظهور الحيوان المسيطر على مرأى من الخاضع مع قيام الحواجز المادية التى من شأنها أن تمنع وصول الأول إلى الثانى من شأنه أن يجعل الأخير يستمر فى سلوكه الخضوعى فيخشى الاقتراب من الطعام ويمتنع عن التقاطه ، كما لاحظا أن السبق فى الفرار من قفص التجربة يكون من نصيب الحيوان المسيطر أولا بمجرد إتاحة الفرصة لذلك . وأجرى شلدرب إيبه Schjelderup Ebbe وآلى W.C. Allee وبيمان Beeman ونوليس V. Nowlis دراسات متعددة على الدجاج والجرذان البيضاء والشمبانزية (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) لا تدع مجالا للشك فى هذه الظاهرة وتكشف عن كثير من جوانبها .

ومن الأمثلة الواضحة كذلك على أن التجمعات الحيوانية ليست مجرد مجاميع من وحدات متجاورة منعزلة ، بل هى وحدة دينامية تتخللها التفاعلات بين مناطقها غير المتجانسة ، ظاهرة « التنشيط أو التيسير الاجتماعى »[١] ومؤداها أن المظاهر السلوكية المختلفة لدى الكائن تزداد شدتها عندما يكون وسط جماعة تمارس هذا السلوك. وقد لاحظ روس S. Ross وروس J.G. Ross فى دراستهما التجريبية على تناول الطعام لدى الجراء أن وجود الجرو الشبعان فى حضرة جراء أخرى جوعانة مقبلة على الأكل بنشاط من شأنه أن يدفعه إلى

(١) social facilitation

الاستزادة من الطعام رغم شبعه ، ووجدا أن مقدار الزيادة التى كان يتناولها الجرو الشبعان حينئذ كان يتراوح بين ٣٠ ٪ و ٢٠٠ ٪ من مقدار الوجبة التى أشبعته ، كذلك لاحظا أن الجرو الذى يأكل مع جماعة من الجراء يتناول كمية من الطعام أكثر من تلك التى يتناولها وهو منعزل ، وتتراوح الزيادة بين ٣٪ و ٨٦٪ (S. Ross & J.G. Ross 'b' 1949) . كذلك لاحظ باير E. Bayer وجود هذه الظاهرة لدى الدجاج ، كما لاحظ هارلو ويودين H.F. Harlow & H.C. Yudin وجودها عند بعض أنواع الجرذان (S. Ross & J.G. Ross 'a' 1949) والنسانيس ، ولا جدال فى أن هذه الظاهرة تنطوى على بوادر عاملى المحاكاة والمنافسة . وقد ذكر آلى بضع تجارب أجريت للتحقق من وجود هذه الظاهرة فيما يتعلق بسرعة التعلم لدى أفراد السمك ، تبين منها أن ازدياد كثافة التجمع السمكى — إلى حد ما — يصحبه ازدياد سرعة التعلم لدى أفراده (W.C. Allee 1935) ، كما قرر ألفردس F. Alverdes بضع ملاحظات على سلوك الخيول والخنازير المستأنسة والذئاب تثبت ازدياد شدة أفعالها العادية داخل الجماعة (F. Alverdes 1935) .

وثمة مثال ثالث يدل على مدى أهمية عامل « علاقة الفرد بالآخرين » فى تفسير الكثير من جوانب السلوك الحيوانى ، ونعنى به ظاهرة « التمرين » التى بمقتضاها يكتسب الوليد بعض خصائص سلوك الأم ، وأحياناً الأب كذلك . ومعنى ذلك أن هناك نوعاً من نقل التراث الاجتماعى بين الأجيال المتعاقبة لدى الحيوان (R.T. Lapierc & P.R. Farnsworth 1942, p. 43) وتلك هى البذور الأولى التى تنتج فى المستوى الإنسانى ظاهرة الحضارة التى لا وجود لها فى المستوى الحيوانى . فقد حدثنا سكوت W.E.D, Scott منذ أواخر القرن الماضى بأن تغريد صغار الصفاريات التى تنشأ بين الكبار يختلف عن تغريد تلك التى تنشأ نشأة منعزلة (G. Murphy & others 1937 P.20) كذلك يحدثنا شنيرلا T.C. Schneirla عن تغيرات هامة تنتاب سلوك صغار النمل خلال الأيام القليلة التالية للفقس ، وهى تغيرات يتأخر ظهورها إذا ما بدأت الصغار حياتها فى جماعات لا تضم فعلة مدربين ، ويقول — تعليقاً على ذلك — إن هذه الظاهرة وغيرها تنطوى على تعلم تتسع دائرته إلى جانب العوامل

الفطرية التى لا شك فى وجودها. وتدل بحوث فون فريش K. von Frisch على وجود الاكتساب الاجتماعى لدى النحل أيضاً (T.C. Schneirla 1941) ويرى بلاث O.E. Plath أن ظاهرة العلاقة بين الأم والصغار لدى الحشرات تنتظم فى مستويات ارتقائية تبدأ بمستوى الأنثى التى تضع بيضها دون أن تلوى إليه بأية عناية، وتنتهى بمستوى الأنثى التى تفارق الصغار والتى تساهم بنصيب واضح فى تشكيل سلوكهم (O.E. Plath 1935). وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح فى حالة الثدييات، وهذا ماتبينه تجربة كو Z.Y. Kuo للكشف عن حقيقة السلوك العدوانى الذى تبديه القطط نحو الجرذان، وقد انتهى من هذه التجربة إلى أن هذا السلوك مكتسب تكتسبه صغار القطط من كبارها، حتى إن الصغار التى نشأها تنشئة منعزلة عن الكبار وفى صحبة دائمة مع الجرذان منذ الصغر لم تبد منها أية بادرة من بوادر السلوك العدوانى نحو الجرذان عندما شبت (Z. Y. Kuo 1938). وفى الثدييات العليا كالشمبانزية تبدو هذه الظاهرة بأوضح مظاهرها وبصورة لا يمكن إغفالها؛ فالوليد الشمبانزى يكون عند ولادته عاجزاً إلى حد كبير بحيث إذا ترك وشأنه فإنه يهلك، وتظل مدة اعتماده على أمه وتعلقه بها ورعايتها له حوالى ثلاث سنوات، يلقى فى أثنائها التدريب على المشى والتسلق ابتداء من الفترة التى تتراوح ما بين الشهر الثالث والشهر الخامس من عمره. وتقاوم الأم فى البدء المحاولات الأولى من جانب الصغير للحركة المستقلة، ثم لا تلبث أن توجهها وتيسرها بطرق أمكن تسجيلها بالتصوير السينما توجرافى، هذا إلى أنها تقدم إليه الغذاء والحماية وتعدله فراش نومه من الأغصان وورق الشجر. ويقول يركيز R.M. Yerkes فى هذا الصدد: يجب ألا ننفر هنا من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب لمجرد أننا فى مستوى دون المستوى الإنسانى، بل يجب أن نستعمل هذه الكلمات، إذ أن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزى تقصد فعلا إلى تشجيع وليدها ومساعدته على الاستقلال الحركى، بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم بعضاً من الوقت أثناء

السنة الأولى من العمر . (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

هذه الأمثلة الثلاثة لظواهر السيطرة والتيسير الاجتماعي واكتساب بعض عادات الآخرين تدل دلالة واضحة على أن التكامل الاجتماعي ليس وليد المستوى الإنساني وحده ، لكن جذوره تمتد إلى أعمق من هذا المستوى بكثير ، بحيث يتحتم علينا أن ننظر إليه كوظيفة بيولوجية ترتبط في ظهورها وتطورها ببلوغ الحياة مستويات تطورية معينة . ولم يغر بعض الباحثين بإغفال هذه الحقيقة الهامة إلا استمرار النظر إلى السلوك الاجتماعي الإنساني والقياس عليه . ونظراً لما ينطوي عليه هذا السلوك من تعقد هائل ومطاوعة تفوق كثيراً مطاوعة السلوك الحيواني ، بدا هذا الأخير وكأنه نتيجة مباشرة لحوافز فطرية لا يتطرق إليها التعديل نتيجة لسلوك الآخرين . هذا بالإضافة إلى بعض الأسباب المنهجية كالاقتصار على الملاحظة دون التجريب . لكن هذه النظرة لا يبررها إلا اتساع المسافة بين السلوكين والإصرار على النظر إلى السلوك الحيواني عبرها . غير أن الاقتراب من مجالات هذا السلوك والتأمل في دقائقه من شأنه أن يكشف عن درجة من « التفاعل الاجتماعي » في مستويات أدنى من مستوى الحياة الإنسانية ، مما يضيف دليلا جديداً على أن الفرق بين سلوك الحيوان وسلوك الإنسان فرق في مستوى التطور لا فرق في الطبيعة .

على أن هذا القول لا يعني بأية حال أن المسافة ضئيلة ، وأنها يمكن عبورها بعمليات تربوية معينة . فمن الحقائق الهامة أن بعض ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية لا وجود لها في حياة التجمعات الحيوانية حتى في أرقى مستوياتها . مثال ذلك ظاهرة التعاون [١] بين الراشدين وظاهرة اللغة . وقد حاول واردن وجولت J.Warden & W. Galt تعليم ثلاثة أزواج من النسانيس التعاون فيما بينها على أساس أن يتعاون الفردان في كل زوج على جذب صندوق ثقيل توجد عليه كمية من الطعام ، فلم يفلحا (C.J. Warden & W. Galt 1943) . ولا تعتبر تجارب

---

(١) cooperation

كروفورد M.P.Crawford على الشمبانزيتين بمبا وبولا أكثر توفيقاً من ذلك، إذ أن سلوك الاثنتين نحو بعضهما البعض كان متحجراً بشكل واضح. فعندما كان الطعام يوضع فى القسم المخصص لبولا من القفص كانت بمبا تحاول دائماً أن تخطفه بالقوة، فتنفذ يدها من السياج الفاصل وتحاول اختطافه من يد بولا أو من فمها. وعندما كان يوضع فى القسم الخاص ببمبا كانت بولا تتوسل دائماً فتمد ذراعها وتبسط يدها على الطريقة الإنسانية (M.P. Crawford 1941) ولما كان السلوك التعاونى ينطوى أولا وقبل كل شىء على درجة واضحة من المرونة تتجلى فى قدرة الفرد على تفهم سلوك الغير (M. Parten 1943) وفى قدرته على تغيير سلوكه تبعاً لمواقف الآخرين (R. Benedict 1951) وفى استعداده للعمل على التوافق مع الغير (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942 p. 293) فإننا لا نستطيع أن نقر بوجود سلوك تعاونى بين بمبا وبولا، ولا يكفى ظهور سلوك « الإهابة والتوسل » عند بولا لكى نقرر أنها كانت تسلك سلوكاً تعاونياً، ويكفى أن نقارن بينه وبين سلوكنا عندما نطلب إلى أحد زملائنا خدمة معينة ونلقى منه الرفض، فإننا عندئذ لا نظل نطلب بنفس الطريقة بل نتحول إلى أساليب أخرى كاللوم أو الإغراء أو غيرهما. وربما كان من أطرف الدراسات فى هذا الموضوع الدراسة التجريبية التى قام بها كيلوج L.A. Kellog وكيلوج W.N. Kellog ويسّرا فيها البيئة الإنسانية المتمدينة للشمبانزية الصغيرة جوا Gua منذ بلغت الشهر السابع من عمرها، وقدما لها كل ما كانا يقدمان إلى طفلهما من ضروب المعاملة الإنسانية. لكنهما بعد أكثر من سنة لم يفلحا فى إكسابها كثيراً من جوانب السلوك الاجتماعى فى صورته الإنسانية وأهمها اللغة (W.N. Kellog & L.A. Kellog. 1936)

---

(١) Flexibility

(٢) يروى هايز وهايز Hayes & Hayes وهما يعملان بمعامل يركيز Yerkes للبحوث البيولوجية الخاصة بالثدييات العليا:

أنهما قاما باحتضان شمبانزية صغيرة بعد ميلادها ببضعة أيام، وذلك فى منزلهما. ولم يكن مع الشمبانزية فيكى « Viki » أى طفل بشرى لمدة ثلاثة أعوام. (بعكس الحال فى تجربة كيلوج (W.N. Kellog). ومن أهم الملاحظات التى يقررها الباحثان:

كذلك لا يعنى هذا القول إمكان فهم التكامل الاجتماعى فى المستوى الإنسانى وتفسره فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للتكامل الاجتماعى فى المستويات تحت البشرية ، ولا فهم هذا الأخير فى حدود العمليات والمفاهيم المفسرة للأول . وهذا بالضبط ما نعنيه عندما نقول إن هذه الظاهرة تختلف اختلافاً كيفياً فى المستوى الإنسانى عنها فى المستويات السابقة عليه . وفى ذلك يقول نوفيكوف A.B.Novikoff : لكل مستوى من مستويات التنظيم خصائص بنائية وسلوكية فريدة ، تعتمد على خصائص العناصر التى تؤلفها ، لكنها لا تظهر إلا عندما تأتلف هذه العناصر فى النظام الجديد . والقوانين التى تصف الخصائص الفريدة لكل مستوى قوانين مختلفة اختلافاً كيفياً فيما بينها ويتطلب اكتشافها استخدام مناهج فى البحث والتحليل تلائم كل مستوى على حدة (C.J. Herrick 1949) هذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية بحيث تجب مراعاتها فى تفسيرنا للظواهر الاجتماعية من أعقدها إلى أقلها تعقيداً. فتطور المجتمع البشرى وأساليب الإنتاج وتقسيم العمل وصراع الطبقات واللغة والتعاطف والصداقة جميعاً لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى العمليات الداخلة فى بناء العش أو فى ظاهرة السيطرة أو التنبيهات اللمسية المتبادلة ، بل لا بد من صياغة القوانين الاجتماعية أو السيكولوجية الاجتماعية الخاصة بها ، وابتكار المفاهيم الملائمة

أن الشمبانزية لم تكشف عن شىء من السلوك اللغوى الطبيعى أو بوادره الأولى كما تبدو عند الطفل البشرى . ويقرران أنها لم تمارس « المناغاة babbling » إلا إلى حد أقل بكثير مما يفعل الأطفال ، وحتى هذه المناغاة الضئيلة جداً اختفت تماماً عندما بلغت فيكى الشهر الخامس من عمرها . وهما يقرران أنهما نجحا فى تعليمها أن تقول كلمات ثلاثة : « ماما mama » و« بابا papa » و« cup » . ولم تستخدم فيكى هذه الكلمات استخداماً صحيحاً فى البداية . ولكن عندما طالباها بذلك تعلمت أن تخاطب المجرب قائلة « ماما » أو « بابا » ، وأن تقول « cup » عندما تريد أن تشرب شيئاً. إلا أنها ظلت تخلط بين الكلمات من حين لآخر ، وخاصة عندما كانا يدفعانها إلى الكلام أو عندما تريد شيئاً ما بشدة . ويرى الباحثان أن عيب الكلام الماثل عند فيكى يشبه ما نراه لدى الآدميين الذين يعانون من مرض الأفازيا (الحبسة) نتيجة لإصابة فى الدماغ ، أكثر مما يشبه ذلك النوع من عيوب الكلام الماثل لدى ضعاف العقول . (D. Katz 1953, P. 40)

لها. وسنجد أن هذه المفاهيم اجتماعية وليست بيولوجية. ولا يختلف هذا الموقف عن موقف علماء البيولوجيا الذين يستحدثون المفاهيم الملائمة للظواهر البيولوجية مع التسليم بأن التحليل العميق لهذه الظواهر من شأنه أن يكشف عن اعتماد هذه الظواهر على عمليات كيميائية وفيزيقية. كذلك يضطر علماء النفس إلى صياغة المفاهيم الملائمة للظواهر السيكولوجية مع التسليم بأن هذه الظواهر فى تحليلها العميق تقوم على عمليات بيولوجية. على أن معرفتنا بدقائق العمليات القائمة فيما بين ظواهر المادة غير الحية والمادة الحية، والقائمة فيما بين العمليات البيولوجية والعمليات السيكولوجية، والقائمة كذلك فيما بين التكامل الاجتماعى تحت البشرى والتكامل الاجتماعى البشرى لا تزال مليئة بالثغرات. وهذا أحد الأسباب الهامة فى وجوب تخصيص مفاهيم مختلفة لتفسير ظواهر هذه المستويات المختلفة. وإلى أن يتقدم البحث حتى تُملأ هذه الثغرات يجب الاحتفاظ بهذا التمييز والحرص على إبرازه، وإلا كان علمنا مبسطاً تبسيطاً مخلا. وتدل عدة دلائل على أن التقدم العلمى صائر إلى هذا، فالكيمياء العضوية، والطب السيكوسوماتى حلقتان للاتصال، الأولى بين دراسة ظواهر المادة غير الحية ودراسة ظواهر المادة الحية، والثانية بين دراسة العمليات البيولوجية ودراسة العمليات السيكولوجية. ومن خلال الدراسات التطورية الحديثة ينتظر ظهور العلم الذى يمكنه أن يقوم بمهمة حلقة الاتصال بين دراسة التجمعات الحيوانية ودراسة الجماعات البشرية.

الفصل الثانى

نماذج للتجمعات تحت البشرية

النمل – الطيور – القردة العليا

أهم هذه التجمعات وأشدها بروزاً من حيث درجة الاستقرار والتنظيم تجمعات بعض الحشرات والثدييات العليا .

١ – استرعت تجمعات النمل أكثر من غيرها اهتمام المشاهدين منذ أزمنة بعيدة ، وذلك فيما يبدو لتوفر هذين العنصرين – عنصرى الاستقرار والتنظيم – بدرجة كبيرة فيها . وكانت النتيجة أن رأى البعض فيها نماذج دقيقة للجماعة البشرية على نطاق صغير ، ولكن بصورة أشد إحكاماً بحيث يجب اعتبارها مثلا يحتذى (H. Bergson 1932; A. Manhattan 1951) .

إلا أن الدراسات المقارنة الحديثة التى تقوم على دعامة قوية من المشاهدة الدقيقة بل والمحاولات التجريبية أحياناً (O.E. Plath 1935) تدل دلالة واضحة على أن هذا التصور ينطوى على خطأ أساسى ، فالتجمع الحشرى يقوم فى مستوى تكيفى أدنى بكثير من المستوى التكيفى الذى تقوم فيه الجماعة البشرية ، من حيث إن الارتقاء فى عمليات التكيف يمضى نحو زيادة اتساع نطاقها وتنوعها . (C.J. Herrick 1949) .

ا – يقوم تجمع النمل وحياة أبناء المسكن الواحد معاً فى سلام على أساس التكيف الكيميائى مع المسكن . إذ يكتسب أبناء المسكن الواحد رائحة معينة تكون بالنسبة لهم عنوان العضوية الاجتماعية ، بحيث إذا اقتحمت نملة مسكنا غير مسكنها فإنها تهاجم من نمل هذا المسكن وتطرد أو تقتل حتى ولو كانت من نفس نوعه . ويلاحظ أن هذا التكيف الكيميائى يستند إلى استعداد عضوى

لدى الأفراد ، هو الحساسية الشمية القوية . هذه العضوية الاجتماعية القائمة على أساس كيميائى هى الشرط الأول فى التقارب والحياة معاً . ونستطيع أن ندرك مدى أهميتها إذا عرفنا أن بضع نملات من أنواع مختلفة إذا جمعت ونشئت معاً فى مسكن واحد منذ بدء طور اليرقة [١] فإنها عندما تكبر تعيش معاً ولا تتفرق تبعاً لأنواعها .

ويتدخل هذا التكيف الاجتماعى الكيميائى فى تحديد سلوك أفراد النمل بشكل واضح ، ذلك أنهم عندما يندفعون خارج المسكن طلباً للقوت يكونون فى حالة من التهيج يصحبها صدور إفرازات معينة من غدة فى مؤخر الجسم ، وتسقط هذه الإفرازات على التربة ثم إذا بالنمل يحدد مجال نشاطه بمنطقة الأرض المشبعة بهذه الإفرازات ولا يتخطى حدودها ، إلا إذا اضطرته إلى ذلك عوامل معينة ، كالتنبيهات اللمسية المتتالية ، إذ يترتب عليها تهيج الأفراد ، وعندئذ يفرزون الإفرازات على المنطقة الجديدة ثم تتحدد حركتهم بحدودها[٢] .

ب — وإلى جانب هذا التقارب الذى يقوم على أساس كيميائى ، نجد أن ما يبدو لبعض المشاهدين على أنه « تقسيم عمل اجتماعى » مناظر لتقسيم العمل الذى نعرفه فى المستوى الإنسانى ، ليس سوى تخصص مورفولوجى تمليه — إلى حد كبير — الخصائص العضوية للأفراد . وهذا ما انتهت إليه بحوث روش G.A. Rosch وإمرسون A.E. Emerson وجوتش W. Goetsch (T.C. Schneirla 1941) فيقرر روش أن وظائف أفراد النحل تتغير تغيراً أساسياً تبعاً لحدوث تغيرات عضوية هامة لديها . فتتحول الصغار من «دور الصغار العاجزين إلى دور «البنائين» عندما يتضاءل نشاط غددها البلعمية[٣] ويحل محله نشاط غددها الشمعية ،

---

(١) larva

(٢) يلاحظ أن هذا الوصف للتكيف الاجتماعى الكيمائى عند النمل مبسط جداً . ويمكن الاستزادة فى هذا الصدد بالرجوع إلى :

Morley, D.W. *The Ant World*, London: Penguin Books, 1953.

(١) pharyngeal glands

وفى نهاية الأسبوع الثالث من عمرها يتضاءل نشاط غددها الشمعية فتتحول إلى الانطلاق فى الحقول . ويثبت إمرسون مشاهدة بالغة الأهمية فى هذا الصدد ، مؤداها أنه فى بعض الحالات ينتاب أفراد النمل الأبيض الذى يعيش فى المناطق الحارة tropical termites أكثر من تغير مرفولوجى ووظيفى فى مرحلة واحدة من العمر ، فقد لوحظ أن بعض الأفراد تحولت من « فعلة » إلى « جنود » أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل من ذلك أهمية ، ولها نفس الدلالة ، ذلك أن كل نوع من أنواع النمل المعروفة لنا الآن — وهى تبلغ حوالى ٣٥ ألف نوع — يعيش معيشة ذات نمط معين ، مما يدل على توقف نمط التجمع على الخصائص العضوية إلى حد كبير (C.J. Herrick 1949) .

هذه الملاحظات تثير فى الذهن ملاحظات مشابهة عن الحياة الاجتماعية فى المستوى الإنسانى ، إذ أننا لا نستطيع أن ننكر وجود فوارق واضحة بين سلوك الطفل وسلوك المراهق وسلوك الراشد ، كما أننا لا نستطيع أن ننكر أهمية عامل النمو العضوى فى ظهور كل من هذه الضروب الثلاثة من السلوك ، إلا أن هذا التشابه تشابه شكلى يخفى فى طياته اختلافاً حاسماً من حيث درجة اعتماد نمط السلوك على العوامل العضوية ، فسلوك الطفل يمكن أن يتشكل دون أن يتوقف ذلك على تغيرات فيزيولوجية أو مورفولوجية واضحة وكذلك سلوك المراهق وسلوك الراشد ، مما يدل على درجة فائقة من المطاوعة فى السلوك البشرى لا تتوفر فى سلوك الحشرات (M.F.A. Montagn 1947) فليس ثمة إذاً فى مستوى الحشرات تقسيم اجتماعى للعمل ، ولكن هناك تخصص عضوى . ويتضح الفرق بين الاثنين إذا عرفنا أن الأول ينطوى على المرونة بينما ينطوى الثانى على التصلب ، وأن الأول يقوم أولا وقبل كل شىء على عمليات اجتماعية معينة يشار إليها بعمليات الإدماج الاجتماعى أو التطبيع[1] بينما يقوم الثانى على

---

(١) socialization

أصول عضوية أولا وقبل كل شيء (C.J. Herrick 1949; T. C. Schneirla 1941)

جـ ــ وتكتمل الجوانب الرئيسية للصورة التى نرسمها لأنفسنا عن تجمع النمل عندما نعرف حقيقة الصلة بين أفراد المسكن الواحد. فثمة تفاعل بين الأفراد لا يمكن إنكاره وإلا عجزنا عن تفسير الكثير من سلوكه. إلا أن هذا التفاعل محصور فى نطاق ضيق جداً، إذ يعتمد أساساً على التنبيهات اللمسية المتبادلة بين الأفراد بواسطة قرون الاستشعار [1]، وهذه اللمسات المتبادلة إن هى إلا أفعال منعكسة شرطية قامت كامتداد للأفعال المنعكسة التى تصدر عن صغار النمل وهى بعد فى طور اليرقة طلباً للقوت، إذ أن هذه الصغار تكون فى حالة جوع شبه دائم ويصحب ذلك اهتزاز شديد فى قرون استشعارها، فإذا ما اقترب منها النمل اليافع وتعرض للمسات من هذه القرون خرجت من حوصلته كمية من الطعام وسقطت فى أفواه الصغار، وهذا من شأنه أن يثبت فى الصغار عملية اهتزاز القرون فتظل معها حتى اليفاع. ويطلق هويلر W.M. Wheelr على هذه العملية اسم trophallaxis ومن الواضح أن التقارب الاجتماعى الذى ينتظم من خلال هذه العملية يقوم على أساس أن « الآخر مصدر للطعام ». ولسنا بصدد لغة ولا رموز لنقل الأخبار كما كان فازمان E. Wasmann وغيره يقررون (T. C. Schneirla 1941) .

ومن الأدلة كذلك على تصلب سلوك الحشرات الاجتماعى ما نلاحظه على إناث حشرة الأذن ذات المقص [2] فى سلوكها نحو أفراخها ؛ إذ تضع البيض وترقد عليه، ثم تلعقه من حين لآخر، وبذلك تساعد اليرقات على الظهور. إلا أن بعض اليرقات تكون فى حاجة إلى من يخلصها من بقية قشرة البيضة، فلا تجد هذه المساعدة من الأم . وقد تهلك هذه اليرقات دون أن تلقى أي عون

---

(١) antennae

(٢) earwig

د – هذه هى الجوانب الثلاث الكبرى للحياة الاجتماعية لدى النمل ؛ تقارب يقوم على أساس كيميائى ، ووظيفة اجتماعية تقوم أولا على أساس فيزيولوجى ، وتفاعل يقوم على أساس لمسى . ومن الواضح أنها تتكاتف جميعاً على توفير نمط من التكيف يمتاز بالضيق والتصلب أوالتحجر ، مما يجعله قليل الكفاءة إزاء مقتضيات البيئة . ولذلك يهلك النمل بأعداد هائلة ، ولا يعوض ذلك إلا خصوبته الشديدة فى التناسل .

وهذا الذى نقرره عن انخفاض المستوى التطورى للتكامل الاجتماعى لدى النمل يتفق تماماً مع ما هو معلوم عن مستوى التطور البيولوجى الذى يشغله . فهو تابع لرتبة [١] الحشرات الداخلة فى قبيل [٢] الحيوانات المفصلية [٣]. وأهم ما يميز هذا القبيل ضيق نطاق الحركات التكيفية لأفرادها– من مختلف الرتب – القيام بها ، نتيجة لمورفولوجيتها ؛ فأجسامها وأطرافها مقسمة إلى عدد من الأجزاء المغطاة بقشرة صلبة (كيوتينية) مقسمة هى الأخرى إلى أجزاء تكاد تكون مناظرة للأجزاء اللحمية ، وتصل بينها مفاصل لا تتيح الحركة إلا فى حدود زوايا محددة ضيقة (J.Huxly &others, 1938p.206) أضف إلى ذلك ما هو معلوم من ضآلة عدد خلاياها العصبية ، مما يترتب عليه ضآلة عدد الارتباطات العصبية (الوظيفة) التى لا بد منها للقيام بالاكتساب المفصل و بالتالى لقيام السلوك المرن . ومن الجدير بالذكر أن الحشرات كرتبة توضع فى مستوى منخفض عن الثدييات . ويقدر علماء التطور أنها ظهرت قبل الثدييات بحوالى ١٥٠ مليون سنة (C.J. Herrick 1949).

٢ – فإذا انتقلنا إلى تجمعات الطيور وجدنا عنصرى الاستقرار والتنظيم ماثلين ولكن بصورة أضعف وأشد خفوتاً من تلك التى يتمثلان بها فى تجمعات النمل . فالاستقرار – فى حالة التجمعات الكبيرة – استقرار موسمى يظل قائماً طوال موسم عدم الإخصاب . فإذا ما نشطت الحوافز التناسلية تفكك التجمع

(١) class (٢) phylum (٣) arthropoda

الكبير إلى تجمعات صغيرة متباعدة[١] . ولذلك يسهل على الأفراد الذين يحاولون أن ينضموا إلى التجمع أن ينجحوا فى محاولتهم فى ذلك الموسم . فى حين أنهم إذا حاولوا ذلك فى وقت آخر قوبلوا بالعدوان والهجوم من الجميع (H. Friedman 1935) وليس للتنظيم تلك الصرامة التى يمتاز بها فى تجمعات النمل. وأهم ما يوضح ذلك أنه لا وجود لظاهرة الطوائف (ذات الأعمال الخاصة والبناء العضوى الخاص) التى هى قوام تجمعات النمل . ومع أن نظام السيطرة (نظام النقر[٢]) — وهو أوضح مظاهر التنظيم فى تجمعات الطيور — يبدو على درجة عالية من الثبات وثقل الوطأة، فإنه لا يبلغ فى صرامته مبلغ نظام الطوائف فى تجمعات النمل لسبب بسيط ، هو أنه — أى نظام النقر — لا يتوقف على الخصائص الجسدية وحدها لدى الأفراد ؛ فعامل القوة الفردية والحجم يعتبر فقط من بين العوامل الهامة الداخلة فى تحديد المسيطر والخاضع ، لكنه ليس العامل الأوحد، والدليل على ذلك ما نلحظه من أن انتظام نظام النقر أو السيطرة لا يكون فى خط مستقيم صاعد ، بحيث يكون ا مسيطراً على ب ، و ب مسيطراً على ﺟ ، و ﺟ مسيطراً على د ... إلخ ، وفى النهاية يكون ا مسيطراً على الجميع و ب مسيطراً على الجميع إلا واحداً ، وهكذا ، بل نجد أنه ينتظم فى شكل دائرى غالباً . فالطائر ا يسيطر على ب ، و ب يسيطر على ﺟ ، و ﺟ يسيطر على ا . ولو كان عامل القوة الجسدية أو الحجم هو وحده العامل المحدد لألفينا ا مسيطراً على ﺟ (T. Schjelderup-Ebbe 1935) .

وكما انتشرت بعض الآراء التشبيهية[٣] حول إنسانية الحياة فى تجمعات النمل ، كذلك انتشرت آراء مماثلة حول إنسانية الحياة فى تجمعات الطيور ؛ فنسب التعاون إلى أعضائها اليافعين ، ولا سيما فيما يتعلق بالدفاع عن كيان الجماعة ضد

---

(١) يتحقق ذلك فى حالة الطيور التى تتغذى فى مكان وتتناسل فى مكان آخر ، أما الطيور التى تتغذى وتتناسل فى مكان واحد فإنها تظل فى الغالب على شكل تجمعات صغيرة متباعدة ولا تكون تجمعات كبيرة .

(٢) pecking order

(٣) anthropomorphic

تدخل الغرباء ، كما نُسبت إلى هؤلاء الأفراد مشاعر الرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة، ونُسبت إليها مشاعر الصداقة أيضاً . كذلك قيل بوجود تنظيمات جماعية لتربية الصغار ، وغير ذلك من الصفات التى تجسمها المخيلة النشطة ولا يشهد بصدقها التحقيق العلمى الدقيق ؛ فما ظن أنه تعاون بين اليافعين على طرد الطيور الغريبة التى تحاول أن تنضم إلى القطيع ليس فى واقع الأمر تعاوناً ، بل هو اندفاع من كل فرد على حدة إلى مهاجمة الغريب دفاعاً عن نفسه هو ، ويقول شلدرب إبه (T. Shjelderup Ebbe 1935) إن ما خدع البعض فى هذه الظاهرة هو ما يبدو من تشابه بين حركات المدافعين بحيث ظن أن هذا التشابه ضرب من التآزر المدبَّر ، وهذا غير صحيح ، وحقيقته أنه تشابه يمليه ضيق نطاق الحركات التكيفية لدى الأفراد . وما ظُن أنه شعور بالرحمة والحزن لفقد أحد الزملاء من أعضاء الجماعة ليس كذلك فى الواقع بل أقصى ما يمكن أن يقال فيه إنه إحساس غامض بأذى لحق بجزء من الوحدة التجمعية(H. Friedman 1935)شأنه فى ذلك شأن أى تغير يلحق ببيئة الطائر ، فإنه يثير لديه مظاهر الحصر الواضحة . وكلما اشتد بروز هذا التغير كانت مظاهر الحصر أشد وضوحاً لدى الطائر . وما ظن أنه من قبيل مشاعر الصداقة تأويل غير دقيق لمظاهر التقارب الهادئ بين بعض الأفراد ، وحقيقته أن دوافع العدوان والسيطرة لدى الذكور العدوانيين أو الإناث العدوانيات تخفت وتتضاءل كلما تيقظت الحوافز الجنسية ، ونتيجة لذلك يرافق الذكر أنثاه دون عدوان ، فإذا ما خمدت هذه الحوافز عاد كل إلى سابق سيطرته أو خضوعه(T. Schjelderup-Ebbe 1935) ويندر أن نلحظ تقارباً هادئاً بين فردين من نفس الشق [1](ذكرين أو أنثيين) داخل التجمع ، اللهم إلا عندما يسود الظلام فيتعذر على الطائر أن يرى الآخرين ، ولما كان تكيفه يعتمد أساساً على حاسة الإبصار فإنه يتخذ موقفاً سلبياً ليس فيه

---

(١) sex

عدوان ولا فرار . كذلك ما يقال عن التنظيم الجماعى لتربية الصغار ، فالواقع أن كل طائر يطعم أفراخه هو ولا شأن له بأفراخ الآخرين. ولذلك فالأفراخ التى يموت أبواها أو يختفيان لسبب ما يكون نصيبها الموت جوعاً (H. Friedman 1935) .

من ذلك يتضح أن تجمعات الطيور تحمل فى نفسها بذور التقارب والتفاعل الاجتماعيين . إلا أن هذه البذور لا ترقى أبداً إلى المستوى الإنسانى . إنها تقف فى السلم التطورى فى مرتبة أعلى من مرتبة تجمعات النمل ، وذلك على أساس ازدياد عدد المجالات الطبيعية التى تستطيع أن تتكيف معها ، وازدياد مرونة هذا التكيف . لكنها إذا قورنت بالمجتمع الإنسانى بدت مع ذلك شديدة التصلب ضيقة نطاق التكيف ، ومن ثم فهى دون المستوى الإنسانى بكثير . فليس للعلاقات بين الأفراد سوى عدد ضئيل جداً من الأنماط ، فإما تقارب تناسلى وإما سيطرة وخضوع . والنسبة بين هذين وبين عدد الأنماط التى يمكن أن تنتظم فيها علاقات أفراد المجتمع الإنسانى فيما بينهم لا تكاد تذكر . وربما كان من أهم العوائق السيكولوجية التى تحول دون تحقيق مثل هذا العدد الهائل من أنماط العلاقات الإنسانية فى تجمعات الطيور عدم وجود اللغة كأداة للتكيف الاجتماعى . أما يقال عن وجود بعض مظاهر اللغة عند بعض الطيور فلا يثبت أمام التحقيق العلمى الدقيق . اللغة هى الأداة الرئيسية التى أمكن بوساطتها تحقيق هذا العدد الهائل من الأنماط فى العلاقات الاجتماعية بين الناس . ويمكن اعتبار العجز اللغوى لدى الأطفال فيما قبل السنة الرابعة من العمر أحد الأسباب الرئيسية فى عجزهم عن الانضمام إلى جماعات اللعب التى تتألف من أطفال يماثلونهم فى السن أو يكبرونهم قليلا . كذلك من أهم أسباب هذا الفقر فى إمكانيات تعدد العلاقات الاجتماعية بين أفراد تجمع الطيور ارتباط سلوكها الاجتماعى ارتباطاً واضحاً بخصائصها العضوية . حقاً إن هذا الارتباط يبدو واهناً إذا قورن بارتباط سلوك النمل بخصائصه العضوية لكنه مع ذلك يبدو وثيقاً إذا قورن بالسلوك الإنسانى ومدى اعتماده على

الخصائص العضوية للفرد .

فهجرة بعض الطيور (شمالا فى الربيع وجنوباً فى الخريف) تتوقف بشكل واضح على حدوث تغيرات فيزيولوجية معينة فى الطائر ، إذ تنشط غدده التناسلية (نتيجة لتزايد كمية الضوء فى الربيع) ويتبع ذلك ازدياد حساسية الطائر للحرارة ، مما يدفعه إلى الهجرة شمالا حيث يجد مناطق أقل استضاءة وأقل حرارة. ويحدث عكس ذلك فى الخريف (W. Rowan & L. Roule 1938) كذلك يلاحظ أن استقرار علاقات السيطرة والخضوع بين أفراد التجمع يتوقف على عوامل عضوية معينة . فإذا ثارت الحوافز التناسلية مثلا خمدت دوافع العدوان والسيطرة . وإذا حدثت تغيرات جسمية واضحة لدى الأفراد تخلخل النمط السائد وبدأت المنازعات لتقرير نمط جديد . وكثيراً ما تحدث هذه التغيرات الجسمية بالنمو أو بتغير فصول السنة أو بالمرض (T. Schjelderup-Ebbe 1935) .

وإذا كان هذا الفقر الشديد فى تنظيم العلاقات الاجتماعية فى تجمعات الطير مما يسترعى انتباهنا فإن عدم الاستقرار يسترعى انتباهنا كذلك . ولهذا عدة أسباب ، نجتزئ منها بذكر سبب سيكولوجى على جانب كبير من الأهمية ، وهو ضعف الذاكرة لدى الطيور ضعفاً شديداً جداً إذا قورنت بما هى عليه فى الإنسان . فبينما تصل قدرة الإنسان إلى درجة التعرف على الآخرين بعد انقضا عدة سنوات منذ مفارقتهم حتى ولو كانوا صغاراً وأدخل النمو عليهم عدة تغيرات فى الحجم والشكل ، نجد أنه تكفى التفرقة بين طائرين يافعين من (نفس النوع) لمدة أسبوعين حتى يجهل كل منهما الآخر جهلا تاماً . أما فى حالة التفرقة بين الكبار والصغار فيكفى أن نفرق بين الطائر وأفراخه لمدة أسبوع واحد حتى يجهلها ولا يتعرف عليها بعد ذلك (وذلك بسبب كف بعض الغدد الصماء وتنشيط غيرها) ، حتى ولو تعرفت الصغار عليه (T. Schjelderup-Ebbe 1935) ولا جدال فى أن نمط التكامل الاجتماعى الإنسانى بما له من تعقد وتشعب ، وما يقتضيه من تباعد بين الأفراد ليعودوا إلى التقارب من جديد فى مستوى أثرى

وأعلى مما كان عليه (كتباعد الأبناء عن الآباء فى ذهابهم إلى المدرسة وفى رحلاتهم العلمية ، وكتباعد الفتى عن الفتاة التى يحبها ليعود إليها بعد أن يحصل على مكانة اجتماعية مرموقة ، و . . . إلخ) ليتطلب ضمن شروطه السيكولوجية ذاكرة أقوى من ذلك بكثير . كذلك اتساق[1] الدور الاجتماعى[2] الذى تقوم به الشخصية — وهو السائد لدى الأسوياء — يتطلب هو الآخر ذاكرة قوية تكون تعبيراً عن وحدة الشخصية فى الزمان ودعامة لها . (ى . مراد ١٩٤٧) . ولا شك أننا نعجز عن التماس نظير هذا الاتساق فى جماعات الطير ، نظراً لشدة تأثير التغيرات العضوية فى السلوك . وهذا سبب آخر من أسباب عدم الاستقرار . على أننا إذا نظرنا إلى سلوك الطير الاجتماعى من زاوية ثالثة وهى زاوية تأثره المباشر بمؤثرات البيئة الطبيعية ، أمكن لنا أن نرى فى ذلك مظهراً آخر من مظاهر عدم الاستقرار ، الذى يرجع فى النهاية — إذا ما قورن بالسلوك الاجتماعى لدى الإنسان — إلى ضيق نطاق القدرة على الاكتساب ، وهى التى تصل فى نموها لدى الإنسان إلى تلك الدرجة الفائقة التى تمكنه من استيعاب تراث الأجيال السابقة الفكرى والمادى ليكون منه البناء الحضارى الذى يقوم كبيئة تتوسط بينه وبين البيئة الطبيعية ويكون لها الأولوية غالباً فى التأثير عليه ، فتدخل الاتصال والاتساق على تاريخه .

والخلاصة أن تجمعات الطير تقوم دليلا واضحاً على أن جذور التكامل الاجتماعى تمتد فى المادة الحية إلى مستويات أدنى بكثير من المستوى الإنسانى . فثمة استقرار وتنظيم داخل وحدة اجتماعية لها حدودها الواضحة (على الأقل فى موسم التجمع) ، بحيث يبدو أن لها درجة معينة من الانغلاق تتجلى فى مهاجمة الجميع للقادم الغريب . إلا أن هذا التكامل ذو نمط أدنى بكثير من نمط التكامل فى المستوى الإنسانى . ومعيار الانخفاض والارتفاع هو كما أسلفنا القول مدى كفاية السلوك لتحقيق تكيف ناجح (T.C. Schneirla 1941) ومن تحليلنا

---

(١) consistency
(٢) social role

للأسس التى يقوم عليها هذا التكامل نستطيع أن نضع الفروض الثاقبة لتعيين أسس التكامل الاجتماعى فى المستوى الإنسانى. ومن الواضح أننا إذا أردنا أن نلتمس هذه الأسس فيجب أن نلتمسها فى سيكولوجية اللغة والذاكرة والاكتساب والاستقلال النسبى لسلوك الشخصية عن التغيرات العضوية التى تنتابها (M.F.A. Montagu 1947).

وإذا ألقينا بنظرة سريعة على الأسس العصبية لهذا السلوك الذى يمتاز بالصلابة وضيق نطاق التكيف (إذا قورن بسلوك الإنسان)، ألفينا أن الشىء الرئيسى فى الجهاز العصبى لدى الطيور هو تضخم الجسم المخطط[1] بحيث يبدو أنه الجزء الرئيسى بين أجزاء المخ، فى حين أن اللحاء[2] يبدو ضئيلا جداً. ولما كان الجسم المخطط هو مركز تنسيق الحركات المتآزرة (J.F. Foulton 1945) فإن سلوك الطير لا يمكن إلا أن يكون سلوكاً يغلب عليه التحجر مع عجز واضح عن التكيف الذكى إذا ما قورن بسلوك الثدييات بوجه عام؛ إذ أن هذا الأخير يستند إلى دماغ يضم جسماً مخططاً ضئيلا بالنسبة إلى اللحاء الذى يأخذ فى النمو حتى يصل إلى هذا الحجم الهائل الذى يبلغه فى الإنسان. ويقول هكسلى J. Huxley إن من أهم الفوارق بين سلوك الطيور وبين سلوك الثدييات بوجه عام تفوق الذكاء والذاكرة وسرعة الاكتساب لدى الأخيرة.

أضف إلى ذلك ما تنبئ به الملاحظة العابرة من شدة تخصص أعضاء الطائر (الجناحين مثلا) إذا ما قورنت ببعض أعضاء الإنسان (اليدين مثلا). فإن هذا التخصص الشديد يقلل من قدراتها التكيفية. ويمكن اعتبار جسم الطائر بوجه عام متحجر النمط[3] إلى حد كبير، وينعكس أثر ذلك فى سلوكه بشكل ملحوظ (J. Huxley & H.G. Wells 1938) وهنا يلزمنا أن نثبت ملحوظة جلسون هريك إذ يقول: من الجدير بالذكر أن أجسام الطيور متخصصة بشكل يفوق كثيراً أجسام الثدييات. والطيور بوجه عام ناجحة جداً كنجاح الحشرات، وتعتمد على أنماط السلوك الوراثية الجامدة. ولا يمكن إنكار

(١) corpus striatum (٢) cortex (٣) stereotyped

أن الطيور أذكى من النمل ، وأن حياتها أثرى من حياة النمل ، وخبراتها أكثر تنوعاً ، لأنها ذات استعدادات وراثية للتكيف مع بيئة تفوق فى تعقدها بيئة النمل . والطيور كرتبة تتكيف مع أنواع مختلفة من البيئة . إلا أن الطائر الفرد ليس شديد القابلية للتكيف ، كما أن قدرته على الاكتساب أضعف بكثير من قدرة الثدييات العليا . وقد انتهج تطور الثدييات اتجاهاً مخالفاً ، أهم ما يميزه ازدياد قدرة الفرد على التكيف والتعلم ، لا مجرد ازدياد تنوع فصائل الرتبة ، كما فى الطيور (C.J. Herrick 1949).

٣ – ولننتقل الآن إلى تجمعات القردة العليا ، ولا سيما الشمبانزية . وسوف نقف عندها وقفة أكثر تدقيقاً وتفصيلا من وقفتينا السابقتين عند تجمعات الحشرات والطيور ، وذلك لشدة ارتقائها إذا ما قورنت بالنمطين السابقين ، ولكثرة أوجه الشبه (التى يتبينها المشاهد العابر) بين سلوك هذه الحيوانات وسلوك الإنسان . فكل من قصد إلى حدائق الحيوان أو أتيح له أن يشهد هذه الحيوانات فى بيئتها الطبيعية لاشك فوجئ بالمظهر الشبيه بالإنسانى الذى لا يمكن إنكاره لكثير من جوانب السلوك لدى هذه الحيوانات . فهى تكثر من استخدام اليدين بطريقة شبه إنسانية ، وبدلا من أن تمد فمها إلى الطعام كسائر الثدييات (القطط والكلاب . . إلخ) تتناول الطعام بيديها وترفعه إلى فمها . هذا إلى أنها تقوم بالكثير مما يدل على ذكاء عال وقدرة على المحاكاة لا نشهدها فى سائر مستويات الحيوان . على أن مظاهر السلوك الاجتماعى هى من أبرز ما يفجأنا فى سلوك هذه الحيوانات . فمعظمنا قد شهد (فى جبلاية البابون فى حدائق الحيوان) بعض الإناث تساعد صغارها على التعلق ببطونها أو على امتطاء ظهورها ، أو بعض الذكور تحمى صغارها وإناثها ضد محاولات الاقتراب التى يقوم بها ذكور آخرون ، أو بعض الصغار تلعب مع البعض ، أو بعض الإناث والصغار تتحرك فى ركاب الذكر ، كأنهم أعضاء أسرة أبوية[١].

(١) patriarchal

بل إن من يحاول الإمعان فى أحوال معيشة تلك القردة — زيادة على مجرد المشاهدة العابرة — لا يلبث أن يشهد ضروباً من السلوك الاجتماعى أعقد من ذلك بكثير ، كانقسام الرهط إلى عدة وحدات صغرى أسرية ذات نمط ثابت هو النمط البوليجينى (ذكر واحد وعدة إناث) ، واستمرار التقارب المكانى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، والمشاجرات التى تنشب أحياناً بين بعض الإناث اللاتى يتألف منهن حريم الذكر ، وهكذا .

هذه المشاهدات وغيرها — مما يكشف عن شدة اجتماعية القردة العليا — هى التى تحفزنا إلى الاهتمام بنمط حياتها . فالمسافة بين هذا النمط وبين نمط الحياة الإنسانيةقصيرة إذا ما قورنت بالمسافة بين هذا الأخير وبين نمط حياة الحشرات أو الطيور . فهى تمثل مرحلة هامة من مراحل ارتقاء الاستجابات الاجتماعية فى السلسلة الحيوانية . وهى المراحل الماثلة أمامنا إلى المرحلة الإنسانية . وفى ذلك تنحصر أهميتها . فسبر أعماقها مع المقارنة الدائمة بينها وبين المرحلة الإنسانية من شأنه أن يكشف لنا بوضوح عن أسس التكامل الاجتماعى الإنسانى من حيث إنه تكامل فريد فى نوعه . ومن هنا كان يركيز R. Yerkes يقول : إننا نرى أن لهذه البحوث فى حياة الثدييات العليا أهمية كبرى فى حل كثير من مشكلات الإنسانية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) .

والسؤال الآن هو : ما هى الصفات التى تضع نمط التكامل الاجتماعى لدى القردة العليا فى مستوى أرقى من مستوى تجمعات الحشرات والطيور ؟

يمكن تلخيص هذه الصفات فيما يلى :

ا — ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعى بشكل واضح .

ب — ازدياد تحرر السلوك من وطأة الحتمية العضوية (المورفولوجية ، أو الفيزيولوجية) .

حـ — ازدياد قدرة الذاكرة .

د — نمو الخيال المبدع .

هـ ـ اتساع نطاق التعبيرات الصوتية .

و ـ بروز القدرة على المحاكاة .

وفيما يلى بعض الظواهر السلوكية التى توضح هذه الصفات :

ا ـ فأما عن ازدياد أهمية الاكتساب الاجتماعى فأبرز ما يوضح ذلك طول مدة الحضانة وشدة تعقد الصلة بين صغار الشمبانزيه وكبارها . ذلك أن الوليد الشمبانزى يكون عند ولادته شديد الشبه بالوليد الإنسانى من حيث عجزه عجزاً شديداً عن أن يسعى إلى إشباع حاجاته بنفسه ، حتى إنه إذا ترك وشأنه فإنه يهلك . ولذلك فهو يتعلق ببطن أمه ويبدأ الرضاعة بعد ولادته ببضع ساعات . ويظل على هذه الحال مدة تبلغ حوالى الثمانية أسابيع ، وتكرس الأم لرعايته معظم وقتها وجهدها . وفى أواخر الشهر الثانى تبدأ محاولات الصغير القيام بالحركة المستقلة ، وتمنع الأم هذه المحاولات فى بدايتها كما تمنع محاولاته أن يتناول أى طعام إلا من أثدائها . ولكن محاولات الصغير الاستقلالية تزداد إلحاحاً بازدياد نموه ، وتبعاً لذلك يتغير سلوك الأم ، فإذا بها تشجع هذه المحاولات وتيسرها بطرق معقدة أمكن تسجيلها بالتصوير السينماتوجرافى . وفى النصف الثانى من السنة الأولى يترك التعلق ببطن أمه ليمتطى ظهرها . وفى نهاية السنة الأولى يصير قادراً على الحركة المستقلة ، لكنه مع ذلك يظل عاجزاً عن إشباع الكثير من حاجاته بنفسة ولا سيما حاجته إلى الطعام ، ولذلك فإنه يظل يرضع من ثدى أمه لبضع شهور بعد ذلك . وبعد انقطاعه عن الرضاعة لا تنقطع صلته بأمه ، بل يظل معتمداً عليها ـ اعتماداً جزئياً ـ حتى سن الثلاث السنوات تقريباً . وتظل هى دائمة العناية به ، تغذيه وتحميه وتوجهه وتعلمه . وهنا يقول يركيز R. Yerkes : يجب ألا ننفر من استعمال كلمات التربية والتعليم والتدريب فى هذا الصدد لمجرد أننا هنا فى مستوى دون المستوى الإنسانى ، بل يجب أن نستخدم هذه الكلمات ، لأن جميع الظواهر تدل على أن أنثى الشمبانزى تقصد فعلا إلى تشجيع وليدها ، ومساعدته على الاستقلال الحركى ، من

مشى وتسلق وجرى. بل إننا لنشهد مظاهر التمرين المنظم للوليد تقوم به الأم فترة من الوقت أثناء السنة الأولى من العمر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) ولهذه الملوحظة الأخيرة التى يبديها يركيز دلالة هامة ، إذ أن العلاقة بين الصغار والكبار تبلغ لدى الشمبانزية طولا وتعقداً لا تبلغهما فى أى مستوى آخر تحت المستوى البشرى ، حتى ولا فى سائر أنواع القردة العليا ، كالبابون والنسانيس النابحة . ولذلك يقرر يركيز (1935) فى موضع آخر أن العلاقة بين الصغير وأبويه تزداد بتداء من الليمور حتى الشمبانزى من حيث المقدار والتنوع كما أنها تصبح ذات طابع تربوى أكثر فأكثر ، بعد أن كانت تقتصر (لدى سائر الثدييات) على تقديم الغذاء والحماية وبعض الخدمات الصحية اللازمة لبقاء الصغار .

فإذا اعتبرنا طول مدة اعتماد الصغار على الكبار ، وازدياد تنوع العلاقة بين الجيلين دالتين لشدة مطاوعة الوليد وقابليته للتشكل ، وأدخلنا فى حسابنا تلك الحقيقة الهامة وهى أن تجمعات الشمبانزية (التجمعات الأسرية) ثابتة مستقرة وليست عابرة ولا موسمية ، استطعنا أن ندرك مدى أهمية الجماعة فى تشكيل سلوك الفرد لدى الشمبانزية ، أو بعبارة أخرى مدى اجتماعية الفرد ، وهو مالا نجده فى حالة الطيور والحشرات بوجه عام ، إذ يتحدد معظم سلوك هاتين الفئتين على أساس عوامل عضوية وعوامل البيئة الفيزيقية للكائن ، وأما نصيب الاكتساب من الآخرين (من أفراد النوع) فضئيل نسبياً .

وتتفق هذه الحقيقة التى انتهينا اليها عن شدة اجتماعية الشمبانزى مع عدة حقائق أخرى نعرفها عن نمط حياته . وأول هذه الحقائق شدة تأثير المنبهات الاجتماعية على الفرد ، وازدياد ميل الفرد إلى محاكاة الآخرين وقدرته على المحاكاة الدقيقة . ومن المظاهر الدالة على شدة تأثير المنبهات الاجتماعية يقظة الدافع الجنسى عند البعض حال مشاهدتهم أحد الأفراد يمارس العملية الجنسية أو يتأهب للقيام بها . ومن المظاهر الدالة على قوة المحاكاة ما يظهر أفراد التجمع من ميل إلى محاكاة القرد الزعيم فى جميع حركاته أثناء قيادته للتجمع ، وما تدل

عليه بعض التجارب من إمكان تعويد الشمبانزية استخدام بعض الالآت، وذلك بإعطائها المثل الاجتماعى على ذلك (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935)
أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية وهى ظاهرة الحنين إلى الجماعة التى تكشف عن مدى ارتباط الفرد بها . وفى ذلك يقول W. Kohler الواقع أن روابط الجماعة لدى الشمبانزية تقوم كقوة حقيقية . ويبدو ذلك بوضوح عندما نحاول أن نبعد أحد الأفراد عن جماعته . فإذا لم يكن هذا الفرد قد مر بمثل هذه الخبرة من قبل فإن رغبته الأولى والكبرى عندئذ تكون فى العودة إلى جماعته . وإذا كان صغيراً جداً فإن هذا الإبعاد يفزعه ، (بل إن الأمر ليؤثر فى كيمياء جسمه فيمرض وقد يموت) ، ويتجلى فزعه لدرجة أن المرء لا يكاد يقوى على استمرار إبعاده . أما الكبار فإنهم لا يبدون الفزع ، لكنهم يصيحون ويصبون غضبهم على جدران حجراتهم ، ويرفضون الطعام إذا قدم لهم، وإذا ما لاح لهم طريق للعودة إلى جماعتهم فإنهم يخاطرون بحياتهم لكى يعودوا إليها . فإذا ما عاد الفرد المفترق إلى الجماعة فإنه يقع فى إعصار من الفرح (W. Kohler 1931)
ويؤكد كهلر اجتماعية الشمبانزى بقوله : ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن الشمبانزى الذى يعزل بعيداً عن أقرانه لا يمكن أن يكون شمانزياً حقيقياً ، ذلك أن بعض الخصال المميزة لهذا النوع من الحيوان لا تظهر إلا عندما يكون فى جماعة . ويرجع ذلك إلى أن سلوك أقران كل شمبانزى يكون بالنسبة له الباعث الملائم الأوحد لإصدار تشكيلة كبيرة من الأساليب الرئيسية للسلوك . وعلى ذلك فالكثير من هذه الخصال لن يفهم بوضوح إلا إذا أدخلنا فى اعتبارنا سلوك أفراد الجماعة وأرجاعهم ككل .

ب — أضف إلى ذلك تلك الحقيقة الهامة، ألا وهى قوة الذاكرة . وقد رأينا فى حديثنا عن الطيور أن بوادر الذاكرة متوفرة لديها ، لكنها ضعيفة جداً . أما فى حالة الشمبانزية فالذاكرة تبلغ درجة من القوة تفوق ذلك بكثير ، بل وتفوق ما هو متوفر لدى الثدييات الدنيا بشكل واضح . وتشهد بذلك ملاحظات

الباحثين المدققين . فكهلر يروى أن الشمبانزية تعرفت عليه بعد مفارقته لها مدة ستة شهور ، وأنها تعرفت على زميلها « سلطان » بعد مفارقته لها لمدة أربعة شهور . ويقرر يركيز أن الشمبانزى يستطيع أن يتذكر الأشخاص بعد سنة من مفارقته لهم بحيث يستجيب لهم استجابة ملائمة . ويرون هيك L. Heck أن شمبانزياً تذكر بالفعل أحد الأشخاص بعد سنة من مفارقته ، وتذكر دباً كان يلعب معه بعد عدة شهور (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد أجريت فى هذا الصدد عدة تجارب روى الكثير منها كهلر ويركيز. وخلاصتها أن اختفاء الشيء عن نظر القط يجعله بعيداً عن فكره . بمعنى أننا إذا أخفينا طعاماً مثلا عن نظر القط ، وقمنا بعملية الإخفاء على مرأى منه فإنه لا يلبث أن ينساه ولا يقوم بأية محاولة للحصول عليه . أما الشمبانزى فإنه إذا شاهدنا نخفى طعاماً ظل يتذكره لفترة من الزمن يقدرها يركيز بثمانية وأربعين ساعة . وتؤثر عمليات التذكر هذه فى نشاطه بصورة ملموسة بحيث نجده يسعى إلى التنقيب عن الطعام والحصول عليه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وقد روى كهلر تجربة مماثلة أجراها على الشمبانزى « سلطان » ؛ فأخفى فاكهة فى الرمل أما عينى الشمبانزى وكان ذلك فى المساء . وبعد أن مضى على ذلك ست عشرة ساعة ونصف الساعة (قضى الشمبانزى معظمها فى النوم) قام وبحث عنها وأمكنه العثور عليها ، وكانت تبدو عليه جميع دلائل التذكر (W. Kohler 1931). بل إن بعض التجارب لتكشف عن درجة فائقة من الدقة فى عمليات التذكر هذه . فقد تبين أننا إذا أخفينا الطعام فى صندوق ذى لون معين ووضعنا هذا الصندوق وسط مجموعة من الصناديق المماثلة فى الحجم والشكل مع اختلاف فى اللون فإن الشمبانزى يستطيع أن يميز الصندوق المحتوى على الطعام من بين بقية الصناديق بعد نصف ساعة من إخفاء الطعام فيه (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929) وهنا نجد لزاماً علينا أن نستبعد فرضاً معيناً قد يقوم لتفسير هذه التجارب غير القول بأنها تعتمد على قوة الذاكرة ودقتها . ونقصد هنا افتراض أن الحيوان يتجه

إلى الطعام تحت تأثير رائحته ، فهذا غير صحيح . ولدحض هذا الفرض يمكن أن نقوم بإخفاء الطعام فى صناديق تغطيها طبقة من الشمع تمنع انتشار رائحته ، ومع ذلك فسنجد الشمبانزية تعثر عليه . ومن ناحية أخرى يمكننا أن نقوم بإخفاء الطعام (مع السماح لرائحته بالانتشار) دون أن ترانا الشمبانزية ثم نطلقها فى مجاله ، فسنجد أنها لا تستطيع الوصول إليه حتى وهى على بعد عشرين سنتيمتراً منه (W.Kohler 1931) .

من الواضح إذاً أننا بصدد ذاكرة قوية نسبياً ، لا تقاس إليها ذاكرة الطيور . أما فيما يتعلق بأفراد النمل فلا نكاد نستطيع أن نتكلم عن ذاكرة . ويكفى للتدليل على ذلك أن محو الأثر الكيميائى (فى أحد أجزاء الطريق) الذى تتركه مجموعة من النمل أثناء سيرها ، لنلحظ بعد ذلك شدة الارتباك والتردد فى سلوك بقية النمل القادم نحو هذا الموضع ، وربما انتهى الأمر بعودته من حيث أتى دون الإقدام على عبور هذا الجزء من الطريق (الذى محونا منه الأثر الكيميائى) الذى سبق أن عبره عدة مرات جيئة وذهاباً .

ولا جدال أن هذه الدرجة من قوة الذاكرة المتوفرة لدى الشمبانزية شرط لا بد منه لقيام هذه الدرجة من تماسك الجماعة[1] واستقرارها. وذلك لسببين :

أولهما — ما تتيحه قوة الذاكرة من تعرف على الآخرين رغم ما يطرأ عليهم ما يطرأ عليهم من تغيرات جسدية ووجدانية . وقد لاحظنا أن هذا غير متوفر فى تجمعات الطيور ، حيث تؤدى أبسط التغيرات التى تنتاب الكائن إلى عدم تعرف الآخرين عليه .

وثانيهما — أن قوة الذاكرة هذه يمكن اعتبارها دالة لثبات الهوية النفسية[2] للكائن إلى حد ما ، مما يدخل الاتساق على أرجاع الكائن . فإذا ما أضفنا إلى ذلك تلك الحقيقة التى أسلفنا ذكرها وهى أن الكثير من جوانب السلوك لدى الشمبانزية مكتسب من الآخرين بدلا من أن يكون محدداً على أساس النضج العضوى كما هو الحال فى الطيور والحشرات ، استطعنا أن نفسر ظاهرة هامة

---

(١) cohesiveness

(٢) psychological identity

فى حياة الشمبانزية ومؤداها أن جماعة الشمبانزية تمتاز بندرة التشاحن والاحتكاك بين أفرادها ، هذا زيادة على استقرارها وتماسكها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935)

حـ — هاهنا نتوقف قليلا لنلقى بعض الأضواء على المستوى الارتقائى لهذه التجمعات لأننا لا ندرسها فى ذاتها ، بل ندرسها من حيث هى مقدمة فيلوجينية للمجتمع البشرى . أين توضع إذاً هذه التجمعات بالنسبة للجماعة البشرية من ناحية وبالنسبة لتجمعات النمل من ناحية أخرى ؟

إن الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل صفات واضحة فى تجمعات النمل كما أسلفنا القول . لكنها تقوم فى مستوى ارتقائى منخفض ،لأنها لا تتيح التكيف إلا فى نطاق شديد الضيق والجمود . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على أساس كيميائى ، والتنظيم يعتمد على أساس مورفولوجى ، والتفاعل يعتمد على تبادل اللمس. أما تجمعات الشمبانزية فتتوفر فيها أيضاً صفات الاستقرار والتماسك والتنظيم والتفاعل ، ولكن فى مستوى ارتقائى أعلى بكثير من المستوى السابق ، لأنها تتيح التكيف فى نطاق أوسع وأشد مطاوعة وتنوعاً من السابق . فالاستقرار والتماسك يعتمدان على عمليات تربوية وعلى ذاكرة قوية ، والتنظيم يعتمد على قيام كل فرد فى الجماعة بدور اجتماعى مستقر متسق له معالمه الواضحة (دون أن يكون هذا الدور مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بخصائص مورفولوجية معينة) . وهكذا يروى لنا كهلر W. Kohler كيف أن الشمبانزية « تشيجو » كانت دائماً الزعيم الذى يحترمه الجميع ويخشونه ، بينما كانت « رانا » موضع سخريتهم . وأما « سلطان » فكان فى جميع تصرفاته يكشف عن ذكاء ورعونة بينما كان « قنصل » يكشف عن انفعالية شديدة دائماً . ويحدثنا كذلك عن قيام صداقات بين بعض أفراد التجمع قد لا تظهر دلائلها أثناء سير الحياة العادية ، لكنها تظهر وقت تجمع الأخطار ، فعندئذ يحتضن كل صديق صديقه . وفى النوم أيضاً ، إذ تفضل الشمبانزية وخاصة الصغار أن تنام أزواجاً يحتضن كل صديق صديقه (W. Kohler 1931, p. 299) أضف إلى ذلك ظاهرة أخرى فى التنظيم تدل على

ارتفاع مستواه الارتقائي لدى القردة العليا جميعاً ، وهي أننا نجد أنفسنا هنا بصدد تغاير واضح في الجماعة يختلف نمطه عن نمط التغاير القائم في قرى النمل ؛ فثمة جماعة كبرى كأنها رهط أو قبيلة وهذه تتألف من عدة جماعات صغرى أسرية غالباً . والجماعة الصغرى بدورها تنطوى على مسافات اجتماعية مختلفة بين أفرادها ، فبعض الأفراد تتيح العلاقة القائمة بينهم المشاركة في الطعام ، في حين أنها لا تتيح ذلك بينهم وبين أفراد آخرين من نفس الجماعة الأسرية . والأنثى تقرب أبناءها الصغار منها دائماً وتساعدهم وقد تلعب معهم ، والصغار قد يتجمعون معاً في تجمعات عابرة هدفها اللعب ، وهكذا . ومن الواضح أننا لا نجد هذا النمط من التغاير في تجمعات النمل ولا في تجمعات الطيور بل ولا في تجمعات الثدييات الدنيا .

وفيما يتعلق بالتفاعل بين أفراد الجماعة « فالتعامل عن بُعد » عنصر هام يجب إبرازه لإكمال فكرتنا عن ارتفاع هذا المستوى في السلسلة الارتقائية . وقد تحدث كثير من الباحثين عن قيمة التعامل الصوتي لدى الشمبانزية والقردة العليا بوجه عام . ويروى يركيز عن النسانيس النابحة أنه إذا اقتربت جماعة غريبة من أرض تستقر فيها جماعة أخرى نشأت بين الفريقين معركة بالأصوات لا بالأجسام إذ يقف الفريقان متباعدين ويصدران أصوات التهديد بعضهما إلى بعض ، وقد تنتهى المعركة على هذا النحو بانسحاب الفريق المقترب دون أي التحام جسدى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935) . كذلك إذا استرسل صغيران في اللعب بالقرب من يافع فإن هذا الأخير لا يلبث أن يصدر صوتاً خاصاً يكون بمثابة التحذير والتهديد للصغيرين ؛ فيتغير سلوكهما بالابتعاد أو التوقف . وفي جماعات الشمبانزية إذا هاجم المدرب أحد القردة تحت أنظار الجماعة فإن مظاهر الاضطراب تنتشر بينهم جميعاً . وقد يندفع بعضهم إلى القيام بعمل معين كالشمبانزى « قنصل » الذى كان يجرى مضطرباً ويمد ذراعه إلى من يوقع العقاب على زميله ، وترتسم على وجهه دلائل التوسل ،

ويحاول أن يمسك بذراعه ثم لا يلبث أن ينهال بالضرب على المدرب المعتدى (W. Kohler 1951, p 286) . كذلك إذا شاهد أفراد الجماعة واحداً منهم فى حالة تألم وضعف شديدين لمرض أو ما شاكل ذلك فإنهم يبدون الاهتمام الشديد بالاقتراب منه ومحاولة احتضانه أحياناً . فالقردة العليا بوجه عام والشمبانزية بوجه خاص تتفاعل فيما بينها بناء على ما يصدر عنها من إشارات صوتية وحركية . وقد وصف كهلر و يركيز الكثير من هذه الإشارات ، واستطاعا أن يحددا دلالتها . وهذا يتفق كثيراً مع ما يقرره روثمان وتويبر M. Rothmann & E. Teuber ويركيز وغيرهم عن ارتقاء حاستى البصر والسمع لدى الشمبانزية وبلوغهما درجة عالية من الدقة . ومما لاشك فيه أن اعتماد التفاعل على الإشارات الصادرة عن بعد يدخل عليه درجة من المرونة تتمثل فى تنوع أساليب التقارب بين الأفراد مما لانجد له مثيلا فى المستويات الارتقائية الدنيا . وثمة عدة ظواهر سلوكية تدل على درجة عالية من المرونة فى سلوك الشمبانزية نضيفها إلى ما سبق ذكره . ومن أوضح هذه الظواهر ما يشاهد من أن الشمبانزية « لا تستجيب مباشرة لحاجاتها البيولوجية ، بل قد تؤجلها قليلا حتى تنتهى من بعض التعبيرات الانفعالية (W.Kohler 1931, p. 294) ومنها كذلك ما يشاهد من مظاهر تدل على نمو الخيال بدرجة واضحة ؛ فالشمبانزى الذى نقدم له المرآة ليرى فيها صورته يقوم ببضع محاولات للوصول إلى الكائن القائم خلف المرآة ، ثم لا يلبث أن يتأكد من عدم واقعيته ، ومع ذلك يظل يلعب بالمرآة ولا يفقد الاهتمام بها . فى حين أن الثدييات الأخرى كالكلاب والقطط إذا واجهت مرآة لا تلبث أن تفقد الاهتمام بها بعد أن تتأكد من عدم وجود الكائن الآخر (W. Kohler 1931, p. 317) ومن دلائل نمو الخيال أيضاً ما يقرره روثمان وتويبر من أن الشمبانزى يحلم أثناء نومه . على أن يركيز يثبت زيادة على ذلك وجود المخيلة المبدعة لدى الشمبانزية (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 369) وتعتبر تجارب كهلر الشهيرة أوضح دليل على ذلك ، لما تكشف عنه من قدرة لدى الشمبانزية على استعمال الأشياء « كأدوات لأداء

وظائف جديدة » ، أى بعبارة أخرى « لخلق علاقات جديدة » .

والخلاصة إذاً أننا هنا بصدد مستوى عال من مستويات التكامل الاجتماعى ، يتوفر فيه الاستقرار الدائم بدلا من هذا النمط المتقطع الموسمى الذى نشهده عند الطيور . كما تتوفر فيه درجة من التغاير والمرونة تجعل منه نمطاً يختلف اختلافاً كيفياً عن نمط تجمعات النمل المتحجرة . ووجه الشبه والتقارب بين هذا النمط وبين نمط التجمع الإنسانى واضح لا شك فيه .

ويستند هذا التشابه فى نمط التكامل الاجتماعى إلى تشابه بيولوجى وفيزيولوجى يجب ألا نغفله . فالرأى الراجح اليوم أن المدة التى يقضيها الجنين الشمبانزى فى رحم الأم هى تسعة أشهر قمرية ، وهى قريبة جداً من المدة التى يقضيها الجنين البشرى فى رحم أمه ، وهذا يدل على تقارب فى النمو الأمبريولوجى (E.A. Hooton 1947, p. 227) أضف إلى ذلك أن القاعدة العامة هى أن المولود طفل شمبانزى واحد ، وليس عدداً من الصغار ، وهذا يتيح له الفوز بأكبر قسط من عناية الوالدين ويربطه بهما برباط عاطفى قوى ؛ ومن الملاحظ بوجه عام قلة عدد المواليد (فى الدفعة الواحدة) كلما ارتقينا فى سلم التطور حتى تصبح ، القاعدة فى القردة العليا وفى الإنسان هى المولود الواحد (E.A. Hooton 1947, p. 74) ثم إن الشمبانزى يبلغ نضجه الجنسى فيما بين السنة الثامنة والعاشرة من عمره . وهذا الوقت من العمر قريب من بدء البلوغ [1] عند الإنسان (فى مجتمعنا الحديث) ، إذ يقع فى حوالى الثانية عشرة . وتمارس الإناث دورة حيضية كلما انقضت ثلاثون أو واحد وثلاثون يوماً . ولا يوجد لديها فصل خاص للإخصاب كما هى الحال لدى الطيور وبعض فصائل الثدييات الدنيا ، ولكن توجد فترات خاصة لتقبل الأنثى الاتصال الجنسى مرتبطة بالدورة الحيضية . ومتوسط العمر لدى القردة العليا بوجه عام حوالى خمسين عاماً ، وهو قريب من متوسط العمر لدى الإنسان البدائى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929 & 1935) هذا إلى أن الأرجاع الصادرة عن بلازما الدم لدى الإنسان والشمبانزية متشابهة ، فى حين

---

(١) Puberty

أنها مختلفة عن أرجاع بلازما ذم الثدييات الأخرى (E.A. Hooton 1947, p. 44)

هذا التقارب البيولوجى بين الشمبانزية والإنسان من وراء التشابه فى نمط التجمعات لدى كل منهما ، يقوم — فى نظرنا — دليلا غير مباشر على ارتباط « التكامل الاجتماعى » عامة بشروط بيولوجية وفيزيولوجية معينة لا بد من توفرها حتى يتسنى له أن يتحقق. فبدون هذا التأخر الشديد فى النمو والقدرة على الاستقلال عن الوالدين يتعذر قيام هذا الارتباط الشديد والمتنوع بين الأم والوليد ، ويتعذر بالتالى بلوغ الشمبانزية هذه الدرجة من « الاجتماعية » التى أوضحنا بعض معالمها . كما أنه لولا توفر اللحاء فى دماغ الشمبانزية بنسبة تفوق النسبة التى يوجد بها فى أدمغة سائر الثدييات الدنيا ، وبدون ارتقاء الآليات الحسية الحركية لديها (S. Zuckerman 1932) لما تيسرت لها هذه القدرة الكبيرة على التذكر والاكتساب ومرونة السلوك بوجه عام. على أن القدرة على المحاكاة وهى أحد شروط القدرة على الاكتساب تعتمد هى بدورها على ارتقاء « حواس الإدراك عن بعد » وبلوغ مراكزها درجة عالية من التغاير ، وهذا متوفر لدى الشمبانزية فيما يتعلق بحاسة الإبصار . أضف إلى ذلك أن عدم ارتباط النشاط التناسلى للشمبانزية بمواسم معينة ينشط بحلولها ويخمد بزوالها كما هو الحال لدى الطيور والثدييات الدنيا يبدو شرطاً فيزيولوجيا هاماً لاستمرار ارتباط أعضاء الجماعة الأسرية وعدم تفككها من حين لآخر (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935; S. Zuckerman 1932).

إلا أن هذا التقارب الواضح بين تجمعات الشمبانزية والجماعة البشرية والذى يفرض نفسه علينا ما دمنا ننظر إلى ارتقاء الاستجابات الاجتماعية فى السلسلة الحيوانية ككل ، لا يلبث أن ينجلى عن تباعد شديد إذا ما اقتصرنا فى نظرتنا على المقارنة بين تجمعات الشمبانزية والجماعات البشرية فحسب . ولا بد من تغيير دائرة نظرنا هكذا لكى نلمس الفوارق ولكى نلمس المميزات الكيفية للتكامل البشرى ، فنلتمس لها أسسها الكيفية الفارقة . ومن هنا تبدو

أهمية هذه الوقفة التى نقفها عند تجمعات الشمبانزية . فإن النظر فى هذا التقارب بينها وبين الجماعات البشرية من شأنه أن يمكننا أكثر من أى شىء آخر من الاطلاع على الفوارق الدقيقة . وأوضح مواضع الافتراق التى نشهدها على ضوء هذه المقدمة الفيلوجينية ، وأهما جميعاً ، موضعان ، هما :

١ — اللغة .

٢ — والتعاون المنظم المستمر .

١ — فأما فيما يتعلق باللغة فليس لدى الشمبانزية لغة بالمعنى الخاص للغة عند الإنسان . إن الشمبانزية تستطيع أن تصدر مجموعة من الأصوات المتنوعة تنوعاً كبيراً ، وهذه تحتوى على معظم العناصر الصوتية التى تتألف منها لغة الإنسان ، لكنها مع ذلك لا تؤلف بينها بطريقة تصنع منها لغة كاللغة الإنسانية ، ولذلك يرجح كهلر W. Kohler أن عدم ظهور اللغة عند الشمبانزية لا يرجع إلى إلى أسباب تتعلق بتركيب الجهاز الصوتى بل إلى أسباب تتعلق بطبيعة ارتقائها العصبى (W. Kohler 1931, p. 305) وقد تحدثنا من قبل عن اعتماد التفاعل الاجتماعى لديها أحياناً على إصدار بعض الأصوات . وهنا يجب أن نقرر أن هذه الأصوات ليست لغة بالمعنى الصحيح . فهى ليست « رسالة موجهة إلى الآخر » هذا مع التسليم بأنه ينفعل لها . ولكنها مجرد تعبير ذاتى (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 309) كصياح الوليد البشرى نتيجة لتقلصات المعدة أو ما شابهها من مصادر التوترات . ولما كان صياح الوليد البشرى لا يمكن أن يسمى لغة رغم انفعال الآخرين له ، ولا يصبح لغة إلا إذا أصبح موجهاً ، طلباً لاستجابات معينة ، وحاملا لدلالات موضوعية إلى جانب دلالاته الذاتية ، فكذلك الأصوات التى تصدرها الشمبانزية لا ترقى إلى مرتبة اللغة ، اللهم إلا أن يتوفر لها هذان العنصران الأخيران ، وهذا ما لا يحدث أبداً . ولذلك فإن معظم التفاعل الاجتماعى لدى الشمبانزية يتم بفضل لغة من نوع آخر أكثر بدائية وتحجراً ، هى لغة الإشارات والحركات الجسدية والاستدلال أحياناً ببعض الروائح .

والمبدأ الرئيسى لهذه اللغة هو المحاكاة الجزئية للفعل الذى يريده الشمبانزى من زميله ؛ فإذا أراد مصاحبته فإنه يجذب يده ويقوم بحركات المشى فى الاتجاه الذى يريد ، وإذا أراد الحصول على طعام معين فإنه يقوم ببعض حركات الاختطاف مصحوبة بنظرات التوسل؛ وهكذا (W. Kohler 1931, p. 307) والفرق كبير بين الإمكانيات التعبيرية التى تتيحها مثل هذه اللغة، وتلك التى تتيحها اللغة المؤلفة من أصوات دالة ذات مقاطع . والفرق كبير أيضاً بين الشروط العصبية اللازمة لكل منهما ، كما أنه شاسع كذلك بين النتائج المترتبة على استخدام كل منهما فيما يتعلق بالنمو العقلى والتوافق الاجتماعى .

ويرجح يركيز أن يكون السبب فى عدم ظهور اللغة الصوتية عند الشمبانزية رغم وجود جهاز صوتى ملائم ودرجة من الذكاء ملائمة هو فى عدم وجود الميل إلى محاكاة الأصوات . وقد تحدثنا من قبل عن شدة ميلها إلى المحاكاة ، وهنا يجب أن نزيد الأمر تفصيلا فنتحدث عن شدة تخصص هذه المحاكاة . فهى على حد تعبير يركيز محكومة أساساً بوساطة المنبهات البصرية . ولذلك يروى هذا الباحث أنه عندما كان يتعهد الشمبانزيين « شم » و « بانزى » أدهشه أنهما كثيراً ما كانا يحاكيان حركاته ، لكنهما لم يحكيا أبداً الأصوات التى كان يصدرها (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 306) وعلى الضد من ذلك ما نلحظه من ميل لدى الوليد البشرى إلى محاكاة أصوات الآخرين ، منذ الشهور الأولى فى حياته ، بحيث يقرر كوفكا K. Koffka أن هذا الميل فطرى وسابق على كل مران (M.M. Lewis 1936) وقد حاول كل من يركيز وليرند B.W.Learned وفيرنس W.H. Furness أن يعلم بعض أنواع القردة العليا النطق ببعض الأسماء طلباً لمسمياتها ففشلوا (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 304) جميعاً بعد ، جهود شاقة ولا يمكن اعتبار تجربة فيرنس على الأورانج أوتان ناجحة فى استثارة « اللغة » فى أحد المستويات تحت البشرية ، إذ هى لا تعدو إلقاء بعض الضوء على توفر بعض آليات التآزر اللازمة

لظهور اللغة ، ولكن لا يمكن أن نستنتج منها توفر جميع الارتباطات العصبية التي يقوم عليها النشاط اللغوى . ومع التسليم بالنتائج التي انتهى إليها يركيز ونيسين H.W.Nissen[1] من وجود البذور الأولى للعمليات الرمزية ، (M.P. Crawford 1941) وتلك التي انتهى إليها كوتس Kohts من وجود بذور عمليات التجريد والتعميم ، إلا أن هذه جميعاً تظل في حدود كونها بذوراً ، فهي نادرة التفتح شديدة البدائية في تفتحها إذا قورنت بما هي عليه في الإنسان .

٢ — وأما فيما يتعلق بالتعاون المنظم المستمر فهذا أيضاً لا وجود له لدى الشمبانزية وقد نشهد بعض الظواهر التي توشك أن تخدعنا فتشعرنا بوجوده لكن إمعان النظر فيها لا يلبث أن يطلعنا على الحقيقة . ومن بين هذه الظواهر ما رواه كهلر من أنه كثيراً ما كان يشهد الشمبانزية تشترك في إقامة بناء مرتفع من الصناديق أحدها فوق الآخر ، للوصول إلى هدف معين (كأن يكون طعاماً مدلى من سقف المكان) . إلا أن هذا العمل لم يكن من قبيل العمل التعاوني الذي يكشف عن اشتراك منظم ينطوى على « تقسيم عمل اجتماعى » مستقر بين الأفراد . فكثيراً ما كان يشهد الأفراد تحاول الصعود جميعاً نحو الهدف في وقت واحد ، وكأن كلا منها يعمل منفرداً . وكان يشهد أحياناً قردين يقيمان البناء جنباً إلى جنب ، ولكن سرعان ما يرى أحدهما يسلك بدون أى اعتبار للآخر ، فلا يلبثان أن يقعا في عراك ، وكلما ارتفع البناء احتدم الصراع وتوقف العمل عن التقدم . والنتيجة تحطيم هدف العمل أثناء العمل . ثم تبدأ القردة العمل من جديد . وهكذا حتى يدركها الملل . وكان يشهد أحياناً مجموعة تجذب جسما كبيراً (لا يمكن لأحد أفرادها أن يجذبه منفرداً) للوصول بوساطته إلى هدف معين . ولكن كلا منها كان في الواقع يعمل لحسابه الخاص ولا يعمل في مشروع جماعى ، إذ سرعان ما كان أحدهم يقفز ويفوز

(١) Yerkes, R. M. & Nissen, H. W. Pre Linguistie Sign Behavior in Chimpanzce, *Science*, 1939, 89, 585-587 (in M P. Crawford 1941)

بالهدف منفرداً (W. Kohler 1931, p. 661) وقد أجرى كروفورد M.P. Crawford بضع تجارب لاستثارة التعاون بين الشمبانزية ، فانتهى إلى نتائج لا تختلف كثيراً مع آراء كهلر التي يقيمها على أساس الملاحظة . ذلك أن ما اعتبره ظهوراً لسلوك الدعوة والإهابة[1] — وفى رأيه أنه بوادر السلوك التعاونى — كان يغلب عليه التحجر ؛ فكانت الشمبانزية «بولا» متكاسلة غالباً بينما كانت « بمبا » تدفعها إلى العمل بأن تلمس ذراعها ورقبتها وتدفعها برفق نحو موضوع العمل . وفى جزء آخر من التجربة حيث كان الطعام يوضع عند إحدى الشمبانزيتين دون الأخرى كانت « بمبا » تحاول دائماً الاختطاف بالقوة إذا كان الطعام عند « بولا » بينما كانت بولا تحاول دائماً التوسل بمد ذراعها إذا كان الطعام عند « بمبا» (M. P. Crawford 1941) ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن سلوك تعاونى صحيح . لأن السلوك التعاونى يتضمن القدرة على تغيير موقفنا تبعاً لمواقف الآخرين . وإذا كان كروفورد M.P. Crawford يقرر ظهور سلوك « المراقبة » لتصرفات الآخر فى تجاربه ، وهذا يتضمن محاولة إدراك موقف الغير ، فإن كل مانستطيع أن نستنتجه هنا لايعدو ما سبق أن استنتجناه فيما يتعلق بالعمليات الرمزية وعمليات التجريد والتعميم ، فنحن هنا بصدد البذور الأولى ، وهى نادرة التفتح شديدة البدائية فى تفتحها إذا ما قورنت بما هى عليه فى حالة الإنسان .

وقد حدثنا كهلر عن مظاهر سلوكية خادعة جداً لدى الشمبانزية ، أشد خداعاً من تلك التى يكشف عنها سلوك الشمبانزية فى تجارب كروفورد . فقد كان يرى أحياناً أحد الشمبانزية « يساعد » الآخر فى الوصول إلى شىء معين . ولكنه عندما كان يدخل فى حسابه جميع ملابسات الموقف لم يكن يلبث أن يرى هذه « المساعدة » على حقيقتها . فهى لم تكن تنطوى على « اعتبار موقف الغير وتقديم العون له على هذا الأساس » ، بل كانت تقوم على أساس توفير

---

(١) solicitation

الشروط اللازمة لاستمرار الفعل؛ إذ أن الشمبانزى يستمتع استمتاعاً فرديا بمشاهدة الآخر يعمل ، كما نستمتع نحن عندما نشاهد شخصاً آخر يقوم بعمل معين نحن نعرف خطواته مقدماً ، فنشارك عندئذ فى هذا العمل ولكن على أساس فردى (W. Kohler 1931, p. 168) نحن «لانعتبر موقف الآخر » ، بل نشارك مشاركة فردية (خيالية) فى استمرار الفعل . والدليل على ذلك أننا لايهمنا عندئذ التعرف على مصادر عجز الآخر لمساعدته إذا بدا أنه يبذل جهداً شاقاً ، بل يهمنا انطلاق الفعل نحو نهايته التى نتخيلها له . إلا أن الأعمال التى تمضى لدينا على هذا النحو هى « بعض أعمالنا مع الآخرين » ، لكنها لدى الشمبانزية تكاد تكون « كل أعمالها مع الآخرين » .

ويرى كهلر أن الشمبانزية أقدر على العرقلة المتبادلة منها على تبادل المساعدة . ويروى مثلا على ذلك حادثة الشمبانزية « جراند » التى رأت شمبانزية أخرى تقيم بناء عالياً من الصناديق فتحفزت لأن تهدمه ، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك . فلما اقتربت شعرت بذلك الشمبانزية الأخرى وكانت قائمة فى أعلى البناء ، وعندئذ هدمته هى نفسها بحركة مقصودة قبل أن تمسه « جراند » ، مما أغاظ هذه الأخيرة بشكل واضح (W. Kohler 1931, p. 171)

على أن هذا المثال رغم أنه مثال عن سلوك العرقلة المتبادلة فإنه يكشف لنا فى الوقت نفسه عن توفر أحد الشروط اللازمة لظهور سلوك المعونة المتبادلة . وأعنى به إمكان إدراك « وجهة نظر الآخر » . ولكن من الجلى أن هذا الشرط وحده لا يكفى لظهور السلوك التعاونى .

فماذا ينقص الشمبانزية حتى يظهر لديها السلوك التعاونى الصحيح ؟

ينقصها عدة عناصر أو شروط نوجزها فيما يلى :

١ — المثابرة على العمل المنتج المتواصل . وفى ذلك يروى كهلر الواقعة الهامة التالية : يقول إنه لاحظ أن الشمبانزية « نويفا » كانت مولعة بصنع عُقَد ، وذلك بوساطة بعض الخرق التى تعثر عليها أو بوساطة شرائح من ورق الشجر .

فهى تجمع طرفى الخرقة وتعقدها ، ثم تعقد عقدة أخرى بالجمع بين الطرفين الصادرين من هذه العقدة . وقد ظن كهلر أنها مقدمة على عمل بنائى منتج من قبيل الصناعة اليدوية ، فأعدلها إطاراً خشبياً تمر بثقوب منه بضع شرائح من ورق الشجر وقدمه إليها ، لعلها أن تصل فى النهاية إلى صنع «نسيج» بدائى . لكنها أولته ظهرها وانصرفت إلى عقدها . فلما حاول أن يضغط عليها لتوجه جهودها نحو هذا العمل المنتج المتواصل أطفأ اهتمامها بالعمل كلية (W. Kohler 1931, p. 312) ويبدو أن هذا العمل الذى أراد كهلر أن يدفعها إليه كان أعلى بكثير من مستوى قدراتها . فلماذا ؟ لسببين يتبينان فى الشرطين التاليين اللذين تفقدهما الشمبانزية أيضاً .

٢ ــ اتساع « مجال الحياة الزمنى » نحو المستقبل . وقد رأينا فى حديثنا عن الذاكرة اتساع مجال الحياة الزمنى لدى الشمبانزية نحو الماضى . أما فى الاتجاه نحو المستقبل فيبدو أنه لا يتسع بهذا القدر . فالشمبانزية لاتستطيع أن تسقط على المستقبل البعيد صورتها وقد حققت بعض حاجاتها ، لتكون بمثابة باعث لها على مواصلة العمل فى اتجاه معين . وقد حدثنا كهلر عن أنها يدخل المستقبل فعلا فى اعتبارها ؛ فقد نجدها تنفق وقتاً طويلا فى إعداد أداة معينة للوصول بها ــ بعد إعدادها ــ إلى هدف معين . ولكنا نجدها من حين لآخر تنظر إلى الهدف (W. Kohler 1931, p. 172) والمستقبل هنا ضيق الحدود إلى حد بعيد ، مما لا يتضمن القدرة على العمل طبقاً لخطة بعيدة الأجل . ولما كان « العمل المنتج » يتضمن دائماً العمل طبقاً لخطة وسعياً وراء هدف (خيالى) غير ماثل أمامنا فى الوقت الحاضر ــ كما هو الحال فى جميع الأعمال الزراعية والصناعية والفكرية ــ فقد عجز الشمبانزى عن القيام بأى عمل منتج متواصل ، وبالتالى عاش فى مرحلة الجمع والالتقاط ، ولم يستطع أن يشيد حضارة كما يقول كروبر A.L. Kroeber [1] (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929; p. 255) من

---

(١) Kroeber, A.L. Sub-human Culture Beginnings, *Quart. Rev. Biol.*, 3, 1928 (in Yerkes 1929).

حيث إن الحضار تجمّع لأعمال منتجة ، ومن الواضح أن العجز عن القيام بعمل منتج متواصل لمدة طويلة يقضى على إمكانية التعاون المجدى[1] .

٣ ـ الاستقرار الوجدانى : يبدو كذلك أن من أهم أسباب هذا العجز عند الشمبانزية عجزها عن الاستقرار الوجدانى . ومن الواضح أن الارتباط بقيمة معينة (قيمة الهدف أو قيمة العمل) والتكريس فى سبيلها ، وهما شرطا استمرار العمل ، يتطلبان هذا الاستقرار وهو غير متوفر لديها . وقد حدثنا كهلر عن كثير من مظاهر هذه الانفعالية غير المستقرة . فعندما كان يوقع على أحد الشمبانزية اليافعة أتفه مظاهر العقاب وأخفها كانت تبدى غضباً عنيفاً لا يتناسب وتفاهة العقاب ، ولا يتناسب وسابق سلوكها معه الذى كان ينم فى كثير من لحظاته عن حب وتعاون عابر . كذلك كانت سائر الشمبانزية تندفع فى إعصار من الغضب نحو المدرِّب ومحاولة الاعتداء عليه ، حتى إنه ليقرر ضرورة العدول عن محاولات العقاب نهائياً وإلا تعرض للأذى بلا رحمة ولا اعتبار . ثم إن الشمبانزى الذى وقع عليه العقاب لم يكن يلبث أن يقوم بحركات مؤداها « طلب العفو » بسرعة وبدون استقرار على غضب أو ضغينة . وبوجه عام نجدها عاجزة عن أن ترتبط ارتباطاً وجدانياً عميقاً بأية قيمة جاذبة أو منفرة ، فهى تعيش فى مستوى وجدانى لا يكاد يختلف عن مستوى الطفل البشرى (فى السنتين الأوليين من العمر) من حيث مظهره المتحقق لا من حيث إمكانياته ، أو بعبارة أخرى فى المستوى الوجدانى للسيكوباتى ، الذى يبدى عجزاً واضحاً عن أى ارتباط وجدانى عميق . فما تقوله سوزان أيزاكس S. Isaacs عن الأطفال من أن « بغضهم حاد شديد ، ولكنه ابن لحظته فقط » ، ومن أنهم إذا لم يتعرضوا للقمع عبّروا عن غيظهم

---

(١) سنتحدث فى موضع قادم عن الارتقاء الاجتماعى للطفل فيما قبل الرابعة . وسنبين حينئذ أن من أهم أسباب عجزه عن تكوين جماعات عجزه عن المساهمة فى وضع « خطط المستقبل » حتى تواصل الجماعة نشاطها .

وتحديهم بتهيج وحدة شديدين نحو من يعترض إحدى رغباتهم وتمنوا زواله والقضاء عليه مهما يكن إخلاصهم له وتفانيهم فى حبه فى أوقات أخرى (س. أيزاكس ١٩٤٦ ، ص ٩٣) . وما يقوله الدكتور صبرى جرجس من شدة ضحالة الحياة الوجدانية وجد بها لدى السيكوباتيين وعجزهم عن الانفعال الناضج (ص . جرجس ١٩٤٩ ، ص ٢٢٩) الذى يمتاز أول ما يمتاز بالاستقرار وتوجيه حياة صاحبه وجهة معينة تمتاز بالاستعداد لانطلاق الاستجابات فى اتجاه معين — ، إنما ينطبق إلى حد كبير على الحياة الوجدانية للشمبانزية . وربما كان تشبيه الشمبانزية بالسيكوباتيين فى هذا الصدد أقرب إلى الدقة من تشبيهها بالأطفال . وإذا جاز لنا أن نستطرد بعض الشيء فى هذا التشبيه قلنا إن مجتمع الشمبانزية يعيش فى المستوى الذى يعيش فيه مجتمع من السيكوباتيين لو أمكن لهذا الأخير أن يوجد . ومن الملاحظات الطريفة فى هذا الصدد عجز السيكوباتيين — الشبيه بعجز الشمبانزية — عن العمل المنتج المستمر سعياً وراء هدف فى المستقبل البعيد . وعجزهم التام عن التعاون الصحيح مع الآخرين .

من هاتين النقطتين ٢ و ٣ يتبين لنا السبب فى أن الشمبانزية « نويفا » انصرفت عن العمل الذى أرادها كهلر أن تقوم به ، فقد كان خارج نطاق قدراتها واستعداداتها الفطرية . كما أن النقاط الثلاثة جميعاً تبين لنا إلى أى حد تفتقد الشمبانزية مقومات السلوك التعاونى المتصل الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية من الطراز الإنسانى .

على أننا نضيف كذلك نقطتين أخريين ، من شأنهما أن يوضحا سبب عدم ظهور السلوك التعاونى لدى الشمبانزية . ومن شأنهما كذلك أن يلقيا بعض الضوء على الدعائم السيكولوجية لنمط الاجتماع الإنسانى .

٤ — « فالقدرة على اعتبار الآخر والاستجابة له فى المستوى الخيالى » مسألة هامة وأساس نفسى هام لظهور السلوك التعاونى . فهى مثلا الأساس العميق الذى تقوم عليه معظم تصرفاتنا نحو أبنائنا فى غيبتهم . فقد تصادفنى فى الطريق

دمية لا ألبث أن أشتريها لأنى « أتخيل » مقدار الفرح الذى ستدخله على ابنتى عندما أفاجئها بها . وقد أؤجل شراء شيء يلزمنى لأشترى بثمنه هدية أقدمها لصديقى فى عيد ميلاده ، وقد أبكى بكاء مراً عندما يبلغنى نبأ وفاة شخص من أعزائى ، ويزدادحزنى وبكائى إذا حدثنى البعض فى تفاصيل الحادث الذى أدى إلى وفاته . فى هذه القدرة تكمن بذور المشاركة الوجدانية واستطاعتنا تغيير موقفنا تبعاً لموقف الآخر . وهى التى سماها أندرسون H. H. Anderson بالاستجابة لفوارق الغير (H. H. Anderson 1943) فهل توجدهذه القدرة عند الشمبانزية ؟ كلا . بل يوجد شيء شبيه بها لكنه لا يرقى إلى مستواها . فإذا شاهد أفراد الجماعة فرداً منهم فى حالة تألم وضعف شديدين بدت عليهم علامات الاهتمام الشديد به بل وقد تبدو عليهم مظاهر بذل المساعدة له . وقد نجد أحدهم يقترب منه ويحاول أن يحتضنه ويربت على ظهره . ولكن لو أن هذا الفرد مات فى حجرته دون صياح ولا ضجيج فإن الجماعة لاتشعر بموته ولا تحزن له بل تواصل نشاطها اليومى المعتاد . ومعنى ذلك أن الشمبانزية لا تستطيع المشاركة فى مستوى خيالى (W. Kohler 1931, p. 285) .

٥ — كذلك يبدو أن ثمة سبباً خامساً لتعطل السلوك التعاونى لدى الشمبانزية ، ونعنى به انخفاض درجة تخصص الحاجات والدوافع كتخصصها لدى الإنسان . وقد حدثنا كهلر عن الحوافز الجنسية لديها وكيف أنها أقل « تغايراً » من بقية مظاهر النشاط . ولذلك فإن أى تنبيه قوى — أياكان مصدره — لا يلبث أن يثير هذه الحوافز ضمن إثارة الشمبانزى إثارة عامة . ويبدو أن هذه الإثارة العامة تنطبق على سائر الدوافع ، هذا إذا أدركناها على أنها دليل على مستوى ارتقائى معين . (من حيث إن زيادة الارتقاء تمضى نحو زيادة التغاير) . ومن الجلى أن مثل هذه التربة ليست صالحة لظهور السلوك التعاونى لدى الأفراد ، لأن يقظة الدوافع المتشابهة فى معظم المواقف من شأنها أن تدفع أصحابها نحو نفس الهدف الخاص ، مما يغلّب بينها الصراع والتناحر بدلا

من التعاون . وسنرى عندما نتحدث عن الارتقاء الاجتماعى للطفل كيف أنه يتعذر على الأطفال حتى سن الرابعة إقامة جماعات مستقرة بينهم لأنهم غالباً ما يتعلقون بنفس الأهداف مما يغلب الصراع فيما بينهم ؛ ومن المعلوم أن الأجهزة النفسية لدى الأطفال أقل تغايراً منها لدى الراشدين . كما أن اختلاف الاهتمامات لدى الراشدين وتقسيم العمل الاجتماعى المرتب عليها — من الجوانب الهامة فى عملية التكامل الاجتماعى بوجه عام .

النتيجة النهائية إذاً أن نمط التكامل الاجتماعى لدى الشمبانزية يختلف اختلافاً كيفياً عن نمطه لدى الإنسان . وهو يقوم فى مستوى ارتقائى أدنى منه، بحيث إن الهوة الفاصلة بينهما لا يمكن عبورها بمجرد عمليات تربوية ، لأن هذه الهوة إنما تقوم على اختلافات عضوية حاسمة ، أهمها ضآلة كتلة المخ لدى الشمبانزية بالنسبة لكتلته لدى الإنسان ، إذ تبلغ ربع هذه الأخيرة ، مع أن كتلة جسم الشمبانزى اليافع أقرب من ذلك كثيراً بالنسبة إلى كتلة جسم الإنسان الراشد . أضف إلى ذلك بعض اختلافات فى كيمياء الدم رغم أوجه الشبه التى سبق أن ذكرناها (E.A. Hooton 1947, p. 44) .

إن تجمعات الشمبانزية رغم تفوقها على تجمعات الطيور بالاستقرار ، وعلى تجمعات النمل بالمطاوعة ، فإن استقرارها ومرونتها ليبدوان ضئيلين جداً بالنسبة لاستقرار الجماعة البشرية ومطاوعتها ، وبالتالى لإمكانياتها . وسنرى فى الفصول القادمة ما هى الأسس النفسية التى يعتمد عليها نمط الاجتماع البشرى ، من حيث إنه نمط فريد فى استقراره وتضامنه من حيث الشدة والعمق ، وفريد فى مطاوعته من حيث الإمكانيات العظيمة لهذه المطاوعة .

الباب الثانى

ارتقاء الاستجابات الاجتماعية منذ الطفولة

الفصل الأول

الوليد فى الأسبوعين الأولين من عمره

مقدمة – الوليد البشرى والوليد الشمبانزى –
مشكلات منهجية – الوليد فى الأسبوعين الأولين

مقدمة :

عندما ننتقل من التجمعات الحيوانية ، فى أعلى مستوياتها إلى المجتمع البشرى أيا كان مستواه الحضارى ، نلمس فرقاً هائلا ، قد لا نستطيع أن نحدده لأول وهلة ، لكننا نستطيع على أقل تقدير أن نحدد اتجاهاته العامة ؛ وهى تتلخص فى أن نمط المجتمع البشرى أعظم ثراء من أى نمط من أنماط التجمعات الحيوانية ، كما وكيفا . فأما من حيث الكم فعدد العلاقات القائمة والتى يمكن أن تقوم داخل أية جماعة بشرية يفوق بكثير عدد العلاقات القائمة والتى يمكن أن تقوم داخل أى تجمع حيوانى. وأما من حيث الكيف فمستويات الشخصية التى يلتقى عندها أعضاء الجماعة البشرية أثرى بكثير جداً من مواضع الالتقاء بين أفراد أى تجمع حيوانى .

وقد قلنا فى الفصل السابق إن جماعة الشمبانزية إذا جاز لنا أن نشبهها تشبيهاً إنسانياً فإنها تشبه جماعة تتألف من أشخاص سيكوباتيين ، ميزتهم الأولى ضعف الأنا ضعفاً شديداً ، والعجز عن الانفعال العميق ، والعجز عن استخدام اللغة وتمثل مضمونها . وهذا التشبيه من شأنه أن يبين لنا أى فارق هائل يفرق بين التجمعات الحيوانية حتى فى أعلى مستوياتها الارتقائية ، وبين الجماعة البشرية .

غير أننا لا نستطيع أن نتقدم مباشرة إلى تفصيل القول فى الجوانب المتعددة لهذه المقارنة ، رغم أن هذه الخطوة تبدو أنها الخطوة المطلوبة منطقياً لإبراز

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي في المستوى البشري . وسبب ذلك العجز هو التعقد البالغ في أنماط العلاقات داخل الجماعة البشرية ، بحيث تبدو كأنها التيه الذي لا مخرج منه . فإذا تخيلنا إحداث قطاع رأسي في الجماعة فسنجد لها أنماطاً متعددة متباينة تقوم في مختلف المستويات الحضارية منذ الجماعة العريقة في البداائية حتى المجتمع المتمدين الحديث ، والفوارق بين هذه الأنماط لا يمكن إغفالها ، ويكفي للتنبه إلى أهميتها أن نرجع إلى بعض المؤلفات الاجتماعية ، مثل مؤلف دوركهيم « تقسيم العمل الاجتماعي» الذي يقرر فيه أن نمط التكامل في المجتمع البدائي « آلي» وكلما ارتقى المجتمع أصبح التكامل «عضوياً» (E. Durkheim 1926) وبحوث ليفي بريل L. Bruhl التي يسبر فيها سيكولوجية الفرد في المجتمع البدائي وفي المجتمع المتمدين الحديث ويقرر بعض ما بينهما من فوارق متعددة هامة (J. Przyluski 1940) فأي نمط من الأنماط القائمة في مختلف المستويات الحضارية نختار لنسبره ونتبين العمليات النفسية القائمة من ورائه ؟ ومن الجلي أننا لم نواجه هذه المشكلة عندما كنا بصدد النظر في التجمعات الحيوانية .

وليس هذا هو وحده مصدر التعقد في المشكلة . بل هناك مصدر آخر لا يقل عنه تعقداً وأهمية . ذلك أن مجتمعنا المتمدين الحديث إذا نظرنا إليه في مسقط رأسي ألفيناه منقسماً إلى عدة جماعات صغرى تسودها أنماط مختلفة من العلاقات وأساليب متباينة من التفاعلات . فهذه أسرة ، وتلك جماعة من الأصدقاء ، وثمة عصبة من الجانحين ، و ... إلخ . ومهما حاولنا أن نختار موضوعاً للدراسة مجتمعاً ضارباً في البدائية فلن نجد مجتمعاً بشرياً يسوده التجانس التام وينعدم فيه التغاير . كل ما في الأمر أننا سنجد التغاير يتضاءل والجماعات الصغرى الداخلية يقل عددها ، لكنها لا تنعدم أبداً . ومن ثم فستواجهنا المشكلة مهما حاولنا تجنبها ، وسنجدها دائماً مشكلة ذات شعبتين :

الأولى : ما هي الأسس النفسية لتكامل الأعضاء داخل هذه الجماعات الصغرى ؟

والثانية : ما هى ديناميات التكامل بين الجماعات الصغرى بحيث تؤدى إلى وحدة المجتمع الكبير .

ولا بد من الإجابة على السؤالين ، وإلا كان بحثنا مبتوراً . ومن الجلى أنهما لم يواجهانا على هذه الصورة عندما كنا بصدد النظر فى التجمعات تحت البشرية . فالجماعات الصغرى داخل قرية تقوم على أساس الاشتراك فى صفات عضوية بين الأفراد ، يكون نتيجته التماثل فى النشاط . أما ما يجمع بين هذه الجماعات ويقيم منها وحدة القرية فهو العامل الكيميائى المشترك . وفى الطيور لا تكاد توجد جماعات صغرى داخل التجمع الكبير ، وليس معنى ذلك أنه لا يوجد تغاير داخل هذا التجمع ، فالواقع أن التغاير قائم فعلا ، لكنه تغاير بين الأفراد . وفى البابون والشمبانزية لا توجد سوى جماعات صغرى ، وهذه لا تلتئم فى شكل تجمعات كبيرة إلا على سبيل الصدفة والتماس على السطح لا التفاعل العميق الذى ينجم عنه التكيف المتبادل الحاسم . هذا وقد بينا فى الفصل السابق كيف أن نمط العلاقات بين الأفراد داخل الجماعة الصغرى (الأسرة) شديد الفقر والتحجر إذا ما قارنا بينه وبين نمط العلاقات بين الأفراد داخل الجماعة الصغرى البشرية المناظرة .

وخلاصة هاتين المشكلتين الرئيسيتين ، أعنى المشكلتين اللتين تواجهاننا عندما ننظر فى المجتمع البشرى من مسقط أفقى ومسقط رأسى ؛ أننا هنا بصدد مستوى تطورى جديد يختلف اختلافاً كيفياً عن جميع المستويات التطورية السابقة عليه ، من حيث المطاوعة والثراء . فأما من حيث فيتجلى ذلك فى أننا نجدنا بصدد تاريخ لتطور اجتماعى لا يوازيه تطور بيولوجى واضح ، وأما من حيث الثراء فيتجلى فى هذه الوحدة الاجتماعية الكبرى التى تتم على الرغم من تغاير الجماعات الصغرى — القائمة بداخلها — وبفضل هذا التغاير فى آن واحد .

عند ما نلخص المقارنة فى هذين المفهومين ، « المطاوعة » و « الثراء » فنحن نمسك فى الواقع بطرف الخيط الذى سوف نسحبه أثناء دخولنا فى مسالك التيه

لنكون — كما كان ثيسيوس — قادرين على الرجوع إلى مقدماتنا متى وحيث شئنا . فهذان المفهومان اللذان نستنبطهما من المقارنة الفينوتيبيه بين الجماعة البشرية والتجمعات الحيوانية يقومان بمهمة العدسة التى تجمع الأضواء المشتتة المنعكسة على أسطح لا حصر لها ، وتركزها فى نقطة واحدة ، هى جماع النقاط ، ومن ثم فعندها نبدأ ، ومنها نأمل أن نعود بالشرح والتعليل إلى النقاط الرئيسية التى تقوم كمفاتيح للسبل المؤدية إلى نقاط فرعية قائمة وراءها .

إن قولنا بأن « المطاوعة» و « الثراء » هما الميزتان الكيفيتان للجماعة البشرية فى اختلافها عن أى تجمع حيوانى ، يحتم علينا أن نبدأ البحث فى أسس التكامل الاجتماعى البشرى من زاوية الاستعدادات الفطرية النفسية الجسمية التى يولد الفرد البشرى مزوداً بها والتى من شأنها أن تقوم كأساس لهذه المطاوعة وهذا الثراء . وعلينا بعد ذلك أن نتتبع ارتقاء الاستجابات الاجتماعية لديه ، لأن الوقوف عند حد الاستعدادات لا يكفى ، إذ أنها قد تتحقق فتصبح قدرات على التآلف والتعاون ، أو ينتهى الأمر بصاحبها إلى أن يصبح مصدراً لتكامل مرضى ، أو لعدوان وتهديد لتكامل الجماعة تكاملا سويًّا . فلا بد إذاً من تبين آثار النضوج[1] والاكتساب[2] وإلقاء بعض الأضواء على ديناميات التفاعل القائم بينهما . وبتمام هذا الجزء من أجزاء البحث يتوفر لدينا الشرط الأول والرئيسى لإعطاء صورة شبكية لنمط التكامل الاجتماعى البشرى ، قوامها مفاهيم دينامية تكوينية[3] .وهو ما سنخصص له الباب الأخير من بحثنا هذا .

وقبل أن نبدأ بالنظر فى ارتقاء الوليد البشرى وما يقوم عليه هذا الارتقاء من استعدادات فطرية وظروف بيئته ، نقوم بإلقاء بعض الأضواء على مصادر معلوماتنا فى هذا الصدد . وهى نوعان :

ا — البحوث التى أجراها بعض كبار الباحثين فى هذا الميدان ، من أمثال

---

(١) maturation   (٢) learning   (٣) genetic

بياجيه J. Piaget وڤالون H. Wallon وجيزيل A. Gesell ولويز باركلى مورفى L.B. Murphy وغيرهم .

ب ــ ملاحظات مباشرة قام بها الباحث على ابنته منذ ميلادها حتى إتمامها السنة الثالثة تقريباً . وإلى جانبها ملاحظات أخرى أقل كثافة ، أجراها الباحث وما زال يجريها على طفلين آخرين .

حـ ــ ملاحظات أخرى أجراها الباحث على مجموعة من الأطفال أتيح له مراقبتها عن قرب أثناء اللعب الحر . وتتراوح أعمار أفرادها بين الثامنة والثالثة عشرة . على أن معظم هذه الملاحظات ملاحظات على السلوك التلقائى كما يتحدد من خلال مواقف الحياة المختلفة وليست ملاحظات على استجابات لمواقف معدة من قبل إعداداً تجريبياً للتحكم فى متغيراتها، واكتشاف ما بينها من علاقات .

أضف إلى ذلك حداً آخر من شأنه أن يمنعنا من المغالاة فى قيمة هذه الملاحظات ،ألا وهو الظروف الخاصة التى تحيط بالأطفال موضوع هذه الملاحظات ؛ فهم جميعاً من أبناء الطبقة المتوسطة ، ولهذه الطبقة ظروف اجتماعية خاصة ينبغى لنا أن نحسب حسابها عندما نحاول التعميم (A.Joussain 1949; و م . ث . الفندى ١٩٤٩ A.B. Hollingshead 1950) إلا أن مثل هذه التحديدات لم تكن لتثنى الكثيرين من علماء النفس عن إجراء الملاحظات على أبنائهم أو أبناء أصدقائهم ومن أشهر هؤلاء بياجيه وجيوم P. Guillaume وشارلوت بوهلر C. Buhler وستمف C. Stumph وإذا كانت نتائج بحوثهم جميعاً قد جاءت نسبية الصدق ، فقد كان الرجاء وما زال منعقداً على استمرار الحركة العلمية الذى من شأنه أن يكشف عن شروط هذه النسبية،وبالتالى يزيد فى قدرتنا على التعميم . وهنا نضرب مثلا واحداً له من الوضوح ما يغنى عن ذكر أمثلة أخرى . فقد وصل بياجيه من ملاحظاته على الكلام عند بعض الأطفال إلى القول بمرحلة « التمركز فى الذات » باعتبارها المرحلة الأولى

من مراحل الارتقاء النفسى لدى الطفل ، وعارضته فى ذلك مكارثى McCarthy التى قررت — بناء على ملاحظات أخرى قامت بها على أطفال آخرين فى ظروف مغايرة — بأنه لا وجود لحالة التمركز فى الذات[1] كحالة قائمة مستقرة وكل ما هنالك بعض آثار ضئيلة تحملها بضع عبارات لا تكاد تتجاوز ٦ ٪ من مجموع عبارات حديث الطفل بأكمله (M.C. Collins 1939) ثم جاءت تجارب فيجوتسكى L.S. Vygotsky لتكشف عن حقيقة هذا التناقض بين ملاحظات بياجيه وملاحظات مكارثى، وذلك على أساس أن حالة الطفل تتغير بتغير « الموقف » الذى يواجهه. فتغلب عليه صبغة « التمركز فى الذات » عندما يواجه موقفاً معقداً لا خبرة له بمثله من قبل ، وإذ ذاك يكون كلامه له دلالة « التفكير بصوت عال لحل هذا الموقف (G. Murphy & others 1937, p. 53).

على أننا يجب أن نضيف إلى ذلك أن ملاحظاتنا تلتقى فى كثير من مادتها ودلالتها مع ما يقرره كثير من الباحثين المختصين بهذا الميدان، وقد لاحظنا هذا الالتقاء بوجه خاص مع ما يقرره فالون (H. Wallon 1941, p. 218) وجيزيل (A. Gesell & F. Ilg 1943) ولويز باركلى مورفى (L.B. Murphy 1947) . وهذا مما يكسب ملاحظاتنا درجة من الموضوعية لا بأس بها، ويلقى قسطاً من الضوء على عامل النضج متميزاً من العوامل البيئية من حيث مساهمته فى عمليات الارتقاء النفسى الاجتماعى للطفل .

* * *

١ — يولد الوليد البشرى عاجزاً عن التكيف بنفسه مع البيئة المحيطة به (الطبيعية والاجتماعية) عجزاً لا مثيل له لدى أى وليد فى المستويات التطورية الحيوانية (J.L. Moreno & F.B. Moreno 1944) وقد بينا فى الفصل السابق كيف أن الوليد البابون والوليد الشمبانزى وهما فى قمة السلسلة التطورية تحت البشرية

---

(١) egocentrism

يولدان عاجزين عن التكيف المباشر مع البيئة ، ويفوق عجزهما هذا من حيث الشدة والمدة عجز أى وليد فى أية فصيلة أخرى من فصائل الثدييات . لكننا نقرر هنا أن عجز الوليد البشرى يفوق عجز هذين الوليدين من حيث الشدة والمدة أيضاً . ومن أبرز مظاهر هذا التفوق فى العجز أن الوليد الشمبانزى يستطيع التعلق ببطن أمه منذ اليوم الأول ودون أن تساعده الأم على ذلك ، بل يعتمد على قدرته على القبض بيديه وقدميه على الشعر المنتشر (E.A. Hooton 1947, p. 257) على بطن الأم فى حين أن الوليد البشرى لا تظهر لديه بوادر القدرة على « القبض باليد » على الأشياء إلا فى أواخر الشهر الثانى وتظل بعد ذلك فترة طويلة بمثابة فعل منعكس يصدر رداً على لمس راحة اليد . بل إن هذا العجز ليمتد إلى عملية الامتصاص ، التى يشاع عنها أن نشاطها منظم فطرياً ، والواقع أن كل ما نستطيع أن نثبته للمنطقة الفمية لدى الوليد فى ساعاته الأولى هو درجة من الحساسية المتمركزة إلى حد ما ، بحيث إذا نبهت من قريب جداً (على مسافة ١ سم من الشفتين مثلا) انتشرت بها بعض الأرجاع المهوشة التى ليس لها قالب حركات الامتصاص المنتظمة . وتكون هذه الأرجاع بمثابة المادة الخام التى تكتسب قالبها المنتظم بفضل ما يلقاه الوليد من مساعدة من قبل الأم أو من يقوم مقامها ، وتكون هذه المساعدة — فى ظروفنا الاجتماعية والحضارية الراهنة — فى شكل إعطاء الوليد بعض السوائل بالملعقة ، وذلك فى اليومين أو الثلاثة أيام الأولى ، ثم باعتصار لبن الثدى فى فمه مع وضع الحلمة بين شفتيه ، فلا تلبث بعض الأرجاع الصادرة عن شفتيه أن ترتبط بمسرى اللبن فى بلعومه . وأخيراً تنتخب هذه الأرجاع وتبقى دون غيرها على أساس أنها « الأرجاع المؤدية إلى الشبع [1] » .

والسؤال الآن : هل لهذا العجز من دلالة ارتقائية ؟ الواقع أن له دلالة هامة جداً ولذلك حرصنا على إبرازه باعتباره النقطة الأولى التى ينبغى البدء عندها

---

(١) يشير جاردنر مورفى G. Murphy إلى هذه العملية تحت اسم التقنية Canalization

لدراسة الارتقاء الاجتماعى للفرد . فهو يعنى أولا أن الوليد يظل فترة طويلة بحاجة شديدة إلى استمرار عناية الراشدين به كشرط لاستمرار بقائه ، ويعنى ثانياً أنه يلقى فرصة للتعليم– نتيجة لاستمرار احتكاكه بالراشدين — لا تتاح لغيره من الكائنات فى أى مستوى تطورى آخر ، ويعنى ثالثاً أنه بحكم طبيعته العضوية — التى لها هذه الدرجة من عدم التحدد الفطرى — أكثر استعداداً لتشكيل نشاطه فى قوالب متنوعة (H. Wallon 1941, p. 46) ويعنى رابعاً أنه مضطر إلى أن ينمى وسائل التعبير والطلب بدرجة تتناسب مع شدة احتياجه إلى مساعدة الآخرين وتنوع حاجاته . هذه هى الجوانب الأربع لدلالة عجز الوليد البشرى فيما يتعلق بارتقائه الاجتماعى ، وهى تتجه جميعاً إلى « ربط الفرد بالآخرين وإدماجه فيهم » بحيث تخلق من الجميع « وحدة اجتماعية » على درجة من التكامل لا يمكن تحقيقها فى أى مستوى تطورى آخر . على أن هذه الجوانب الأربع نفسها تتجه فى الوقت ذاته — إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى — إلى تنبيه الشعور « بالإنية » وتعميقه فيشعر الطفل بأنه كائن له « إنيته » المتميزة من الآخرين نتيجة لشعوره بقصوره دون تحقيق جميع مطالبه ، وحاجته إلى تلقى العون من الآخرين ، هذا العون الذى يلقاه أحياناً ولا يلقاه أحياناً أخرى (H. Wallon 1946) ، مما يدفعه إلى الاستزادة من المكتسبات وهذا بدوره ينمى الشعور بإنيته . هاتان النتيجتان المتناقضتان — على الأقل فى ظاهرهما — الصادرتان عن نفس المصدر — ألا وهو العجز الشديد لدى الوليد — لابد من إدخالهما فى اعتبارنا ، إذا أردنا أن نفهم نمط التكامل الاجتماعى البشرى على حقيقته . فثمة اندماج ووحدة اجتماعية من ناحية ، وثمة شخصيات لكل منها درجة من الاستقلال الفعلى والشعور بالاستقلال لا يمكن إنكارها مهما تضاءلت . ولا يمكن الاقتصار فى بحثنا على أحد القطبين دون الآخر ، وإلا كنا غير أمناء فى تصويرنا وتفسيرنا للواقع .

وهناك زاوية أخرى لا بد من اعتبارها فى هذا الموضع ، فلا يكفى أن ننظر

من داخل الوليد بل لا بد أن ننظر إلى « الوليد فى أول موقف اجتماعى يواجهه » فهذا من شأنه أن يلقى ضوءاً جديداً على هذا الارتقاء الإنسانى الفريد . إن أول موقف اجتماعى يواجه الوليد هو « موقفه مع أمه » سواء أكانت هذه الأم هى الأم البيولوجية أم هى أم بديل [١]. وخلاصة هذا الموقف : أمومة فى مستوى أعلى من أية أمومة فى أى مستوى حيوانى سابق . وذلك مما يتناسب وشدة عجز الوليد البشرى . إذ يتطلب الوليد قدراً كبيراً من العون والرعاية يكاد يفرض على الأم التفرغ والاستغراق التام فى وليدها عندما تقدم له عونها ورعايتها . ولكن الأم بحكم طبيعتها البيولوجية التى تتمثل فى استمرار حياتها الجنسية وعدم خضوعها لإيقاع موسمى (فترات نشاط وفترات خمول) كما هو الحال فى معظم المستويات الحيوانية السابقة (E.A. Hooton 1947, p. 259) وبحكم حياتها الاجتماعية المستقرة التى لا تنقطع فيها مسئولياتها نحو الآخرين ، نقول إن الأم بحكم طبيعتها البيولوجية وحياتها الاجتماعية — الفريدة — مضطرة إلى أن تتخلى بعض الوقت عن الطفل وتتفرغ لغيره أو لنفسها (S. Isaacs 1933, p. 287) .

فالطفل من ناحية يكاد يستولى على الأم استيلاء تاماً فى بعض الأوقات ، وفى أوقات أخرى يكاد يفقدها فقداناً تاماً . فإذا أضفنا إلى ذلك أولاً أن الطفل فى مراحل العمر المبكرة لا يستطيع أن يمارس وظيفتى التذكر والتوقع وبالتالى فهو يكاد يعيش فى الحاضر فحسب ، وإذا أضفنا ثانياً أن الأم هى — فى العادة — منفذه الأوحد أو الرئيسى إلى الشبع والرضا ، وإذا أضفنا ثالثاً أن الطفل جهاز بيولوجى على درجة ضئيلة من التغاير ومن ثم فإنه إذا اتجه إلى تعبير أو طلب فإنما يكاد يتجه « بكل طاقاته » دفعة واحدة ، إذا حسبنا حساب هذه العوامل الثلاثة فى « موقف الطفل مع الأم » ذلك الموقف الذى يتذبذب بين قطبى « البذل والحرمان » أدركنا إلى أى مدى يكون هذا الموقف محملا بالتوترات [٢] وإلى أى مدى يصل عمق تأثيره فى سيكولوجية الطفل . أما عن

---

(١) substitute mother

(٢) tensions

اتجاه هذا التأثير فهو يمضى نحو تغذية شعبتى الارتقاء الاجتماعى سالفتى الذكر ، وهما الاندماج والاستقلال أو الاجتماعية والفردية فى آن واحد .

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة نعقد مقارنة بين هذا الموقف الذى يواجه الوليد البشرى منذ لحظاته الأولى وبين الموقف المناظر له الذى يواجه الوليد الشمبانزى ، وذلك لنزيد من توضيح الدلالة الارتقائية للموقف الأمومى البشرى. إن الوليد الشمبانزى يتعلق ببطن أمه منذ الساعات الأولى ، وبذلك يكون فى موضع يمكنه من الرضاعة حينما يريد دون أن يقتضى ذلك كثيراً من البذل والرعاية من جانب الأم أو التفرغ له كلية والانقطاع عن مواصلة نشاطها الحركى أو الغذائى . وقلما تبذل الأم الشمبانزية المساعدة لرضيعها إذا قورنت بالأم البشرية ، بل لقد لوحظ أن هذا الرضيع يستطيع أن يحرك رأسه فى بضع اتجاهات منذ اليوم الرابع لميلاده باحثاً عن الثدى ، وكثيراً ما تؤدى حركات الأم إلى فشله فى الوصول إليه بعد أن يكون (E.A. Hooton 1947, p. 258) على وشك النجاح ومن الجلى أن مثل هذه الصلة بين الأم والوليد ليس من شأنها أن تتيح للوليد درجة عالية من الاجتماعية أو « الاتحاد بالأم » . أضف إلى ذلك أن توقف العلاقات الجنسية بين الأم والأب الشمبانزى طوال فترة الرضاعة ، وعدم ارتباط الأم بمسئوليات اجتماعية — نحو آخرين — كما هو الحال لدى الأم البشرية ، مما يقلل من تجارب الحرمان فى حياة الوليد ، وحتى إذا وجدت بعض هذه التجارب أحياناً فإنها لا تبلغ فى عمق تأثيرها بعض ما تبلغه تجارب الحرمان التى تمر بالوليد البشرى ، ذلك لأن من عوامل شدة هذه الأخيرة وعمقها تجارب الأمومة البالغة الشدة التى يمر بها الوليد فى لحظات أخرى ، وهو مالا وجود له فى حياة الشمبانزية . ومن شأن هذا الجانب الآخر من جوانب الموقف الأمومى لدى الشمبانزية ألا يتيح للوليد درجة عالية من الشعور بالقصور وبالتالى « بالإنية » المتميزة . فإذا أردنا أن نصف « الموقف الأمومى » لدى الشمبانزية وصفاً جامعاً موجزاً ، قلنا إنه فقير جداً فى توتراته من حيث الشدة

والمقدار ، وإن هذا الفقر ناتج أولا وقبل كل شيء عن عدم تبلوره فى قطبين متناقضين هذا التناقض العميق المتحقق فى الموقف الأمومى الإنسانى وأعنى بهما قطبى « البذل والحرمان » . وإن من أهم آثاره أن يتمخض عن كائنات ضحلة الوجدان ، ضامرة « الأنا» ، عاجزة عن الاتحاد العميق بالآخرين .

٢ – يولد الوليد البشرى عند مفترق الطرق ، بين الاجتماعية والفردية . ويكون متجها بحكم طبيعته البيولوجية وطبيعة الموقف الأول والرئيسى الذى يواجهه إلى النمو فى الاتجاهين معاً . وهو فعلا ينمو محققاً تأليفاً بينهما ، تتفاوت نسبة كل من العنصرين فيه تبعاً لعوامل مختلفة الأهمية والشمول ، من الخبرات الشخصية حتى المستويات الحضارية . كما تتفاوت الصلة بين كل من هذين العنصرين من حيث درجة الاتزان والتوافق أو الصراع .

وقد ألقينا بعض الأضواء على إمكانيات هذا النمو ، إمكانياته البيولوجية النفسية الاجتماعية . والخطوة المنطقية التالية هى أن نلقى الضوء على دينامياته . كيف تتحقق هذه الإمكانيات وتخرج من حيز القوة أو الكمون إلى حيز الفعل أو التحقق ؟

إن الإجابة على هذا السؤال هى موضوع هذا الباب بأسره . ولن نستطيع أن نشرع فيها قبل أن نحدد منهجاً لها ، لأن الارتقاء الاجتماعى الذى سوف نحدد معالمه ونكشف عن عوامله متشعب ومعقد بدرجة هائلة . فلا سبيل إلى الإحاطة به وبدينامياته إلا بتنظيم الإجابة على أساسين :

ا – تعدد جوانب النمو ومساهمتها جميعاً فى تحقيق اتجاه النمو الاجتماعى للشخصية ونمطه . فمع التسليم بأن الأضواء كلها يجب أن توجه إلى ارتقاء القدرات والاستجابات الاجتماعية لدى الفرد ، إلا أننا لا نستطيع أن نقتصر على تتبع خطوات هذا الارتقاء كما تتحقق ، لأن ذلك من شأنه أن يقدم لنا وصفاً دون تفسير . وإذاً فسنجدنا مضطرين إلى أن نتتبع جوانب من النمو قد تبدو لأول

وهلة بعيدة الصلة بالارتقاء الاجتماعى لكنها فى الواقع من أسسه الهامة . مثال ذلك نمو القدرات الحركية ونمو الذاكرة وما إليها . ولا جدال فى أن الحديث فيها يمكن أن يتفرع إلى دقائق لا قيمة لها بالنسبة لهذا البحث ، لكننا لن نتناولها إلا من حيث مساهمتها فى تحقيق الارتقاء الاجتماعى .

ب — تقسيم عملية الارتقاء التى تمتدمنذ الميلاد حتى الرشد إلى بضع مراحل كبرى ، وتوضيح خصائص كل مرحلة وعواملها الرئيسية . ومن الجلى أن عملية الارتقاء متصلة ، إلا أن هذا لا يحول دون تبينّ انقسامها إلى عدة أقسام كبرى ، يمتاز كل منها بخصائص كبرى تجمع بين أجزائه وتكسبها دلالة مشتركة (L.B. Ames & others 1949) وهذا هو الشأن فى عملية التطور البيولوجى للكائنات الحية عامة كما بينا من قبل ، وهو الشأن فى التطور التاريخى للمجتمعات ، بل وهو الشأن فى العمليات التطورية جميعاً .

والواقع أن المشكلة ليست فى مبدأ التقسيم ، لكنها فى أساس هذا التقسيم . ذلك أننا نستطيع أن نجريه على عدة أسس . فإذا اتخذنا مثلا النمو اللغوى أساساً ، انقسم أمامنا ارتقاء الفرد إلى مرحلة إصدار الأصوات بطريقة عشوائية ، والاستجابة لأصوات الآخرين على أساس قيمتها الفيزيقية غالباً بدلا من الاستجابة على أساس مضمونها الوجدانى أو الرمزى ، وهذه تمتد طوال الأشهر الثلاثة الأولى من العمر ، ثم مرحلة تفهم المضمون الوجدانى للكلام دون القدرة على التكلم ، وهذه تمتد إلى نهاية الشهر السادس تقريباً ، ثم مرحلة اكتساب الكلمات واستعمالها دون تركيبها فى جمل وهذه ، تمتد إلى الشهر السابع عشر تقريباً ، ... إلخ (M.M. Lewis 1936) وهذه المراحل تختلف عن المراحل التى ينقسم إليها ارتقاء الفرد إذا نحن اتخذنا أساساً آخر للتقسيم كنمو الذاكرة ، إذ سنجد عندئذ أن المرحلة الأولى تمتد طوال السنة الأولى من عمر الوليد حيث لا يبدى الوليد من دلائل التذكر سوى التعرف على المألوف والدهشة للجديد ، ثم تأتى المرحلة الثانية وتمتد حتى السنة الرابعة وأهم ما يميزها ظهور القدرة على

التفرقة بين « ما حدث قبل» و « ما حدث بعد» . ثم تأتى المرحلة الثالثة ....إلخ (K. Koffka 1931) . وهذه المراحل بدورها تختلف فى حدودها الزمنية وفى خصائصها الرئيسية عن مراحل أخرى ينقسم إليها الارتقاء إذا نحن اتخذنا أساساً آخر للتقسيم ، كنمو القدرة على التصوير أو النمو الوجدانى (ى . مراد ١٩٤٦) وهكذا .

فما هو أساس التقسيم الذى سنجرى عليه ؟ لا بد أن يكون متصلا أوثق اتصال بطبيعة موضوعنا . ومن هنا نرى أنه يجب أن يكون « بزوغ الأنا وتميزه وتغايره واستقراره» ، من حيث إن الأنا هو مركز الشخصية بمالها من ارتباط بالآخرين واستقلال عنهم ، ومن حيث هو تأليف تلتقى فيه جميع جوانب الارتقاء فى الفرد وتنشط بدافع توجيهاته — فى الحالات السوية على الأقل — وعلى هذا الأساس سوف نقسم ارتقاء الفرد منذ الطفولة حتى الرشد إلى ستة أقسام على الوجه الآتى :

١ — منذ الميلاد حتى نهاية الأسبوعين الأولين .
٢ — منذ نهاية الأسبوعين الأولين حتى نهاية السنة الأولى .
٣ — « « السنة الأولى حتى نهاية السنة الثالثة .
٤ — « « « « الثالثة حتى بدء المراهقة .
٥ — مرحلة المراهقة .
٦ — مرحلة الرشد .

فكل من هذه الأقسام يمثل مرحلة ذات دلالة متميزة فى الخطوات التى يمر بها الأنا فى طريقه نحو التميز [١] والتغاير [٢] من ناحية والاندماج الاجتماعى أو التطبع من ناحية أخرى .

٣ — ولنبدأ الآن بالحديث عن أهم مميزات الارتقاء فى الفترة الأولى . وسوف

---

(١) articulation (٢) differentiation

نقف أولا عند الوقائع التى يمكن ملاحظتها لنقيم على ضوئها بعض الاستنتاجات، فذلك خير من البدء بمناقشة الاختلافات النظرية الكبرى فى الموضوع كالاختلاف بين الفرويديين والسلوكيين حول فطرية الأنا أو اكتسابه لأن مثل هذه المناقشة (R. T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942) إذا لم يسبقها الوقوف على مضمون المفاهيم المستخدمة فيها معرضة لأن تصبح ضرباً من الصراع اللفظى الذى يضلل البحث ويعرقله بدلا من أن ينميه ويقدمه .

قلنا إن الوليد يبدأ باعتباره «طاقة بيولوجية» عند مفترق الطرق. لكن هذا القول يظل ناقصاً ومضللا إذا لم نضف إليه أن هذه الطاقة ذات اتجاه محدد من حيث الخطوطه الكبرى على الأقل . ولنا على ذلك دليلان ، أحدهما استنتاجى والآخر تجريبى :

ا ــ فأما الأول فيتمثل فيما يسمى «بعادات النوع» ، كالمشى واتخاذ القامة وضعاً رأسياً والقبض على الأشياء ... إلخ . فكل وليد بشرى سوى يتجه فى نموه إلى تحقيق هذه القدرات مهما تنوعت خصائص بيئته الاجتماعية (فى حدود البيئات التى نعرفها على ضوء البحوث الأنثروبولوجية) ، مما يدل على أن اتجاه النمو هذه الوجهة يستند إلى خصائص نفسية بيولوجية فطرية .

ب ــ وأما الثانى فيستند إلى بعض البحوث التجريبية الحديثة ، مثل بحوث أورفيس إيرفين (O.C. Irwin 1943) وبرات ونسلن وصن K.C. Pratt, A.Nelson &K.H.Sun 1938 فهذه البحوث تقوم على أساس الملاحظة الدقيقة لتطورات الوليد فى الأيام الأولى من حياته . (البحث الأول فى الأيام العشرة الأولى ، والثانى طوال الأسبوعين الأولين من العمر) ، مع بعض التجريب أحياناً لملاحظة بعض الأرجاع وأنماطها . ومن أهم النتائج التى تعنينا فى هذا الموضع ما تبينه أورفيس إيرفين من أن نشاط الجزء العلوى من الجسم يأخذ فى الازدياد بشكل واضح ، وكذلك

---

(١) ractionse

يزداد نشاط الأعضاء الصوتية يوماً بعد يوم ، فى حين أن نشاط الجزء السفلى يأخذ فى النقصان . فإذا أضفنا إلى ذلك أنه قد روعى فى هذه البحوث تثبيت المؤثرات البيئية لخفض ما قد يترتب عليها من تغيرات سلوكية إلى الحد الأدنى ، أمكن أن نستنتج أن هذا الاتجاه فى النمو تمليه استعدادات بيولوجية فطرية .

وهذا القول فى التحديدات الفطرية لاتجاهات الطاقة فى النمو لا يعنى القضاء على دعوى المرونة ، مرونة الطبيعة البشرية واستعدادها للتشكل فى قوالب متعددة ، لكنه يعنى فقط أن هذه المرونة محدودة مهما اتسع نطاقها وليست لانهائية .

على أن هذه الطاقة النفسية البيولوجية لا تكون فقط ذات استعدادات فطرية تحدد الاتجاه العام لنموها ، لكنها تكون كذلك على درجة من التغاير لا ينبغى إغفالها ؛ فثمة مناطق حسية متباينة من حيث درجة حساسيتها ونوع هذه الحساسية (K. Koffka 1931, p. 132) إلا أن هذا التغاير نفسه يجب ألا نغالى فى قيمته ؛ فقد لاحظت عند تنبيه أسفل مشط القدم عند ابنتى باللمس الخفيف — وكان عمرها ٣٠ ساعة — أن هذا التنبيه كان يثير أحياناً أرجاعاً فى أصابع القدم وحدها فتنفرج وتلتئم ، وفى بعض الأحيان كانت الساق كلها تنكمش . وعندما بلغت الطفلة اليوم الثامن لاحظت أن التنبيه بإضاءة مصباح كهربائى أبيض (مصباح قوة ٢٥ واط ، على مسافة ١٨٠سم من عينيها) أثار لديها رجعاً منتشراً ، كما أثار لديها رجعاً متبأوراً فى منطقة الإبصار ، فقد انطبق الجفنان وانفتحا بسرعة . وفى اليوم التاسع أجريت الملاحظة الهامة التالية : كان الوضع الطبيعى لذراعى الطفلة وهى مستلقية على ظهرها الاتجاه إلى أعلى ، فحركت إحداهما إلى أسفل وعندئذ تحركت الثانية دون أن ألمسها (لم تتحرك حركة كاملة ولكن صدر عنها رجع واضح فى الالتجاه إلى أسفل) . وبعد قليل حركتُ الذراع الأخرى إلى أسفل فتحركت الأولى فى الاتجاه إلى أسفل دون أن ألمسها . وقد أعدتُ هذه التجربة أربع مرات فى نفس الموقف فكانت النتيجة على هذا

النحو دائماً [١]. هذا وقد لاحظت أن الطفلة عندما كانت تحرك ذراعيها حركة تلقائية كانت تحركهما معاً دائماً ولم تكن تحرك إحدى الذراعين دون الأخرى. وهذه الملاحظات تتفق في دلالتها مع بعض الملاحظات التي يقررها برات ونلسن وصن . فقد لاحظوا أن بعض المنبهات الضوئية تثير بعض الحركات الجسمية الشائعة إلى جانب بعض الأرجاع المتبأورة في منطقة الإبصار . كذلك لاحظوا أن التنبيه اللمسي للشفتين يثير أرجاعاً امتصاصية ذات نمط مائع ، كما يثير بعض الأرجاع في أجزاء جسمية أخرى بعيدة عن المنطقة الفمية أحياناً . ولاحظوا كذلك أن الضغط برفق بالسبابة والإبهام على أنف الوليد لمدة تتراوح بين ١٠ و١٥ ثانية يستتبع بعض الأرجاع المنتشرة التي يمارسها الجسم ككل ، وبعض الأرجاع المتخصصة التي تنفرد بها أجزاء خاصة ، كالابتعاد بالجذع وتقويس الظهر وحركات الأطراف . وانتهوا من هذه الملاحظات جميعاً ومن ملاحظات أخرى مماثلة إلى القول بأن سلوك الوليد في الأيام الأولى من حياته يكون عاماً شائعاً أكثر منه متخصصاً ، لكنه مع ذلك يحمل بذور التخصص ، ويتجه نحو تدعيم هذا التخصص وإبراز معالمه (Pratt, Nelson & Sun 1938) وهو الاتجاه العام لارتقاء الفرد كما حدده كوجيل G.E. Coghill وهوكر D. Hooker .

إن لهذه الحقائق أهمية كبرى في تحديد دلالة هذه المرحلة في الارتقاء النفس الاجتماعي . ولكي نبين كيف يكون ذلك نضيف إليها حقيقة تجريبية أخرى على جانب من الأهمية ، يقررها برات ونلسن وصن في بحثهم الذي اقتبسنا منه الملاحظات السالفة . ومؤدى هذه الحقيقة أن العلاقة تكون وثيقة جداً بين الوليد وبيئته الفيزيقية في الأسبوعين الأولين . فهو يستجيب للمنبهات تبعاً

---

(١) يلاحظ أنني عندما أعدت هذه التجربة في اليوم العاشر — في نفس الظروف البيئية التي أحاطت بالطفلة في اليوم التاسع — وجدت أن الارتباط بين الذراعين قد اختفى وأصبحت كل ذراع يمكن تحريكها بمفردها .

لشدتها . وعلى ذلك لوحظ أن تنبيه الوليد بمنبهات ضوئية متفاوتة الشدة يستتبع ظهور أرجاع تتناسب معها بدقة . وقد حاول الباحثون أن يسجلوا عدد الأرجاع المتخصصة التى يثيرها كل منبه ضوئى فانتهوا إلى البيان التالى :

يثير الضوء الأبيض (إلى جانب الإثارة العامة) حركات متخصصة فى ٢٧٪ من مرات المحاولة .
ويثير الضوء الأصفر حركات متخصصة فى ٢٤٪ من مرات المحاولة
ويثير الضوء الأحمر حركات متخصصة فى ٢٠ ٪ من مرات المحاولة
ويثير الضوء الأزرق حركات متخصصة فى ٨ ٪ من مرات المحاولة .
وقلما تثير الأضواء الملونة أرجاعاً جسمية منتشرة .

كذلك حاولوا تسجيل عدد الأرجاع المتخصصة التى يثيرها تنبيه الوليد بمنبهات صوتية متفاوتة الشدة فانتهوا إلى نتيجة مماثلة ، على الوجه التالى :

المنبهات الصوتية مرتبة على حسب شدتها	النسبة المئوية للأرجاع المتخصصة المثارة	النسبة المئوية للأرجاع العامة المثارة
صفيح	٣٠	٤٧
مطرقة خشبية wooden gong	١٢	١
جرس كهربائى	٢٥	٢١
طقطيقة snapper	٢٥	١٦
شوكة رنانة	٨	٧

من الجلى أن هذه الملاحظات جميعاً تدل على حقيقة ارتقائية هامة مؤداها أننا بصدد « نظام » ضئيل[١] التميز والتغاير ؛ فحدوده [٢] الخارجية لا تمنع مؤثرات البيئة الفيزيقية من أن تؤثر فيه تبعاً لشدتها الفيزيقية ، وحدود مناطقه الداخلية لا تمنع تسرب التأثيرات بين هذه المناطق بشكل يكاد يطمس كل أثر لاستقلالها . ومن ثم فإذا كان لنا أن نفترض وجود بوادر الشعور [٣] فى

(١) system (٢) boundaries
(٣) consciousness

هذا النظام فيجب أن نبادر ونقرر أن الخطوط العامة لنمط هذا الشعور مماثلة للخطوط العامة لنمط النظام البيولوجى ، وهو ما يقرره مبدأ التكافوء الشكلى[١] الجشطلتى . وقد أباح فرتهيمر M. Wertheimer لنفسه استناداً إلى هذا المبدأ أن يحدد الخصائص العامة لأنماط بعض العمليات الفيزيولوجية بالاستنتاج من ملاحظة الخصائص العامة لأنماط بعض العمليات السلوكية (K. Koffka 1935, p. 56) ونحن هنا نقوم بمثل هذا الاستنتاج ولكن فى اتجاه مضاد .

إن الشعور الماثل لدى الوليد فى هذه المرحلة المبكرة لا يمكن أن يكون شعوراً واضحاً متميزاً مستقراً ، لكنه شعور غامض مبهم بلا حدود تفصل بينه وبين العالم الخارجى ، وإذا برزت فيه المناطق نتيجة لورود بعض التنبيهات الخارجية أو الداخلية فإنها لا تلبث أن تزول بزوال المؤثر ويعود السديم إلى حالة اللاتغاير التى كان عليها ، وحتى هذا السديم لا يكاد يستقر إلا قليلا من الوقت ، إذ يقضى الطفل معظم ساعات اليوم غارقاً فى النوم (أكثر من عشرين ساعة من الأربع والعشرين ساعة) . ومن الجلى أن الوليد فى هذه المرحلة لا يمكن أن يمارس شعوراً بالأنا المتميز من بيئته الفيزيقية أو الاجتماعية ، وكل ما هنالك أنه يشعر شعوراً تختلط فيه التنبيهات الواردة من الخارج والداخل على السواء . ومثل هذا اللاتغاير يتمثل كذلك فى إدراكه للبيئة المحيطة به ، فهو لا يفرق فيها بين بيئة فيزيقية وبيئة اجتماعية ، بل ولا بين جمادات وأحياء . فهو يرى تجمعات ضوئية فحسب ، ولما كانت التنبيهات الفيزيقية تصل إليه بشكل واضح ، فربما جاز لنا أن نستنتج أنه يميز بين هذه التجمعات على أساس قانون «الاتصال الجيد» الجشطلتى (M. Wertheimer 'a' 1938)[٢] على أن هذا التمييز لا يمكن أن يكون مماثلا لتمييزنا نحن الراشدين . والأرجح أن البيئة تبدو له كتلة من الضوء غير المتجانس ، ثم لا تلبث مواضع عدم التجانس أن تزداد تغايراً على أساس خصائصها الشكلية أولا ، وتبرز فوق أرضية متجانسة تتألف من

(١) isomorphism

(٢) أحد قوانين الإدراك كما يقررها فرتهيمر .

جدار ذى لون واحد أو ما شابه ذلك .

من الواضح إذاً أن اللاتغاير — إلى حد كبير — قائم فى شعور الوليد ، وفى بيئته كما يدركها ، وفى العلاقة بين شعور هذا الوليد وبين بيئته . ولكى نكمل توضيح معالم هذه الصورة يلزمنا أن نقرر أنه لا يوجد فى هذا المجال « أنا » سلوكى أيضاً (R. Bain 1936) — من حيث إن الأنا السلوكى أوسع نطاقاً من الأنا الشعورى (فهو يحوى بعض الذكريات المنسية ويحمل آثار الخبرات الماضية ، تلك الآثار التى لا نشعر بها لكننا نستخدمها كعامل فى توجيه سلوكنا) . والدليل على ذلك ما نلاحظه من عجز تام عند الوليد عن أن يوجه أعضاءه ، فهذه الأعضاء تتحرك ولكنها تبدو فى حركاتها ضئيلة التآزر غير موجهة ، وتبدو حركاتها تشنجية مبتورة ، شبيهة بالأفعال المنعكسة ، غير أنها ذات أنماط مائعة غير مستقرة . ويجب أن نتنبه هنا إلى الخصائص الديالكتيه لمثل هذا الموقف ، فعلى ضوء ملحوظة كوفكا K. Koffka ومؤداها أن ثمة ضروباً من النشاط تصدر عن الأنا من شأنها المساهمة فى تغاير البيئة المدركة (K. Koffka 1935 p. 197) نستطيع أن نقرر هنا أن عدم وجود الأنا لدى الوليد من شأنه أن ينعكس على البيئة بزيادة تجانسها ، وتجانس البيئة من شأنه أن ينعكس على الوليد بزيادة تجانسه أيضاً . وبذلك يحقق الوليد فى بيئته كلا متزناً فى مستوى شديد البدائية .

على أن أقرب مثال يوضح لنا حالة الوليد هذه ، هو المثال الذى يقدمه كوفكا (1935, p. 323) بصدد حديثه عن إمكان قيام مجال سلوكى بدون أنا . وأهمية هذا المثال بالنسبة لبحثنا هذا آن وقائعه وقعت لأحد الراشدين ، وقد سجلها تسجيلا دقيقاً عقب وقوعها . ومع أنه من الراشدين فهذا لا يمنعنا من الإفادة منه لأن هذه الوثيقة تصف فى أحد مواضعها بضع لحظات ساد فيها تجانس يكاد يكون تاماً فى المجال السلوكى سواء فى داخل الشخص وفى البيئة المحيطة به ، فكانت لدى الشخص خبرة شعورية بتلك اللحظات ولكن دون

إحالة إلى أنا ودون إدراك لتغاير فى البيئة . ومن هنا انتقينا هذا المثال لنفيد منه فى هذه الحدود . وخلاصة ما حدث أن أحد الأساتذة فى فينا بينما كان يهبط على سفح أحد جبال الألب المغطاة بالجليد ، هوى به السطح الجليدى فى أخدود عميق ، فظل يرتطم بجدرانه حتى بلغ القاع بعد أن وقع فى غيبوبة وأفاق منها عدة مرات ، وقد قدرت له السلامة فى النهاية ، فكتب يصف لحظات السقوط هكذا : « ... ضباب ... ظلام ... ضباب .... أصوات متقطعة متتابعة ... ظهارة رمادية بها بقعة فاتحة اللون ... ضباب ... فجر خافت ... طنين خافت ... تعب ثقيل ... وقع حدث لشخص ما ... ضباب داكن ، والبقعةالفاتحة اللون ما تزال باقية ... رعدة باردة : شىء لزج ... ضباب ... كيف حدث ... مجهود للتفكير ... لا يزال ضباب ، ولكن هناك بقعة أخرى فاتحة اللون فى الداخل ، غير البقعة الفاتحة فى الخارج : نعم ، إنه أنا ... ضباب ، رنين مزعج ، صقيع ... حلم ... نعم إنه حلم شنيع ، شنيع ، شنيع ، كان يحلم ... لا بل أنا كنت أحلم ... »

إن الخبرة الشعورية هنا قائمة ، لكنها سابحة فى سديم ، والمواضع اللامعة فيه حيث بوادر اللاتغاير لا تلبث أن تظهر حتى تختفى . وكل ما يحدث يحدث هكذا فى الفضاء المتجانس دون آن يتبأور فى الأنا ، لأن هذا الأنا غير موجود . وفيما عدا العبارات الأخيرة فى هذه الوثيقة حيث بوادر عودة الأنا واستقراره ، يكاد ينطبق كل ما فيها على حالة الوليد ويقدم لنا صورة دقيقة له .

على آن بيئة الوليد فى حقيقتها الاجتماعية — بغض النظر عن إدراك الوليد لها — ليست عاجزة ولا سلبية ولا متجانسة بهذه الدرجة التى يكون عليها الوليد . لكنها منذ اللحظات الأولى فى حياته لا تفتأ تمارس ضروباً متنوعة من النشاط تثير بها بعض الاضطراب فى أوضاعه وفى إحساساته وفى بيئته الإدراكية . وتبدو هذه الضروب من النشاط بالغة التعدد والتعقد لو أننا حاولنا حصرها . إلا أن أهم ما يميزها درجة واضحة من استقرار أنماطها وتميزها ، واستقرار القائمين

عليها وتميزهم — فى الحالات السوية — ، واستقرار الإطار العام الذى يضم هؤلاء — الأسرة فى أى شكل من أشكالها . وربما كان من أهم مميزات المستوى البشرى بين المستويات التطورية فى السلسلة الحيوانية توقع أفراد الأسرة لمجىء الوليد قبل مجيئه بفترة طويلة . وهذا صحيح فى المجتمعات البدائية (M. Mead 1952; pp.33, 135) والمتمدينة على السواء . وهذا التوقع مرجعه إلى النمو الفائق للقدرات التصورية لدى الإنسان من ناحية ، وإلى الحياة الاجتماعية المستقرة بشكلها الإنسانى الفريد من ناحية أخرى . والمهم أن الوليد يولد فيجد وظائف الآخرين نحوه — كالأمومة والأبوة — قد سبقته إلى الوجود وأصبحت على درجة من النضج لا ينبغى إغفالها . وهذا مما يزيد فى متانة الروابط التى تربطه إلى المحيطين به

وهنا أورد بضع عبارات من كتاب الباحثة الأنثروبولوجية مارجريت ميد M. Mead حيث تصف كيف تبدأ الأمومة فى أحد المجتمعات البدائية (مجتمع الآرابش سكان الجبال) قبل مجىء الطفل بعدة شهور . قالت الكاتبة : « يميز الأرابش بين نوعين من النشاط الجنسى ، أحدهما اللعب وهو كل نشاط جنسى يرون أنه لم يساهم فى بدء نمو الطفل ، والآخر العمل ، وهو نشاط جنسى مقصود وموجَّه نحو صنع طفل معين ، ونحو إطعامه وتشكيله أثناء الأسابيع الأولى فى رحم الأم ... فإذا ما بدا على ثديى الأم التضخم والتلون الخاصان بالحمل قيل إن الطفل قد اكتمل — أصبح بيضة كاملة ، وستبقى هذه البيضة فى رحم الأم . ومنذ هذه اللحظة تمنع العملية الجنسية منعاً باتاً ، لأن الطفل يجب أن ينام بلا إزعاج ، ويتلقى الطعام الذى من شأنه أن يفيده . فهم يؤكدون ضرورة توفر البيئة الرفيقة له طوال حياته . ومن ثم فالمرأة التى تريد أن تحمل يلزمها أن تكون سلبية إلى أقصى درجة . ومن حيث إنها حارسة الطفل النامى يلزمها أن تتخذ بعض الاحتياطات : فلا تأكل الـ bandicoot [1] وإلا هلكت عند الوضع ... ولا الضفدع وإلا جاء الوليد فجاءة ، ولا ثعبان البحر وإلا جاء

(١) خيوان شبيه بالقنفر .

الوليد على عجل ... وإذا أرادت الأم أن يكون الوليد ذكراً ، نصحتها النساء بألا تقطع أى شيء نصفين ، لأن هذا التنصيف يجلب الأنثى » . (Mead 1952,p.33).

وفى مجتمعاتنا الحديثة أيضاً تبدأ أمومة الأم قبل مجيء الوليد بفترة طويلة . ويكفى أن نلحظ سيدة فى بوادر الحمل عندما تبلغ الشهر الخامس — تقريباً — من شهور حملها ، وكيف تحس بحركة الجنين فى رحمها ، وكيف تتلقى هذا الإحساس ، وكيف تتوقعه يوماً بعد يوم ، وكيف يشتد بها القلق عندما يتأخر عن موعده المرتقب . وكثيراً ما تفكر فى الوليد ومستقبله وقد تتحدث مع بعض أعزائها عما تتوقع منه وما تعده له . وعندما يقترب موعد الوضع تبدأ فعلا فى إعداد ثيابه وفراشه ... وهكذا تبدأ أمومتها قبل أن ترى الوليد .

من هاتين الملحوظتين عن توقع الطفل فى المجتمع البدائى والمجتمع المتمدين الحديث ، نستطيع أن نتبين أثر هذه الحقيقة فى إعداد سيكولوجية الأسرة إعداداً خاصًّا لا مثيل له فى أى مستوى تطورى حيوانى . ويبدو أثر ذلك واضحاً جليًّا فى استقبالهم للوليد منذ اللحظات الأولى لمجيئه . فعندما يولد الوليد تنطلق منه بضع صيحات ، وتتلقى الأسرة هذه الصيحات الأولى باعتبارها مظهراً طبيعيًّا لحياة الوليد سواء أكانت تعلم سببها الفيزيولوجى على حقيقته — وهو اندفاع الهواء إلى الرئتين مارا بالأعضاء الصوتية — أم لم تكن تعلم . إلا أن هذه الصيحات إذا استمرت فترة طويلة كان ذلك دليلا — فى نظر القائمين على أمره من أفراد الأسرة — على تألمه ، ومن ثم يبدأ هؤلاء الأفراد يتساءلون فيما بينهم ويؤولون تقلصاته وتشنجاته ، ويقومون نحوه ببضع أعمال يتوقعون منها أن تقضى على متاعبه . وهكذا منذ الساعات الأولى لقدوم الوليد يبدأ تشكيل البيئة الاجتماعية له . فالمحيطون به يرون فيه كائنا معبراً ، ويؤولون « تعبيره » على ضوء خبراتهم ، ويستجيبون لهذا « التعبير » استجابات معينة تتكرر غالباً كلما تكرر هذا « التعبير » .

إن تأويل حركات الوليد وصيحاته منذ هذا الوقت المبكر فى حياته ، والاستجابة له على ضوء هذا التأويل ، ظاهرة إنسانية على جانب كبير من الأهمية . فمن خلالها تتحقق إمكانيات الوليد ويصبح عضواً فى مجتمعه . على أن حركات الوليد وصيحاته فى هذه الأيام الأولى لا يمكن القول بأنها تعبير مقصود — بالمعنى الذى نستخدم به هذا اللفظ لدى الراشدين — . فنواة التأليف والتوجيه ، وهى « الأنا » لا وجود لها ، والتعبير المقصود يقتضى اكتساباً لبعض الرموز ، ومعرفة بمواضع استخدامها وهذا غير متوفر . كما يقتضى اعترافاً — ولو ضمنياً — « بالآخر » ، لننقل إليه بعض خبراتنا أو نطلب إليه إشباع حاجة معينة . وهذا أيضاً غير متوفر فى الحالة السديمية التى يكون عليها شعور الوليد . إنما هذه الحركات والصيحات مصاحبات تلقائية لآثار بعض التنبيهات الواردة على الوليد أو الصادرة من داخله . ولما كانت تأويلات البيئة الاجتماعية لها منمطة[1] ، واستجاباتها لها منمطة كذلك إلى حد كبير ، وفى مقابل ذلك نمو سريع جارف فى الوليد وارتقاء لارتباطاته العصبية بوجه خاص (J.L. Moreno & F.B. Moreno 1944) فإن بعض الارتباطات لا تلبث أن تتكون بين هذه الحركات والصيحات وبين بعض الاستجابات ، ونستطيع أن ندرك بوادر هذه الارتباطات ابتداء من أواخر الأسبوع الثانى فى عمر الوليد . ويلزمنا هنا أن نشير إلى سيكولوجية الأم بوجه خاص — وليس من الضرورى أن تكون هى الأم البيولوجية — فإنها تساهم فى هذا التأويل وفى الاستجابات المترتبة عليه بقسط وافر (يبدو ذلك فى الأسرة الحديثة خاصة) أوفر مما يساهم به غيرها فى هذه الفترة المبكرة . (L.B. Murphy 1947) فهى ترى وليدها بعينين غير العينين اللتين ينظر بهما أى شخص سواها ، حتى الأب . ومن ثم فإنها تتبين شبهاً واضحاً بينه وبين بعض أعضاء الأسرة ، بينما يعجز الكثيرون عن أن يروا هذا الشبه فى هذا الوقت المبكر . وقلما تؤدى الأم خدمة لوليدها دون أن تتحدث إليه أثناء تأديتها .

(١) stereotyped

على ضوء هذه الحقائق التفصيلية عن حالة البيئة وحالة الوليد نستطيع أن نتبين ديناميات الموقف المؤلف منهما معاً . وأهم ما فى هذا الموقف أن تجانس الوليد الذى ينعكس على البيئة كما يدركها ، يعادله ويتفوق عليه تغاير البيئة إذ ينعكس على الوليد ويدفعه بإصرار نحو التغاير . ومن أهم العوامل فى تعميق أثر البيئة هذا فى الوليد استقرار تغايرها الناجم عن تنميط الحياة الاجتماعية ، (تنميط استجابات الراشدين ، ومعالجاتهم اليدوية ، وتعبيراتهم ، بل ومظاهرهم التى يظهرون بها) وشدة اعتماد الوليد عليها ، والنمو فى ارتباطاته العصبية فى هذه الفترة المبكرة .

وإذا كان لاستقرار تغايرات البيئة هذا الأثر العميق فى إبراز تغيرات الوليد وتوضيح معالمها ، فإن لاستقرار الإطار العام لهذه البيئة — كأن يظل الأشخاص هم أنفسهم والمكان هو نفس المكان — أثراً فى ارتقاء الوليد لا يقل عن ذلك أهمية ، إذ يوفر شرطاً لا بد منه ليتمكن الوليد من عقد التفرقة — التى تبدأ مبهمة وعابرة — بين ما يصدر عنه وما يصدر عن العالم الخارجى ، وبذلك يبدأ السير فى الطريق الذى يؤدى إلى الشعور بالإنية . والمثال الذى سبق أن اقتبسناه عن كوفكا ، مثال الأستاذ النمسوى متسلق الجبال ، يبرهن لنا بطريق عكسى على صدق هذا الرأى . فالاهتزازات العنيفة فى الإطار العام للبيئة من شأنها أن تقضى على الشعور بالأنا . ومثل هذا يحدث للوليد فى أسابيعه وشهوره المبكرة ، فإذا نحن انتقلنا به بضع انتقالات من شأنها أن تغير الإطار العام لبيئته تغييراً تامًّا — أو قريباً من التمام — فإنه يستغرق فى النوم بعد أن كان متيقظاً . وانتقال الطفل بين عدة بيئات تربوية فى طفولته المبكرة من شأنه أن يعطل نمو الأنا (J. Bowlby 1951) .

والخلاصة أن الفرد يبدأ حياته طاقة نفسية بيولوجية ، ذات استعدادات فطرية لا يمكن تجاهلها . ويكون بوجه عام على درجة ضئيلة من التآزر والتغاير . وكل ما هنالك أنه تطفو على سطحه فقاعات شعورية عابرة ،

لا ينطوى مضمونها على تفرقة بين ما يرجع إلى الذات وما يرجع إلى محيطها . وفى مقابل ذلك توجد البيئة الاجتماعية التى تتلقاه ، غنية بالتغايرات المستقرة ، ملحة فى احتضانه والتأثير فيه ، مما ينمى فيه بذور التغاير ويطبعها بطابع هذه البيئة . ومن تفاعل الطرفين سوف يبزغ الكائن الاجتماعى الذى يمثل تأليفاً ديناميًّا على درجة كبيرة من التآزر والتغاير .

ومعنى ذلك أن الوليد لا يعرف « أنا » ولا « آخر » ، ولا يحملهما فى بنائه النفسى، مع أنهما الشرطان الأولان لقيام التفاعل الاجتماعى (H. Wallon 1946) إلا أن ذلك لا يعنى أنه يظل بمعزل عن كل تفاعل اجتماعى . فالواقع أن بعض مستويات هذا التفاعل تتم بداخله — الوجوه المعتادة والاستجابات الحركية والصوتية الصادرة عن الآخرين ، دون المضمون الرمزى لهذه الاستجابات — وتختلط أثناء تفاعلها بالآثار الواردة من جوانب البيئة الفيزيقية . ولا تدفعه إلى القيام بما يدل على حدوث هذا التفاعل إلا بعد اختمار يدوم طوال الأسبوعين الأولين ، وفى خلال الأسبوع الثالث تبدأ عيناه تتابعان تحركات الوجه القريب فى حدود ضيقة من السرعة والمدى . وعندئذ تبدأ الأسرة تشعر بأن الوليد « يحيا معها » .

إن لهذه المرحلة الأولى من مراحل الارتقاء أهمية كبرى فى تحديد الأساس النفسى العميق للتكامل الاجتماعى . فلولا هذه « المادة النفسية » المائعة التى يُنحت منها كل من « الأنا » و« الآخر » بفضل عمليتى التآزر والتغاير المتكاملتين ، لما أمكن لنا أن نتصل بالآخرين ونتفاعل معهم هذا التفاعل الفريد فى شدته وشموله لأعمق مستوياتنا . إن الأنا والآخر على الرغم من تغايرهما يظلان متصلين داخل نفوسنا كشكلين بارزين فوق جدار واحد ، ومن ثم فإن التفاعلات تتم بينهما فى مستويات لا نستطيع أن نسبرها على الأقل فى حدود وسائلنا الحاضرة . ويساهم هذا الاتصال نفسه فى زيادة التغاير بينهما ، إذ أن كل ما من شأنه أن ينضم إلى أحد الطرفين ليميزه لا يلبث أن ينعكس على الآخر بزيادة إبراز

خصائصه وتأكيدها . وبفضل هذا الاتصال أيضاً يتوفر الشرط الأول لكل التقاء مع الآخرين فيما بعد ، من « محاكاة » و « تبادل » و « تقمص » و « تعاطف » . وبفضله كذلك يمكن للأنا أن يتكلم وأن يدرك وأن يفكر و ... إلخ ، لأنه ، على الرغم من توجيهه الفريد للكلام والإدراك والتفكير ، يظل يستخدم لغة الآخرين وإيماءاتهم وقوالبهم التي صنعوها لتنظيم الإدراك والتفكير .

على أننا نقتصر على هذا القدر من الكشف عن مضمون هذه المرحلة ، ودلالتها في الارتقاء النفسي الاجتماعي للطفل . وننتقل الآن إلى الحديث عن المرحلة الثانية حتى نهاية السنة الأولى .

الفصل الثانى

الطفل منذ نهاية الأسبوعين حتى نهاية السنة الأولى

مظاهر الارتقاء – ديناميات الارتقاء

١ – لايكاد الطفل يجتاز الأسبوعين الأولين من عمره حتى تبدأ فى الظهور بوادر الخصوبة الهائلة التى تمتاز بها « الطبيعة البشرية » . ولئن كانت مظاهر هذه الخصوبة لا تبلغ قمتها إلا فى المرحلة الثالثة – الممتدة حتى نهاية السنة الثالثة – فإن الروافد المتعددة الزاخرة بمضمون هذه الخصوبة تتضح معالمها خلال المرحلة الثانية التى نحن بصدد الحديث عنها . فالتآزر العضلى العصبى ، والقدرات التخيلية ، والاستجابة الصحيحة للمواقف الاجتماعية ، والعناصر التى تتألف منها اللغة ، كل أولئك تبدأ تتضح معالمها فى أثناء هذه المرحلة ، وتتجه إلى الالتقاء فى تأليف دينامى أصيل ، هو الأنا المترقى ، من حيث هو مستقل عن الآخرين ومتحد بهم .

ولكى نوضح حقائق هذا الترقى يلزمنا أن نختار بين متابعة تحققاته فى كل من الجوانب الأربعة المذكورة على حدة ، فنتابعه فى سير النمو فى التآزر العضلى منذ الأسبوع الثالث حتى نهاية السنة الأولى ، ثم نتابعه فى القدرات التخيلية طوال هذه الفترة ، ثم فى الاستجابات للمواقف الاجتماعية ، وأخيراً فى النمو اللغوى ؛ أو نتابع ارتقاء الطفل ككل كأنما نحدث فيه قطاعات عرضية فى نهاية كل شهر ، لنتبين كيف تمضى هذه الجوانب الأربع الكبرى معاً ، وتتبادل التأثر والتأثير فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين البيئة من ناحية أخرى . وللطريقة الأولى فى النظر والتوضيح ميزة لا تنكر ، فهى تدخل نوعاً من النظام

والتبسيط على حقائق النمو المعقدة المتشابكة ، وإدخال النظام والتبسيط على ظواهر الوجود أحد أهداف العلم ، لا شك فى ذلك . إلا أن هذا النظام أو هذا التبسيط بهذه الطريقة من شأنه أن يجعلنا أقرب إلى إغفال حقيقة هامة ، ألا وهى الوحدة الأصلية العميقة التى تجمع بين هذه التيارات الأربع ، والتى تتجدد فى كل لحظة بفضل ما يتم بين تلك التيارات من تأثيرات متبادلة . ولهذا السبب فإننا نؤثر اختيار الطريقة الثانية ؛ فإنها على الرغم مما بها من تعقد تذكرنا دائماً بجشطلتية الكائن الذى ندرسه ، وبالتوازن الدينامى [1] الذى يسعى دائماً إلى تحقيقه مع بيئته ، والذى تحاول البيئة أيضاً — البيئة الاجتماعية بوجه خاص — أن تحققه معه .

إن بوادر التآزر العضلى العصبى تبدأ منذ الأسبوع الثالث فى حياة الوليد ، ففى النصف الأول من الأسبوع الثالث لاحظت أن ابنتى بدأت تتابع تحركات وجه أمها بعينيها ، ولاحظت أن هذه القدرة تبدو مع وجه أمها أكثر مما تبدو مع أى وجه آخر . وفى الأسبوع الرابع بدأت تحرك رأسها مما أتاح لها متابعة المرئيات فى أفق أوسع . كما جعلت تختفى تلك النظرات المائعة التى لا هدف لها . وفى هذا الأسبوع نفسه بدأت الطفلة تبتسم « ابتسامة مستقرة قليلا » — لبضع ثوان — رداً على المداعبة بالحركات والأصوات ، كما بدأت تبكى بشدة عقب انتهاء أمها من إرضاعها وابتعادها عنها وخروجها من الحجرة ، فإذا ما عادت الأم إلى الحجرة واقتربت من فراش الطفلة توقف البكاء . كذلك بدأت تظهر فى البكاء بوادر الطلب أو التوجيه بناء على التوقع ، فهى تبكى عندما تبتل ملابسها فتسرع الأم إليها ، وتستبدل بملابسها ملابس جافة وعندئذ ينقطع البكاء . وقد لاحظت أحياناً أن البكاء كان ينقطع بمجرد اقتراب الأم من الطفلة ، ولكن الانقطاع كان يتخذ شكل انتظار لا يلبث أن يزول إذا لم تفعل الأم شيئاً لها كأن ترضعها أو تنظف ملابسها أو تغير وضعها . وهذه الوقائع تؤيد ما يقرره جيزيل وإلج A. Gesell & F.L. Ilg من أن بوادر التنميط

(١) dynamic equilibrium

والمعنى والدلالة تبدأ تظهر فى سلوك الطفل منذ الأسبوع الرابع (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 93).

وهكذا نجد أن الانتقال من حالة اللاتعين الأولى يسير منذ البداية فى طريقين متعارضين متكاملين . فمن ناحية بوادر التآزر العضلى العصبى الذى يضع الأساس العضوى للأنا المتميز بحدوده ، ومن ناحية أخرى يظهر هذا التآزر نفسه معبراً عن ارتباط الطفل بالآخرين ويصحب ذلك بوادر الاستجابة لهم من حيث هم كائنات اجتماعية . وهذا الرأى تؤيده ملاحظات جيزيل وإلج ؛ فهما يقرران الكثير من مظاهر التآزر كازدياد انتظام الابتلاع والتنفس ، ويقرران فى الوقت نفسه أن الطفل عندما يبكى بالليل يهدأ إذا حمله أحد القائمين على أمره ، وقد يهدأ بمجرد وضعه وسط أشخاص يسمع أصواتهم ويراهم ، وتزداد هذه الظاهرة وضوحاً فيما بين الأسبوع السادس والثامن . وتقرر ل . ب . مورفى أن الابتسامة الاجتماعية تظهر على وجه الوليد قرابة الأسبوع السادس من حياته (L.B. Murphy 1947) ويذهب هوير A. Hoyer & A. Hoyer إلى القول بأن الطفل فى نهاية الشهر الأول يداخله السرور استجابة للمناغاة ، وخاصة إذا كانت مصحوبة ببعض التربيت ، بينما يؤكد لويس M.M. Lewis أنه يستجيب بالتوقف عن البكاء إذا ما سمع صوت أحد الراشدين . ويؤيد هذا الرأى بملاحظات بول جيوم على طفله ، وملاحظات هتزر H. Hetzer وتيودورهارت Tudorhart على ١٢٦ طفلا تتراوح أعمارهم بين يوم وخمسة شهور (M.M. Lewis 1936, p. 39) منذ نهاية الشهر الأول إذاً وأواصر الصلة تنعقد بين الطفل والآخرين ، بينما تدعم وحدته الداخلية وتزداد تغايراً .

وفى نهاية الشهر الثانى بكت ابنتى بشدة عندما تركناها فى بيئة من الغرباء ، ولم تنقطع عن البكاء إلا عندما عدنا إليها بعد ساعتين . وأبدت تأثراً عميقاً باهتزازات البيئة من حولها ؛ وذلك أنها تنقلت فى يوم واحد بين ثلاث بيئات اجتماعية متباينة إلى حد كبير . وفى المساء عندما رأيتها لم تبتسم لى كعادتها ، رغم

كل المداعبات التى قابلتها بها ، بل ظلت تحملق فى وجهى ، وفى ذلك ما يعنى بعض النكوص ، إذ فقدت — مؤقتاً — القدرة على التعرف على وجهى . وقد ظلت الطفلة طوال اليوم التالى (وكنا قد عدنا إلى بيتنا بعد أن قضينا الليل فى إحدى البيئات الغريبة الثلاثة) لا تبتسم إلا قليلا جداً — بالنسبة لما تعودناه منها — إذا داعبتها ، وكانت ابتسامتها حينئذ سريعة بشكل ملحوظ لا تكاد تظهر حتى تختفى ، ويبدو فى نظراتها ما يشبه « الحيرة » وعدم الاستقرار . وبوجه عام ظلت كثيرة البكاء العنيف طوال اليوم بدون مبرر خارجى . وفى اليوم التالى أصبحت أكثر هدوءاً ونوماً وأقل بكاء . وفى هاتين الظاهرتين نلمح بوادر القدرة التخيلية فى أحد مظهريها (التذكر والتوقع) وهو التذكر ، ولو أنها ضمنية . ولكى ندرك دلالة هذه الحقيقة نضيف بضع ملاحظات واضحة الأهمية .

فى هذه الفترة نفسها ، أواخر الشهر الثانى ، أبدت الطفلة بوادر القدرة على « القبض باليد » على الأشياء ، على النحو التالى . فيدها فى العادة مقبوضة ، فإذا لمستُ أصابعها بضع لمسات خفيفة فإنها لا تلبث أن تبسطها ، عندئذ ألمس راحة اليد بلعبة فإذا بها تقبض عليها . ومهما بدا على هذا الفعل من مظاهر التفكك إلى حلقات من الأفعال المنعكسة ، فإنه نمط جديد من أنماط الفعل يكشف عن مستوى جديد من مستويات التآزر لم يكن قائماً من قبل . كذلك أبدت الطفلة قدرة على استمرار الابتسامة (التى تصدر عنها استجابة لمداعباتى) فترة أطول نسبياً مما كانت تستطيع من قبل . بل لقد بدأت تساهم بدور إيجابى فى مداعباتى لها ، وذلك بأن تثير نفسها ، فأنا إذ أداعبها بإشارات من وجهى ورأسى وألمسها لمسات خفيفة أجدها تندفع إلى تحريك ذراعيها وساقيها بشدة ، وتصحب هذه الحركة بابتسام واضح وأصوات عميقة خاطفة ، وفى نفس الموقف أجدها تكرر هذه الإثارة أحياناً ولكن دون أن ألمسها . يضاف إلى ذلك ملحوظة أخرى ، فبكاؤها الآن تتخلله أصوات غير مجرد البكاء ،

أو بعبارة أدق إن بعض بوادر « تقطيع الصوت »(١) جعلت تظهر . وفى هذه البوادر تتمثل إحدى المواد الأولية التى تصنع منها اللغة .

إن هذه الملاحظات جميعاً ذات دلالة واحدة ، فهى تعنى زيادة فى بروز الأنا . فمن ناحية تبدأ مظاهر الذاكرة ، وهى أساس وحدة الأنا فى الزمان (ى . مراد ١٩٤٧) ، تجمع فى بؤرة واحدة خبرات الفرد فى مواقف متعددة، فتجعله يشعر بوحدته العميقة فى مقابل المواقف واللحظات المتعددة (R. Bain 1936) ويرى كوفكا أن أول مظاهر الذاكرة الشعور بأن البيئة غريبة ، غير أنه لم يحدد موعد ظهور هذا الشعور بدقة بل وضعه فى النصف الأول من السنة الأولى بوجه عام (K. Koffka 1931, p. 155) أما القبض على الأشياء واستقرار الابتسامة مدة طويلة ، والإثارة الذاتية وبوادر تقطيع الصوت ، فكلها دلائل بعض القوة والتآزر فى هذا الأنا الناشىء . على أن هذه القوة أو الصلابة الداخلية لا تزال غضة إلى حد كبير ، والدليل على ذلك نكوص الطفلة واختلاط الأمر عليها عقب تغير البيئة من حولها ثلاث مرات فى يوم واحد ، حتى لقد عجزت عن ممارسة استجاباتها الودية المعتادة فى اليوم التالى . وربما كان ذلك دليلا على إصابة قدراتها الإدراكية أيضاً .

وثمة مظهر آخر من مظاهر الارتقاء يبدو فى أواخر الشهر الثانى ، وله أهميته . فقد لاحظت أحد الأطفال وقد أتم الشهر الثانى ، يداعبه أبوه . وكان الأب يوجه إليه بعض الكلمات وبعض الأصوات وهو منحن فوقه دون أن يلمسه ، وفى مقابل ذلك كانت تصدر عن الطفل أصوات خافتة عابرة ، وهو فى حالة رضا تام . والمهم هنا هو صدور بعض الأصوات فى مواقف الرضا (فلم تعد مرتبطة بالتألم والجوع فقط) وصدورها رداً على أصوات الراشدين . وهذه الملاحظة تؤيدها ملاحظتا پول جيوم وشتيرن؛ فقد لاحظ الأول أن طفله بدأ يستجيب لأصوات الراشدين بإصدار صوت هو الآخر فى نهاية الأسبوع

(١) articulation

السابع من عمره ، ولاحظ شتيرن حدوث ذلك فى نهاية الأسبوع التاسع .M.M) (Lewis 1936, p. 41 وهكذا تبرز أهمية الصوت بشكل واضح ، ويدخل التغاير على طريقة استخدامه . فبعد أن كان يستخدم مرتبطاً بالتعبير عن الألم والجوع فحسب ، أصبح يستخدم للتعبير عن حالة وجدانية أخرى ، وبعد أن كان يستخدم دون اعتبار إلا لطرف واحد فحسب هو الطفل ، أصبح يستخدم على سبيل التبادل أو على الأقل بدأت بوادر هذا الاستخدام . وفى ذلك نلمس بوادر الشعور بالآخر ، والاعتراف الضمنى به .

ولئن كان اتفاق المواعيد التى تظهر فيها جميع مظاهر الارتقاء التى ذكرناها حتى الآن ، رغم تعدد موضوعات الملاحظة وبيئاتها ، مغرياً باعتبار الأمر كله يرجع إلى النضج المطرد فى الأنسجة ، فإن هذا التعليل يبدو ساذجاً إلى حد كبير إذا حاولنا أن نتأمل ظاهرة كظاهرة نكوص الطفلة عقب التغيرات الشديدة فى البيئة . إذ من الواضح هنا أن البيئة المستقرة تقوم بمثابة الأرضية التى تشيع الاتزان والانتظام فى عمليات الترقى ، ولذلك لا يمكن إغفالها . بل إنها لتتدخل أكثر من ذلك ، فهى بمثابة الإطار الذى يكسب محتوياته دلالتها ، وقد بينا فى بحث سابق كيف يكون ذلك . (م . سويف ١٩٥١ ص ١٤٧) . على أن نمط الابتسامة التى ترتسم على وجه الطفل ، والأصوات التى تصدر عنه ، إنما تمثل تأليفاً يتضمن قدرة الطفل المترتبة على مستوى معين فى ارتقاء تآزره العضلى العصبى ، كما يتضمن التثبيت — بفعل البيئة — على نموذج معين من نماذج التعبير تنتخبه البيئة وتثبته لديه ، من بين النماذج العديدة التى تطرأ على وجهه . أضف إلى ذلك أن بروز أهمية الصوت وقيامه بهذه المهمة الكبرى فى ربط الفرد بالآخرين ، إنما يعتمد بشكل واضح على خبرات الطفولة وما تؤكده البيئة للطفل حينئذ من أنه ما عليه إلا أن يعبر — تعبيراً صوتياً بوجه خاص — عن حالته الوجدانية ومطالبه ، وعندئذ تسرع البيئة إلى إرضائه .

غير أننا نؤثر إرجاء الحديث عن ديناميات الترقى ، حتى نفرغ من متابعة

مظاهره ، وذلك حتى لانتورط فى تكرار لامبرر له . إذ أن هذه المظاهر على تعددها ترجع فى النهاية إلى عدد ضئيل من التفاعلات . وكنا نستطيع أن نقصد مباشرة إلى الحديث فى هذه التفاعلات مادمنا نهدف إلى الإبانة عن العمليات التى تقوم بين الفرد والجماعة لتحقيق تكامله معها والاحتفاظ به وتجديده فى كل لحظة ، إلا أن هذا كان من شأنه أن ينتهى بنا إلى نتائج مبتورة . لأن هذه العمليات نفسها تتحدد تبعاً لطبيعة المستوى الذى تجرى فيه ؛ فالحساسية التى يولد بها الوليد شرط لا بد منه لكى تنطبع فيه بعض آثار البيئة ، وقلة الارتباطات بين الألياف العصبية من ناحية وبينها وبين بعض الأعضاء الداخلية من ناحية أخرى ، فى الأيام الأولى من حياة الوليد ، هى السبب فى ارتداد بعض تأثيرات البيئة عنه . وطبيعة أنسجته والاتجاه العام لنموها يحدد مضمون استجاباته . وهذا ما تؤيده تجربة كلوج . إذ أن البيئة الاجتماعية البشرية التى أحيطت بها الشمبانزية « جوا » لم تستطع أن تثير فيها استجابات ذات مضمون بشرى كاستجابات الطفل « دونالد » ، رغم حرص القائمين بالتجربة على توفير كل مقومات البيئة البشرية للشمبانزية (W.N. Kellog & L.A. Kellog 1936) وربما كان من أهم العمليات التى تقوم أمامنا كمثال واضح فى هذا الصدد عملية استخدام الرموز . فهى تعتمد من ناحية على المستوى الارتقائى العضوى فى الإنسان متمثلا فى ارتقائه العصبى بوجه خاص ، ومن ناحية أخرى تعتمد على مستوى البيئة الاجتماعية ، متمثلا بوجه خاص فى التفاعل عن طريق اللغة .

وثمة سبب آخر يحملنا على متابعة القول فى تفاصيل الارتقاء ، وهو أننا نريد أن نبين كيف أن التكامل الاجتماعى فى المستوى البشرى من طراز فريد ، بما يحققه من « فردية » الكائن « واجتماعيته » فى آن واحد . وللزاوية الأنتوجينية أهمية كبرى فى توضيح هذه الحقيقة . ونحن إذ نتتبع بعض التفاصيل إنما نكسب قضايانا مضمونها وإلا ظلت جوفاء ، وهذا أحد أنواع التحقيق للقضايا العلمية

ولقد بينا حتى الآن أن الفرد فى ارتقائه منذ أيامه الأولى يمضى فى تحقيق هذه الخطة الرئيسية . والواقع أنه يستمر كذلك فيما بعد ، وكلما تقدم به العمر وضحت معالم نموه ذى الشعبتين أكثر فأكثر . فازدادت وحدته الداخلية تماسكاً وقدرة على التميز من الآخرين وعلى الفعل الموجّه ، وازدادت صلاته بالبيئة الاجتماعية تغايراً واستقراراً .

وعندما يتم الشهر الثالث تكون حدود الأنا قد ازدادت صلابة فى وجه مؤثرات البيئة . فعندما يفاجأ تظهر عليه علامات الدهشة ، لكنه لا يبكى كما كان يفعل من قبل . وعندما يصيب الشبع من رضاعته ينهيها نهاية واضحة بإبداء مظاهر الرفض الإيجابى (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 89) وفى دراسة شارلوت بوهلر وهتزر لاستجابات الأطفال (فى أعمار تتراوح بين يوم و ١١ شهراً) لسماع طفل آخر يبكى ، دون رؤيته ، فى هذه الدراسة ما يلقى بعض الضوء على الحقيقة التى نحن بصددها . فقد تبين الدارسان أن معظم الأطفال فى الشهرين الأولين يندفعون فى البكاء لمجرد سماعهم طفلا آخر يبكى ، دون أن يروا التعبيرات المصاحبة ودون أن يدركوا الموقف الذى أبكاه . ولكن ابتداء من الشهر الثالث تهبط النسبة بشكل ملحوظ ، ومن ثم فلا يعود كل ما يتردد فى بيئة الطفل يحرك أجهزته بسهولة (M.M. Lewis 1936, p. 45) وهذا يعنى خطوة جديدة فى الطريق إلى الاستقلال ، ويعنى فى الوقت نفسه انتقالا للرابطة التى تربط الطفل ببيئته إلى مستوى جديد . فالكل المؤلَّف من « الطفل فى بيئته » قد ازداد تغايراً ، إذ لا يتم التأثر إلا بتدخل وظيفة جديدة إلى حد ما ، هى وظيفة إدراك التعبير والموقف المصاحبين . وهذا التغاير يعنى ازدياد الاستقرار بالنسبة للكل . ومما يؤيد هذه الدراسة ودلالة نتائجها ما تبينته بوهلر من أن الطفل حتى الشهر الثالث يضحك بشدة عندما يؤنَّب ، كأنما هو فى موقف مداعبة (G. Murphy 1937, p. 235) فهو لا يفهم إلا أن صوت الراشد ووجهه موجهان إليه ، أما التعبيرات

الانفعالية المصاحبة فلا يفهمها . ومن ثم فإن استجابته لاتكون مطابقة لمقتضيات البيئة فى هذا الموقف ، وهذا يعنى تخلخل الصلة بينه وبين البيئة بشكل ملحوظ . أما بعد ذلك بقليل وقبل أن يتم الطفل شهره الرابع فإنه يستجيب للتأنيب والصوت المرتفع ، بتقطيب الوجه والبكاء .

وفى نهاية الشهر الرابع يستطيع الطفل أن يحرك رأسه بحرية ومرونة واضحة وهو ملقى على ظهره فى الفراش ، كما يستطيع أن يثبت عينيه على بعض الأشياء ، ويبسط يديه ويحرك أصابعه ، وكثيراً ما يستخدم أصابعه فى لمس الأشياء التى فى متناوله ، ونتيجة لذلك يبدأ يدرك أن يده شىء وموضوعات اللمس شىء آخر . وتزداد مطالبه من البيئة ، فبعد أن كان صياحه مرتبطاً بالجوع والألم يرتبط الآن ببعض الحاجات السيكولوجية ومن أهمها رغبته فى أن يكلمه الراشدون المحيطون به . (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 100) ويتعرف على أمه — أو بديل الأم — فتبرز أمامه من بين أفراد بيئته الاجتماعيه كشكل فوق أرضية ، ومن ثم يبرز التغاير فى ارتباطاته الاجتماعية ويتخذ شكلا واضحاً . ويكون لارتباطه بالأم أثر عميق فى تشكيل الأنا وإبراز قدراته ، على نحو ما سنبين فى موضع آخر .

وفى أوائل الشهر السادس كانت ابنتى تجلس بلا مشقة ، ولو أنها كانت تقع على ظهرها بمجرد مرور أحد الأفراد بجوارها ، فقد كانت تحاول أن تتابعه بلفت رأسها نحوه وعندئذ كانت تقع ، وكانت كذلك توجه يدها لتناول أى شىء يظهر أمامها على الأرض ، إلا أن المستوى الذى بلغته من التآزر العضلى البصرى لم يكن يمكنها من تصويب يدها إلى الشىء بدقة ، فكانت يدها تهبط عن يمين الشىء أو عن يساره بقليل ، لكنها كانت ترفعها وتهبط بها بضع مرات متتالية حتى تهبط فى إحدى هذه المرات على الشىء المراد . وكانت إلى جانب ذلك إذا ما تغيرت البيئة من حولها تظل متيقظة تتلفت إلى المرئيات ، على عكس حالها فى الأسابيع الأولى فقد كانت تنام إذ ذاك . وهذا برهان عكسى على صدق ما ذهبنا إليه من تفسير حينئذ بشدة ميوعة البراعم الأولى للأنا ، أما الآن فقد أصبح للأنا من التماسك الداخلى ما يمكنه من

الاحتفاظ بتغايره وتنبهه وسط تحولات البيئة إلى حد ما . وهذا ما تؤيده بقية الظواهر . وترى بوهلر وهتزر أن استجابات الفهم لأصوات الراشدين تبلغ مستوى ارتقائيا جديداً فى هذه الفترة . فبعد أن كان الطفل يستجيب استجابة إيجابية واضحة للأصوات الودودة الراضية واستجابة سلبية للأصوات الغاضبة (بلفت نظره بعيداً عن مصدر الصوت) دون أن يرى التعبيرات والمواقف المصاحبة ، يبدأ منذ الآن يستجيب استجابة عدم اكتراث سواء أكان الصوت راضياً أم غاضباً، ما دام (الطفل) لا يرى الموقف المحيط به والتعبيرات المصاحبة . .(M.M. Lewis 1936, p.45)

وفى اليوم العاشر من الشهر السابع بدأت الطفلة تقول « دادا » عندما ترى مربيتها ، و « بابا » عندما ترانى . وقد تكرر ذلك عدة مرات ، وفى معظم هذه المرات كان الاسم يصدر مرتبطاً بصاحبه بدقة دون خلط يذكر . إلا أن ترديده لم يكن يتوقف على استمرار حضور صاحبه ، فكثيراً ما كانت الطفلة تستمر فى ترديده بعد انصراف صاحبه عنها ، وكأنها عثرت على نغمة جميلة لاتفتأ ترددها . ويلاحظ أن ذكر الاسم لم يكن عندئذ موجهاً كنداء ، لكنه كان مجرد عنصر مكمل للموقف الذى يظهر فيه الأب أو تظهر فيه المربية ، لا يلبث أن يصبح ذا وجود مستقل عن هذه الملابسات الخارجية ، ومستمد من نشاط تلقائى إلى حد كبير . وبعد بضعة أيام من بدء هذه الخطوة الحاسمة فى الارتقاء اللغوى بدا على الطفلة بعض النكوص ، فأصبحت تخلط بين استعمال الكلمتين فتنطق بإحدهما فى الموقف الذى يستدعى الأخرى . ثم ازداد نكوصها فاقتصرت على استخدام كلمة « دادا » وانقطعت بضعة أيام عن النطق بكلمة « بابا » كما لم تعد تنطق بكلمة « دادا » عندما ترى شخصاً ما ، بل كانت تنطق بها أحياناً دون ظهور أى شخص . وفى بداية الشهر الثامن تقدمت خطوة أخرى فى ارتقائها اللغوى بأن نطقت بكلمة « ماما » وعادت تبدى بعض التمييز بين موضوعات الكلمات الثلاثة .

ويثبت جيزيل ملحوظة هامة فى نمو الاستجابات الاجتماعية لدى الطفل فى هذه الفترة؛ فالطفل يميز بين الأشخاص ، فيطلب الكثير ممن يطعمه ، ويبدى حيوية فائقة مع من يألفهم ، ويشعر بالخجل من الغرباء لا سيما إذا احتوته وإياهم أماكن لم يرها من قبل (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 115) ويتكلم شبيتز R. Spitz عما يسميه بأزمة الشهر الثامن عند الطفل[1] ومؤداها أنه يبدأ حوالى الشهر الثامن يميز بين الشخص المألوف وبين الغريب ، ويجفل من رؤية الغرباء (م . زيور ١٩٥٢) . وهذا ينطوى على درجة واضحة فى نمو الذاكرة — ولو أنها لا تزال ضمنية — ، إذ يميز بين من له معه رصيد من الخبرات الماضية ومن لم يسبق له معه أية خبرة. كما ينطوى على شعور واضح «بالآخر» من حيث إنه متميز من «الأنا» ومن حيث إن «الأنا» مضطر أن يتخذ «اتجاهاً» معيناً نحوه.

وعندما تشرف السنة الأولى على نهايتها يكون الطفل قد بدأ محاولاته للوقوف على قدميه ، كما يبدى قدرة على المحاكاة لم تكن متوفرة لديه من قبل ، واستجابة واضحة لما يبديه الآخرون من اعتراضات على سلوكه ومحاولات لتعليمه (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 116) ويستهل عامه الثانى ببوادر القدرة على المشى والقدرة على الكلام . وهما تعبيران واضحان عن تطور كيفى فى ارتقاء الأنا فى طريقى الاستقلال عن الآخرين والارتباط بهم . كما أنهما عاملان على جانب كبير من الأهمية فى دفع الارتقاء فى هذين الطريقين معاً .

---

(١) ورد ذكر هذا الرأى فى كتاب هيرلوك (E. Hurlok 1950, p. 292) على أساس أن هذه الأزمة تبدأ منذ الشهر السادس ، إذ تختفى الابتسامة التى كان الطفل يقابل الجميع بها ، ويقتصر على أن يقابل بها المألوفين ، ويتطور الأمر إلى حد الانزعاج والبكاء من مرأى الغريب فى ختام السنة الأولى .

(٢) يثبت جيزيل ملحوظة هامة فى صدد حديثه عن بزوغ الشعور بالأنا . إذ نفهم من هذا الحديث أن « الأنا الجسمى » هو أول مظاهر الأنا إذ يبزغ وينمو ، وأن الإبصار واللمس (السلبى والإيجابى ، أى أن ألمس وألمس) يساهمان بنصيب كبير فى إقامة الشعور بالأنا الجسمى . ويستشهد على ذلك بأن طفلة ذكية لكنها عمياء منذ ولادتها ظلت فى حالة خلط واضطراب فيما يتعلق بعلاقتها بيديها وقدميها . (A. Gesell & F. Ilg 1946, p. 309)

٢ ــ من الجلى إذاً أن الارتقاء النفسى الاجتماعى للطفل يمضى فى هذين الاتجاهين بفضل العجز الشامل وبطء النمو من ناحية ، وما تقدمه البيئة الاجتماعية من مساعدات لا تنقطع من ناحية أخرى . وقد حرصنا على أن نبين بعض المظاهر الجزئية لهذا الارتقاء لنوضح ازدواج قطبيه بدرجة كافية . إلا أن ما ألقيناه من الأضواء لا ينفذ إلى ما وراء هذه المظاهر ، اللهم إلا فى بعض المواضع المتناثرة بقصد تجميع هذه الجزئيات والتذكير بالغرض من متابعتها وإظهار دلالتها .

والآن نريد أن ننفذ إلى ما وراء هذه المظاهر ، فنلقى الضوء على الأسس الدينامية لهذا الارتقاء . إن نقطة البدء كما أوضحناها هى الموقف الاجتماعى الذى يتضمن من ناحية وليداً تصدر عنه عدة أفعال منعكسة مائعة[1] غير موجهة ، ومن ناحية أخرى بيئة اجتماعية لا تفتأ تؤول ما يظهر لها من أرجاع الوليد ، وتستجيب له استجابات منمطة من شأنها أن تخفف من توتراته غالباً . ومن الجلى أن الوليد لا يقصد التعبير عن حالات معينة ، وما يصدر عنه من أرجاع إنما يمليه مستواه الارتقائى البدائى الذى يتلخص فى كونه كلا ضئيل التغاير مما يترتب عليه انتشار الأرجاع العضوية التى تطرأ على بعض أنسجته الداخلية ــ كالجوع والمغص وما إليهما ــ بحيث تشمل أعضاءه الخارجية أيضاً .

فالطفل إذاً بحكم نشاطه التلقائى قد دفع البيئة إلى أن تستجيب له استجابة معينة تبدأ بتأويل نشاطه هذا ، وهذا التفاعل يعتمد أساساً على قاعدة وجدانية لا يمكن إغفالها ، إذ أن مسارعة البيئة إلى الاستجابة للطفل بما يخفف توتراته يتضمن اهتمامها (البيئة) به اهتماماً شديداً ، وبدون هذه القاعدة الوجدانية لا يمكن للتفاعل أن يتم . وقد بينا كيف أن هذه القاعدة تبدأ تتوفر قبل ميلاد الطفل بزمن غير يسير .

---

(١) fluid

والذى يهمنا الآن فى هذا الموقف المثلث الأطراف هو الطرف الأوسط ، أعنى عملية التأويل والاستجابة التى تربط الطفل بمجتمعه . فكيف تتم هذه العملية . إن من يلاحظه عن كثب موقف الأسرة حول الوليد يرى أن الطابع الرئيسى لهذه العملية هو أنها تتم بشكل مباشر ومنمط . فلا يحدث أن يقف الأهل مكتوفى الأيدى ليتأملوا نمط الأرجاع الصادرة عن الوليد ويتتبعوا أوجه الشبه بينها وبين ما سبق لهم أن رأوه من أنماط فى مواقف متماثلة ، ليقرروا على أساس نتيجة المقارنة ما يتخذونه من خطوات نحو هذا الوليد ، لكنهم يرون فيها مباشرة صورة الألم أو الجوع أو التوتر العابر الذى لا يلبث أن يزول . ولا جدال فى أن الشحنة الوجدانية المنتشرة فى الموقف تملى سرعة هذا التأويل . لكن إنجازه على صورة معينة دون سواها — بحيث يرى الراشدون فى أرجاع الوليد تعبيراً عن الجوع مثلا لا عن آلام المغص أو العكس — لا يكفى لتفسيره ضغط الشحنة الوجدانية ، فلا بد إذاً من الكشف عن عوامل أخرى .

وأول ما يتبادر إلى الذهن أن يكون هناك ارتباط فطرى بين بعض الانفعالات وأنماط معينة من التعبير . وهذا مرجح — إلى حد ما — فيما يتعلق بالانفعالات الغليظة كالدهشة والفرح والاشمئزاز والألم والخوف[١] . (ى . مراد ١٩٤٨ ص ١٢٧) . ولا تخرج انفعالات الطفل عن هذا الصنف من الانفعالات ، وهى فى الغالب متبأورة حول الجوع أو بعض الالآم العضوية . ومن ثم يسهل على الراشدين تأويلها ، وغالباً ما يكون التأويل صحيحاً . إلا أن هذه الحقيقة وحدها لا تكفى لتفسير عملية التأويل بالصورة التى تحدث بها . وذلك لسببين ؛ أولهما أننا نعلم أن فطرية أنماط التعبير عن هذه الانفعالات لا تعنى أنها تبرز منذ اليوم الأول فى حياة الوليد متميزة المعالم مستقرة ، بل إنها

(١) نذكر فى هذا الصدد الدراسة التى قامت بها جودنف F.L. Goodenough على فتاة عمياء صماء (منذ ولادتها) بلغت من العمر عشر سنوات . فقد التقطت لتعبيراتها الانفعالية صوراً متحركة . وفى هذه الصور يبدو لنا بوضوح كيف أن الفتاة تعبر عن الفرح والحقد والتهيب بنفس التعبيرات التى تظهر على وجوه الفتيات السويات .

ومعنى ذلك إذاً أن هذه التعبيرات فى خطوطها العامة غير مكتسبة . (E. Hurlock 1950, p. 248)

تكون فى البداية مائعة ككل ما يصدر عن الوليد ، ثم تتميز وتستقر شيئاً فشيئاً بفضل عدة عوامل ، من بينها عامل النضج (G. Murphy & others 1937, p. 139) هذا مع أن الأسرة تبدأ التأويل منذ اليوم الأول فى حياة الوليد . والسبب الثانى أن هذا القول لا يفسر لنا كيف يقصد الأهل مباشرة إلى التأويل دون أن تتوسط بين إدراكهم لتعبير الطفل وتأويلهم إياه عمليات تفكير ومقارنة . والواقع أن مفهوم « الإسقاط[1] » هو الذى يستطيع أن يحل هذين الإشكالين حلا مرضياً . فالراشدون الذين يمارسون هذه الأنماط الانفعالية منذ طفولتهم يسقطون نماذجهم الانفعالية بقوالبها ومحتوياتها على الوليد ويدركون فيه نماذجهم المتأملة المعبرة . والحظ اليسير المتوفر من التشابه بين نموذج الانفعال لدى الوليد وبين نماذجهم الراشدة — على أساس أن كلا منهما فطرى — من شأنه أن يمهد لإنجاز عملية الإسقاط هذه . أما أوجه النقص فى هذا التشابه فمن شأن الإسقاط أن يكملها ، وهذا طبيعى فى هذه العملية . ويكفى أن نتأمل حالة من يرى فى السحب المتجمعة فى الفضاء ، أو فى بقايا القهوة فى الفنجال (أو فى نقط الحبر التى يتألف منها اختبار رورشاخ) أشكال حيوانات أو ما إليها ، فإنه يكمل جوانب النقص فى التشابه بين الأشكال على حقيقتها وبين أشكال الكائنات التى يراها ماثلة فيها (والتى تكون فى الغالب إسقاطات لرموز مبعثها بعض كوامن اللاشعور) .

ومن شأن مبدأ الإكمال هذا أن يفسر لنا السبب فى وقوع الأهل أحياناً فى بعض الأخطاء . والواقع أن مفهوم « الإسقاط » بجوانبه المختلفة لا بد منه — فى حدود مفاهيمنا السيكولوجية الحاضرة — لفهم سيكولوجية الأسرة — لا سيما الأمومة والأبوة — فى اتجاهها نحو طفلها . فمعظم المحاولات التربوية التى تبذلها الأسرة (بل والمجتمع بأسره) إنما ترمى إلى تنشئة الطفل على صورتها . وما من أب أو أم إلا وكلاهما يرى فى الطفل جانباً من شخصيته ، فى حاضرها أو فى آمالها

---

(١) projection

على أن استخدام المحللين النفسيين لمفهوم الإسقاط يغلب عليه تحديده بأنه آلية نفسية ، وظيفتها الدفاع عن الذات بحل الصراعات اللاشعورية التي تهدد سلامتها ، ويكون هذا الحل بإسقاط القوى الشريرة خارج الذات ورؤيتها متمثلة في جوانب البيئة المحيطة بها . على هذا النحو استخدم فرويد S. Freud هذا المفهوم في كتاب « الطوطم والطابو » (1938) كما استخدمته سوزان أيزاكس S. Isaacs في كتاب « الارتقاء الاجتماعي لدى صغار الأطفال » (1933) . إلا أننا لانستخدم الإسقاط هنا بهذا المعنى . بل نستخدمه في حدود أضيق من ذلك ، نستخدمه في حدود الخطوط الرئيسية للعملية فحسب ، أي قيام أحد جوانب الشخصية في الخارج منفصلا عنها ، وإدراكه منفصلا هكذا .

ويستجيب الراشدون للطفل إذاً على ضوء ما يقرأونه في أرجاعه من معان ، وتكون استجاباتهم منمطة إلى حد كبير . فإذا بدا على الطفل ما يعني الجوع قدم له اللبن ، وإذا بدأ عليه ما يعني آلام المغص قدم له مشروب معين أو حمل بطريقة معينة وهكذا . وفي هذا الموقف تتم عمليتان على جانب كبير من الأهمية ، وكلاهما تؤدي في النهاية إلى الربط بين أرجاع الوليد وجزء من استجابات الراشدين ؛ إحداهما عملية تقنية والأخرى عملية تشريط[٢] . وعملية التقنية هي عملية تحديد المسالك العصبية[٣] التي من شأنها أن تربط ربطاً مباشراً بين أرجاع معينة — كأرجاع الامتصاص — وبين حالة الشبع التي تترتب على نفوذ مواد معينة إلى بعض الأنسجة . أما عملية التشريط فهي عملية تحديد المسالك العصبية التي من شأنها أن تربط ربطاً غير مباشر بين أرجاع معينة وبين حالة الشبع عن طريق منبه وسيط لا يحقق الشبع بنفسه ولكنه يكون متبوعاً دائماً بظهور المشبع . فهو بديل من المشبع إلى حد ما . ومن الجلي أن ثبات نمط الاستجابة الصادرة عن الراشدين ييسر تحقيق هاتين العمليتين . وهذا من شأنه أن ييسر تحول أرجاع الوليد من مجرد أرجاع انعكاسية إلى

(١) canalization (٢) conditioning
(٣) engrams

تعبيرات مقصودة يتوقع بعدها استجابات بعينها ، وهنا تبدأ الخطوة الأولى من جانب الوليد فى سبيل التعامل مع مجتمعه (G.Murphy& others1937) .

إن مفهومى التقنية والتشريط من أهم المفاهيم اللازمة لتفسير العملية الكبرى التى يشار إليها باسم التطبيع الاجتماعى . فهما يجعلان فى إمكاننا تفسير جانب التشابه والتنميط فى الحياة الاجتماعية، ومن أهم مميزاتهما خضوعهما للامتحان التجريبى . إلا أنهما كجميع القوالب النظرية يمكن أن يكونا مصدراً لتضليل البحث ، بما يدخلانه على موضوعه من تبسيط مخل بالواقع . فإذا لم نتنبه دائماً إلى أنهما مجرد تجريدين بعيدين عن تعقيد الواقع وثرائه ، وأن الضرورة والمستوى العلمى الذى بلغناه هما اللذان يفرضانهما علينا ، وأن من واجبنا بناء على ذلك العمل الدائم على إثرائهما بجوانب الواقع المتشابكة ، وامتحان قدراتهما — بين الحين والآخر — على تحمل المضمون الجديد امتحاناً تجريبياً ، إذا لم نفعل ذلك كان مقدراً على بحوثنا أن تضل وتضلل الباحثين وتعطل تقدم العلم بشكل ملحوظ .

وهنا نقدم بعض الأمثلة لتوضيح هذه الحقيقة . فقد أجرى رازران G.H. Razran بضع تجارب على عدة أشخاص مؤداها جعل اللعاب يسيل بكثرة كاستجابة شرطية للفظ معين (لا معنى له) أو لصوت المترونوم ، أو لأية إشارة تدل على قرب تقديم الطعام ، فلم يصل إلى نتيجة واحدة ، بل ظهرت له ثلاثة طرز من الاستجابة : فثمة أشخاص يستجيبون استجابات لا فرق بينها وبين استجابات كلب بافلوف ، وأشخاص لا تزيد كمية اللعاب الذى يسيل فى استجاباتهم مهما تلقوا من تمرين ، وأشخاص تنقص كمية اللعاب لديهم كلما ازداد تمرينهم ، على عكس المنتظر . وهذا يعنى وجود عوامل أخرى فى الموقف غير مجرد المنبه الذى يقدمه المجرب . وقد تبين فعلا أن أن المجرب نفسه عامل فى الموقف ، وأن اتجاه الشخص (الذى تجرى عليه التجارب) نحوه بالقبول أو عدم الاكتراث أو الرغبة فى هزيمته — يتدخل بشكل واضح

فى تحديد الاستجابة . ومن ثم فقد أصبح فى الموقف منبهان ، أحدهما المجرب والآخر ما يقدمه المجرب (كلمة أو صوت المترونوم) ، وقد يمضى تأثيرهما فى اتجاه واحد ، وقد يتعارضان . فماذا يحسم النتيجة ؟ إن مفهوم الفعل المنعكس الشرطى لا يتسع لتفسير هذا الموقف ذى المنبهين — البديلين — فى آن واحد ، فلا بد إذاً من تنميته أو تعديله بحيث يلائم هذا الكشف الجديد . ومن ثم فقد أدخل مفهوم « السيطرة [1] » الذى يمكن تلخيصه على النحو التالى : عندما تميل استجابتان مختلفتان إلى أن فى تثارا وقت واحد بوساطة منبهين أو موقفين متلازمين فإن نتيجة هذين الموقفين لا تكون إحداث الاستجابتين منفصلتين ، بل تقوية واحدة منهما (الأقوى من الناحية البيولوجية غالباً) وإطفاء الأخرى بعد فترة زمنية وجيزة . وعلى ضوء مجموعة أخرى من التجارب اضطر رازران إلى التفرقة بين « تشريط صيغى أو جشطلتى [2] » « وتشريط ضمنى [3] » ؛ ففى النوع الأول يقوم منبهان معاً بإثارة استجابة واحدة (فى التجربة : مصباحان أحدهما أحمر والثانى أخضر ، والاستجابة سيل اللعاب) ولا يمكن لأحدهما على انفراد أن يثيرها . أما فى النوع الثانى فثمة منبه شرطى واحد كما هو المعتاد فى التجارب التقليدية . وعلى ضوء مجموعة ثالثة من التجارب رأت نوفيكوفا A.A. Novikova أن تفرق بين درجات من التشريط ، فثمةَ ارتباطات شرطية من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة ، على حسب المسافة بين المنبه البديل والمنبه الأصلى (G. Murphy & others 1937, p. 161-167) ولاتزال البحوث فى هذا الموضوع تتقدم والمفاهيم تزداد ثراء بتشابك الواقع وتعقيده ، ولايزال الواقع أثرى وأعقد من أن تحيط به المفاهيم القائمة بالفعل . فثمة عوامل تتدخل فى التشريط — لا سيما إذا أجرى على كائنات بشرية — ولا يمكن إغفالها فى هذا المستوى البشرى ، كالنضج والذكاء والحالات الوجدانية ونمط الشخصية والخبرات السابقة ، وهى تؤثر فى سرعة

(١) dominance

(٢) configurational conditioning

(٣) colligated conditioning

الارتباط وثباته ، إلا أنها جميعاً — فيما نعلم — لم تُبحث بعد بحثاً كافياً ، مع أنها جوانب جوهرية لا يمكن أن يخلو منها موقف اجتماعى مهما كان ضيق الحدود مبسَّطاً .

إلا أن هذا التفنيد كله لا يعنى تبرير العدول عن استخدام مفهوم التشريط أو مفهوم التقنية ، بل إنه ليعنى فقط التشكيك فى قيمة كل محاولة لتجميدهما وقسر الواقع على ملاءمتهما بدلا من تعديلها بحيث يلائمان ما يتكشف لنا من جوانبه . ولا يزال هذان المفهومان من خير المفاهيم التى تمكننا من تفسير بعض جوانب عملية التطبيع . فالوليد إذ يرتقى ويتقدم شيئاً فشيئاً لاكتساب عضويته الاجتماعية التى تتمثل فى نمط عاداته وقيمه وتعبيراته الإيمائية ولغته و . . . الخ يمر بعدة تقنيات وتشريطات متفاوته التعقد ، ولا نزعم أنها تكفى لتفسير النتيجة النهائية ، لكنها بعض العمليات الضرورية للوصول إلى هذه النتيجة . ولا جدال فى أنها — بالصورة التى نفهمها على ضوء البحوث التجريبية الحديثة — ضرورية لجعل بعض المفاهيم الشائعة فى البحوث السيكولوجية الحديثة — ولا سيما البحوث التحليلية — تصبح فى متناول التحقيق التجريبى . نذكر من هذا القبيل مفاهيم التثبيت[١] والتسامى[٢] والنكوص[٣] وما إليها . وإثراء هذه المفاهيم وشحذها ضرورى لتعميق فهمنا لعملية التكامل الاجتماعى فى جميع مظاهرها ومستوياتها .

نعود إلى الطفل الذى نتتبع تحقق عملية التكامل الاجتماعى من خلال ارتقائه . فإن عمليتى التقنية والتشريط تعملان فيه جنباً إلى جنب مع عمليات النضج المتمثلة بوجه خاص فى زيادة الارتباطات فى جهازه العصبى ، وتغاير مراكز الحس والحركة فى الدماغ شيئاً فشيئاً ، وتقدم عملية ملينة[٤] محاور الخلايا العصبية ، فتكون النتيجة بزوغ الوظيفة الرمزية لديه بجانبها الاستقبالى — المتمثل فى فهم الكل من خلال الجزء — والإصدارى — المتمثل

(١) fixation (٢) sublimation
(٣) regression (٤) myelinization

فى التعبير الرمزى . وتكون هذه الوظيفة فى بداية أمرها ضمنية — لا سيما فيما يتعلق بالفهم — مائعة بما يتناسب ميوعة « المادة النفسية البيولوجية الناشئة » وقلة تغايرها وضحالة تاريخها . إلا أن الطفل مع ذلك يدهشنا إذ يبدى منذ نهاية الشهر الأول بوادر هذه القدرة على التعبير والفهم الرمزيين . فهو يبكى إذا ما ابتعدت الأم عن فراشه ، ويتوقف عن البكاء بمجرد اقترابها منه ، ولا يبدو ثمة سبب للبكاء سوى طلب الأم . وقد يكون هناك سبب يحفزه إلى إلى هذا البكاء كابتلال الملابس مثلا ، إلا أنه يتوقف عن البكاء بمجرد اقتراب الأم منه وقبل أن تعالج سبب بكائه . فإذا لم تعالج هذا السبب بعد قليل عاد إلى البكاء مما يدل دلالة واضحة على أنه يرى فى حضورها رمزاً لموقف بأسره يتألف من حضورها وخدماتها له وتخفيف توتراته .

إلا أن هذه الوظيفة الرمزية تكون فى بداية أمرها ضمنية إلى حد يصعب معه أن نسميها بهذا الاسم بمعناه الدقيق ، وليس ثمة ما يجيز لنا هذه التسمية سوى اعتبارنا لإمكانيات هذه البداية وما ستؤدى إليه . على أننا إذا نظرنا فى موقف الطفل من حيث واقعه المتحقق فى الأسابيع والشهور الأولى أدركنا الأمر على نحو مختلف بعض الشىء . فهو يدرك بيئته — كما بينا من قبل — ككل ضئيل التغاير ، ويدرك أصواته وأرجاعه الحركية لا على أنها صادرة منه بل على أنها من بين مقومات هذه البيئة . وحتى حالاته الوجدانية من آلام وتوترات أو شعور بالراحة تدرك ممتزجة بهذا الكل السديمى . ولا يفرق الوليد بين ما حدث قبل وما حدث بعد . وقد بينا أنه عندما يبلغ أواخر الشهر الثانى يكون قد ألف بيئته بمعنى أن الاتزان المتحقق بينه وبينها يختل اختلالا واضحاً إذا ما نقل منها إلى بيئة أخرى . كما أن أجزاء معينة من بيئته تكون قد برزت فى إدراكه وأصبحت بمثابة شكل فوق أرضية . ويتم هذا البروز بناء على تنظيم خاص للمجال . فهذه الأجزاء مرتبطة دائماً بتغيرات وجدانية وعضوية تنتاب الوليد ، وتقع غالباً فى الطريق إلى الراحة والرضا ،

وتكون علامة على الاقتراب منهما ، وذلك نتيجة « لاتجاه الكل إلى الاكتمال » ، أعنى الكل المؤلف من الآلام والأم والرضا . وليس ثمة فارق يذكر بين هذا الموقف وموقف الكلب من صاحبه الذى يصبح ظهوره علامة على قرب تقديم الطعام . أو موقف الشمبانزية من كهلر عندما كان يظهر أمامها مقطب الجبين فتدرك ذلك علامة على قرب وقوع العقاب . ولا نستطيع هنا أن نتكلم عن توقع أو طلب بمعناهما الصحيح بحيث يتصور الكائن مستقبل الموقف قبل وقوعه ، إذ ليس ثمة ما يدعو إلى افتراض قيام هذه الوظائف العقلية العليا ما دمنا نستطيع أن نفسر الظاهرة فى حدود قيام وظائف أدنى منها .

وقد فرق ماركى J.F. Markey بين العلامة[1] والرمز تفرقة دقيقة ، فقرر أن « العلامة » ترتبط بفعل ما أو بشىء ما ارتباطاً شرطياً ولا تكون موضوعاً للتأمل العقلى ، أما الرمز فيكون موضوعاً للتأمل العقلى . ومع أن الارتباطات الشرطية تكون إطاراً لا بد منه كشرط أساسى لارتقاء الرموز ، فإنها لا تكفى لتفسير هذا الارتقاء الذى يمثل فى الواقع مستوى أعلى فى الارتقاء « النفسى البيولوجى» بوجه عام ينفرد به الإنسان . ويقرر ماركى كذلك ضرورة توفر عنصرين أساسيين لإكساب الرمز خصائصه الجوهرية ، وهما : أولا ، تمييز الكائن نفسه من الآخرين ، باعتباره مصدر الرمز (التعبير) . وثانياً ، تمييز فعل الاستجابة للتعبير باعتباره الفعل الذى يصدر عادة عن الآخرين J.F. Markey 1928, p. 116) فارتقاء الوظيفة الرمزية إذاً رهن بارتقاء الأنا. وهذا يتفق مع ما بيناه من قبل من أن ارتقاء الأنا ينطوى على نمو القدرات التخيلية ، واطراد التآزر العضلى العصبى ، وهما من مستلزمات فهم الرموز واستخدامها .

على أن الوظيفة الرمزية لا تعنينا فى هذا البحث إلا من حيث دلالتها فى عملية التكامل الاجتماعى ، وعلى هذا الأساس لا تتم الإفادة من الكشف عن ديناميتها إلا بالكشف عن مضمونها الوجدانى . وبعبارة أخرى يلزمنا

(١) sign

تناول هذه الوظيفة من خلال نظرتنا التأليفية إلى ارتقاء الأنا وسط الجماعة وتفاعله معها تفاعلاً متعدد المستويات. ولما كنا قد توقفنا فى تتبع مظاهر هذا الارتقاء وما يتخللها من تفاعلات عند نهاية السنة الأولى ، وهى فى الواقع مرحلة تمهيدية تمثل فى مجموعها التطورات الكمية الآخذة فى التجمع فى اتجاه التأليف الجديد الذى نطلق عليه « الأنا » والذى يبزغ فعلا فى نهاية السنة الأولى عندما تبدأ محاولات الطفل فى ممارسة المشى والكلام ، فإننا نؤثر إرجاء الحديث فى ديناميات ارتقاء الأنا وسط الجماعة حتى نفرغ من تتبع مظاهر الارتقاء فى المرحلة الثالثة — الممتدة من نهاية السنة الأول حتى نهاية السنة الثالثة — ليتيسر لنا الكشف عن الدلالة الحقيقية لكثير من جوانب السلوك الطفلى سواء فى السنة الأولى والسنتين التاليتين ، وليتيسر لنا رسم صورة واضحة المعالم للأنا المترقى .

الفصل لثالث

الطفل منذ بداية السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة

اللاتغاير بين الأنا والآخر – التبادل – تضخم الأنا
المحاكاة – اللغة – التخيل – النمو الوجدانى

إن الظاهرة الرئيسية فى ارتقاء الطفل النفسى منذ بداية النصف الثانى من السنة الأولى هى ازدياد حساسيته الاجتماعية بشكل ملحوظ . وقد أوضحنا مثالا على ذلك فى الفصل السابق تغاير هذه الحساسية بحيث يتمكن الطفل حوالى الشهر الثامن من التفرقة بين المألوفين والغرباء، وتختلف تبعاً لذلك استجابته لكل من الفريقين . على أن هذا التغاير الذى كشف عنه شبيتز ليس سوى جانب من عملية الارتقاء الاجتماعى للطفل التى تكشف عن نفسها فى عدة مظاهر أخرى . . فإلى جانب ذلك يلاحظ فالون أن حركات الطفل « المتجهة نحو الآخر » تزداد فى النصف الثانى من السنة الأولى أضعاف ما كانت عليه فى النصف الأول من تلك السنة، ويلاحظ كذلك أن « حركات القبض باليد على الشيء أو الآخر » تتغاير فى تلك الفترة إلى إشارات مصاحبة وإشارات تنافس ، كما تتغاير الأصوات الصادرة عنه تبعاً للموقف الاجتماعى . وتصبح الميميكا تعبيرية . أما الابتسامة التى كان مبعثها الصوت الإنسانى وحده ، فإنها تصبح رجعاً اجتماعياً مستقراً لا يثيره هذا الصوت فحسب ، بل تثيره كذلك التقاء نظرات الطفل مع نظرات راشد أو طفل آخر . كما يلاحظ أنه لا يبتسم إذا كان منفرداً فى مكان ما (H. Wallon 1949, p. 191) ويجمع فالون وجيوم على أن مظاهر الغيرة تبدأ عند الطفل حوالى الشهر التاسع من العمر . ويقرر فالون كذلك أن هناك ضرباً معقداً من المحاكاة الوجدانية يظهر

لدى الطفل خلال النصف الثانى من عامه الأول ، وهو يؤدى إلى ظهور التعاطف [1] فى بداية عامه الثانى . ويذهب ستيرن إلى أن الطفل فى أواخر السنة الأولى يعكس على وجهه مختلف التعبيرات الخاصة بالشخص الذى يشاهده ، كما يستطيع أن يمارس تعبيرات المحبة والابتسام والكراهية والقسوة رداً على التعبيرات المناظرة . ويضيف ريد بين R. Bain إلى ذلك مظهراً آخر من مظاهر هذه الحساسية الاجتماعية النامية ، وذلك بما يثبته عن المحصول اللغوى لدى طفلته عندما أتمت ١٤ شهراً من عمرها ، فيقرر أن هذا المحصول كان يتألف من ١٠ أسماء لأشخاص، و ٦ كلمات دالة على أفعال ، و ٥ أسماء لأشياء . وهذا يدل بوضوح على شدة اهتمامها بالأشخاص . كما يقرر أن استجابات الطفلة للكلمات الدالة على أشخاص كانت ترضيها وجدانياً أكثر مما ترضيها الاستجابات للكلمات الدالة على أشياء (R. Bain 1936) وتكشف شارلوت بوهلر C. Buhler هى الأخرى عن بعض جوانب هذه الحساسية فى نموها المطرد، فتقرر مثلا أنه إذا أصدر الراشدون أمراً إلى الطفل فى خلال عامه الثانى بألا يلعب بلعبة معينة موجودة أمامه فإن الطفل غالباً ما يترك المكان ثم يعود إلى اللعب بها من جديد . فإذا عاد الراشد وشاهده وهو يلعب بها كانت استجابته على النحو التالى :

٦٠٪ من الأطفال فى سن ١ سنة ٤ شهر

يضطربون ويخجلون ، ويتجهون إلى الراشد معبرين عن خوفهم .

١٠٠٪ من الأطفال فى سن ١ سنة ٤ شهر

يضطربون ويخجلون، ويتجهون إلى الراشد معبرين عن خوفهم .

وهذه الزيادة الإحصائية دليل واضح على زيادة تمكن الشعور بقيمة «الإلزام الاجتماعى» (C. Buhler 1937, p. 66) ولخص فالون ما وراء هذه الأمثلة

---

(١) sympathy

جميعاً بقوله فى الشهور الست الأولى من حياة الطفل تكون حساسيته منصرفة إلى حاجاته العضوية . لكن حساسيته الاجتماعية لا تلبث أن تبزغ بنوع من التغاير باعتبارها حساسية نوعية متميزة من حساسيته العامة . وتنمو هذه الحساسية النوعية بسرعة حتى تتفوق على حساسيته للأشياء وما يترتب عليها من علاقات حسية حركية . (H. Wallon 1949, p. 192) .

وإذا نحن حاولنا أن نتتبع الاتجاهات العامة لهذا الارتقاء الاجتماعى منذ نهاية السنة الأولى من حياة الطفل ألفيناها تمضى نحو تحقيق ما يأتى :

ا ــ زيادة عدد الاتصالات الاجتماعية ، واتساع نطاقها . وهذا ما يقرره جاردنر مورفى (1937, p. 516)) ، وشريف وكانترل (1947, p. 179) و ل.ب. مورفى (1947) ، وبياجيه (1923) ولويز بيتس إيمز L.B.Ames (1949, '3')

ب ــ اتساع دائرة الاهتمام الاجتماعى . فقد أمكن ملاحظة أن الأطفال فى الثالثة من العمر يتنبهون إلى ملابس بعضهم البعض وعادات بعضهم البعض وهذا ما يندر حدوثه لدى الأطفال فى الثانية من العمر (L.B. Burphy 1943)

حـ ــ المساهمة مع الجماعة فى وضع الخطط لأعمالها . وهذا ما تؤيده دراسات بارتن M.B. Parten (M. Sherif & H. Cantril 1947) ومورفى (G. Murph 1937, p. 516) وشريف وكانترل (1947, p. 179) .

ومعنى ذلك زيادة اندماج الطفل فى الجماعة ، سواء أكانت جماعة راشدين (كالأسرة) ، أم جماعة أطفال مماثلين (جماعات اللعب) .

إلا أن هذا الاتجاه العام لا يتقدم فى خط مستقيم . وهذا صحيح بالنسبة لعلاقة الطفل بالراشدين ، وبالأطفال المماثلين على السواء ؛ فأما بالنسبة للراشدين (المألوفين له) فإن علاقته تبدأ بالاعتماد الشديد فى طلب الحماية والغذاء وجذب الانتباه حتى أواخر السنة الثانية ، ثم لا تلبث أن تتحول إلى مقاومة وعناد يبدأ منذ منتصف الثالثة ويبلغ قمته فى نهايتها ، وفى خلال الرابعة وما بعدها (حتى بدء فترة المراهقة) يعود الطفل إلى التعاون مع الراشد . وقد لاحظت ذلك كل

من بريدجز K. Bridges (1933, p. 269) وهيرلوك E. Hurlock (1950, p.292) وسوزان أيزاكس (1932 p. 169) كما تؤيده ملاحظات الباحث على طفلته وأما بالنسبة للأطفال فإن استجابة الطفل الإيجابية — من ابتسام ومحاولة للإمساك باليد — التى تظهر حول منتصف العام الأول لاتلبث أن تنتهى إلى نوع من عدم الاكتراث، يستمر حتى نهاية هذا العام، يعقبها محاولات اقتراب واستكشاف يغلب عليها العنف والغلظة (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 141; E. Hurlock 1950, p. 292) ثم لا يلبث الطفل أن يعود إلى نوع من الملاحظة السلبية، يعقبها انصرافه إلى « اللعب بجوار » الطفل الآخر، ثم إلى « اللعب معه » حيث يسود بينهما الأخذ والعطاء. (G. Murphy & others 1937, p. 515) ولا يصل إلى هذه المرحلة الأخيرة إلا بعد إتمامه العام الثالث (L.B. Murphy 1947) كذلك يلاحظ أن ارتقاء الطفل الاجتماعى لا يمضى متجانساً فى الجبهتين فى وقت واحد، ويتجلى ذلك بشكل واضح فى خلال الأعوام الثلاثة الأولى؛ إذ يظهر التعاون بين الطفل والراشد قبل ظهوره بينه وبين الأطفال المماثلين بوقت غير يسير (E. Hurlock 1950, p. 295). وقد لاحظت لويز بيتس إمز ملاحظة لها دلالتها الهامة فى هذا الصدد. فاستجابة الابتسام لدى الطفل فى سن ٢١ شهراً يثيرها الراشد (المدرس) أكثر مما يثيرها طفل آخر. ويظل الأمر على هذا النحو حتى إتمام الطفل عامه الثالث، ثم يتغير الحال ابتداء من منتصف الرابعة فيصبح « الطفل الآخر » مثيراً للابتسام أكثر من من الراشد (L.B. Ames 1949, '3') وفيما يلى البيان الذى أوردته الباحثة فى هذا الصدد نتيجة لملاحظتها عدداً من الأطفال تتراوح أعمارهم بين ١٨ شهراً و ٤ سنوات (١٨ شهراً ثم ٢١ شهراً ثم سنتين ثم سنتين ونصف ثم ٣ سنوات ثم ٣ سنوات ونصف ثم ٤ سنوات). وقد خصصت للملاحظة كل فئة من فئات العمر هذه ١٥ دقيقة يومياً لمدة ٢٥ يوماً :

مجموع الابتسامات التى يستجيب بها الطفل فى مواقف معينة
ابتداء من ١٨ شهراً إلى ٤٨ شهراً

العمر	نشاط الطفل ذاته	نحو المدرس	نحو طفل آخر
١٨ شهر	٦٧	٤١	٧
٢١ »	١١٦	١٨٠	٥٨
٢٤ »	١٠٧	٢٢٧	٦٠
٣٠ »	١٥٢	٣٦٧	١٥٦
٣٦ »	١١٨	٣٢٤	٢٩٨
٤٢ »	١٩٢	٢٦٠	٥٩١
٤٨ »	٢٢٧	١٧٥	٥٤٥

ومعنى ذلك أن قول باحث مثل آشلى مونتاج A. Montagu إن الارتقاء الاجتماعى للطفل يمضى فى اتجاه زيادة اعتماده على الآخرين (M.F.A.Montagu, 1947) قول يصف الخطوط العامة لهذه العملية دون أن يفصل القول فيها ، ومن شأنه إذاً ألا يكشف لنا عن ديناميآتها ، لأنه يكتفى بتعيين نقطتى البدء والنهاية دون تحديد مسار الطفل فيما بينهما ، مع أن المشكلة الرئيسية — فى رأينا — تقع فى هذه المنطقة . وحل هذه المشكلة لا يكون إلا بالإجابة على سؤال : كيف يصير الطفل عضواً فى المجتمع .

وقد بينا فى الفصلين السابقين كيف أن محور هذا الارتقاء فى الطفل هو الأنا المترقى ، بما يحققه من ارتباط بالآخرين عن طريق استجاباته الملائمة نحوهم ، وما يحققه فى الوقت ذاته من استقلال فى الفعل وشعور بالإنية المستقلة . وتتبعنا فى هذا السبيل بوادر الاستجابة الإيجابية للوجه البشرى والصوت البشرى ، ثم تغاير هذه الاستجابة من استجابة إيجابية للجميع إلى استجابة إيجابية للشخص المألوف وسلبية للغريب ، ثم بوادر ظهور اللغة وما تنطوى عليه هذه الوظيفة من قدرة هائلة على الاتصال بالآخرين ، كما تتبعنا بوادر

التآزر فى النشاط الحركى والحسى ، والمظاهر الأولى للذاكرة باعتبارها من الأسس العميقة لوحدة الشخصية وشعورها بذاتها القادرة المستقلة . وكنا فى تتبعنا هذا نكشف عن مدى وكيفية مساهمة الاستعدادات الفطرية وعامل النضوج من ناحية ، والعوامل البيئية من ناحية أخرى . وفى هذا الطريق نفسه نمضى فى هذا الفصل ، لنواصل الكشف عن ديناميات الارتقاء الاجتماعى للطفل .

يستهل الطفل عامه الثانى وقد بلغ درجة معينة من التغاير بين الأنا والآخر . إلا أن إدراكه وممارسته لهذا التغاير يكونان مبتورين، بحيث يفرقان تفرقة واضحة بين شخصيته الاجتماعية وشخصيات الراشدين الأسوياء . فهو لا يدرك « وحدة الشخصية » من خلال مواقفها المتعددة ، سواء أكانت شخصيته هو أم شخصية فرد آخر . ويظل على هذا النحو من العجز حتى نهاية السنة الثالثة تقريباً . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يرويه فالون عن طفلة تبلغ من العمر سنتين و ١٠ شهور رأت أباها يحضر إليها فى ريف النمسا بعد أن قضت فى هذا الريف بضع أسابيع بعيدة عنه ، فقالت له : « أبى الآخر فى فيينا » ، حيث كانا من قبل . وكأنما بيئة المدينة جزء لا يتجزأ من شخصية الأب . ويروى كذلك عن هذه الطفلة أنها عندما عادت إلى المدينة ، ظلت بعض الوقت تنهج نهجاً مثيراً للانتباه عندما تتحدث عن صداقاتها التى عقدتها فى الريف ، إذ كانت تتكلم عندئذ باللهجة الريفية (H. Wallon 1949, p. 214) وكأنما شخصيتها التى عاشت بها فى الريف (وما قامت به هذه الشخصية أحياناً من محاكاة للسلوك اللغوى لدى المحيطين بها) شىء مستقل عن شخصيتها فى المدينة ، وله وحدته وتكامله الذى يفصله عن هذه الأخيرة ، بحيث إذا استعيدت ذكرى معينة عن بعض جوانبه فرضت جوانبه الأخرى نفسها على عملية التذكر تبعاً لذلك . وهذه الحقيقة الارتقائية متضمنة فى الملحوظة التى أوردتها شارلوت بوهلر عن الطفل أثناء السنة الثانية ، فإذا أصدر الراشد

إليه أمراً بألا يلعبُ بلعبة معينة قائمة أمامه ، فإنه فى الغالب يترك المكان ثم يعود إلى اللعبة فيلعب بها (C. Buhler 1937, p. 66) وكأنما شخصيته التى صدر إليها الأمر غير شخصيته بعد مغادرته المكان . وقد لاحظت مثل هذه الملاحظات على طفلتى . ففى منتصف الشهر الرابع من السنة الثالثة عرضت عليها صورتها الفوتوغرافية ، وجرى بينى وبينها الحديث الآتى :

قلت لها :

— صورة مين ده .

— هدهده .

— هدهده مين .

— هى ده . (مشيرة إلى الصورة) .

— وأنت مش اسمك هدهده .

— آه .

— يعنى فى اثنين هدهده . أنت هدهده وده هدهده .

— لأ . أنا أهداف . وده هدهده .

ويلاحظ أنها لم تقل « صورتى أنا» مع أنها كانت وقتئذ تستخدم ضمير أنا (المتكلم المفرد) كثيراً ، وتنسب إليه كثيراً أيضاً . وفى أواخر الشهر السابع من السنة الثالثة حدثت الحادثة الآتية : كنا نركب الترام (أنا ووالدتها) ، وبعد أن هبطنا منه ، نظرت الطفلة إليه وهو يغادرنا ويمضى ، وقالت :

— انتو اللى كنتو راكبين الترماى ده ؟

ومن الجلى أنها هنا تقترب من نهاية هذه المرحلة ، وهى لذلك تسألنا لتتأكد هل كان كل منا شخصية أخرى منذ قليل أم لا . وربما جاز لنا أن نفهم على ضوء هذه الأمثلة جميعاً ما يقرره جيزيل وإلج عن جانب معين من جوانب سلوك الطفل فى منتصف عامه الثالث ، فهو يصر على وضع الأشياء فى أماكنها ، فإذا نقل شيء من مكانه إلى مكان آخر فإنه يصر على ضرورة

إعادته إلى مكانه المعتاد (A. Gesell & F. Ilg. 1943, p. 188) فكأن المكان المعتاد جزء من الشيء بحيث إن نقله منه يجعله يبدو « جشطلتا ناقصاً » مما يحفز الطفل إلى إعادة إكماله .

وهكذا يظل الطفل حتى قرب نهاية السنة الثالثة عاجزاً عن التمييز الدقيق بين الشخصية والموقف ، أو بين الشيء ومحيطه . أو بعبارة أخرى يظل عاجزاً عن أن يدرك وحدة الشخصية خلال تعدد مواقفها . وهذا صحيح بالنسبة لإدراكه لشخصيته هو ولشخصيات الآخرين .

فإذا نظرنا إلى الإدراك من حيث هو وظيفة للأنا ، وهو ما تقرره دراسات التحليل النفسى (م. سويف ١٩٤٩) (S. Freud 1942, p. 29) استطعنا أن نستدل من هذه الظواهر على أن الأنا لا يزال فى مستوى ارتقائى منخفض . وهذا ما تؤيده عدة ظواهر أخرى ، تشير كلها إلى أن الأنا الذى بدأ يشعر بذاته لم يبلغ بعد مرحلة التغاير التام المستقرة ، ومن ثم فإنه كثيراً ما يعمم تجارب الذات على الآخر وتجارب الآخر على الذات . وعلى هذا النحو يفسر فالون ظهور الغيرة والتعاطف عند الطفل منذ نهاية السنة الأولى : فكلا الظاهرتين تقوم على أساس من التمييز والخلط — فى آن واحد — بين الأنا والآخر (H. Wallon 1949, p. 198) وتشهد ملاحظات الباحث على طفلته بصحة هذا الرأى ، وباستمرار الخلط لديها بين قطبى الموقف طوال السنتين الثانية والثالثة . ففى نهاية السنة الثانية حدث أن كانت الطفلة مريضة واضطررنا لحقنها بعقار معين مما دفعها إلى البكاء الشديد ، وبعد بضع دقائق سمعت طفلا يبكى ، فقالت من تلقاء نفسها :

— البيبى بيعيط ، البيبى وحش ... البيبى أخذ حقنة .

وفى اليوم التالى شكوت بعض الآلام ، وقلت على مسمع منها ، يبدو أننى سآخذ حقنه ، فقالت الطفلة فى الحال والجزع يبدو عليها :

— لا . لا . بلاش حقنه . إنت واوه ، وأنا واوه ، بلاش حقنة .

وفى بداية الشهر الثانى من عامها الثالث كانت تشهد والدتها وهى مريضة ،

وكانت الأم تسعل بعض الشيء . فحدثتُها — على مسمع من الطفلة — بأن تتناول جرعة من دواء السعال ، (وقد سبق للطفلة أن تناولت من هذا الدواء نفسه منذ أسبوعين تقريباً) ، وإذا بالطفلة تصيح :

— لا بلاش دوا الكحة . بلاش . مش عاوزه دوا الكحة .

قلت لها : مش لك . ده لماما . ماما واوه .

فاستمرت تقول : لا بلاش دوا الكحة وحش ، (بشيء من الانزعاج) . وقد تكرر هذا المشهد عندما عرضت الأم أن تتناول بعض الأسبرو .

ثم تكرر فى المساء عندما كانت الأم تستعد للحقن بالأكتسلين ، فكانت الطفلة تصيح وتبكى قائلة ، « الحقنةوحشة» ، رغم أنها لا ترى الأم فى حالة الحقن ، بل تشهد الاستعدادات لذلك فحسب .

وفى منتصف الشهر السابع من السنة الثالثة كشفت الطفلة عن غيرتها عندما رأتنى أكثر من التحدث إلى الأم ، وقالت :

— بابا ، روح المستشفى . (وذلك حيث كنتُ منذ شهرين) .

— وعشان إيه يا بيبى ؟

— عشان تخف . (وكنت قد قلت أثناء حديثى إننى متوعك قليلا) .

خرجتُ من الحجرة ، وقلت :

— أنا رايح المستشفى .

قالت — روح . باى باى .

وعندئذ قالت الأم : وليه يا بابا ، ما تيجى تقعد ويانا . (وتظاهرت بالانزعاج قليلا) . وفى الحال قالت الطفلة : ما تيجى يا بابا . ما تيجى . تعالى يا بابا . (وانزعجت فعلا حتى بكت) .

وحدث ذات يوم ، فى هذا الشهر نفسه . أن جاءتنى الطفلة مسرعة فرحة جداً ، وهى تقول :

— تعايا بابى ، شوف ، أنا رسمت عصفورة تعالى شوف العصفورة اللى أنا رسمتها .

وذهبت معها وهى تعدو أمامى إلى حجرتها ، فرأيت صورة عصفورة متقنة على السبورة ، وفهمت أن الخادمة هى التى رسمتها . ووقفت الطفلت تقول ، بص العصفورة اللى أنا رسمتها . وعندما قالت لها الخادمة : — ياكدابه ، بأه إنت رسمت ده ، واللا أنا ؟

نظرت إليها الطفلة بدهشة ، وكأنها لا تفهم ما يقال .

ومن الجلى أن الراشد السوى لا يمارس المواقف الاجتماعية على هذا النحو ، وإلا نتعرض « تكامله مع الآخرين » لأزمات من شأنها القضاء على الوحدة والتعاون . ولنا أن نتصور مجموعة من الأفراد يمارسون جميعاً الشعور بامتلاك شىء ما ويخيل لكل منهم أنه هو الذى يملكه ، فسرعان ما يحل بينهم من التنازع ما يقضى على وحدتهم . ولنا أن نتصور مجموعة من الأفراد يقبلون على عمل معقد ، ومن ثم فإنهم بحاجة إلى التعاون لإنجازه ، ولكى يتم هذا التعاون على الوجه الأكمل لا بد لهم من تقسيم العمل حسب خطة معينة واختصاص كل منهم بأحد أقسامه ، إلا أن هذا الشرط الأخير لا يمكن أن يتم إلا إذا كان للشخصيات القائمة عليه « حدود[1] » على درجة من الصلابة وعدم الإنفاذ[2] بحيث تتفرغ كل من هذه الشخصيات للقيام « بدور متسق » دون أن تختلط عليها الأدوار نتيجة لامتزاجها بالآخرين وتعميم وجهات نظرهم على الذات . ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يكثر العراك بين الأطفال فى هذه المرحلة على لعبة واحدة ، أو على التقرب إلى راشد واحد . ونستطيع أن نفهم أيضاً الأساس الدينامى لعدم قيام الألعاب التعاونية بينهم فى هذه السن .

إلا أن هذا الخلط نفسه ، الذى يحول . دون قيام تكامل اجتماعى بمعناه الدقيق الذى يفترض التغاير والتعاون ، هو فى الوقت ذاته شرط لا بد منه لارتقاء الطفل وبلوغه القدرة على تحقيق هذا التكامل . فبفضل التداخل[3] العميق بين الطفلة وأمها نفذت إلى الطفلة الرغبة فى الإبقاء على الأب ، رغم أنه كان

(١) boundaires (٢) impermeability (٣) overlapping

يستحوذ فى الجلسة على معظم انتباه الأم ، وبفضل هذا التداخل أيضاً يتم للطفل امتصاص[١] الكثير من تقاليد البيئة الاجتماعية وتعاليمها فتكون الخطوط الأولى والأسس العميقة لشخصيته تابعة لنمط الشخصية السائد فى مجتمعه ، كما تغرس فيه جذور الضمير الأخلاقى فى هذه المرحلة .

وعندما ننقب فى أعماقنا نحن الراشدين نتبين أن حالة اللاتغاير الأولى هذه بين ذواتنا والآخرين ما زالت قابعة فى نفوسنا رغم مراحل الارتقاء العديدة التى تفصل بيننا وبين طفولتنا ، ورغم ما بلغناه من تميز للأنا وبروز لحدوده بدرجة تحفظ له استقلالا واضحاً نمارسه فى الكثير من مواقفنا . وتتجلى هذه الحقيقة فى أوضح مظاهرها فى بعض المواقف الانفعالية العنيفة ، فعندما يصاب أحد أعزائنا بمصاب فادح نتألم فعلا كأنما نحن الذين أصبنا ، وعندما يفرح لانتصار حققه أو رغبة أرضاها نستشعر فرحه فعلا كأنما نحن الذين انتصرنا أو أرضينا رغبة فينا . ومثل هذه الظواهر الدالة على المشاركة الوجدانية العميقة ما كان لها أن تتم لو لم نكن نحمل فى بعض مستوياتنا الاستعداد للامتزاج بالآخر حتى لتكاد تختفى الحدود بيننا . وبدون هذا الاستعداد الأولى ما كانت لتظهر ظاهرة انتشار العواطف بين الجموع ، وحالات الوجد « والوصول » لدى المتصوفة ، وحالات الاتحاد بالمحبوب فى أزمات الحب العارمة ، وبدونه لا نستطيع أن نفسر حالة الفنان الأديب الذى يعيش فى شخصيات رواياته وتمثيلياته فإذا بهذه الشخصيات جميعاً تمثل جوانب مما يدور بنفسه ولكنه مغاير لذاته .

على أن حالة الفنان الأديب كفيلة بأن تبين لنا — بشكل تقريبى — كيف يساهم اتحادنا العميق « بالآخر » فى تحقيق تكيفنا الاجتماعى على وجهه السوى . فالشخصيات التى يحييها الأديب فى رواياته تمثل درجة من الاتفاق بين ذات الفنان وبعض جوانب « الآخر » كما يقوم فى نفسه . وفى ذلك ما يمثل استمرار رقابة الأنا وسيطرته ، وهو ما نحرص على استمرار تحققه ما دمنا

---

(١) introjection

أسوياء . فالآخر رغم أنه يوقع بنا اللوم والزجر أحياناً فإنه سرعان ما يرتضى التبرير أو يقبل الحلول الوسط ، ويعود بعد ذلك إلى كونه تاركاً المجال أمام الأنا مفتوحاً لاستمرار التقدم . ولا يتقدم الأنا بدون الآخر ، فهو بؤرة الأعماق الوجدانية التى تتردد فيها أصداء الأصوات الواردة إلينا من هذا الصديق أو ذاك العزيز . وعلى حسب العلاقة بين هذا « الآخر » وبين « الأنا » تتحدد خطواتنا نحو زملائنا ومعارفنا . فقد تكون هذه العلاقة ضغطاً وصراعاً فى جوهرها ، أو علاقة يسودها الاتزان والرضا المتبادل ، ومن شأن هذا أو ذاك أن يحدد اتجاهاتنا نحو من يحيطون بنا ، فإما أن تكون علاقتنا بهم مشبعة بالشك والحذر والأنانية ، وإما أن يسودها الحب والطمأنينة والعطاء . ولا جدال فى أن «الآخر» كما امتصصناه وتحددت علاقتنا به فى طفولتنا ذو أثر بالغ فى توجيهنا هذه الوجهة أو تلك .

ولنعد إلى النظر فى علاقة « الذات » « بالآخر » لدى الطفل فى خلال الثلاث سنوات الأولى . يتقدم الطفل من مرحلة الخلط بين ما يصدر عن ذاته وما يصدر عن الآخرين ، أو بين ما يخص ذاته وما يخص الآخرين ، بتقدم شيئاً فشيئاً نحو تمييز ذاته وممارسة استقلالها . وتكون هذه العملية معقدة المظاهر ، ومن أوضح هذه المظاهر « ألعاب التبادل » . وقد ذكر جيزيل وإلج أن هذه الألعاب تبدو بوادرها منذ منتصف السنة الثانية ، إذ يهوى الطفل لعبة الاختباء ليجده آخر ، ويعلق المؤلفان على ذلك بقولهما إن هذه اللعبة التبادلية تساعده على أن يقيم دعائم ذاته ، باعتباره متميزاً من الآخرين ومشابهاً لهم (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 141-151).

وقد جمعنا نحن بعض الوقائع ، وتقع فى أوائل السنة الثالثة ، وهى تقدم أمثلة واضحة لهذه الألعاب التى يتنقل الطفل أثناءها بين قطبى الموقف مما يمكنه شيئاً فشيئاً من التمييز بين مصدر الفعل ومتلقيه .

حدث ذات يوم أن سألتنى الطفلة :

— إذا قعدت ساكته حاتاخدنى يا بابا ؟

— أيوه ، إذا قعدت ساكتة حاخدك .

— وإذا اتعفرت مش حاتاخدنى ؟

— لأ .

— طيب أنا مش باحبك يا بابا عشان مش حاتاخدنى . (ثم استطردت قائلة) :

إذا قعدت ساكت حاخدك ويايا يا بابا . وإذا اتعفرت مش حاخدك .

عشان إذا قعدت ساكت حاخدك يا بابا . وإذا اتعفرت مش حاخدك .

وذهبت الطفلة ذات يوم إلى المتحف الزراعى مع والدتها ، وهناك رأت نموذج الذئب يأكل الحمل ، فقالت لوالدتها :

— أنا أنام وانت تاكلينى . وبعدين إنت تنامى وأنا أكلك يا ماما .

ولهذا المثال أهمية خاصة . ذلك أن الطفلة كانت قد شهدت هذا النموذج نفسه قبل ذلك بخمسة شهور ، لكن استجابتها عندئذ كانت مختلفة تماماً عن استجابتها هذه ، فقد بكت إذ ذاك وانزعجت انزعاجاً شديداً ؛ ومن الجلى أن هذا الانزعاج كان ينطوى على ضرب من الاتحاد بين ذاتها وبين الشاة . وقد رأت هذا النموذج أيضاً مرة أخرى بين المرتين فقالت إنها ستأكل الحمل ، وفى ذلك ما يشير إلى تكيف أفضل (يقوم على أساس الإفادة من تجربة مؤلمة ماضية) لكنه يقوم أيضاً على نفس الأساس الارتقائى السابق الذى يتضمن الخلط بين الذات المشاهدة وموضوع المشاهدة . أما الاستجابة الحادثة فى المرة الأخيرة فمن الجلى أنها تتناسب والمستوى الارتقائى الجديد .

وحدث أن كنا جالسين ذات يوم ، فإذا بالطفلة تقول لى :

— صباعى مجروح يا بابا . صباعى مجروح .

— طيب يا أختى . هاتى أبوسهولك عشان يخف .

ــ طيب يا بابا . (وفعلا قبّلت أصبعها الذى لم يكن مجروحاً فعلا ، وأظهرت هى أنها استراحت لذلك) .

ثم إذا بها تقول لى :

صباعك واوه يا بابا . (وفطنت لما تريد ، فقلت) :

ــ آه مجروح يا بيبى .

ــ طاب هات أبوسه يا بابا عشان يخف . (وفعلا تناولته وقبّلته) .

وقالت فى يوم آخر :

ــ حاعملك جزمتك زى الراجل يا بابا (ومضت تحاول تنظيفها كما يفعل ماسح الأحذية) ثم إذا بها تقول لى :

ــ اعمللى أنت يا بابا بأه . امسحلى جزمتى أنا بأه . (وأصرت على أن أن أؤدى لها هذا العمل) .

وذات مرة عانيت كثيراً لكى أقنعها بأننى لا أستطيع الانزلاق مثلها على سور الحديقة وكانت تلح بشدة على أن تنزلق هى مرة ثم تشاهدنى أنزلق مرة . واضطررت فى النهاية أن أحول نظرها عن هذه اللعبة إلى غيرها لأنها لم تعد مستعدة لممارستها بدون اشتراكى كطرف ثان فيها . وكثيراً ما حاولتُ أن أستغل هذا الميل إلى « التبادل » لأحل به بعض المشكلات التى كانت تنشأ بينها وبين بعض الأطفال على من له حق استغلال هذا الجزء من السور فى الانزلاق أو من له حق اللعب بالدراجة ... أو ... الخ .

على أن هذا « التبادل » الذى يقف فيه الطرفان ــ الأنا والآخر ــ متماثلين تماماً ، لا يلبث أن يتطور ، وكأنه لا يكفى للتمييز بينهما . فالتماثل لا يزال يطمس الحدود ، هذا إلى أن مواقف الحياة لا يمكن مواجهتها وقوانا موزعة بالتساوى بين قطبين ، ولا بد من تعديل يغلّب أحدهما على الآخر . وبالفعل لا يلبث الطفل أن ينتقل إلى مرحلة يضطرب فيها هذا التساوى إذ يتضخم

الأنا تضخماً ملحوظاً فيرفض كل ما يبدو أنه تدخل فى شئونه أو تقليل من استقلاله حتى ولو كان فى ذلك مساعدة وعوناً له . وفى مقابل ذلك يبدو « الآخر » وقد اصطبغ فى كثير من المواقف بصبغة عدائية فهو المسؤول عما يقع من أفعال لا تقرها الجماعة .

وترى شارلوت بوهلر أننا يلزمنا التفرقة بين نوعين من عصيان الطفل للأوامر ، النوع الأول ويمر به طوال السنة الثانية ، وينطوى على عجز عن فهم أوامر الغير والتكيف تبعاً لها ، والنوع الثانى ويبدأ فى خلال السنة الثالثة ، وهو ينطوى على رفض التكيف تبعاً لأوامر الغير (C. Buhler 1937, p. 68) ويبدو الطفل وكأنه فى حالة نكوص ، وكل الدلائل تشير إلى تجمع أزمة عنيفة توشك أن تحل بالشخصية . وتدل الوقائع التى تجمعت لدينا على أن هذه المرحلة تبدأ تتخذ شكلا واضحاً مستقراً منذ منتصف الثالثة . فحوالى هذا الوقت كانت الطفلة تبدى ميلا شديداً إلى القيام بأعمالها «منفردة» ، وتحتج بشدة على كل تدخل وكل مساعدة . فهى تشرب « بنفسها » وتأكل « بنفسها » ، وتهبط السلم « بنفسها » وتمشى فى الطريق « بنفسها » ، لا تقبل أن يمسك أحد بيدها . وكثيراً ما حاولت أن تكون هى صاحبة الرأى الأول والأخير فى أن تجرى الأمور مجراها أو لا تجرى . حدث أن كنا فى زيارة لأحد أصدقائنا ، وكانت الطفلة منفردة معنا — أنا ووالدتها — فى حجرة الاستقبال . وفجأة دار هذا الحوار بينى وبينها ، قالت الطفلة :

— أنا مش عايزه المفرش ده . أنا مش عيزه المفرش ده .

— ده بتاع طنط ياختى . وطنط عايزاه كده .

— ياللا نخرج يا بابا . ياللا نخرج بره .

— ليه ؟

— عشان أنا عايزه أخرج . (وبعد قليل قالت) :

— ياللا نحكى حدوتات . ياللا نحكى حدوتات يا بابا .

ـ ليه يا أهداف ؟

ـ عشان أنا باحب الحدوتات .

وهكذا يقحم الأنا نفسه بشكل تسلطى ، كأنما هو محور الوجود ومحور القيم .

وحدث أن كنا نسير فى الطريق وكانت الطفلة معنا ، فإذا بها تقول :

ـ أنا حاسيبكم ، ورايحه بيتى . (وبعد قليل قالت) :

ـ انتم رايحين بيتكم ؟ (وعندئذ قالت لها والدتها) :

ـ ما فيش بيتى وبيتكم . فيه بيتنا !

فنظرت إليها الطفلة بدهشة . وقالت :

ـ بيتنا !

كأنها نغمة عجيبة . مع أنها كثيراً ما كانت تنسب إلى ضمير المتكلم الجمع قبل ذلك . ومن الملاحظات التى كثيراً ما كانت تفجأنا فى هذه المرحلة وقوف الطفل موقف الحكَم من أعمالنا . فكثيراً ما كانت الطفلة تقول لى :

ـ أنا مبسوطة منك دلوقت .

وذلك عند ما أشترى لها بعض الحلوى أو أؤدى خدمة بناء على طلبها .

ومن مظاهر هذه المرحلة أيضاً شعور حاد بالملكية (H. Wallon 1946) باعتبار أن الممتلكات من مميزات الأنا ، أو من الحدود المرسومة له فى الخارج وأى مساس بهذه الحدود إن هو إلا مساس بالأنا من شأنه أن يطلق بعض الشحنات الانفعالية . ويكفى أن نشهد هذا المثال لنرى إلى أى مدى يصل بالطفل التطرف فى هذه المرحلة . وقفت الطفلة يوماً فى حديقة المنزل تنظر إلىّ من نافذة الحجرة المطلة على الحديقة . وكانت تقف إلى جوارها طفلة أخرى تلعب معها أحياناً . وبدأت هذه الطفلة تنظر إلىّ هى الأخرى . وعندئذ التفتت إليها طفلتى قائلة .

ويدرك الطفل ذاته فى هذه المرحلة على أنها أضخم مما هى فى الواقع .

فكثيراً ما يؤكد أنه كبير وليس صغيراً . ويؤذى شعوره جداً أن نؤكد له أنه صغير .وقد بكت ابنتى بشدة عندما قالت عمتها لسيدة التقت بها فى إحدى الحدائق : « أنا هنا مع البيبى الصغيرة ، ده» . وكانت تصيح أثناء بكائها قائلة « أنا مش صغيرة » . ولم تهدأ إلا بعد أن أكدت عمتها للسيدة أنها « مع البنت الكبيرة ، ده »[1] .

ويتخذ الآخر فى هذه المرحلة دوراً جديداً لم يكن له من قبل . فهولم يعد مكافئاً للأنا . لكنه الآن تابع أوكبش فداء . وكثيراً ماكانت الطفلة تعرض بعض مهاراتها علينا ثم تطالبنا صراحة بأن نقول لها « برافو» ، على أن تنتقى هى اللحظة المناسبة لتلقى هذا التشجيع .

وكثيراً ما كانت تحاول اقتحام غرفة مكتبى وهى تقول لى : « قول لى خشى يا بابا ، قول لى خشى » .

وهكذا كان « الآخر الحاضر مجرد تابع للأنا » يتلقى الأوامر والتوجيهات منه . وفى الوقت نفسه أصبح « الآخر الغائب كبش فداء » يستحق اللوم لأنه هو المسئول عن الأفعال التى تغضب الجماعة . وكثيراً ما كانت الطفلة تحاول بوضوح أن تضع هذا « الآخر الغائب » فى موضع حرج . فهى تكتب بالطباشير على يد المقعد ، ثم تحاول أن تزيل الكتابة وهى تقول :

ـــ دا التعبان اللى بيكتب. بس يا تعبان .

وأحياناً تقول .

ـــ دا القرد اللى بيكتب . بس ياقرد . (وهى تستفيد هنا من خبراتها فى حدائق الحيوان) .

---

(١) وتروى شارلوت بوهلر قصة الطفلة أننا على أنها مثال واضح على مدى تقدير الطفل لذاته فى هذه المرحلة . فقد أساءت هذه الطفلة البالغة من العمر ثلاث سنوات وشهرين إلى أختها الصغرى إيفا . وعند ما طلب إليها أن تعتذر أعلنت أنها تقبل الاعتذار لأبيها وأمها ومربيتها . لكنها ترفض تماماً الاعتذار لأختها . وبدا لها أن الاعتذار لهذه الأخت إهانة لا تستطيع احتمالها .

(C. Buhler 1937 p. 74.)

ويبدو عليها التعجب الشديد عندما أواجهها أحياناً بقولى : « لأ ده مش القرد ده إنت اللى بتكتبى » . وقد بدت عليها الحيرة وعدم الفهم عندما أمسكت بيدها ذات مرة وهى تكتب ، وقلت لها :

ـــ ده مش إيدك أنت ، واللا إيد القرد ؟

وهكذا يميز الأنا نفسه من الآخر بشدة وتطرف ، ومع ذلك يظل بحاجة إليه . فمنه يستمد التأييد والتشجيع ، وعن طريقه يتخفف من بعض آلام اللوم وما قد يتبعها من نبذ وتحقير [١] وسنرى فى فصول قادمة كيف أن رواسب هذا التنظيم الدينامى جوهرية فى تكامل الراشد مع مجتمعه (G. Taylor 1950) فرغم أن للراشد السوى درجة واضحة من تميز الذات واستقلالها ، فإنه يظل دائماً محتاجاً إلى تأييد الآخرين له وتحبيذهم لأفعاله . وهذا ما تؤيده أبحاث لومبارد G.F.F. Lombard ومايو E. Mayo ودانا كليزوريخ D. Klisurich وكورت لفين (K. Lewin 1947) وهذا ما يؤيده بحث سابق فى سيكولوجية الإبداع يكشف عن أن أشد المواقف تميزاً واستقلالا وهى مواقف الإبداع والابتكار إنما تنطوى على « حاجة إلى النحن » لا يمكن مغالبتها ، وما فعل الإبداع نفسه إلا محاولة لاستعادة تكامل المبدع مع جماعته ، لا تبلغ رضاءها إلا بتمام فعل التذوق لدى الآخرين . (م . سويف ١٩٥١) .

إن جميع الدلائل تدل على أن الطفل يمر فى أواخر عامه الثالث بأزمة عنيفة فلا يتم هذا التغاير لبنائه النفسى إلى « أنا » و « آخر » دون توترات انفعالية حادة ؛ فهو شديد القابلية للتهيج إذا ما شعر بأى مساس باستقلاله وتلقائيته . يغريه الازدواج الذى يمارسه بين ذاته وبين الآخرين بأن يجرب قدراته ، مستغلا كل الفرص التى تتاح له ، محاولا الاستيلاء على انتباه المحيطين به ، مرتكباً فى سبيل ذلك بعض الأخطاء عن قصد حتى يستحوذ تماماً على

---

(١) يعتبر فالون ظاهرة اتخاذ الآخر كبش فداء معبرة عن مرحلة قائمة بذاتها يطلق عليها اسم مرحلة التعدى "le transitivisme" (H. Wallon 1949, p. 216)

انتباههم ويثيرهم ، وربما انهالوا عليه بشيء من اللوم والتقريع فينعكس عليه ذلك بزيادة شعوره بذاته حدة وتميزاً . فهو « المسئول » عن هذا الفعل باعتراف الآخرين . وهو يعيش هذه الفترة فى شعور دائم بالمقارنة بينه وبين الأطفال الذين يمكن أن يغتصب منهم بعض الامتيازات لأنهم يظهرون بمظهر المتفوقين عليه . وبوجه عام يعانى الطفل هذه المرحلة كأزمة حقيقية عنيفة ، شأنها فى ذلك شأن كل أزمة من أزمات الحياة التى تكتنف ميلاداً جديداً .

وينعكس هذا التغاير فى ذات الطفل على الموجودات التى يراها محيطة به ، فلا يعود يخلط بين وجوده ووجودها ، ويصاحب هذا النمو فى الإدراك نضوج فى الفعل ، فتزداد الموضوعية فى أرجاع الطفل وفى دوافعه إلى الفعل . ولا يقتصر فى هذه الأرجاع على اعتبار الانطباعات الحاضرة فحسب ، بل يدخل فى اعتباره كذلك بعض الصور التى تلقاها فى الماضى ، وتصبح أسباب غيرته أو إساءته للظن أكثر ثباتاً وتماسكاً ، كما تصبح أهدافه عينية إلى حد كبير (W. Wallon 1949, p. 220-223) ويمكن القول بوجه عام إن الطفل يقترب فى هذه المرحلة بضع خطوات نحو شخصية الراشد السوى ، التى تمتاز أول ما تمتاز بأنها تتحرك فى مجال مثلث الأبعاد ، فتدخل فى حسابها الحاضر والماضى والمستقبل ، مما يضفى درجة من الثبات على علاقاتها بالآخرين لا بد منها لاستقرار التكامل الاجتماعى على نمط معين .

وربما كان من أوضح مظاهر هذا النمو والتغاير فى شخصية الطفل جانب معين فى نشاطه اللغوى ، وهو استخدامه للضمائر . ولاستخدام الضمائر هذا دلالة نفسية خاصة ، فهى بمثابة مقولات مجردة يمكن تصنيف الأفراد بداخلها وإحلال أفراد كل صنف بعضهم محل البعض الآخر ، دون أن يؤثر ذلك فى حقيقة الموقف الاجتماعى الذى يتلخص فى كونه نظاماً من العلاقات . ومن الجلى على هذا الأساس أن أى ارتقاء فى هذا الجانب من جوانب النشاط اللغوى لا بد أن يعنى ازدياد مقدرة الطفل على أن يدرك وحدة الشخصية ويدرك

انفصالها — إلى حد ما — من المواقف التى تكتنفها بحيث يمكن إحلال بعضها محل البعض الآخر فى نفس المواقف . وقد لاحظت مكارثى أن نسبة استخدام الضمائر لدى الأطفال فى المواقف العادية تزداد بتقدم العمر ، فهى فى سن الـ ١٨ شهراً لاتكاد تزيد على ١٠٪ من أجزاء أحاديث الطفل ، فى حين أنها تبلغ ٢٠٪ عندما يبلغ الطفل ٥٤ شهراً وهذا ما تؤيده ملاحظات فيشر M.S. Fisher وجودنف M.Sherif&H. Cantril 1947, p. 196 كذلك أوردت سميث بياناً تفصيلياً بأجزاء الكلام مرتبة حسب كثرة استخدامها فى أحاديث الأطفال ما بين سن السنتين والخمس سنوات ، وفى هذا البيان تتضح لنا مدى الزيادة التى تطرأ على استخدام الأطفال للضمائر . J.F.Markey 1928 p. 86

جدول يبين ترتيب أجزاء الكلام حسب كثرة استخدامها لدى الأطفال فيما بين سنتين وخمس سنوات .

أجزاء الكلام	سنتان	٣ سنوات	٤ سنوات	٥ سنوات
أفعال	١	١	١	١
ضمائر	٤	٢	٢	٢
أسماء	٢	٣	٣	٣
ظروف	٣	٤	٤	٥
صفات	٥	٥	٥	٤

وهكذا يقفز استخدام الضمائر من الدرجة الرابعة فى الترتيب لدى الطفل فى سن السنتين إلى الدرجة الثانية لدى الطفل فى سن الثلاث سنوات ويثبت على هذه الدرجة الجديدة فى سنوات العمر التالية . فإذا أدخلنا فى اعتبارنا أن المجموع المطلق للضمائر لا يكاد يزيد على ٢ أو ٣٪ من مجموع سائر أجزاء الكلام أدركنا إلى أى مدى يعتمد عليها الطفل فى سن الثالثة كمفاهيم للإدراك والتخاطب .

كذلك تكشف لنا البحوث التى تعنى بتفصيل القول فى ارتقاء استخدام

الضمائر عن حقائق هامة فى ارتقاء الأنا وارتقاء علاقاته بالآخرين ، فقد لاحظ ريدبين أن طفلته بدأت تستخدم الضمير «أنا» عندما بلغت ٢٦ شهراً و ١٨ يوماً (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 177) ولاحظت جودنف أن استخدام هذا الضمير يتأثر تأثراً واضحاً بالموقف المحيط بالطفل ، فهو عندما يلعب مع مع الأطفال يكثر من استخدامه ، فى حين أنه يقلل من هذا الاستعمال إذا كان فى موقف مع أحد الراشدين المألوفين ، حيث لا يحتاج إلى تأكيد ذاته إذ يلقى من الراشد البذل والاستعداد للتعاون . وفى ملاحظاتى على طفلتى تبينتُ أنها فى نهاية السنة الثانية لم تكن قد استقرت بعد على استخدام الضمير « أنا » استخداماً ثابتاً فى جميع المواقف التى تقتضيه ، بل كانت تستخدمه أحياناً ، وتستخدم اسمها أحياناً أخرى . وكان يبدو هذا التردد بين استخدام الضمير واستخدام الاسم أوضح ما يبدو عندما تكون بصدد نسبة شىء إلى نفسها ، بينما كانت تبدى ثباتاً نسبياً فى استخدام الضمير عندما تكون بصدد تحديد موقفها من الآخرين ، كأن نسألها : مين حبيب بابا ؟ فتقول — أنا . فإذا كررنا هذا السؤال مستبدلين بالأب شخصيات أخرى من الأسرة فإنها تثبت على استخدام الضمير ولا تستخدم الاسم . على أننا لا نستطيع أن ننسب إلى الطفلة فى هذه السن فهما واضحاً لمدلول الضمير . فهى لا تفهم بعد ما نفهمه نحن الراشدون من من أنه بطاقة لتقديم الذات إلى الآخرين ، والظاهر أنها تدركه فى البداية على أنه جزء من الذات ، كما كانت تدرك الأسم ، ومن ثم فقد بدت عليها الحيرة وعجزت عن الإجابة عندما سألتها :— مين أنت ؟ فلم تدرك الصلة بين بين الضميرين « أنا » و « أنت » ، وأن الضمير « إنت » يساوى الضمير « أنا » ولكن من زاوية الآخر لا من زاوية الذات . ويرى ماركى أن استخدام الضمائر يظهر لدى الطفل بالترتيب التالى :

١ — الضمائر الشخصية : ضمير المتكلم قبل ضمير المخاطب وهذا قبل ضمير الغائب .

ب ــ استعمال الضمائر فى صيغة المفرد قبل استعمالها فى صيغة الجمع .

جـ ــ الضمائر الشخصية قبل ضمائر الملكية .

د ــ الضمائر « أنا » و« نحن » و« هم » تظهر قبل مقابلاتها التى تستعمل كمفعول به . ويستدل من ذلك على بضع حقائق ارتقائية نجملها فيما يلى :

١ ــ يميز الطفل ذاته من حيث هو فاعل قبل أن يميز نفسه كمفعول به أو كما لك .

٢ ــ لكن تاريخ بدء هذا الاستعمال ليس هو تاريخ بدء تكامل «ذات» الطفل فى مقابل الآخرين ؛ إذ يبدأ هذا التكامل قبل ذلك بوقت غير يسير . فهو يبدأ ببدء ظهور السلوك الرمزى ، بل وربما قبل ذلك بقليل ، منذ بدء ترسّب حالاته التكيفية فى شكل مجموعة من العادات تمثل القاعدة التى يستند إليها فى تغايره بالنسبة للآخرين .

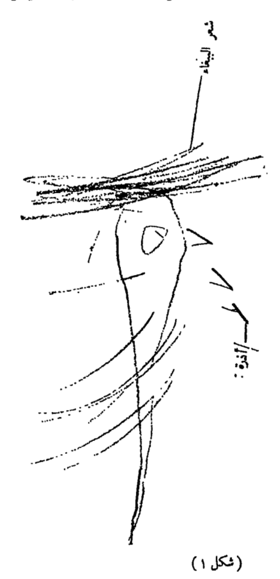
٣ ــ أما الدلالة النفسية لبدء استخدام الطفل للضمير « أنا » فتتمثل فى أنه يشير إلى نفسه فى حالة فاعلية .

٤ ــ يدل الاستخدام المتأخر لضمير المتكلم فى صيغة المفعول به على أن « الأنا » المفعول تغايرٌ فى الأنا الفاعل .

٥ ــ ويدل تأخر ظهور ضمير الملكية على أن « الأنا » المالك ينمو متأخراً (J.F. Markey 1928, p. 68) .

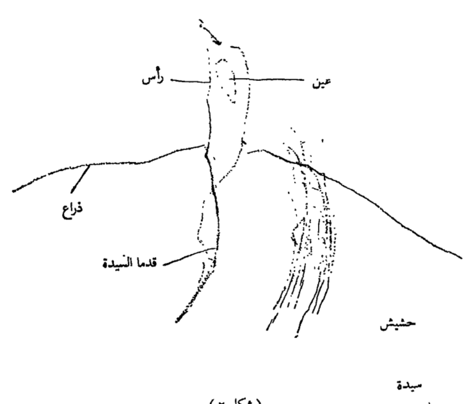
ووراء هذا الارتقاء النفسى الذى يتبلور فى تميز الأنا وبروز حدوده ارتقاء عضوى لا يمكن إغفاله . فبعد أن كان الطفل فى منتصف السنة الثانية لا يستطيع أن يقف منتصب القامة تماماً ، بل يقف منبعج البطن منفرج الذراعين والساقين ، وبعد أن كانت حركاته غليظة ويداه عند الرسغين قليلتى المرونة ، وبعد أن كان يعجز عن قيادة دراجته الثلاثية كما يعجز عن أن يركل الكرة بإحدى قدميه ، وهى جميعاً دلائل انخفاض فى درجة التآزر

والتغاير العضويين ، نجده يكشف فى أواخر الثالثة عن جهاز حركى أكثر اتزاناً وأشد مرونة ، فهو يمشى منتصب القامة ، ويستطيع أن يتحكم فى حركات ذراعيه بشكل أفضل ، فهما لا ينفرجان بعيداً عن جسمه بل يتدليان ويهتزان بانتظام كاهتزاز ذراعى الراشد ، وهو يستطيع أن يقود دراجته مع ما يقتضيه هذا من تفرقة وتناسب بين حركات الساقين ، كما يستطيع أن يوجه حركة القلم على الورق بحيث يحاكى رسم صليب . وكذلك يكشف عن حساسيته للشكل ، مما يدل على زيادة فى مرونة بعض العضلات الدقيقة المسيطرة على



ببغاء

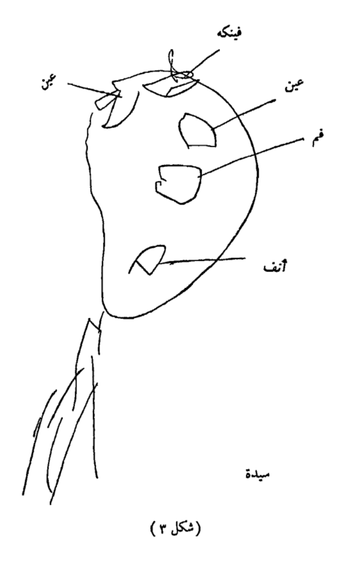
(شكل ١)



(شكل ٢)

هذان الشكلان (١) و (٢) رسمتهما الطفلة فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٥٢ أى فى الشهر السابع من السنة الثالثة من عمرها . ويلاحظ أنها تبدى فى كل منهما إدراكاً للمساحات بحدودها . أما الشكل الثالث الذى نورده فيما يلى فأهميته تتمثل فى أن الطفلة تبدى فيه قدرة على إدراك بعض الأجزاء الداخلية فى الشكل وأوضاعها بالنسبة لبعضها البعض . (على وجه التقريب) . وقد رسمته بعد حوالى ٢٥ يوماً من رسمها للشكلين السابقين .

حركة العين (A. Gesell & F. Ilg 1943) وقد لاحظت أن تخطيطات طفلتى على الورق أو السبورة بدأت تتغير تغيراً كيفياً منذ نهاية الشهر السابع من السنة الثالثة . فقد كانت من قبل ترسم خطوطاً فحسب ، أما الآن فهى ترسم شكلا يتضمن عنصرى المساحة والحدود . وأكثر من ذلك أنها تبرز بعض تفاصيل هذا الشكل ، فتضيف إليه عيناً أو ذراعين أو شعراً . ومهما قيل من أثر البيئة فى ذلك — وهو مالا يمكن إنكاره — فيلزمنا أن نثبت هنا أن الطفلة كانت



(شكل ٣)

تستقبل مؤثرات البيئة هذه منذ فترة طويلة ، فكثيراً ما كنا نرسم لها شكل إنسان أو حيوان ، لكنها عندما كانت تحاكى هذا الرسم كانت لا تزيد على أن ترسم بضع خطوط ، أما فى أواخر الشهر السابع فقد تغيرت استجابتها وأصبحت ترسم شكلا . وكثيراً ما كانت ترسمه بدون النظر إلى نموذج مرسوم .

على أننا نخطىء إذا حاولنا أن نصور أزمة الطفل فى السنة الثالثة على أنها

أزمة وحيدة الاتجاه ، أو كما يسميها بعض الباحثين مرحلة الخلفة [١]. فالواقع أنها ليست كذلك بالضبط ، بل هى تحتوى إلى جانب سمات المعارضة والصراع التى تغلب عليها ، على بذور تطورها نحو التعاون والاستجابة لمقتضيات الواقع الاجتماعى . ومن أبرز مالاحظته على الطفلة فى هذا الصدد ازدياد قدراتها على المحاكاة الإرادية وبدء اكتشافها لجانب هام من جوانب وظيفة اللغة ، وهو استحضار واقع خاص يختلف أحياناً عن الواقع الملموس ، ومن ثم فإنها تستطيع الكذب أو اللعب باللغة على أساس التظاهر بالكذب . كذلك يبدى الطفل فى هذه الفترة قدرة على إتقان النطق بالألفاظ بحيث يقترب من الأنماط الصوتية لدى الراشدين كما يتضخم محصوله اللغوى وهذا يزيد من قدرة الراشدين على الاستجابة لمطالبه وبالتالى يزيد من صقل عضويته الاجتماعية وتعميق جذورها. ويلاحظ أيضاً أن الطفل كثيراً ما يبدى تودده للراشدين المألوفين حوله ويعبر عن حبه لهم بتعبيرات مختلفة ، وكثيراً ما يستجيب لتوجيهاتهم نحو استرضاء من أساء إليهم (C. Buhler 1937, p. 59) ويرى جيزيل وإلج أنه يبدى حساسية مرهفة للمدح والتقريظ ، وأنه بوجه عام يكون حساساً بالنسبة «للكلمة» ، بعكس الطفل فى أواخر الثانية فإنه كثيراً ما يبدو مسترسلا فى فعل نهاه عنه وكأنه لا يسمع ما تقول له . كذلك يقرر الباحثان أنه كثيراً ما يصغى إلى الراشدين ليتعلم منهم ، وأنه يبدى اهتماماً واضحاً بالأشخاص ، فيراقب تعبيراتهم الوجهية ليستنبط ما تشير إليه . (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 203) ويقرر فالون أن الطفل يكون شديد الحساسية « لنظرة » الآخرين إليه بحيث يدفعه هذا إلى أن يلاحظ ويراقب نفسه ، كما يتولد لديه الشعور بالزهو [٢] ، وهو يعبر عن حاجته إلى التكيف بما يلائم حضور الآخر ، وغالباً ما ينتهى به هذا الشعور إلى بعض التشنجات الانفعالية وأحياناً الشحوب أو الاحمرار والعرق وربما عدم التحالف [٣]

---

(١) negativism (٢) prestance

(٣) asynergie

الحركى والذهنى (H. Wallon 1949, p. 221) .

من الأمثلة الواضحة على ازدياد حساسية الطفل الاجتماعية ما يلاحظ من أن الطفل فى هذه الفترة يطلب أحياناً موافقة الآخرين على سلوكه ، لكى يمضى فى ممارسته ويلح إلحاحاً شديداً على هذه الموافقة . والواقعة الآتية تبين هذا بكل وضوح : كانت الطفلة تحب كثيراً أن تتشقلب ، غير أنها كانت تسألنا غالباً (وكانت عندئذ فى أوائل الشهر السادس من السنة الثالثة) قبل أن تبدأ فى لعبتها المحببة :

ــ انتو بتحبوا الشقلبة ؟

ــ آه

ــ وتحبوا النُّطط ؟

ــ آه

ــ طيب أتشقلب ؟

ــ طيب ، ياللا يا ستى .

وفعلا تبدأ بعد ذلك فى ألعابها .

وإليك مثالا آخر من سلوك الطفلة ينم بكل وضوح عن قطبى الارتقاء فى آن واحد. فقد كلفتُها (فى حوالى العمر المذكور) بالأمر الآتى :

ــ خذى الطقطوقة ده ، وروحى اطلعى على الكرسى وحطيها على مكتب ماما ، وانزلى تعاليلى .

ولم أكرر الأمر .

وفى الحال أخذت الطفلة الطقطوقة وقصدت إلى مكتب والدتها ووضعتها عليه دون أن تصعد على الكرسى .

وهنا يبدو أنها أطاعت الأمر فى خطوطه العامة ، لكنها تصرفت تصرفاً شخصياً فى تنفيذ خطواته .

من ذلك يتضح أن مسار الارتقاء الاجتماعى للطفل فى خلال السنتين الثانية والثالثة متجه إلى تحقيق ذلك النمط المزدوج من الشخصية ، أى الشخصية ذات الطابع « الفردى » و « الاجتماعى » فى آن واحد ، الشخصية التى تتميز من الآخرين لكنها مع ذلك تلتقى بهم وتأخذ عنهم ولا تستطيع أن تغفلهم من حسابها . هذا النمط من الشخصية الذى تمهد له جميع مسارات الارتقاء فى السنة الأولى ، بل والاستعدادات النفسية البيولوجية التى يقبل الطفل مزوداً بها ، على نحو ما أوضحنا من قبل . ومن الجلى أن الارتقاء لا يمضى بالتعادل الدقيق بين هذين القطبين فى كل مرحلة من مراحل العمر ، بل يتردد بينهما بحيث يغلّب أحدهما أحياناً ويغلّب الآخر أحياناً أخرى ، وقد حاولنا أن نبين هذه الحقيقة بشيء من التفصيل ، فيما عرضناه فى هذا الفصل . ولا يكشف ما عرضناه عن هذا التردد فحسب ، لكنه يكشف كذلك عن أن وراءه اقتراباً حقيقياً من نمط الشخصية المتكاملة ، أى الشخصية التى تكشف عن قدرة على التلقائية والتعاون معاً[1].

إلا أن ما أوضحناه حتى الآن لا يزيد على أن يكون عرضاً مفصلا — إلى

---

(١) يقرر جيزيل أن ارتقاء شعور الطفل « بذاته » يظل ساذجاً حتى الثالثة ، ويبدو ذلك بوضوح فى عجزه عن التكيف تبعاً لمقتضيات لعبة « البحث والاختباء » ، إذ نجده لكى يختبىء يكفيه أن يضع يديه على عينيه ، وكأنه عند ما لا يرى الناس لا يرونه ، إذ لا يعنى بإخفاء جسده ، (A. Gesell & F. Ilg 1946, P. 309) وفى أواخر الثالثة لاحظت أن طفلتى كثيراً ما كانت تبدى شعوراً واضحاً بأن لها « تاريخاً » أو على حد تعبير جيزيل بأن لها « ذاتاً تاريخية » . فهى تقول مثلا « لما كنت صغيرة كنت بأقول . . . » وتنطق ببعض ألفاظ بلغة طفلية جداً . ويسرها جداً أن تتحدث فى هذا الموضوع وأن نحدثها فيه .

بل أكثر من ذلك : لقد رسمت لنفسها صورة طريفة عند ما قالت لأمها : « لما كنت صغيرة يا ماما كنت رجلين بس » . وفى هذه اللمحة ندرك أن « الذات الجسمية للطفل » ليست متجانسة كلها فى علاقتها بذاته « النفسية الاجتماعية » . ويبدو أن « الوجه » يرتبط أكثر من سائر الأجزاء « بذاته النفسية الاجتماعية » فى وضعها الحاضر . والدليل على ذلك أنها عند ما سئلت : « ولما كبرت ؟ » قالت « بآلى وش » ولمست وجهها . وقد سألتها « ولما حتكبرى كمان ؟ » — فقالت « حيبآ لى وش » ولمست وجهها ثانية .

حد ما — لمسار الارتقاء الاجتماعى فى السنتين الثانية والثالثة ، متمثلا بوجه خاص فى تطور العلاقة بين الأنا والآخر ، من مرحلة « الخلط » بين هذين القطبين إلى مرحلة « التبادل » ثم إلى مرحلة « تأكيد الذات » . لكن هذا العرض وحده لا يكفى كتفسير ، اللهم إلا إذا اعتبرنا التتالى ضرباً من العلية ، أى أن كل مرحلة تمثل مستوى ارتقائياً هو علة المستوى الذى يليه .

ومع ذلك فهذا لا يغنى عن التقدم بنظرة تحليلية من شأنها أن تكشف لنا عن العوامل والتفاعلات الكامنة وراء المضمون الظاهرى لهذه المستويات . فوراء نمو القدرات التكيفية لدى الطفل يجب أن نكشف عن نمو القدرة على المحاكاة والنشاط اللغوى ، ووراء نمو الأنا وتضخمه لا بد أن نكشف عن نمو القدرات التخيلية والوجدانية ، ووراء ارتقاء الطفل « ككل » يجب أن نكشف عن أثر البيئة الاجتماعية ، ولا سيما الأسرة . ومن المحقق أن هناك عوامل أخرى بعضها بيولوجى وبعضها اجتماعى ، إلا أننا سوف نقتصر هنا على العوامل السيكولوجية وحدها — بالقدر الممكن — حيث أنها محور بحثنا .

القدرة على المحاكاة : يذهب كوفكا إلى القول بأن كثيراً مما نتعلمه ، إنما نتعلمه بوساطة المحاكاة القائمة على تفهم النماذج (K. Koffka 1931, p. 339) وهذا صحيح بالنسبة للطفل والراشد ، لا سيما فيما يتعلق بتعلم المهارات الحركية ، والتعبيرية . وقد أوضحنا من قبل كيف أن بوادر المحاكاة تبدو منذ الشهور الأولى فى حياة الطفل ، حيث يبتسم رداً على ابتسامة أمه ، ويبكى إذا ما سمع صوت طفل آخر يبكى . إلا أن هذه المحاكاة المبكرة لا تقوم على تفهم للنماذج ، لكنها على كل حال دليل على مدى العمق الذى تصل إليه جذور هذه الوظيفة

ويشير جيزيل إلى أهمية هذا الشعور بالذات التاريخية ، وكيف أنه يضيف إلى الذات بعداً جديداً . وكذلك يلاحظ أنه فى سن الثالثة يبدى الأطفال الأذكياء تعرفاً واضحاً على شقهم . فإذا سئل الطفل : « أنت ولد أو بنت ؟ » . أجاب إجابة صحيحة غالباً . لكنه يظل بعد ذلك سنوات حتى يعرف دوره الاجتماعى المرتبط بشقه .

فى نفوسنا ، إذ من الواضح أنها تستند إلى مستويات فى الجهاز العصبى تحت لحائية . وهذا مما يهيئ الطفل للارتباط الوجدانى العميق بأفراد جماعته ، كما يهيئه لامتصاص أنماط تعبيراتهم بحيث يقدم نفسه إلى الآخرين من خلالها فيسهل عليهم الاستجابة له استجابة ملائمة .

ويجرى على هذه الوظيفة ما يجرى على سائر الوظائف النفسية من آثار الارتقاء . إذ تصبح شيئاً فشيئاً وظيفة إرادية يمارسها الفرد وهو شاعر بذاته وموجّه لطاقاته نحو انتقاء بعض النماذج دون الأخرى . (ى . مراد ١٩٤٨ ص٣٦) ، وهذا ما يمكنه من زيادة إتقانها بحيث يتمكن شيئاً فشيئاً من محاكاة جزئيات النماذج التى يدركها لا خطوطها العامة فحسب . ومعنى ذلك أنها لا تلبث أن تصبح — مع اطراد الارتقاء — إحدى وظائف الأنا ، الخاضعة لتوجيهه ، بعد أن كانت تجرى على الطفل بطريقة آلية تحددها المؤثرات الخارجية إلى حد كبير . وقد ذكرنا من قبل أن بوادر المحاكاة الإرادية تبدأ فى الظهور فى أوائل السنة الثانية (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 123) وبيّنا كيف أن هذا يحدث فى نفس الوقت الذى تتجمع فيه عدة ظواهر تدل على بدء بزوغ الأنا (P. Guillaume 1925, p. 152) وقد أوضح كوفكا هذه الحقيقة بقوله : يجب أن نميز بين جانبين لمشكلة المحاكاة ، أولا : ضرورة المحاكاة . وثانياً : القدرة على المحاكاة . وقال لقد فُهمت هذه الظاهرة لدى كثير من الباحثين على أنها جبرية دائماً ، لكن هذه النظرة ضيقة . إذ يجب أن نعرف أن هذه الجبرية تستند أساساً إلى القدرة على المحاكاة ، والقدرة على المحاكاة تعنى أن « صيغة إدراكية » معينة استطاعت أن تنفذ إلى السيطرة على نمط معين من الفعل ، فى حين أن الدافع إلى أى فعل معين — حتى فعل المحاكاة نفسه — يمكن أن يصدر عن عوامل أخرى متعددة . وطبيعى أنه كلما كان الكائن بدائياً كانت العوامل المؤثرة فى أفعاله قليلة نسبياً ، وبالتالى كانت الغلبة فى معظم الأحيان للتأثير الوارد عليه من « الصيغة المدركة » . وتتضح هذه الحقيقة نفسها

من زاوية أخرى ، فعندما أكون متعباً ، أتثاءب بمجرد رؤيتي شخصاً آخر يتثاءب أمام ناظري .ولكني عندما أكون متيقظاً نشيطاً وأرى شخصاً آخر يتثاءب فإنني لا أتثاءب، بل ولا أشعر بنزوع إلى التثاؤب . كذلك تتضح هذه الحقيقة من زاوية ثالثة ، في مستويات السلوك العليا يبدو الفرد عاجزاً عن محاكاة الفعل الذي لا يفهمه ، وإلى جانب ذلك نلاحظ أن قدرة الطفل على محاكاة الأفعال تزداد بشكل واضح إذا ما استعنا باللغة على تقديم هذه الأفعال إليه، وأفهمناه بالقدره الممكن — جوانبها الجوهرية

والسؤال الآن : كيف نفسر ظاهرة المحاكاة ؟ يبدو أننا مضطرون إلى الاختيار بين أحد فرضين ، إما القول « بغريزة المحاكاة » ، وإما القول بوجود ارتباط بنائي مباشر بين جهاز الإدراك وجهاز التعبير والحركة ، وهو الفرض الذي يقدمه كوفكا (K. Koffka 1931, p. 336-338) ولما كنا لانستطيع الأخذ بفرض الغريزة نظراً لكل ما أثير ضده من اعتراضات لا داعي لتكرارها هنا، فإننا نأخذ بالفرض الآخر على أساس أنه لا يعرضنا للوقوع في الأخطاء التي وقع فيها من قالوا بالغرض الأول ، ولأنه يصلح في الوقت نفسه لتفسير عدة ظواهر سلوكية على نحو ما أوضحنا في بحث سابق (م . سويف ١٩٥١ ص٣٠٦). وعلى أساس هذا الفرض فإنه إذا سيطرت على الإدراك صيغة إدراكية معينة فإنها تولّد صيغة حركية مماثلة ، فتكون الحركة نسخة من الإدراك . وكلما ارتقى الكائن تعددت المسالك بين الجهازين ، وتعددت العوامل التي تحدد مجرى التأثيرات بينهما ، وازدادت الوظيفة تعبيراً عن وحدة الكائن وخضوعاً لمقتضياتها ، وبالتالي ازدادت مساهمتها في تحقيق تكامل الفرد مع الجماعة . ومن الجلي أن كثيراً من المواقف الاجتماعية تتطلب منا أن نكون على درجة واضحة من القدرة على المحاكاة الموجَّهة .

الارتقاء اللغوي : يبدو أن النشاط اللغوي هو من أهم الوسائل في الربط

بيننا وبين الآخرين . ومن ثم فإن للارتقاء اللغوى لدى الطفل فى السنوات الثلاث الأولى من العمر أهمية بالغة فى إكسابه العضوية فى مجتمعه . فهو يستطيع أن يقدم نفسه إلى الآخرين من خلال مقولات سلوكية أو اجتماعية معينة يستعين على تحديدها باللغة ، كما يستطيع أن يدرك الكثير عن الآخرين واتجاهاتهم نحوه من خلال كلامهم عنه أو إليه . ومما لا شك فيه أن نوع علاقاته بالآخرين لا تحدده اللغة ، بل تحدده عوامل أخرى كالطمأنينة ، وتعدد تجارب الرضا والحنان ، وعلاقة الشخص – إذا كان غريباً – بشخص آخر مألوف ومحبوب لدى الطفل ، وهكذا . إلا أن اللغة تساهم بنصيب كبير فى إبراز هذه العلاقات وإكسابها درجة عالية من الثبات ، والموضوعية والتغاير ، كما أنها تساهم فى نموها . فإذا أضفنا إلى ذلك ما نلاحظ من تغيرات كبيرة تطرأ على شخصية الطفل منذ بدء اكتسابه اللغة واكتشافه خصائص هذه الأداة وما تزوده به من قدرات ، تبين لنا ضرورة تفصيل القول – بعض الشىء فيها من حيث تأثيرها فى الارتقاء الاجتماعى للطفل .

ويرى مورفى G. Murphy ضرورة التفرقة بين عمليتين مختلفتين تقومان وراء اكتساب الطفل للغة ، الأولى هى عملية فهم لغة الغير من الراشدين ، والثانية هى استخدام هذه اللغة (G. Murphy & others 1937, p. 233) . وترى كولنز أن العملية الأولى تسبق الثانية بقليل ، فالطفل يفهم بعض العبارات ويستجيب لها باستجابات ملائمة قبل أن يستطيع استخدام اللغة بمعناها الدقيق (M. Collins 1939) وقد يصدر فى وقت مبكر بعض الأصوات محاكياً أنماطاً صوتية يصدرها الراشدون من حوله ، وذلك فى أوائل النصف الثانى من السنة الأولى ، إلا أن هذه الأصوات لا تكتسب معانيها إلا فى مرحلة متأخرة عن ذلك بوقت غير يسير ، فى أواخر السنة الأولى . وتظل قدرة الطفل على استخدام لغة الراشدين ضئيلة ، بينما تزداد قدرته على فهمها حتى منتصف السنة الثانية ، وفى النصف الثانى من تلك السنة تنمو قدرته على الكلام بصورة

بارزة ومفاجئة ، وتأخذ بعد ذلك فى النمو المطرد السريع .

وقد أوردت سميث M. Smith بياناً بمتوسط النمو اللغوى عند ٢٧٣ طفلا كل ستة أشهر (J.F. Markey 1928, p. 65) نكتفى منه بما يأتى :

		عدد الكلمات
من ٦ شهور	إلى ١ سنة	٣
من ١ سنة	إلى ٦ شهور و ١ سنة	١٩
من ٦ شهور و ١ سنة	إلى سنتين	٢٥٠
من سنتين	إلى ٦ شهور وسنتين	١٧٤
من ٦ شهور وسنتين	إلى ٣ سنوات	٤٥٠

ويكشف هذا البيان عن ثلاث حقائق هامة ، أولاها هذه الوثبة الملحوظة فى المحصول اللغوى فى النصف الثانى من السنة الثانية التى يستهل بها الطفل استخدامه للغة كأداة هامة فى التعبير والتواصل . والثانية هى الوثبة الكبرى الثانية التى يحققها فى النصف الأخير من السنة الثالثة وهى معاصرة لأزمة السنة الثالثة حيث يحدث التغاير العميق بين الأنا والآخر ويشتد شعور الأنا بضرورة اعتبار الآخر فى كل مواقفه ، وبالتالى بضرورة تحديد موقفه تحديداً صريحاً — ومعارضاً غالباً — من الآخر . أما الحقيقة الثالثة فهى الانخفاض الواضح فى محصول النصف الأول من السنة الثالثة ، ويكون هذا معاصراً تقريباً لمرحلة التبادل بين الأنا والآخر حيث لا يستمر الطفل على أحد قطبى الموقف ، وبالتالى لا تثور به الحاجة إلى التعبير والتواصل . ولم تقصد سميث إلى تضمين بيانها هذه الحقائق ، إلا أن ما أوردته فيه من وقائع يتفق مع ما تكشف عنه دراسات أخرى فى ارتقاء الطفل ، وبالتالى يزيد فى توضيح دلالتها ، ويكتسب هو نفسه دلالة جديدة بفضلها .

كذلك أوردت لويز بيتس إيمز بياناً آخر يكشف عن ازدياد أهمية النشاط

اللغوى لدى الطفل باطراد نموه ، لكنها قصدت إلى ذلك من زاوية جديدة ، هى أهمية النشاط اللغوى كمثير لابتسامات الطفل ، وذلك عندما يكون نشاطه هذا موجهاً إلى طفل آخر (J. B. Ames 1949) وفى هذا البيان يتضح الآتى :

عمر الطفل	عدد مرات الابتسام الناتجة عن نشاطه اللغوى (فى الفترة الزمنية المحددة للملاحقة)
٢١ شهراً	٥ مرات
سنتان	١١ مرة
$\frac{1}{2}$٢ سنة	٥٥ مرة
٣ سنوات	١٣٥ مرة .

هذا فى حين أنه فى عمر الـ ١٨ شهراً لا تكاد تظهر هذه الظاهرة لدى الطفل نهائياً . ويبدى كاى W. Caille ملحوظة طريفة لها دلالتها المماثلة ، إذ يقرر أن المعارضة أو الخُلفة التى يبديها الطفل فى أواخر السنة الثانية يكون من أهم عناصرها فى البداية المقاومة الجسمانية ، ثم لا تلبث هذه المقاومة أن تتضاءل وتحل محلها المقاومة اللفظية (E.Hurlock 1950, p. 299) ، وعندئذ يكتشف الطفل أنه يستطيع عن طريق اللغة أن يواصل المعارضة وتأكيد الذات رغم اضطراره أحياناً إلى فعل ما يؤمر به ، ويزيد هذا النوع من الخبرات من نمو ذاته وتضخمها ، كما يزيد من تعلقه بهذه الأداة السحرية الجديدة فيندفع إلى زيادة تحصيلها وإتقانها ، مما يساهم فى زيادة التقريب بين ذاته والآخرين . وهذا يتفق مع ما يذهب إليه بريير W. Preyer فى قوله : إن من أهم العوامل فى نمو الأنا لدى الطفل اكتسابه اللغة (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 160)

ومن الحقائق التى تكشف عن دلالة النشاط اللغوى لدى الطفل ازدياد بروزه من بين أوجه نشاط الطفل المختلفة فى المواقف المحبوبة لديه والتى يتصل فيها بشخص محبوب كالأم مثلا . وقد حاولتُ أن أسجل على سبيل المقارنة مقدار النشاط اللغوى الذى تبذله طفلتى فى عدة مواقف اجتماعية متباينة ،

ومن بينها المواقف التى تضمها مع الأم . وكانت الطريقة التى اتبعتُها فى ذلك هى أن أحصى عدد الألفاظ التى تصدر عن الطفلة فى كل من هذه المواقف لفترة معينة تتراوح بين خمس وعشر دقائق ، لأستخلص عدد الكلمات فى وحدة زمنية معينة هى الدقيقة .[1] ومع أن هذه التجربة لا تزال فى بدايتها ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى الصقل والتعديل والتكرار حتى نصل إلى متوسطات على درجة واضحة من الثبات ، فإننا لا نرى بأساً من إيراد النتائج الأولية التى توصلنا إليها نظراً لما لها من دلالة واضحة . فقد تبين لنا أن الطفلة عندما تكون مع أمها تتحدث إليها بما يقرب من ٢٦ كلمة فى الدقيقة بينما تتحدث إلى الأطفال (الأكبر منها قليلا) عندما تكون معهم فى مواقف اللعب بما لا يزيد عن خمس كلمات فى الدقيقة . كذلك لاحظنا أنها تتحدث مع المربية بما يقرب من ١٦ كلمة فى الدقيقة . ولا جدال فى أن مثل هذه الحقائق تكشف بوضوح عن شدة حساسية اللغة كمعيار لشدة الصلة التى تربطنا بالآخرين فى موقف ما . كما أنها تكشف فى الوقت نفسه عن مدى مساهمتها فى توثيق هذه الصلة ، وفى تنميتها والعمل على تغايرها . وتحتفظ اللغة بهذا الخصائص منذ هذا الوقت المبكر من العمر ، وتستمر طوال الحياة . ونحن إذ نقرر ذلك نخالف رأى بياجيه الذى يقرر أن المهمة الأولى للكلام هى مصاحبة النشاط الفردى وتدعيمه (J. Piaget 1923, p. 54) .

ولا يعنى ذلك أننا نرفض رأى بياجيه كلية . لكنه يعنى فقط أن بياجيه — فيما نرى — أدخل فى اعتباره أحد جوانب الظاهرة دون الجوانب الأخرى ، وأننا نحاول أن نبرز هذه الجوانب الأخرى دون أن ننتقص من قيمة الآراء التى ساهم بها هذا الباحث ذلك أن الصلة واضحة بين النشاط اللغوى لدى الطفل وسائر ضروب نشاطه . فالطفل فى بدء تعلمه اللغة ينطق بأسماء الأشخاص كلما حضروا أمامه ، وقد لا يعنى بهذا النطق نداء ولا طلباً ، وكل ما فى الأمر

---

(١) ليست هذه الطريقة من ابتكار الباحث .

أن التغير الذى يطرأ على الموقف المحيط به يثير لديه بضع تغيرات فى إدراكه وفى إيقاعه وفى نشاطه بوجه عام — من بينها نشاط صوتى ينطق باسم هذا الشخص . وذلك لسببين :

ا — أولهما كون الطفل فى هذه السن المبكرة «جشطلتا أو نظاماً ضعيفاً» وبالتالى فإن حدوده ليست على درجة كبيرة من الصلابة ، ومن ثم فإنها منفذة لكثير من مؤثرات البيئة ، كما أنه ضئيل التغاير وبالتالى ضعيف الحدود ما بين مناطقه الداخلية ، ومن ثم فإن نشاطه يكون غالباً نشاطاً كتليا [1] فينطلق صوته ضمن انطلاق نشاطه العام .

ب — وثانيهما النمط الذى انتظمت على أساسه خبراته بفعل بيئته الاجتماعية . فقد أوضحنا من قبل كيف أن الراشدين — ولاسيما الأم — يتحدثون إلى الطفل منذ أسابيعه الأولى ، ويندر أن يقدموا إليه شيئاً دون أن يذكروا له اسمه وبعض صفاته ، ومن ثم يرتبط ظهور الشيء فى المجال البصرى بظهور اسمه فى المجال السمعى لدى الطفل على طريقة الفعل المنعكس الشرطى غالباً .

من هنا نستطيع أن نقول مع بياجيه إن المظاهر الأولى للنشاط اللغوى لدى الطفل تأتى مصاحبة لنشاطه العام ، كما أنها مدعـِّمة له من حيث إنها تزيد من بروز المناطق المختلفة فى المجال السيكولوجى وبالتالى تزيد من استقرار هذا المجال .

إلا أن هذا جانب من بين عدة جوانب فى الظاهرة . فوظائف النداء والطلب والاحتجاج لا يمكن إنكارها من النشاط اللغوى منذ بوادره الأولى ، بل وقبل أن ينتظم فى هذه الأنماط الصوتية المكتسبة من الجماعة ، أى منذ الصيحات التى يطلقها الطفل فى أوائل الشهر الثانى من عمره . فالطفل يدرك منذ الشهور الأولى أنه يحصل دائماً « بوساطة» الآخرين . ومن ثم

---

(١) massive

فإنه لا يدرك ذاته على أنها منفصلة عنهم ، ولا سيما عن ذات الأم . إلا أنه كلما نما ونمت قدراته على الفعل — نتيجة لازدياد تآزره وتغايره — ازدادت لديه يقظة الشعور بأن له ذاتاً مستقلة عن الآخرين ، ولكن لما كان لا يزال عاجزاً عجزاً شديداً عن تدبير أموره بنفسه فإنه فى الوقت ذاته يزداد شعوراً «بالحاجة إلى الآخرين» ، وبالتالى يندفع إلى تحصيل الوسائل اللازمة لربطه بهم وتمكينه من التأثير فيهم . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر تلك الحقيقة الشائعة وهى أن الطفل الأوحد يتقدم بسرعة نحو اكتساب لغة الراشدين وإتقان أنماطهم الصوتية ، بشكل يميزه عن الأطفال ذوى الأخوة المقاربين فى السن . ذلك أن « الحاجة إلى الآخرين » تبلغ بعض رضاها عن طريق التفاهم مع الإخوة المقاربين فى السن ، وبالتالى يفقد الطفل ذو الإخوة بعض الدوافع إلى إتقان لغة الراشدين . ولو كانت الوظيفة الأولى للغة هى مصاحبة النشاط الفردى وتقويته لما ظهرت هذه الظاهرة ، بل على الضد من ذلك لظهر عكسها ، فكنا نجد الطفل ذا الإخوة يسبق الطفل الأوحد فى تحصيل اللغة ، حيث تتاح مواقف اللعب للأول أكثر مما تتاح للأخير ، ومن المعلوم كما تقول جودنف F.L. Goodenough أن الطفل فى مواقف اللعب مع أطفال آخرين يبدى كثيراً من مظاهر تأكيد الذات ، أكثر مما يبديه حينما يكون مع الراشدين المألوفين . وثمة ملحوظة على سلوك طفلتى لا بد لتفسيرها من الاستعانة بفكرة « الحاجة إلى الآخرين » . فقد دعونا « الأرجوز » ذات يوم (وكانت الطفلة فى منتصف الشهر الرابع من السنة الثالثة) ووقفت الطفلة تشهده بين مجموعة من الأطفال والأقرباء الراشدين . وبدت عليها مظاهر الإثارة الشديدة منذ المشاهد الأولى ، فكانت تلتفت نحوى أو نحو عمتها وتحدثها وهى فى هذه الحالة من الإثارة (التى يغلب عليها السرور) بما ترى . وهذا « الالتفات نحو أكثر الراشدين ألفة من بين الحاضرين » دليل واضح على أن نشاطها اللغوى يقوم بمهمة التواصل ، وذلك بإشاعة خبرتها الانفعالية الحادة (التى قضت مؤقتاً

على اتزانها واستقرارها وسط بيئتها المألوفة) بين أفراد بيئتها المألوفة — « ليعود إليها اتزانها واستقرارها فى مستوى جديد » ، أى بعد شحن بيئتها بانفعالاتها الشديدة. ويكون الدفع الواقع على ذات الطفلة نحو تحقيق هذا التواصل شديد الوطأة بفضل عدم التغاير الذى لا يزال قائماً بينها وبين الآخرين والذى سبق لنا تفصيل القول فيه . ولو أن مهمة الكلام فى هذه السن المبكرة كانت مصاحبة الإثارة التى تعانيها الطفلة وتدعيمها أولا وقبل كل شىء إذاً لا نطلقت الطفلة فى نشاط لغوى دون التفات إلى متلقيه . ولكن من الأمور التى كثيراً ما شاهدناها فى مثل هذه المواقف أن الطفلة حينما لم تكن تلقى منا الالتفات مع افتعال الإثارة فى مقابل أحاديثها الموجهة إلينا كانت تبدو وكأنها أصيبت بخيبة أمل، وكثيراً ما كانت تبدى الاحتجاج الذى قد يصل إلى حد الصياح والبكاء .

من هذه الحقائق وأمثالها نستطيع أن نفهم الدلالة السيكولوجية للغة . فهى أولا وقبل كل شىء أداة للتواصل بين الأنا والآخر . ومن ثم فإنها تظهر مع بدء التغاير بينهما ، وكلما ازداد التغاير عمقاً ازدادت هذه الأداة قدرة ونمواء، على نحو ما تبينا فى البيان الذى أوردناه عن سميث M. Smith ذلك أن الأنا يظهر بطريق التغاير من كل أولى يضمه هو والآخر ولا يستغنى عنه . لكن الصلة التى بينهما تتحول شيئاً فشيئاً — عن طريق الارتقاء — من صلة غير مشعور بها وبالتالى لا تخضع لسلطان الأنا وتوجيهه إلى صلة مشعور بها يستطيع الأنا أن يتحكم فيها إلى حد ما . واللغة هى الأداة الرئيسية التى يستخدمها الأنا فى تنظيم هذه الصلة وإعادة تنظيمها ، وفى زيادة رفعها إلى المستوى الشعورى . ويكتسب الآخر مضمونه فى البداية من الراشدين المألوفين غالباً ، ثم يزداد هذا المضمون ثراء بازدياد اتساع عالم الطفل واتصاله بسائر الأطفال فى جماعات اللعب ، وبجماعات مختلفة من الراشدين وبالتالى تزداد لغته ثراء ، ويزداد حرصاً على تنميتها . ويبدو لمن يلاحظ الطفل فى هذه الفترة من حياته أن معظم اهتماماته لغوية ، فهو حريص جداً على أن يسأل عن

الأسماء ، أسماء الأشياء والأشخاص ، كما أنه شديد التنبه للكلمات الجديدة التى تقال فى حضرته وسرعان ما يرددها وراء المتكلم .

ولتحديد الاتجاه العام للارتقاء اللغوى يلزمنا أولا أن نميز بين فهم لغة الغير والاستجابة لها ، وبين استعمال هذه اللغة فى التعبير والتواصل (G. Murphy & others, 1937, p. 233) فأما من حيث الفهم والاستجابة فيمضى ارتقاء الطفل :

١ — من فهم الجمل والعبارات إلى فهم الألفاظ والاستجابة لها (R. Bain 1936)

٢ — ومن الاستجابة للأنماط النغمية للكلام إلى الاستجابة للأنماط الصوتية . (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 89; M.M. Lewis 1936, p. 48)

٣ — ومن الاستجابة للأنماط الانفعالية للكلام إلى الاستجابة لخصائص الموقف المصاحب (M.M. Lewis 1936, p. 47)

وأما من حيث التكلم فيمضى الارتقاء :

١ — من الجمل القصيرة المقتضبة إلى الجمل الطويلة (G. Murphy & others 1937, p. 584) ويبدو الطفل فى البداية وكأنه يستخدم الألفاظ متفرقة ، لكنه فى الواقع يستخدمها بمثابة مكثفات لجمل تامة ، تعنى أنه يطلب الشىء الذى ينطق باسمه أو أنه يرفضه . ويتجلى الارتقاء فى تفتح الجملة المكثّفة عن عدد من الوحدات المتغايرة فى بنائها ووظيفتها (الأسماء والأفعال والحروف) .

٢ — ومن التعبير الانفعالى إلى الإخبار ؛ ففى بداية اكتساب الطفل للغة تبدو تعبيراته اللغوية بمثابة انفجارات انفعالية ، ولكن بتقدم العمر تزداد الوظيفة الإخبارية أو الرمزية للغة ظهوراً (G. Murphy & others 1937, p. 584) وهذا يتفق مع الارتقاء العام للجهاز العصبى من المستويات تحت اللحائية إلى المستوى اللحائى . ولا تنفصل الوظيفتان فى أى مرحلة من مراحل العمر ولا فى أى موقف من مواقف الحياة ، ولكن تزداد الدلالة الرمزية للكلام أحياناً ، وتزداد دلالته الانفعالية أحياناً أخرى تبعاً لارتفاع مستواه الشعورى الإرادى ،

أو انخفاضه واقترابه من مستوى الآلية والاندفاع .

ولا بد لاستمرار الارتقاء اللغوى من توفر شروط معينة بعضها فى البيئة الاجتماعية وبعضها فى الطفل نفسه . وقد أشرنا من قبل إلى شرط استقرار الأنماط اللغوية المتداولة فى بيئة الطفل، واستقرار ارتباطاتها بمدلولاتها . وثمة شرط آخر لا يقل عن ذلك أهمية ألا وهو استقرار بيئة الطفل ولا سيما الأسرة ، ولهذا الشرط أثره الواضح فى الارتقاء العام للطفل لكن أثره يتجلى بأوضح صوره فى ارتقائه اللغوى بوجه خاص . إلا أننا نرجىء تفصيل القول فى ذلك إلى موضع قادم . أما الشروط النفسية التى ينبغى توفرها فى الطفل فأهمها نمو «الذاكرة» واستقرارها ، حتى يتسنى للطفل استخدام الألفاظ والتراكيب فيما وضعت له . ونمو القدرة على «التجريد» فهى شرط التلقائية فى النشاط اللغوى للطفل بحيث يصدر مرتبطاً بخبراته ومواقفه الخاصة لا مجرد تكرار آلى لما يسمعه من الآخرين . وكذلك القدرة على «محاكاة الأنماط اللغوية» بوجه خاص كمستوى معين من مستويات القدرة على المحاكاة بوجه عام .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الشروط الخمس جميعاً ، البيئية والشخصية ، شروط إنسانية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فهى لا تتوفر فى أى مستوى تطورى آخر بالصورة التى تتوفر بها فى المستوى الإنسانى . فليس ثمة أنماط لغوية ذات قيمة رمزية يمكن القول بوجودها فى جماعات البابون أو النسانيس النابحة أو الشمبانزية ، والأصوات الموجودة فعلا ليست سوى انطلاقات تصدر كجزء من الاستجابة الجسدية والحشوية للمواقف المختلفة (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes; W. Kohler) فهى فى مستوى التعبيرات الصادرة عن الوليد البشرى فى أسابيعه الأولى ، أو تلك الانفجارات الانفعالية التى ينكص السلوك إليها فى أى مرحلة أخرى من مراحل العمر . أما استقرار البيئة الاجتماعية التى يعيش الفرد فيها ، هذا الاستقرار الذى تبلغه فى المستوى الإنسانى مع ما يتبع ذلك من زيادة شديدة فى كثافة العلاقات الاجتماعية داخل هذه البيئة ، فقد

أوضحنا من قبل كيف أنه لا يتحقق فى أى مستوى تطورى آخر. وكذلك سبق لنا الإشارة إلى التطور الفيلوجينى للذاكرة ، وبينا كيف أن الشمبانزية تستطيع أن تتعرف على الأشخاص المألوفين لها بعد عدة شهور قد تصل إلى سنة — فيما يرى يركيز (1929, p. 168) ورغم أن هذه القدرة تفوق بكثير قدرة الثدييات الدنيا والطيور على التذكر فإنها لا تزال أدنى من أن تصل إلى مستوى الذاكرة البشرية ، فالراشد السوى يستطيع أن يتعرف على أصدقائه والمألوفين له بعد عدة سنوات ، ولا يقتصر الأمر على التعرف بل إنه ليتذكرهم فى غيبتهم ، وتؤثر ذكراهم فى سلوكه تأثيراً واضحاً . وعلى العكس من ذلك نعرف عن الشمبانزية أنها لا تشعر بفقد أحد أفراد جماعتها إذا مات بعيداً عن أنظارها وأسماعها(W. Kohler 1931, p. 285) ولا يعنى ذلك أننا ننفى عن الشمبانزية إمكان ظهور بعض الصور فى أذهانها ، وخاصة إذا أدخلنا فى اعتبارنا ما يقرره بعض الباحثين من أنها تحلم فى نومها وأنها على درجة من نمو الخيال لا يمكن إغفالها ، إلا أنه حتى على فرض صحة هذا الاستنتاج فستكون هذه الصورة عابرة باهتة وإلا لما كانت ضئيلة التأثير هكذا فى سلوك الشمبانزى . أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نتكلم عن تذكر إرادى موجه لدى الشمبانزية ، ومن الجدير بالذكر أن النشاط اللغوى للطفل يبدأ فى الظهور بشكل واضح فى نفس الوقت الذى تبدأ تظهر فيه بوادر قدرته على التذكر الإرادى ، وذلك فى أوائل عامه الثانى .

كذلك الحال فيما يتعلق بالقدرة على التجريد ، فبذورها موجودة لدى الشمبانزية ، والدليل على ذلك ما تبديه هذه الكائنات أحياناً من إدراك واستجابة للعلاقة القائمة بين شيئين وما تقوم به من عمليات نقل[١] فى التعلم تنطوى على الإفادة من خبرة سابقة فى التغلب على مشكلة حاضرة تقوم على نفس المبدأ لكنها تتضمن قيما إدراكيه جديدة . وما تدل عليه تجارب كوتس

(١) transfer

N. Kohts التى أمكن للشمبانزية فيها الاستجابة للون الأشياء فقط بغض النظر عن أوضاعها وأحجامها . ومع ذلك فإن يركيز يقرر بوضوح أن هذا التجريد شديد البدائية نادر الحدوث لدى الشمبانزية إذا ماقورن بالإنسان (R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1929, p. 374) كذلك سبق أن أوردنا رأى يركيز فيما يتعلق بالنزوع إلى محاكاة الأصوات وكيف أنه غير قائم لدى الشمبانزية ، وكيف أن النزوع إلى المحاكاة بوجه عام يبدو لديها قوياً ولكن تسيطر عليه المنبهات البصرية سيطرة تكاد تكون تامة .

ويكفى أن نقارن بين المجهود الجبار الذى بذله عالم مثل فيرنس W.H. Furness مع أحد الأورنج أوتان لمدة ستة أشهر ليدفعه إلى محاكاة النطق بكلمة «بابا» ، وبين اندفاع الطفل البشرى إلى محاكاة عدة ألفاظ كل يوم منذ منتصف السنة الثانية ، دون أن ندفعه إلى ذلك بالقسر أو الإغراء ، بل إننا لنندم أحياناً على النطق ببعض الألفاظ أمامه ولو مرة واحدة ، ذلك لأنه سرعان ما يلتقطها ولا يلبث أن يرددها ، بغض النظر عن معانيها ومقتضياتها .

والخلاصة أن الارتقاء اللغوى للطفل يستند إلى عدة شروط واستعدادات بيئية ونفسية (وعصبية) لا بد من توفرها جميعاً لكى يستقر ويمضى قدماً ، فى طريقه الذى عينا الخطوط الكبرى لاتجاهه ، وذلك ليحقق درجة من التكامل الاجتماعى لا مثيل لها فى أى مستوى تطورى آخر ، من حيث التعقد ومن حيث الكثافة .

نمو القدرات التخيليه : سبق أن بينا فى أكثر من موضع أن ارتقاء الطفل يمضى بتحقيق قطبى « الاجتماعية » و « الفردية » فى آن واحد ، وتكلمنا فى الفقرتين السابقتين عن القدرة على المحاكاة والنشاط اللغوى باعتبارهما من العوامل الرئيسية فى نمو الجانب الاجتماعى من الشخصية ، وفى هذه الفقرة نتكلم عن القدرات التخيلية والانفعالات باعتبارهما من العوامل الرئيسية فى تنمية الشعور بالذات .

ومن أهم مظاهر القدرة التخيلية التذكر والتوقع والتهويم . وتبدو مظاهر التذكر والتوقع خلال النصف الأول من السنة الأولى ، فى حين يتأخر ظهور التهويم إلى حوالى أواخر الثانية . وقد أوضحنا من قبل أن المظاهر الأولى للتذكر والتوقع تكون ضمنية ينطوى عليها سلوك الطفل لكنها لا تمارس خالصة . ومن أهم المواقف المبكرة التى تكشف عن هذه المظاهر شعور الطفل بتغير البيئة من حوله (K. Koffka 1931, p. 255) ، وكلما كان هذا التغير تاماً شاملا لجميع أجزاء البيئة كان شعور الطفل به حاداً . وقد ذكرنا فى الفصل الأول من هذا الباب واقعة بكاء الطفلة بشدة عندما نُقلت من بيئتها المعتادة إلى بيئة أخرى مختلفة تماماً (فى الأشياء والأشخاص) وكان عمرها لا يتجاوز الشهرين . كذلك تبدو على الطفل مظاهر التوقع حوالى هذا الوقت المبكر من العمر ، فعندما تحمله أمه على يديها وهو جوعان يدير رأسه نحو صدرها متوقعاً الثدى .

كذلك ذكرنا فى موضع سابق أن الطفل فى منتصف السنة الأولى يكشف عن مرحلة جديدة فى نمو الذاكرة . فهو يستطيع أن يميز بين الأشخاص المألوفين وبين الغرباء ، رغم ثبات الإطار العام لبيئته . وهو يرتب على ذلك تغيرات واضحة فى سلوكه . وهذا ما يقرره جيزيل وشبيتز وتشهد بصحته بعض الملاحظات التى قام بها الباحث .

وفى أوائل السنة الثانية تبدأ تظهر بوادر التذكر الخالص ويستطيع الطفل أن يفرق — ولو أن التفرقة تظل ما ثمة — بين « ما حدث اليوم وما حدث فى غير اليوم » ، أو ما حدث قبل وما حدث بعد (K. Koffka 1931 p. 258) ويبدو أن هذه المرحلة فى نمو الذاكرة مرحلة إنسانية ، أو على الأقل تمثل العلامة الأولى من علامات التطور الكيفى فى نمو الذاكرة ، حيث أننا لا نشهد لها مثيلا فى المستويات الحيوانية الأخرى ، بينما نشهد فى تلك المستويات مظاهر التعرف والتوقع . وربما كان من أهم العقبات التى تحول بيننا وبين مشاهدة بوادر التذكر الخالص هذه فى تلك المستويات أن الطفل البشرى يبرزها أمامنا

بوساطة نشاطه اللغوى ، وعلى ذلك فإن الظاهرة قد تكون موجودة لدى الشمبانزية ولكن ليس لدينا الوسائل التى تمكننا من التحقق من وجودها . على أننا نستطيع أن نقرر أنها حتى ولو كانت موجودة فلا يمكن أن توجد بالصورة التى توجد بها فى المستوى البشرى ، ذلك أنها تعتمد بشكل واضح على النشاط اللغوى الذى يزيد من وضوح معالمها وثباتها . وهذا لا يتعارض مع مايقرره ريد بين وأخرون (R. Bain 1936) من أن الذاكرة شرط هام فى اكتساب اللغة ، إذ أن التفاعل المتبادل لا يمكن إنكاره فى هذا المجال . وقد أوردنا من قبل رأى ماركى فى أن نقطة البداية الحقيقية فى النشاط اللغوى ، وهى أن يكون الصوت الصادر عن الكائن مثيراً يثير فى ذهنه هو نفسه بعض الصور والذكريات ، لا توجد فى المستويات تحت البشرية ، أو إذا وجدت كما يتوقع بعض الباحثين المحدثين فإنما توجد فى حالة برعمية لا تتفتح . ومن الجلى أن هذا الرأى يربط بين التذكر والنشاط اللغوى .

وتكون المظاهر المبكرة لعملية التذكر هذه مرتبطة غالباً بالمواقف المشابهة التى يوجد الطفل فيها ، فالموقف أو الشخص الذى يواجهه مواجهة مباشرة يكون بمثابة منبه يثير لديه بعض الذكريات المتعلقة بموقف سابق مشابه ، وتكون الذكريات هنا بمثابة ومضات مائعة الحدود تختلط ببعض جوانب الواقع المباشر وببعض الذكريات الأخرى وربما ببعض التهاويم التى لا رصيد لها من الواقع .

ويمضى ارتقاء الذاكرة فى الاتجاه الآتى :

١ — زيادة ثبات الذكرى واتضاح معالمها .

٢ — زيادة استقلالها عن المثيرات الخارجية .

٣ — زيادة اتساع الأفق الزمنى (K. Koffka 1931, p. 259)

٤ — إرادية عملية التذكر ، (K. Koffka 1931, p. 259) وتبدو بشكل واضح فى النصف الثانى من السنة الثالثة ، إذ نستطيع أن نحمل الطفل على

استدعاء بعض ذكرياته . ويمكن القول بوجه عام إن نمو القدرات التخيلية ينشط نشاطاً واضحاً لدى الطفل ابتداء من منتصف عامه الثالث . وبذلك يكون أحد المثيرات الهامة لأزمة السنة الثالثة . وقد لاحظ الباحث على طفلته مظاهر هذا النمو الخيالى واضحة مزدهرة بشكل لم يعهده من قبل ، وذلك ابتداء من الشهر الخامس من السنة الثالثة . ويكون تلخيص هذه المظاهر فيما يلى :

ا — فى لعبها إذ كثيراً ما تشخّص الأشياء التى تلعب بها ، كأن تقول على الوسادة « دى بنتى » ، وعلى قطعة الشطرنج « الفيل ابو زلومة » و... الخ .

ب — فى نوع آخر من اللعب ، إذ تتخذ لنفسها « دوراً » أو شخصية غير شخصيتها الأصلية فى الحياة ، بأن تكون مثلا « ماما » ، كما تملى على الغير (من الراشدين المألوفين غالباً) أن يصبح شخصية أخرى . وكان من أحب ألعابها إليها فى هذه الفترة أن تكون هى « ماما » وتكون والدتها إحدى الأطفال .

حـ — كانت تبدى قدرة واضحة على الاستغراق فى اللعب الانفرادى (بقطع الشطرنج غالباً) مدة طويلة ، وتظل على هذه الحال منفردة فى الحجرة مدة طويلة دون أن يكون معها أحد منا نحن الراشدين . وتصل هذه المدة إلى حوالى نصف ساعة . ومن الواضح أن قدرتها على « الاستحضار الخيالى لوجودنا » أثناء غيبتنا عامل مهم فى طمأنينتها هذه التى لم تكن متوفرة لديها قبل ذلك ببضعة أشهر ، حيث لم تكن تحتمل انقضاء بضع دقائق دون أن يقع بصرها على أحد أفراد الأسرة المألوفين لها .

د — لاشك أن زيادة طول « الجملة » التى تستخدمها الطفلة دليل أيضاً على هذا النمو الخيالى . وقد بلغ بها الحال أن أنشأت ذات مرة جملة مكونة من تسع كلمات . إلا أن متوسط طول الجملة لديها بوجه عام حوالى أربع أو خمس كلمات .

هـ — كذلك يمكن اعتبار الأحلام من بين مظاهر هذا النمو ، وربما كانت من أهم مظاهره وأوضحها . فقد كانت الطفلة تحلم فى هذه الفترة وتحتفظ

بمشاهد من الحلم ، فإذا استيقظت وكان أحد أفراد الأسرة قريباً منها روت له بعض هذه المشاهد . (لا على أنها أحلام ، ولكن على أنها وقائع حدثت فعلا ، وهنا يبدو أنها عاجزة عن التفرقة بين الحلم والواقع) .

و — كذلك يكشف رسم الطفلة (الذى بدأ يبرز عنصراً المساحة منذ أوائل الشهر الثامن من السنة الثالثة) عن بعض مظاهر النشاط الخيالى . فهى ترسم ما تسميه « بغبغان » ثم تنثر قريباً منه بضع نقط وتقول وهى تنثرها «وده دره » وترسم ما تسميه « ست » ثم تنثر — قريباً منها — بضع خطوط وهى تقول : « وده حشيش » .

هذه هى أهم مظاهر الارتقاء الخيالى التى تبرز لدى الطفل حوالى منتصف الثالثة . ومن الجلى أنها جميعاً تلتقى فى دلالة سيكولوجية واحدة : هى تحرير الطفل من وطأة واقعه المباشر ، وذلك بتمكينه من تغيير معالمه (فى مستوى غير واقعى) [١] ، أو بتمكينه من إدراك الزمن على أنه أحد أبعاد هذا الواقع ، ومن ثم فإن « صور » الغائبين المألوفين تدخل كعنصر هام بين عناصر الموقف الذى يحيا فيه الطفل ، فتشيع فيه الطمأنينة التى لم تكن لتتحقق قبل ذلك إلا بحضورهم . وللذاكرة هذه المهمة الأخيرة . وعلى الأساس نفسه نستطيع أن نفسر كيف أن الطفل يستطيع فى هذه الفترة أن يتوقع . ومن ثم فإننا نستطيع أن نتعامل معه «بالوعود» . وهو يفهمها ويقبلها فى كثير من المواقف ، وفى انتظار تحقق الوعد يبدو لديه هذا النوع من التفكير الذى يسميه المحللون النفسيون « بالتفكير فى المرغوب فيه[٢] »أو بتفكير الرغبة ، وبذلك يجتاز الحاضر المباشر ويحيا « خيالياً » لبضع لحظات مع « المرغوب فيه » . بل إن الطفل

---

(١) وترى شارلوت بوهلر (1937, p. 105) أن هذا « التغيير الخيالى لمعالم الواقع » المباشر إن هو إلا خطوة أولى نحو زيادة استقلال الذات وقدرتها فى مقابل الموضوع الخارجى . والخطوة الثانية هى خطوة التغيير الواقعى لمعالم الواقع ، بحيث يصنع الطفل شيئاً ويهدف إلى صنعه منذ البداية . وتطلق على المرحلة الأولى المرحلة الرمزية ، والثانية المرحلة النفعية .

(٢) wishful thinking

ليثير فى نفسه بنفسه صور بعض الأشياء أو المواقف التى يحرم منها ، ويتخذ من هذه الصور بديلا يخفف بعض توتراته . وقد حرمنا على طفلتنا ذات مرة اللعب مع إحدى أطفال الجيران لإصابة الأخيرة بمرض معد ، وطالت مدة هذا التحريم حتى بلغت بضعة أسابيع وإذا بالطفلة تقول لأمها ذات صباح :

— إحكى لى يا ماما حكاية « فوزية » الحلوة اللى باطبطب عليها ، مش فوزية الوحشة .

ويتعرض هذا النشاط للزيادة والنقصان بفعل بعض العوامل التى قد تحيط بالطفل .

والخلاصة أن من أهم النتائج الكبرى المترتبة على الارتقاء الخيالى نمو الأنا ، وازدياد الشعور بالذات المستقلة فى مقابل البيئة الخارجية ، ومن هنا يكون هذا النمو أحد العوامل الرئيسية فى ظهور أزمة السنة الثالثة . على أنه لا يحقق ذلك فحسب بل من الجلى أنه يساهم فى الوقت نفسه فى تدعيم الروابط الاجتماعية للطفل ، وذلك بأن يثبّت صور الآخرين وذكراهم بوجه عام فى نفسه وبالتالى يجعلهم جزءاً مهماً بين مكونات مجال حياته ، ومن خلال إدراكه للزمن كأحد الأبعاد فى مواقف الحياة يتمكن شيئاً فشيئاً من إدراك وحدة الشخصية رغم تغيراتها ، والاتصال بين مواقف الحياة رغم انفصالها الظاهرى . ولهذا آثاره الهامة فى زيادة قدرته على التكيف ، أضف إلى ذلك ما ذكرناه من أن الارتقاء الخيالى يزيد من قدرته على إتقان الوظيفة اللغوية .

النمو الوجدانى : يمكن القول بأن الشحنة الوجدانية هى النواة المركزية التى يلتئم حولها الأنا ؛ فمن خلالها تتكشف الذات لذاتها مباشرة ، ومن خلال تقلباتها بين حالات الرضا وحالات عدم الرضا تكتشف الذات حدودها التى تميزها من بين الآخرين . ويفطن الطفل لهذه الحقيقة فى عامه الثالث بشكل نكاد نسميه ألمعيا ؛ فإذا به يقصد إلى الاصطدام بالآخرين وإثارتهم لينال

من ذلك شحنة وجدانية حادة تؤكد له استقلال ذاته . وتعود هذه الحقيقة نفسها فتتجلى بشكل واضح عندما يصبح الطفل مراهقاً ؛ ذلك أن ازدياد حدة توترات المراهق هى السبب المباشر لتضخم الأنا لديه .

من هنا كان لزاماً علينا ونحن نتتبع العوامل المساهمة فى نمو الأنا ، أن نتتبع نمو القدرات الوجدانية . وقد درس كل من بريدجز Bridges وفالون وهيرلوك وغيرهم هذا الموضوع ، وانتهوا جميعاً إلى القول بأن السلوك الانفعالى يجرى عليه ما يجرى على سائر جوانب الحياة النفسية من نمو وارتقاء . فانفعالات الوليد فى أسابيعه وشهوره الأولى مختلفة كما وكيفا عن انفعالات الراشد ، والتعبير عنها يختلف أيضاً بين الطفولة والرشد اختلافاً لا يمكن إغفاله .

فانفعال الخوف مثلا يبدأ عند الطفل عاماً كحالة الذعر[١] ، لانوعياً كالخوف الذى نمارسه نحن الراشدون، وباطراد النمو يزداد هذا الانفعال بنوعيه ، ويتجلى ذلك فى الاستجابات التى تصاحبه ، فيبتعد الطفل عن المواقف التى تخيفه ، ويزداد استخدامه للاستجابات اللغوية المعبرة عن الخوف ، مما يدل على أن خبرة الخوف لديه أصبحت خبرة غنية بالمناطق المتغايرة . (E. Hurlock 1950, p.251).

وبوجه عام يمكن تلخيص التعديلات أو التغيرات التى تدخل على الانفعالات مع النمو فيما يلى :

١ ــ انفعالات الأطفال سريعة عابرة ، تنقضى غالباً دون أن تترك وراءها شحنة انفعالية[٢] ، ومع اطراد النمو يزداد عمقها ودوامها ، تبعاً لازدياد فهمهم للمواقف ، وازدياد ضبطهم للتعبير .

٢ ــ انفعالات الأطفال شديدة انفجارية ، وبفضل الوسائل التربوية المختلفة يتعلمون التقليل من مظاهر شدتها .

---

(١) panic

(٢) تدل دراسات جرسيلد A.T. Jersild وماركى F.V. Markey على أن مشاجرات الأطفال عابرة وقلما تترك آثاراً عميقة (E. Hurlock 1950, p. 304).

٣ – انفعالات الأطفال كثيرة ، فمعظم المواقف يقابلونها بأرجاع انفعالية، لكنهم مع النمو يتعلمون شيئاً فشيئاً أن يستجيبوا لكثير من المواقف باستجابات غير انفعالية .

٤ – المظاهر السلوكية لدى الطفل تكشف بسهولة عن حالته الانفعالية ، بعكس الحال لدى الراشدين، إذ يستطيع هؤلاء أن يخفوا الكثير من انفعالاتهم .

وترى بريدجز أن أمر نمو الحياة الوجدانية وارتقائها لا يقتصر على تعديل الانفعالات القائمة ، بل إنه ليتعدى ذلك إلى ظهور انفعالات جديدة تبعاً لازدياد النمو والنضوج . فانفعال الاستنجاد[1] يظهر فى نهاية الشهر الأول ، والسرور يظهر فى نهاية الشهر الثانى ، والحب يظهر فى خلال الشهر الثامن . ثم إن انفعال الحب هذا لا يلبث أن يتغاير إلى « الحب للراشدين » « والحب للأطفال » وذلك فيما بين الشهرين الثالث عشر والرابع عشر . ويتأخر ظهور الحزن إلى ما بعد سن السنتين (E. Hurlock 1950, p. 250)

وإذا نحن تأملنا موضوع تأخر ظهور الانفعالات فإنه يكشف لنا عن حقيقة هامة لا نستطيع إغفالها ، وهى أن نموها كما أنه يساهم فى نمو الأنا فإنه يتوقف عليه ويتأثر به أيضاً . ومن ثم فإن «المحاكاة الوجدانية» تظهر مبكرة، فى الشهور الأولى من العمر، لأنها تقوم على حالة اللاتغاير الأولى بين الأنا والآخر. أما «التعاطف»فيظهر فى خلال السنة الثانية لأنه يعتمد على تغاير الأنا وتميزه من الآخر مع الإبقاء على بعض اللاتغاير ، لكن «الإيثار» يتأخر ظهوره عن ذلك لأنه يقتضى درجة أكبر من الانفصال بين الذات والآخر بحيث تستطيع الذات أن تضع الآخر موضع اهتمامها الشديد (H. Wallon 1949, p.200) كذلك يتأخر ظهور الحزن لأنه يقتضى فهم الموقف والقابلية لأن أتخيل نفسى فى موضع الآخر الذى يمارس الحزن (E. Hurlock 1950, p. 250)

فالانفعالات إذاً تتأثر بنمو الأنا ويتوقف ارتقاؤها عليه ، كما أنها تساهم فى هذا النمو .على أن مساهمتها لا تقتصر على الاتجاه بالأنا نحو التغاير

---

(١) distress

والانفصال عن الآخر ، بل إنها لتتجه به أيضاً إلى الاتصال بالآخر والارتباط به . ويمكن تبسيط هذه الحقيقة على الوجه التالى :

فالشحنة الوجدانية نفسها من حيث هى خبرة باطنية، تبرز لدى الطفل بنوع من العيان أو الحدس الشعور بالأنا ، لكن هذه الشحنة نفسها لا تتركه على هذه الحال بل تدفعه إلى نشرها فى محيطه الاجتماعى عن طريق التعبيرات الحركية والصوتية . ولا يلبث المحيط أن يتحمل ببعض هذه الشحنة ويستجيب للطفل تحت وطأتها ، ويكون لمشاعر الرضا أو عدم الرضا أثر هام فى ارتباط الطفل ارتباطاً عميقاً بجوانب هذا المحيط .

كذلك تربط الانفعالات بين الطفل والآخرين بحركة عكسية ، أى بأن ترد إليه موجاتها من المحيط . وتكشف بعض الدراسات عن شدة حساسية الطفل لهذه الموجات فى وقت مبكر بشكل يسترعى الانتباه . فقد درست إسكالونا تأثر الطفل بانفعالات الأم ، وانفعاله تبعاً لذلك فى مواقف تناول الطعام . فتبين لها أنه حتى الأطفال الذين لم يكملوا بعد أربعة أسابيع من عمرهم كانوا يرفضون الثدى إذا كانت الأم فى حالة عصبية شديدة . كذلك الأطفال الذين بلغوا من العمر ما يمكنهم من تناول المأكولات الجافة ، يقاومون تناول الطعام إذا كان الموقف محملا بالتوترات ، فى حين أنهم كانوا يأكلون بشهية عندما يطعمهم شخص فى حالة هدوء . والنتيجة التى انتهت إليها الباحثة من ذلك هى أن الطفل عندما يتصل مباشرة بأحد الراشدين يدرك حالة الراشد الانفعالية ، ويستجيب لها بطريقة لا تتغير (E. Hurlock 1950, p. 254)

البيئة الاجتماعية وأثرها فى ارتقاء الطفل : والآن وقد انتهينا من النظرة التحليلية لارتقاء الأنا، مبرزين العوامل السيكولوجية الرئيسية فى هذا الارتقاء ، ننتقل إلى نظرة تأليفيه جديدة نكشف فيها عن الصلات العميقة بين ارتقاء الأنا وظروف البيئة الاجتماعية المحيطة به ، ولا سيما الأسرة ، حيث أن الأسرة

هى أول جبهة من جبهات البيئة يقابلها الطفل فى سنوات العمر الأولى . ولهذه النظرة أهمية كبرى ، ذلك أن جميع جوانب الارتقاء التى فصلنا القول فيها لا تتحقق مستقلة تماماً عن علاقة الطفل ببيئته . وفى ذلك يقول شريف وكانترل M. Sherif & H.H. Cantril ليست عملية ارتقاء الأنا — الارتقاء الاجتماعى — نتيجة ازدهار آلى لقوى فطرية ، إنما يتأثر مضمون هذا الارتقاء وسرعته تبعاً للظروف المحيطة بالطفل من حيث الرعاية التى يلقاها من الراشدين ، وظروف اكتسابه اللغة ، والاتصال بتراث الحضارة ، والرموز والمعايير ، وجماعات المماثلين فى السن ... الخ . ولا يعنى هذا أننا ننكر وجود اتجاه عام لهذا الارتقاء ، متشابه رغم ما يتخلله من تنوعات (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 157) وتعتذر سوزان أيزاكس فى ختام كتابها فى «الارتقاء الاجتماعى لدى صغار الأطفال» عن إغفالها لأثر البيئة فى الحياة النفسية للطفل ، مع أنه لا يمكن فهم هذه الحياة وتطوراتها إلا على أساس أنها نتاج التفاعل بين الطفل وبيئته ، بين الرغبات والتهويمات من ناحية وبين البيئة الاجتماعية من ناحية أخرى . وتقرر أن اقتصارها فى هذا الكتاب على الاهتمام « بالرغبات والتهويمات » وما ينشأ عنها ، من شأنه أن ينتقص من قيمة كتابها . وتقول بصراحة وشجاعة إن السبب فى زيادة اهتمامها بالرغبات والتهويمات هو أنها كانت فى الوقت الذى جمعت فيه مواد هذا الكتاب من ملاحظات على الأطفال وما إلى ذلك (وكان ذلك فيما بين عامى ١٩٢٤ — ١٩٢٧) مهتمة بالجانب الجنسى فقط ، وأنها تنبهت فيما بعد (أى قرب إخراج الكتاب عام ١٩٣٣) إلى ضرورة التقدير الدقيق للموقف ككل ، بيئة وشخصاً .(S. Isaacs 1933, p. 384)

والواقع أن آثار البيئة الاجتماعية بوجه عام ، بجميع أطرها ، من الإطار الحضارى العام الذى يدخل فيه مجتمع الطفل ، إلى الإطار الأسرى الضيق الذى يواجهه الطفل مواجهة مباشرة ، نقول إن آثار البيئة الاجتماعية بجميع أطرها هذه تنفذ إلى الطفل وتؤثر تأثيراً واضحاً فى سلوكه وإرتقائه . وهى تنفذ إلى

جميع الوظائف النفسية لدى الطفل ، كالانفعالات والعواطف والتصور واللغة ، كما تنفذ إلى السمات العامة لشخصيته . (غير أن نفوذها إلى كل من هذه المناطق لا يكون متجانساً ، فنفوذها فى بعضها يتم بيسر وسرعة يفوقان اليسر والسرعة اللذين تنفذ بهما فى البعض الآخر كما أن وسيلة النفوذ تختلف تبعاً لطبيعة الوظيفة أو منطقة الشخصية التى تنفذ إليها هذه الآثار) [1].

ولنوضح ذلك ببضعة أمثلة موجزة . تقرر ل . ب . مورفى أن لعب الأطفال يعكس الخصائص التى امتصها هؤلاء الأطفال من الحضارة المحيطة بهم . فليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ أن السمة الغالبة فى ألعاب الأطفال فى مجتمعاتنا هى أنماط « العدوان والحماية » . فى حين أن هذه السمة نفسها هى السمة الغالبة على حضارتنا بوجه عام ، حيث يقوم نظامها الأساسى على الفردية التنافسية (L.B. Murphy 1943) ويبدو أن معظم جوانب الحياة النفسية للطفل ولا سيما عواطفه وانفعالاته تنمو من خلال مواقف اللعب . كذلك يقرر كاتس وشانك أن المقارنات التى يعقدها الأهل من حين لآخر بين الطفل وإخوته أو أقرانه ويقدمون إليه من خلالها القيم التى يريدونه أن ينتظم حولها تغرس فى أعماق ذاته جذور التنافس . وهذا الأسلوب فى التربية شائع جداً فى حضارتنا (D. Katz. & R. Shanck 1947, p. 493) .

أما فيما يتعلق بالتصور فإن قوالب التفكير التصورى التى يتجه إليها الطفل فى نموه وينظم من خلالها نشاطه الفكرى ، لاتحددها فقط « طبائع الأشياء » وخبرته المباشرة بهذه الطبائع ، بل تحددها كذلك الاستعمالات الشائعة فى مجتمعه . وتختلف القوالب التصورية بين مجتمع وآخر ، وذلك لأن

---

(١) تدل نتائج البحوث العديدة فى هذا الموضوع على أن أقل الجوانب تأثراً بالتغييرات الشديدة فى بيئة الطفل جانب الارتقاء العضلى العصبى كما يتجلى فى المشى وسائر ضروب النشاط الحركى والمهارة اليدوية . وأكثر الجوانب تأثراً الكلام والقدرة التعبيرية بوجه عام . وفى الوسط بين أقل الجوانب وأكثرها تأثراً تقع الاستجابات الاجتماعية أو ما يسميه جيزيل « القدرة على التكيف » (J. Bowlby 1951, p. 20).

«التمييزات» المختلفة التى يقيمها كل مجتمع فى مختلف المواقف التى تواجهه تتوقف إلى حد كبير على الدلالة العملية التى تكتسبها هذه المواقف فى نظره . ولذلك نجد أن الأسماء التى تطلقها الشعوب على الأشياء تعكس وظائف هذه الأشياء بالنسبة لها ، أو على الأقل تكون مترتبة على هذه الوظائف (M.M. Lewis 1936, p. 223) ويبدو أن الطفل يدرك مبكراً هذه الحقيقة ، ومن ثم فإنه يصوغ هو نفسه أسماء لبعض الأشياء التى يتصادف ألا تسميها له البيئة . وقد لاحظت أن ابنتى أطلقت اسم « صوَّارة » على آلة التصوير وذلك من تلقاء نفسها ، كما أطلقت اسم «حلاَّقة» على آلة حلاقة الذقن ، ولم تكن عندئذ قد جاوزت منتصف الثالثة . ويبدو من اتباع نفس القاعدة فى الاشتقاق فى الكلمتين أن المسألة لم تكن بالنسبة لها مجرد رمز صوتى لكنها مسألة تنظيمات تصورية ، حيث يشترك الشيئان فى كونهما آلتين . إذا كان هذا هو أثر البيئة الاجتماعية الكبيرة فى النشاط التصورى لدى الطفل فإن أثر البيئة الأسرية لا يمكن إغفاله . ويكفى أن نذكر هنا هذه الحقيقة التى أوردتها سوزان أيزاكس ، فالأسرة تمثل فى نظر الطفل نمطاً للعلاقات يبنى على غراره خبرته بالعالم كله . فكل شىء صغير يعتبر فى نظره « بيبى » وكل شىء أكبر يعتبر « بابا » أو « ماما » . ويعبر الطفل عن هذا التصور بوضوح ، ولا يتنازل عنه إلا عندما يكبر ويزداد إدراكه موضوعية (والمقصود هنا ازدياد الموضوعية الاجتماعية والطبيعية معاً) ويكتسب بعض الاهتمامات اللاشخصية (S. Isascs 1933, p. 350).

وأما آثار البيئة فى اللغة فقد تناولها الكثير من الباحثين بالتفصيل ، فالأنماط اللغوية تقدمها البيئة إلى الطفل ، وكمية النشاط اللغوى والمحصول وطول الجملة بل وتاريخ بدء هذا النشاط وثيق الصلة بالاستقرار العائلى و بمهنة الأب ، و بالمستوى الاجتماعى للأسرة بوجه عام. فبحوث ديكودر A. Descoeudres وهتزر H. Hetzer وارايندورف Reindorf على الأطفال المنشأين فى ظل ظرف اجتماعية غير مواتية تدل على أنهم يتأخرون فى بدء استخدامهم اللغة مدة واضحة ، قد

تبلغ ستة أشهر إذا قورنوا بالأطفال المنشأين فى ظل ظروف اجتماعية ملائمة (M.M. Lewis 1936, p. 125) . وبحوث مكارثى D. McCarthy تدل على أن مهنة الوالد - والمستوى الاجتماعى الاقتصادى للأسرة لهما علاقة وثيقة بطول الجملة التى يستخدمها الطفل فى تلك المرحلة من العمر السابقة على سن التحاقه بالمدرسة . فالأطفال الذين لهم آباء من ذوى المهن الفنية العليا[1] يفوقون فى هذا الصدد الأطفال القادمين من أسر يكونها آباء من العمال غير الفنيين (G. Murphy, &others, p. 584; R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth, p. 414) . وكذلك لاحظت جودنف F.L. Goodenough تناسبا طردياً بين نزوع الطفل - فيما قبل سن الالتحاق بالمدرسة - إلى كثرة الكلام وبين المكانة الاجتماعية الاقتصادية لأبويه ، فكلما ارتفعت هذه المكانة ازداد هذا النزوع وكلما انخفضت تضاءل. وتشير بحوث جيزيل وأماترودا وجولدفارب W. Goldfarb إلى تأخر الارتقاء اللغوى لدى الطفل بشكل واضح إذا ما حرم من أمه . (J. Bowlby 1951, p. p. 17, 37) وكذلك لاحظ الباحث تأخراً واضحاً فى الوظيفة اللغوية لدى طفلته نتيجة لابتعاد الأم عن البيت مدة شهرين بسبب المرض . ومع أن الطفلة كانت تزورها من حين لآخر بالمستشفى ، ومع أن الشهرين تخللهما أسبوعان عادت فيهما الأم إلى البيت ، فإن هذا لم يكن ليحول بين الطفلة وبين الشعور بعدم الاستقرار فى الأسرة . ونتيجة لما نجم عن ذلك من كون الطفلة أصبحت دائماً مشحونة بالتوترات الشديدة - التى كانت تظهر فى سلوك الطفلة بمظاهر متعددة - صارت لا تستطيع أن تلقى جملة واحدة دون تلعثم وتهتهة ، مع أنها كانت قد عبرت هذه المرحلة وكانت تتكلم بانطلاق واضح) ، وقد كانت فى منتصف الثالثة) . كذلك أشرنا من قبل إلى ضرورة استقرار الأنماط اللغوية فى بيئة الطفل كشرط ضرورى لاكتسابه اللغة على أساس أن الارتباط الشرطى هو أحد العمليات الهامة

---

(١) professional

الداخلة فى عملية اكتساب اللغة — من حيث الفهم والاستعمال — ، فإذا لم يستقر أفراد بيئة الطفل على ارتباطات ثابتة بين الرموز اللغوية ومدلولاتها تأخر اكتساب الطفل للغة (R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 89) . كذلك يرجع الفضل إلى الضغط الاجتماعى — إلى حد كبير — فى تنازل الطفل عن أنماطه اللغوية التى يستخدمها واستخدامه نفس الأنماط التى يستخدمها الراشدون (G. Murphy & others 1937, p. 233) وينفذ هذا الضغط الاجتماعى إليه من خلال عمليتين :

الأولى أن تختل استجابات للراشدين لأنماطه اللغوية ، فيتضح فشلها شيئاً فشيئاً عن أن تجلب النتائج المرجوة ، وبالتالى ينقطع ما كان قائماً بينها وبين مدلولاتها من ارتباطات شرطية .

والثانية أن يزداد بروز الأنماط اللغوية للراشدين أمامه فإذا به يدرك أنماطه هو على أنها جشطلتات ناقصة ، وكلما ازداد بروز أنماط الراشدين واستقرارها فى مجاله الإدراكى ازداد شعوراً بأن أنماطه اللغوية جشطلتات ناقصة ، ودفعته حدة هذا الشعور إلى إعادة تنظيمها على نسق أنماط الراشدين .

وهكذا تنفذ آثار البيئة الاجتماعية إلى الارتقاء اللغوى للطفل — ويبدو ذلك بوضوح فى السنوات الثلاث الأولى بوجه خاص — من عدة منافذ . ولا يعنينا هنا أن نلخص جميع البحوث التى أجريت فى هذا الصدد . إذ تكفى الإشارة إليها وإلى الاتجاه العام لمضمونها ، ودلالته .

أما نفوذ آثار البيئة إلى السمات العامة للشخصية ومساهمتها فى تعيين هذه السمات منذ وقت مبكر ، فتشير إليه ل . ب . مورفى بقولها إن علاقات الطفل فى أثناء السنة الثانية من عمره بكل عضو من أعضاء الأسرة ذات أهمية بالغة فى تشكيل شخصيته ، بكل ما قد تمتاز به من صفات الاعتماد أو الاستقلال ، الإقدام أو الخجل ، العدوان أو الخوف ، التوافق أو الجمود .... الخ (L.B. Murphy 1947) . ويقرر جاردنر مورفى أن من بين الأسس التى تساهم فى عملية

بزوغ الأنا الفكرة الغامضة التى يكوّنها الطفل عن « الشخصية » الرئيسية فى مجال حياته ، ثم يحمل هذه الفكرة الغامضة عن « الشخصية » كما يراها إلى ملاحظاته على نفسه ، وتساهم هذه العملية فى إقامة دعائم ذاته (1937, p. 208) ومن ثم فإن الأطفال الذين يحرمون فى سنوات العمر المبكرة من الارتباط بشخصية واحدة دائمة الرعاية لهم ، كأن ينشأوا فى الملاجىء حيث لا تكرس مربية واحدة لرعاية كل طفل على حدة ، وحيث لا تدوم المربية كثيراً فى خدمة الطفل ، أو يضطرون لظروف معينة إلى التنقل بين رعاية عدة أشخاص ، لا يتاح لهم إقامة الذات على دعائم مستقرة ، وبالتالى فإنهم إما أن يكونوا عرضة للعواطف المتناقضة المتكافئة ، أو يكونوا شخصيات ضامرة الأنا (J. Bowlby 1951, p. 47) ومن أوضح الأمثلة على آثار البيئة فى شخصية الطفل ما لاحظته ل . ب . مورفى من أن إحدى الأطفال كانت تصدر عنها فى معظم المواقف استجابات تعاطفية ، وقد أجمع على هذا جميع الملاحظين . ولكن عندما وقع بعض التهديد على « أنا » الطفلة من طفلة أخرى معها وقع فى الوقت نفسه كف على استجاباتها العاطفيه ، وأقدمت على سلوك عدوانى وسلوك غير تعاطفى فاعتدت على الطفلة التى آذتها ، وضحكت من هذه الأخيرة عندما عبّرت عن آلامها . (L.B. Murphy 1943) . ومثل هذه المواقف إذا تكررت بحيث أصبحت هى الاتجاه الغالب على مواقف الطفل مع أقرانه كان لها أعمق الأثر فى تشكيل شخصيته وتعميق الاتجاهات العدوانية فيها . ومن أهم النتائج التى انتهى إليها أندرسون H. Anderson أن الطفل غير الآمن ينزع إلى السيطرة على سائر الأطفال بدلا من التعاون معهم . (E. Hurlock 1950, p. 306) ودرست ماير أثر العوامل البيئية فى سلوك السيطرة أو تأكيد الذات لدى الأطفال فى دور الحضانة ، فوجدت أن الأطفال القادمين من بيوت تكثر فيها أوامر النظام ويلقون العقاب لتنفيذها بدقة يكشفون عن نزوع إلى السيطرة على زملائهم . كذلك يبدو هذا النزوع لدى الأطفال الذين لا يلقون من آبائهم المعونة الكافية

فى الرد على أسئلتهم . ودرس جاك L. M. Jack ما سماه « بالسلوك الصاعد »[١] ويعنى به متابعة الطفل لعمل معين حتى ضد تدخل الآخرين وتوجيهاتهم . فاتضح له أن « الثقة بالنفس » هى العامل الرئيسى فى ظهور هذا السلوك . ووجد خمسة أطفال أقل من الجميع فى مقدار سلوكهم الصاعد ، فجعل يدربهم بأن أعطاهم بعض الإرشادات والفرص لاستخدام اللعب . فلما جىء بهم ثانية إلى المواقف التجريبية من سائر الأطفال تبين له أن نسبة السلوك الصاعد لديهم ازدادت بشكل ملحوظ (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 187)

من هذا العرض السريع لبعض البحوث التى أجريت فى آثار البيئة الاجتماعية فى تشكيل سلوك الطفل يبدو بوضوح مدى أهمية هذه الآثار ومدى نفوذها ، بحيث لا يمكن التحدث عن ارتقاء الطفل دون الكشف عن آثار البيئة فى هذا الارتقاء . على أن هذه البحوث نفسها تكشف عن حقيقة هامة أخرى وهى أن الأسرة جانب هام من جوانب البيئة وأنها هى المسئولة لا سيما فى سنوات العمر المبكرة عن كثير مما يرد إلى الطفل من مؤثرات . وكلما كان العمر مبكراً ازدادت أهميتها ، إذ تصبح هى المجال الرئيسى لحياة الطفل . والذى يعنينا هنا هو الكشف عن حقيقة تأثيرها فى الطفل فى الثلاث سنوات الأولى ، وكيف يتم هذا التأثير .

تدل نتائج البحوث العديدة التى أجريت فى هذا الموضوع على أن الدلالة السيكولوجية للأسرة بالنسبة للطفل هى أنها «مصدر الطمأنينة» ، لسببين :

الأول : أنها مصدر خبرات الرضا ، إذ يصل الطفل إلى إشباع معظم حاجاته من خلالها .

والثانى : أنها المظهر الأول للاستقرار والاتصال[٢] فى الحياة .

وقد أوضحنا فى الفصل السابق كيف أن المظهر الأول للذاكرة — والذاكرة هى

---

(١) ascendant behavior

(٢) continuity

أحد مظاهر استقرار الشخصية — هو شعور الطفل بالانتقال إلى بيئة غريبة . أى أن ثبات الإطار العام للبيئة المألوفة ينعكس لدى الطفل فى ثباته على مستوى شعورى معين . كذلك أوضحنا فى الفصل السابق مدى أهمية تنميط السلوك فى بيئة الطفل، واستقرار الأنماط — أنماط الشخصيات وأنماط السلوك — كشرط ضرورى ليتمكن الطفل من عقد التفرقة بين ذاته وبين الآخرين ، وذلك ليتمكن فى النهاية من إقامة دعائم ذاته ثابتة مستقرة . فاستقرار البيئة إذاً — سواء من حيث إطارها العام ومن حيث أنماط العمليات الكبرى فيها شرط ضرورى لاطراد ارتقاء الطفل ، وهذا ما توفره الأسرة .

وهناك عدة بحوث تقوم على الملاحظة والإحصاء تثبت جميعها صحة هذه الحقيقة . ففى دراسة قام بها آرمسترونج C.P. Armstrong على ٦٦٠ من الأحداث الفارين تبين أن ٢٩ ٪ منهم تهدمت أسراتهم — بسبب موت أحد الوالدين أو كليهما أو افتراقهما أو بأى سبب آخر — قبل سن الرابعة ، ثم ٢٨٪ منهم تهدمت أسراتهم فيما بين الرابعة والسادسة . وفى دراسة أخرى قام بها هذا الباحث نفسه على ٣٠ من « غير القابلين للإصلاح » تبين أن ١٢ (٤٠٪) من بينهم تهدمت بيوتهم قبل بلوغهم الرابعة ، و ٦ تهدمت بيوتهم وهم بين الرابعة والسادسة . وفى دراسة قام بها إيست وهوبير N.W. East & W.H. Hubert على ٢٦ من المراهقين المسجونين المشكلين الذين لم يفيدوا مما تلقوا من تدريب ، تبين أن نصفهم بالضبط قاسوا الانفصال عن الأبوين فى سن مبكرة . وعقد مينو G. Menut مقارنة بين ٨٣٩ طفلا يعانون من اضطرابات سلوكية و ٧٠٠٠٠ طفلا عاديين من مدارس باريس فوجد أن ٦٦٪ من الأطفال المشكلين آتون من بيوت مهدمة ، فى حين أن ١٢ ٪ فقط من الأطفال العاديين آتون من مثل هذه البيوت . وقام هذا الباحث نفسه بدراسة أخرى على ١٠٠ من الأطفال المشكلين القادمين من بيوت مهدمة ، فانتهى إلى أن انهيار الأسرة نفسه يعتبر أحد الأسباب الهامة لاضطرابات ٨٤ حالة من بينهم . وفى دراسة

قام بها جلويك وجلويك S. Glueck & E.T. Glueck على ٩٦٦ من الجانحين وجد أن ٤٢٩ منهم قادمون من بيوت مهدمة . وفى دراسة مماثلة قام بها أوترستروم E. Otterstrom على ١٣١٥ صبياً و ٣٠٠ فتاة من الجانحين والمسجونين وجد أن ٤٢ ٪ من الصبيان و ٦٥ ٪ من الفتيات قادمون من بيوت مهدمة . ودرس سافير B. Safier ٢٥٥ حالة من حالات العهر بين الرجال فوصل إلى أن ٦٠٪ منهم ينحدرون من بيوت تهدمت أثناء طفولتهم . وروى له بعضهم الكثير من الصعوبات التى كانوا يلقونها نتيجة لكثرة التغير فى نمط الأسرة، وبالتالى فى أسلوب التعامل ونظامه . وفحصت ينج L.E. Young حالة مائة والدة غير شرعية تتراوح أعمارهن بين ١٨ — ٤٠ سنة تمثل مستويات مختلفة من الذكاء والتربية والطبقة الاجتماعية الاقتصادية، فانتهت إلى عدة نتائج هامة ، منها أن ٤٣ منهن قادمات من بيوت مهدمة . ومما جاء فى وصف هذه الباحثة لأولئك الوالدات غير الشرعيات : « أنهن يعانين دائماً من مشكلات جوهرية فى علاقاتهن بالناس . فبعضهن عاجزات حتى عن الاحتفاظ بروابط سطحية ناجحة ، والبعض يحذقون الدخول فى علاقات عابرة بالمعارف والأصدقاء ، لكنهن عاجزات عن الدخول فى علاقة وثيقة بأى شخص....» ودرس بولوك ومالزبرج وفلر H.M. Pollock, B. Malzberg & R.G. Fuller ١٧٥ حالة من الفصاميين فظهر له أن ٣٨ ٪ منهم آتون من بيوت مهدمة . وقام سيلاج وهيدرى I. Csillag & E. Hedri بدراسة حالة مائة عامل ممن تحدث لهم إصابات كثيرة فى أثناء العمل الصناعى، فوجد أن ٥٤٪ منهم قادمون كذلك من بيوت مهدمة (J. Bowlby 1951) . وهكذا تثبت هذه البحوث وغيرها مما أورده بولبى J. Bowlby فى كتابه القيم « العناية الأمومية وعلاقتها بالصحة العقلية » تثبت بطريقة عكسية ضرورة توفر البيئة العائلية المستقرة حول الطفل كشرط أساسى لاستقرار شخصيته ، واطراد ارتقائه بحيث يصبح راشداً سوياً[1] .

---

(١) وقد أشرنا من قبل إلى ما أحدثه مرض الأم وبقاؤها فى المستشفى لمدة شهر من توترات لدى الطفلة ، تجلت نتائجها فى أحد جوانب الارتقاء الاجتماعى الهامة وهى الارتقاء اللغوى . والواقع

وفى دراسة قام بها بيننج G. Binning على ٨٠٠ من أطفال المدارس الكندية نجده يوضح كيفية تدخل البيئة العائلية فى ارتقاء الطفل على الوجه الآتى : فهو يقرر أن التغيرات فى سرعة النمو وجدانية فى منشئها. وقد يسرع النمو وقد يبطىء متأثراً فى ذلك إلى حد كبير بالحالة الوجدانية التى عليها الطفل . وبالتالى فإن مشاعره نحو الانفصال عن أحد والديه أو عن كليهما أو نحو أى جو يهدد استمرار استمتاعه بالحب السوى ، وما ينجم عن ذلك من توترات شديدة يقع تحت وطأتها ، تؤذى النمو أكثر مما يؤذيه المرض . وبتأخر نمو الطفل تزداد قابليته لأن تظهر به أعراض أمراض سيكوسوماتية ومشاكل سلوكية (J.Bowlby 1951, p. 28) . فالتوترات التى تنتاب الطفل نتيجة لفقدانه الشعور بالطمأنينة هى المصدر الرئيسى لتعطل الارتقاء أو نكوصه ، وتظهر أوضح ما تظهر فى ارتقاء الاستجابات الاجتماعية[١] .

ولا تقتصر الأسرة على أن توفر للطفل الشعور بالطمأنينة داخل حدودها فحسب ، لكنها تنشر هذا الشعور حولها ، ومن ثم فإن ما يبديه الطفل — دون الثالثة — من انزعاج إذا ما تقدم إليه أحد الغرباء بالحديث أو المداعبة وهو مع أبويه أقل بكثير مما ينتابه إذا لقى هذا الغريب منفرداً . فالحديث الودى بين الوالدين وبين هذا الغريب ومحاولتهما تقديمه إلى الطفل يقلل كثيراً من حدة توترات الطفل نحوه . وعلى هذا الأساس استطعت أن أقلل من انزعاج طفلتى

أنها تجلت كذلك فى مظهرين آخرين هما :

(ا) القابلية للانفعال الشديد بسرعة : فقد أصبحت سيئة الطبع ، وإذا ما غضبت على شىء فإنها سرعان ما تبكى ، ويكون بكاؤها عنيفاً .

(ب) النفور من الناس أكثر من الإقبال عليهم ، ونعنى هنا النفور حتى ممن كانت تعرفهم وتألفهم كبعض الأقارب ، فقد أصبحت تبدأهم — عندما تراهم بالنفور وإعلان أنها لن تسلم عليهم . وكانت تمكث هكذا فترة من الوقت قد تطول وقد تقصر .

(١) تبدو دلالة الأسرة بوضوح فى هذه الملاحظة التى لاحظتها على الطفلة فى كثير من المواقف ؛ فهى عندما ترى شخصاً غريباً يحاول أن يقترب منها ليحدثها أو يداعبها مداعبة لا تصادف قبولا عندها تكون استجابتها المباشرة أن تقول : « أنا حبيبة ماما وبابا » ، وتصحب ذلك بحركة تراجع نحو من يكون معها منا .

من جماعة الأطفال فى البيت ، وكانت لا تتجاوز الشهر الثالث من السنة الثالثة . كان يصل بها الانزعاج إلى حد البكاء أحياناً عندما تراهم يقبلون عليها جماعة ، وكان الأطفال أنفسهم — وأعمارهم تتراوح بين السادسة والتاسعة — لا يتورعون عن زيادة إزعاجها وذلك بتخويفها ببعض الحركات والأصوات . فخرجتُ إلى الحديقة ذات يوم ، وعملتُ على تنظيم علاقتها بهم واستثارة حبها نحوهم بطمأنتها على أنهم يلعبون معها ، وبعد قليل أقبلت الطفلة على بعضهم فعلا ، فأقبلت على أكبرهم فجعل يداعبها برفق ، مما شجعها على أن تقبل على وسطاهم وتقبل مداعباتها . ومع أن هذه الطمأنينة انتهت بانتهاء هذا الموقف بحيث عادت إلى الانزعاج فى الأيام التالية فإن هذا لا ينفى الحقيقة التى نقررها ، وكل ما هنالك أنها بحاجة إلى تكرار هذا الموقف عدة مرات . وقد أمكن لنا فى موقف آخر أن نستثير فى الطفلة سلوكاً تعاونياً مع هؤلاء الأطفال أنفسهم وذلك بعد شهر من الموقف السابق . فقد كان الأطفال يقومون بعمل جماعى لبناء بيت من الحجارة . ووقفت أرقبهم وأشترك فى توجيه حركاتهم . وكانت الطفلة تقف بجوارى فكلفتها برفق أن تحمل معهم بعض الحجارة ، فترددت قليلا ثم حملت الحجر وسرتُ معها إلى حيث وضعته . وبعد أن تكرر ذهابى معها مرة أخرى ، حملته وذهبت بمفردها فى المرة الثالثة إلى حيث وضعته . وازداد نشاط الطفلة فشجعتها ، وبعد أن كنت فى كل مرة أحملها الحجر بنفسى أصبحت هى تحمله بنفسها مكتفية بأن أقول لها فى بدء كل مرة خذى حجراً آخر ، وتسألنى « آخذ ده » ؟ فأقول « نعم » . وبعد قليل كان الأطفال جميعاً قد تعبوا وجلسواعلى الحجارة يتحدثون فى هدوء ، فإذا بالطفلة تذهب إليهم من تلقاء نفسها ، وتجلس بجوارهم لمدة عشر دقائق متتالية دون أن يكون معها أحد من أفراد الأسرة . ثم عادت إلى البيت لحاجة عارضة ، حتى إذا ما انتهت طلبت من تلقاء نفسها أن تخرج إليهم بلعبتها الجديدة ، وفعلا خرجت بها إليهم ، وبقيت بينهم تعرضها عليهم ، وتحمست للحديث معهم ، وبقيت

على ذلك عشر دقائق أخرى . وفى بعض الأحيان كان أحد الأطفال يحاول أن يدير اللعبة بنفسه فكانت الطفلة تتركها له وتجلس لمشاهدته ثم تأخذها عندما ينتهى منها ، ويتم ذلك كله دون عراك . ثم انتهى هذا الموقف بفعل بعض الأسباب الخارجية . وبعد ساعتين عاد من جديد . فقد جلست الطفلة مع عمتها فى الحديقة ، فرأت الأطفال يبنون بيتاً جديداً من الحجارة ، فبدأت تتكلم مع عمتها عنهم ، وعرضت عليها عمتها أن تقترب منهم فأخذت مقعدها فى الحال واقتربت منهم اقتراباً شديداً ثم جلست . ثم وقفت تشاهدهم دون أن تشترك معهم فى العمل . لكنها كانت تحاول بين الحين والآخر أن تدخل البيت ، وفى هذه اللحظات كانت هى نفسها تحاول أن تستزيد من الشعور بالطمأنينة فكانت تنادى عمتها لتدخل معها فى هذا البيت . وبعد قليل قصدت إلى بعض الشجيرات لتقطف أوراقها ، وعندئذ جلس أحد الأطفال على مقعدها فلما عادت تركته له وجلست على قطعة من الخشب قريبة دون أى عراك . وأوشك الطفل أن يقع على ظهره بالمقعد فاستغاث ولكن بهدوء — وكان يغلب عليه الضحك — ومديده طالباً المعونة فإذا بالطفلة تمد يدها إليه وتقوم مسرعة لتسند المقعد حتى لا يقع ، وذلك دون أن يكلفها أحد بهذا العمل . وكرر طفل آخر هذا الموقف عن عمد فأسرعت إليه الطفلة تسنده أيضاً ، وتظاهر ثالث بأنه يبكى فإذا بها تواسيه بانزعاج وهى تقول له : « لا إنت ماوقعتش ، إنت ما وقعتش »وتكررها عدة مرات ، وتحاول فى الوقت نفسه أن ترفع رأسه لترى وجهه . وهكذا انتهى الاطمئنان بالطفلة إلى خفض توتراتها نحو هؤلاء الغرباء مما ساعدها على الاقتراب منهم ، والعمل بينهم ، والحديث معهم ، وارتضاء مشاركتهم لها فى ممتلكاتها ، والتعاطف مع بعضهم بل ومواساته .

على أن الأسرة ليست بيئة متجانسة بالنسبة للطفل ، ويبدو هذا التغاير واضحاً منذ اليوم الأول فى حياة الطفل . وفى الظروف العادية — فى حضارتنا الحالية — تكون شخصية الأم هى الجانب الرئيسى فى هذه البيئة . فهى

التى تعنى بالطفل أكثر من أى فرد آخر فى الأسرة ، وهى التى تثبت أمامه وتتصل به زمناً أطول مما يتاح لغيرها ، وهى التى تقدم له قدراً من تجارب الرضا يفوق ما يقدمه إليه غيرها . وسواء أكانت هذه الأم هى الأم البيولوجية أم كانت غيرها فليس هذا هو المهم، لكن المهم هو أن يتوفر للطفل من يرتبط به به « ارتباطاً شخصياً » ومن خلال هذا الارتباط يقدم له رعايته الدائمة طوال سنى الطفولة .

ومن هنا تبدو الأم — أو من يقوم مقامها — باعتبارها بؤرة الوظيفة الأسرية . وللارتباط بها وحضورها المستمر أهمية كبرى فى حياة الطفل وفى ارتقائه الاجتماعى[١] .

ومن أهم البحوث التجريبية فى هذا الصدد بحوث جولد فارب Goldfarb فقد قام بدراسة مجموعتين من الأطفال تتألف كل منهما من ١٥ طفلاً وتتراوح أعمارهم بين العشر سنوات والخمس عشرة سنة . وقد أقام أطفال إحدى المجموعتين فى ملجأ (حيث لا تتاح الفرصة لقيام علاقة شخصية بين الطفل والمربية ، فهى تتعهد عدة أطفال فى وقت واحد ، وبغير اكتراث غالباً ، وتتغير من حين لآخر) ابتداء من بلوغهم الشهر السادس من العمر حتى بلوغهم سن الثالثة والنصف ، ثم نقلوا إلى بيوت بديلة — حيث يتاح للطفل الارتباط الدائم بشخص يكفله — أما أطفال المجموعة الثانية فقد انتقلوا من أحضان « أمهاتهم إلى البيوت البديلة[٢] » مباشرة . وفى فحص أفراد المجموعتين استخدم جولد فارب عدة اختبارات للقدرات المختلفة مثل اختبار وكسلر Wechsler للذكاء ، وفيجل وفيجو تسكى Weigl & Vigotsky للقدرة على تصور مفاهيم مجردة ، ومقياس

---

(١) وفى ذلك يقول بولبى إن الطفل يتأثر تأثراً سيئاً بانفصاله عن أمه . ويبدو ذلك بوضوح فيما بعد الأسبوع الرابع من عمره ، وفى غضون بضعة أيام من انفصاله عن أمه؛ فتقل ابتساماته لمرأى الوجه البشرى ويتضاءل نشاطه وتفتر اهتماماته . وتدل دراسة أطفال الملاجئ ممن هم دون الشهر السادس من العمر على أنهم أقل إصداراً للأصوات من الأطفال المقيمين فى أسراتهم . بل ونستطيع أن نبين هذا الفرق حتى لدى الأطفال الذين أتموا الشهر الثانى من العمر فحسب (J. Bowly 1951, p. 16) .

(٢) foster homes

فينلند Vineland scale للنضج الاجتماعى ، كما أحاط الأطفال بمواقف تجريبية لمشاهدة استجاباتهم المختلفة ، فكانت النتائج دائماً تشير إلى تفوق أطفال المجموعة الثانية الذين أتيح لهم البقاء فى رعاية شخص واحد فى السنوات المبكرة من العمر ، بينما تشير إلى ضعف الأنا ضعفاً شديداً عند أطفال المجموعة الأولى (J. Bowlby 1951, pp. 37 ,55) . ويبدو ذلك بوضوح فى القدرات التخيلية لدى هؤلاء الأطفال ، وفى استجاباتهم الاجتماعية كالقدرة على اتباع قواعد السلوك المرسومة لهم ، والشعور بالذنب نتيجة لكسر هذه القواعد ، والقدرة على عقد علاقات سوية مع الآخرين ، والوظيفة اللغوية . فإن الحرمان من الأم « فى سنوات العمر المبكرة» يصيب ارتقاء الأنا فى الصميم ، إذ يصيب شعبتى الارتقاء ، ما يحقق « الشعور بالإنية » والاستقلال عن الآخرين ، وما يحقق الارتباط بالآخرين « واكتساب العضوية فى الجماعة » . ويفسر بولبى هذه الحقيقة بإرجاعها إلى عمليتين :

الأولى : أن الحرمان من تجربة « الوجه الثابت والعناية الشخصية المتصلة » فى سنوات العمر المبكرة ، من شأنه أن يحرم الطفل من أول مظهر وأول وسيلة « للتنظيم » فى الحياة ، تنظيم السلوك وتنظيم المدركات . وبالتالى يعطل قدراته على الفهم والتجريد ، كما يتسرب إلى كثير من قدراته الاجتماعية .

والثانية : أن بيئة الملجأ لا تسمح للطفل بأن يمارس نشاطاً فردياً ، ولا أن يملى إرادته على أحد . مع أن هذه تمرينات لا بد منها لتقوية الأنا. فإذا أضفنا إلى ذلك ما تقرره سوزان أيزاكس من أن الطفل لا يعتمد على والديه — وخاصة الأم — فى المحافظة على حياته وإشباع حاجاته الغذائية فحسب ، ولكن يعتمد عليهم أيضاً فى إشباع حاجاته اللبيدية أو الوجدانية (S. Isaacs 1933, p. 387-395) وهذا مالا يتوفر فى الملجأ ، أدركنا مدى عمق الآثار التى تترتب على حرمان الطفل من الارتباط بالأم .

وهناك عدة بحوث تتفق كلها فى نتائجها مع جولد فارب فى خطوطها العامة .

فقد قام وولف وشبيتز بدراسة أربع مجموعات من الأطفال ، ثلاثة من بينها يعيش أفرادها مع أمهاتهم وواحدة يعيش أفرادها فى ملجأ . واستخدم الباحثان فى دراستهما اختبارات الأطفال المعروفة باسم اختبارات « هتزر وولف » The Hetzer-Wolf baby tests لتعيين معادلة الارتقاء لأطفال هذه المجموعات . كما روعى فى أطفال المجموعات الثلاثة الذين يعيشون مع أمهاتهم انتماؤهم إلى ثلاث فئات اجتماعية متباينة .فكانت النتائج كما يأتى :

جدول يبين مدى تغير متوسط معادلة الارتقاء عند مجموعات من الأطفال
تبعاً لحضور الأم أو غيابها

الفئة الاجتماعية	حضور الأم أو غيابها	عدد الحالات	معادلة الارتقاء: المتوسط من الشهر الأول إلى الرابع	معادلة الارتقاء: المتوسط من الشهر التاسع إلى الثانى عشر
مجموعة من سكان المدن (غير منتخبة)	غائبة	٦١	١٢٤	٧٢
مجموعة من أبناء أصحاب المهن العقلية	حاضرة	٢٣	١٣٣	١٣١
مجموعة من الريفيين	»	١١	١٠٧	١٠٨
مجموعة من أبناء أمهات جانحات غير	»	٦٩	١٠١,٥	١٠٥

وأهم ما فى هذه النتائج أن تأثير الاختلاف الاجتماعى بين فئات الأطفال ذوى الأمهات الحاضرات لا يصل فى شدته إلى ما يعادل شدة تأثير الحرمان من الأم . فأعلى درجات ارتقاء وهى ١٣٣ المتوفرة لدى أبناء ذوى المهن الفنية العليا تزيد على أدنى الدرجات وهى الموجودة لدى أبناء الأمهات غير الشرعيات بمقدار ٣١,٥ ، فى حين أن الفرق بين معادلة الارتقاء لدى الأطفال المقيمين بدون أمهاتهم فى الشهور الأربعة الأولى من العمر ومعادلة

الارتقاء لديهم فى أواخر العام الأول ٥٢ . وإلى جانب هذه الحقيقة حقيقة هامة أخرى وهى أن معادلة الارتقاء فى انخفاض مطرد لدى الأطفال المقيمين فى الملجأ ، وقد استمر انخفاضها بعد انتهاء السنة الأولى حتى وصلت فى نهاية السنة الثانية إلى ٤٥ فقط . ويعلق بولبى على هذه النتائج بقوله إن الظروف المعيشية لهؤلاء الأطفال كانت سيئة فعلا من الناحية التربوية، وربما كان لهذا أيضاً أثره فى شدة انخفاض معادلة الارتقاء . إلا أن هناك دراسات أخرى تدل بوضوح على أنه حتى مع تحسن الأحوال عن ذلك كثيراً فإن النتيجة تظل تشير إلى تأخر واضح فى معادلة الارتقاء لدى الأطفال المحرومين من أمهاتهم عن الأطفال الذين يعيشون فى رعاية الأمهات (J. Bowlby 1951, p. 17)

كذلك قام سيمونس بمقارنة مجموعة من الأطفال يبلغ عدد أفرادها ١١٣ طفلا وتتراوح أعمارهم بين سنة وأربع سنوات ، وقد أمضوا عمرهم كله فى الملاجىء ، بمجموعة أخرى من الأطفال الذين يقضون معظم النهار فى دور الحضانة ثم يعودون إلى بيوتهم ليعيشوا مع أمهاتهم اللاتى يعملن لكسب أقواتهن . واستخدم لهذه المقارنة الاختبارات المعروفة باسم « اختبارات هتزر وبوهلر » The Hetzer - Buhler tests لتعيين معادلة الارتقاء . فانتهى إلى أن المعادلة لدى المجموعة الأولى ٩٣ فى حين أنها تبلغ ١٠٢ عند أطفال المجموعة الثانية . ودرس لورى L.G. Lowrey ٢١ حالة من الأطفال الذين ألحقوا بالملاجىء خلال السنة الأولى من عمرهم وظلوا فيها حتى الثالثة أو الرابعة ، وقد تولى لورى فحصهم وهم فى الخامسة من العمر فتبين له أنهم جميعاً يعانون من اضطرابات حادة فى الشخصية تتركز فى عجزهم عن إعطاء الحب أو تقبله . أما الأعراض التى كانت شائعة بينهم فهى العدوان والخلفة والأنانية وشدة الصياح والصعوبة الشديدة فى تناول الطعام، وعيوب الكلام والبوال. وأحياناً المخاوف الشديدة وإعصار من النشاط . ودروس بيرز وأوبيرز D. Beres & S.J. Obers مجموعة مكونة من ٢٨ شخصاً تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٨ سنة وهم جميعاً ممن أمضوا

فى الملاجئ الثلاث أو الأربع سنوات الأولى من العمر ، فانتهيا إلى ما يأتى :

٤ أشخاص من بينهم فصاميون .

٢٢ شخصاً يعانون من اضطرابات حادة فى الشخصية .

٧ أشخاص يعانون من ضحالة وجدانية (J. Bowlby 1951) .

وأجرت آمى دانيل A. Daniel تحت إشراف بردبولدوين B. Baldwin تجربة على مجموعتين من الأطفال فى سن السنتين ، مقيمين فى أحد المعاهد . وتتلخص التجربة فيما يلى :

ا — إحدى المجموعتين لا تكاد تمنح أى قدر من الحنان ، مع استمرار العناية من جميع النواحى الأخرى .

ب — فى المجموعة الأخرى خصصت لكل طفل مربية ، وتوفر الحنان .

وبعد ستة أشهر قارنت الباحثة بين أطفال المجموعتين فوجدت أن أطفال المجموعة الأولى متأخرون عقليا وجسمياً عن أطفال المجموعة الثانية (C. Buhler 1937, p. 65) .

وهكذا يشير عدد من البحوث التجريبية إلى أهمية ارتباط الطفل بالأم أو بمن يقوم مقامها طوال السنوات الثلاث الأولى من العمر بوجه خاص . كما تشير هذه البحوث إلى أنه كلما زادت مدة إقامة الطفل فى الملجأ انخفضت معادلته الارتقائية .

وقد يقال لتفسير التأخر الملحوظ فى أطفال الملاجئ إن السبب وراثى ، إذ أنهم جميعاً من فئات اجتماعية معدمة . لكن هذا الاعتراض يرد عليه بعدة ردود ، منها :

ا — أن بعض هذه البحوث التجريبية التى أجريت فى هذا الصدد عقدت مقارنات بين أطفال الملاجئ وأطفال ينتمون إلى نفس فئاتهم الاجتماعية لكنهم يعيشون مع أمهاتهم . ومع ذلك فقد انتهت إلى إثبات تأخر أطفال الملاجئ .

ب ـ أن بعض هذه البحوث تشير إلى أنه حتى مع بقاء الطفل فى نفس الملجأ فإن الآثار السيئة تقل إذا خصصت له مربية ونال منها ما يشبه حنان الأم وتفرغها .

حـ ـ أن النتائج السيئة لانفصال الطفل عن الأم تظهر بوضوح كلما كانت علاقة الطفل بأمه وثيقة قبل الانفصال . (هذا إذا حدث الانفصال فيما قبل الثامنة) . وأنه إذا أعيد إليها سريعاً أمكن شفاؤه من الآثار السيئة سريعاً . وكلما طالت مدة انفصاله تعذر شفاؤه .

د ـ أن الآثار السيئة لانفصال الطفل تزداد بازدياد مدة إقامة الطفل فى الملجأ ((J. Bowlby 1951, p. 20-23) .

من ذلك يتضح أن للعوامل البيئية أهمية بالغة فى الارتقاء الاجتماعى للطفل ، سواء من حيث مضمونه ومن حيث سرعته . وبالتالى نستطيع أن نفهم قول شريف وكانترل : « ليست عملية ارتقاء الأنا نتيجة ازدهار آلى لقوى فطرية ، إنما يتأثر مضمون هذا الارتقاء وسرعته تبعاً للظروف المحيطة بالطفل » . كما يتضح أن هذه العوامل البيئية أو الظروف المحيطة ليست متجانسة فى شدة تأثيرها ومدى هذا التأثير . وفى غضون السنوات الثلاثة الأولى من العمر تكون الأسرة وخاصة الأم هى أهم مؤثرات البيئة على الطفل . فهى المجال الرئيسى لإشباع معظم حاجاته البيولوجية والوجدانية ، وهى الميدان الذى يقضى فيه معظم ساعات يقظته ، لا سيا أنه لم ينتم بعد إلى إحدى جماعات الأطفال ، كما أنه لم يلتحق بعد بالمدرسة . فإذا أضفنا إلى ذلك عاملا آخر على جانب كبير من الأهمية وهو شدة مطاوعة الطفل ـ تبعاً لصغر سنه ـ أى شدة قابليته للتأثر والتشكل تبعاً للمؤثرات الخارجية ، أدركنا مدى أهمية هذه العوامل البيئية من حيث مساهمتها فى تحديد السمات الكبرى لشخصية هذا الطفل عندما يصبح راشداً . ولا يمكن إغفال عامل المطاوعة هذا أو التقليل من أهميته بدعوى غموضه أو عجزنا عن تحديد مضمونه تحديداً دقيقاً ، فهذا لا يصلح أن يكون أساساً

لرفض المفاهيم العلمية أو قبولها . لكن الأساس الذى ينبغى الاستناد إليه فى هذا الصدد هو : هل يوحى لنا المفهوم بخطوات تجريبية يمكن اتخاذها لإكسابه مضمونه أو للتحقق من قيمته . فإذا كانت هذه الخطوات ممكنة فهذا أول امتحان يجتازه المفهوم ، ويبقى بعد ذلك أن نحتكم إلى نتائج التجارب . ومفهوم المطاوعة أحد المفاهيم التى تتيح لنا أن نجرى عليها هذا الاختبار التجريبى . وقد أجريت بخصوصه بعض التجارب فى ميدان علم الأجنة [1] دلت على أن آثار الصدمات والتسمم والعدوى وكل ما إليها من عمليات مؤذية للجنين لا تتفاوت فقط تبعاً لطبيعة العامل المسىء وبناء النسيج المصاب ووظيفته ، ولكن تختلف أيضاً تبعاً لدرجة نضج هذا النسيج . كذلك أجريت تجارب مماثلة فى دلالتها فى علم النفس الحيوانى . وتدل بعض هذه التجارب على أن تجويع الفئران وهى فى اليوم الرابع والعشرين من عمرها يترك فى سلوكها آثاراً يمكن تمييزها بوضوح عندما تصبح يافعة ، فى حين أن هذا التجويع نفسه إذا وقع عليها فى اليوم السادس والثلاثين من عمرها لا يترك مثل هذه الآثار (J. Bowlby 1951, p. 14) كما أن تجربة كو Kuo على اتجاه القط نحو قتل الفأر تلقى ضوءاً على هذا المفهوم . ذلك أن مجموعة القطط التى أمكن تربيتها بمعزل عن أمهاتها (ومع الفئران) حتى أتمت الشهر الرابع من عمرها عجزت عن أن تتعلم من أمها بعد ذلك الاتجاه نحو افتراس الفئران (Z.Y. Kuo 1938) . وثمة تجربة مماثلة أجريت على الحشرات وسبق أن ذكرناها فى الباب الأول من هذا البحث ، وهى التجربة التى أمكن بمقتضاها أخذ عدة عذارى [2] من فصائل مختلفة من النمل وتنشئتها معاً فى قرية واحدة ، فى حين أننا إذا أخذنا نملة يافعة وأقحمناها على جماعة من النمل اليافع غير جماعتها فإن الجماعة سرعان ما تفتك بها (T.C. Schneirla 1941).

من ذلك يتضح بجلاء أن المبدأ القائل بازدياد القابلية للتشكل أو ازدياد المطاوعة

---

(١) embryology

(٢) pupae

كلما كان الكائن صغيراً مبدأ بيولوجى عام . ويمكن تعميمه على القدرات السيكولوجية فى المستويات التطورية المختلفة . ويزداد مضمونه تحدداً ووضوحاً يوماً بعد يوم بازدياد البحوث التجريبية التى تؤيده وتوضح الكثير من جوانبه . على أنه بالقدر المتاح له حالياً من الوضوح والتحدد ، كاف لأن يبين لنا مدى خطورة المؤثرات البيئية على الطفل فى الثلاث سنوات الأولى من عمره ، وعلى شخصيته التى سيقف بها بين الجماعة وفى مواجهتها فى المستقبل ، عندما يصبح راشداً .

تلخيص

خلاصة ما أوردناه فى هذا الفصل أننا تتبعنا مظاهر الارتقاء الاجتماعى وعوامله لدى الطفل فى السنتين الثانية والثالثة من عمره ، بعد أن انتهينا من تتبعها فى السنة الأولى وذلك فى الفصلين السابقين . وقد أوضحنا أن المظهر الغالب على هذه المرحلة — مرحلة السنتين الثانية والثالثة — هو ازدياد الحساسية الاجتماعية بشكل واضح . وبينا كيف أن هذه الحساسية تتخذ شكلا إيجابياً فى أول المرحلة يتجلى فى الإقبال على الآخرين ، ثم تتخذ شكلا سلبياً يبلغ قمته فى منتصف الثالثة ويستمر حتى أواخرها ويتجلى فى معارضة الآخرين ومحاولة الانفراد بالعمل والرأى . ثم فصلنا القول فى ديناميات هذا التغير الذى يطرأ على سلوك الطفل وعلاقته بالآخرين بوجه خاص . وفى هذا السبيل عدنا إلى تركيز انتباهنا فى تتبع ارتقاء الأنا — كما فعلنا فى الفصلين السابقين — باعتباره محور الشخصية المتفاعلة مع الآخرين . فكشفنا عن المراحل الكبرى لهذا الارتقاء . وهى :

ا — مرحلة الخلط بين الأنا والآخر : حيث يكون الأنا على درجة ضئيلة من التغاير ، وتكون فى بداية السنة الثانية وتستمر — بدرجات متفاوتة — إلى أواخرها تقريباً . وتظهر فى عدة مظاهر ، منها عجزه عن إدراك وحدة الشخصية من خلال تعدد مواقفها ، وتعميمه تجارب الذات على الآخر وبالعكس ،

وذلك فى مواقف التعاطف والغيرة بوجه خاص . ولا تقتصر دلالة هذه المرحلة على كونها مرحلة يمر بها الطفل ثم يعبرها فى ارتقائه بل هى تساهم بشكل واضح فى تمكين الطفل من اكتساب العضوية فى مجتمعه وذلك إذ تيسر له « امتصاص بعض الجوانب من أنماط الشخصية » الشائعة فى مجتمعه ، وذلك بفضل اللاتغاير القائم بين الأنا والآخر . كما أن رواسب هذه المرحلة فى نفوسنا تظل معنا طوال العمر ، وهى التى تمكننا من ممارسة المواقف التى تنطوى على المشاركة الوجدانية ، عندما نتألم لآلام الغير أو نفرح لأفراحهم .

ب — مرحلة التبادل . وفيها يقف الأنا والآخر موقف الندين . وتكون فى أواخر الثانية وأوائل الثالثة . وتظهر بوضوح فى ألعاب التبادل التى ذكرنا عدة أمثلة لها . وفى هذه المرحلة تتأرجح شخصية الطفل بين هذين القطبين بحيث لا يمكن القول بأن سلوك الطفل خاضع لتوجيه أحدهما فى معظم المواقف .

حـ — مرحلة تضخم الأنا : وفيها يصبح الأنا هو القطب المسيطر على السلوك . ويتطرف الأنا فى هذه السيطرة بحيث يبدو كأنه ديكتاتور . ويصطبغ الآخر بصبغة التابع (إذا كان حاضراً ومن الأشخاص المألوفين) أو كبش الفداء (إذا كان غائباً) . وتبرز هذه المرحلة فى منتصف الثالثة وتستمر حتى أواخرها . وتعرف بأزمة الشخصية الأولى . ومن أهم مظاهرها أن الطفل يحب أن يقوم بأعماله منفرداً . ويتحكم فى مجرى الأمور ، ويكون شعوره بالملكية حاداً ، ويدرك ذاته أضخم من حقيقتها ، ويكون فى حالة توتر انفعالى فى معظم المواقف ، كما أنه يدرك وحدة الشخصية بشكل واضح يتجلى فى استخدامه للضمائر فى اللغة .

على أن الطفل برغم محاولاته العنيفة المتعددة لتمييز ذاته من الآخرين يكشف بين الحين والحين عن حاجة عميقة إلى الآخر . فمنه يستمد التأييد (وذلك عندما يؤدى مهمة التابع) وبوساطته يتخفف من بعض التواترات (وذلك عندما يؤدى مهمة كبش الفداء) . كما أن اطراد ارتقائه اللغوى — سواء من حيث

المحصول اللغوى وازدياد التمكن من استعمال الأنماط الصوتية التى يستعملها الراشدون — وازدياد قدرته على المحاكاة الإرادية ، وازدياد حساسيته « لنظرة » الغير ولأحكامهم ، كل هذه حقائق عن النمو فى السنة الثالثة لا يمكن إغفال ذكرها إلى جانب تضخم الأنا ، وهى تدل على أن أزمة الشخصية الأولى ليست أزمة « خُلفة » تامة وانفصال تام عن الآخرين كما يصورها البعض ، لكنها إحدى أزمات ارتقاء الشخصية ، هذا الارتقاء الذى يمضى دائماً فى اتجاه مزدوج هو تحقيق « فردية الشخصية واجتماعيتها » فى وقت واحد ، مع تغليب أحد القطبين أحياناً ، ولكن دون أن يقضى هذا على الإمكانيات التى يستند إليها القطب الآخر . وفى كثير من الأحيان يكون نمو بعض القدرات مؤدياً إلى نمو القطبين معاً . وذلك كما هو الحال فى القدرة اللغوية والقدرة على المحاكاة .

وبعد أن انتهينا من هذه النظرة الكلية إلى ديناميات الارتقاء فى السنتين الثانية والثالثة ، تقدمنا بنظرة تحليلية لتفصيل القول فى العوامل القائمة وراء هذا الارتقاء للأنا ، وقد قسمناها إلى نوعين من العوامل أو القدرات : قدرات تكيفية تؤدى غالباً إلى زيادة اندماج الطفل فى الآخرين ؛ وهى القدرة على المحاكاة والقدرة اللغوية. وقدرات يؤدى نموها إلى زيادة تمكين الطفل من تمييز ذاته من الآخرين ؛ وهى القدرات التخيلية والوجدانية .وقد اهتممنا بوجه خاص بالكشف عن مراحل نمو هذه القدرات وشروط هذا النمو .

ثم عدنا بعد ذلك إلى نظرة تكاملية للطفل فى بيئته ، محاولين أن نكشف عن آثار البيئة فى توجيه هذا الارتقاء وفى إكسابه مضمونه ، سواء فى خطوطه العامة أو فى كثير من تفاصيله . وركزنا اهتمامنا فى علاقة الطفل بأسرته وبأمه بوجه خاص ، مبينين كيف أن آثار هذه العلاقة تنفذ إلى معظم جوانب الشخصية ، ولا تقتصر على تشكيل سماتها العامة فحسب .

الفصل الرابع

الطفل من بداية الرابعة إلى بدء المراهقة

مميزات المرحلة — ارتقاء الأنا — جماعات الأطفال

أول مشكلة تواجهنا عندما ننظر فى هذه المرحلة وفيما أجرى عليها من بحوث هى مشكلة تنظيم الوقائع العديدة التى تكوّن مضمونها . وطبعى أن يتفق معظم الباحثين على أن يكون المفهوم الرئيسى الذى يستخدم لتحقيق هذا التنظيم هو « المستوى[١] » لأن الدراسة هنا دراسة ارتقائية . إلا أن الخلاف قائم حول مضمون هذه المستويات وموضع كل منها فى سياق العمر الزمنى . فالمحللون النفسيون — الفرويديون — يقسمون هذه المرحلة إلى مستويين ، يمتد الأول من نهاية الثالثة إلى أواخر الخامسة تقريباً ، وفيه يبزغ الأنا الأعلى، ويتعرض الطفل لكثير من ضروب الصراع الوجدانى ، وهذا المستوى هو المعروف بمستوى المرحلة القضيبية[٢] من مراحل النمو النفسى الجنسى (S. Isaacs1933, p. 387-495) . والمستوى الآخر يمتد حتى بدء المراهقة ويعرف بمرحلة الكمون[٣] . وإذا أخذنا بوجهه نظر بياجيه كان علينا أن نقسم المرحلة إلى مستويين مختلفين من حيث توقيتهما الزمنى ومضمونهما ؛ فالمستوى الأول يمتد من نهاية الثالثة إلى حوالى السابعة ويعرف بمرحلة التمركز فى الذات . وفيها يتكلم الطفل ويسلك كما لو كان مركز الوجود ، ويعجز عن أن يدرك وجهه نظر الآخر ، ولا يتبادل وجهات النظر مع الآخرين . والمستوى الثانى يمتد إلى حوالى الحادية عشرة حيث يتخلص من تأثير « التمركز فى الذات » فى قواه الإدراكية ، فيستطيع أن أن يضع نفسه موضع الآخر ليرى الأمور من وجهة نظره (J. Piaget 1923, p. 53-66) .

(١) level

(٢) phalic stage

(٣) latency period

أما جيزيل A Gesell فإنه يقسم المرحلة إلى ثلاثة مستويات : الأول يمتد إلى الخامسة والثانى يمتد إلى السابعة، والثالث يمتد إلى حوالى العاشرة.ومضمون هذه المستويات أشمل من مضمون المستويات كما يحددها الفرويديون أو أو بياجيه . ذلك لأن جيزيل يقوم بعمل قطاعات عرضية فى سلوك الطفل ككل ، ومن مشاهداته فى هذه القطاعات يستمد مضمون المستويات التى يقول بها . فهو لا يقتصر على أحد جوانب السلوك دون الأخرى A. Gesell & F. Ilg 1946). وثمة تقسيمات أخرى متعددة. كتقسيم شارلوت بوهلر C. Buhler على أساس مراحل النمو الذهنى للطفل من خلال تناوله للأشياء ، إلى مرحلتين : المرحلة الرمزية،والمرحلة النفعية (Ch. Buhler 1937, p. 105) . وتقسيم فالون H. Wallon إلى ثلاث مراحل : مرحلة الاهتمام بالأنا وتسمى بالمرحلة الشخصية وتمتد إلى نهاية الخامسة ، ثم مرحلة الاهتمام بالأشياء وتمتد إلى السابعة ، ثم المرحلة الإجمالية حيث الاهتمام بالهوايات (H. Wallon 1941, p. 218) .

على أننا نؤثر ألا نتقيد بأحد هذه التقسيمات . لسبب واضح هو أن بعض هذه التقسيمات — على الأقل — لا تبدو متعارضة بل تبدو مكملة بعضها . البعض . فهى لا تتناول جميعاً وظيفة واحدة أو مجموعة واحدة من الوظائف بل يتناول بعضها وظائف لا يتناولها البعض الآخر . ولما كان هدفنا من هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الارتقاء الاجتماعى للأنا، أى ارتقاء قدراته على الاستجابة الملائمة فى المواقف الاجتماعية ، واقترابه من نموذج الشخصية الراشدة التى تحسن التوافق مع الآخرين ، وهذا الهدف ليس هو بالضبط الهدف الذى قصد إليه الباحثون سالفو الذكر ، بل هم قصدوا إلى أهداف مغايرة قليلا أو كثيراً (لكنها جميعاً تلقى بعض الضوء عليه) ، فإننا نؤثر أن نفيد من دراساتهم جميعاً فهما قيل فى أية دراسة علمية عن تطرفها أو خطئها فلابد أن لها أساساً من مشاهدة الواقع .

تمتاز هذه المرحلة ببضع خصائص أو بالأحرى بظهور تيارات ارتقائية

معينة ، تبزغ معها منذ بدايتها وتظل متصلة طوالها ، وقد يتتابها بعض التغيرات لكنها لا تصل فى عمقها إلى مثل أزمة الشخصية الأولى التى تقع فى السنة الثالثة ، أو أزمة الشخصية الثانية التى تقع فى فترة المراهقة . وربما كان وقوع المرحلة بين هاتين الأزمتين اللتين تنطويان على تغيرات حاسمة فى تنظيم الأنا هو أول ما يضفى عليها سمة الوحدة . على أن الأمر لا يقتصر على هذه الحدود السلبية ، بل إن بها تيارات تبزغ معها وتظل متصلة طوالها ، وهذه التيارات أو الاتجاهات الكبرى فى النمو الاجتماعى هى ما يجعل المرحلة مرحلة واحدة بالمعنى الإيجابى . وأهم هذه الاتجاهات :

ا ــ بزوغ قدرة الطفل على عقد علاقات اجتماعية مع الأطفال (الغرباء) المماثلين له فى السن . وذلك بتكوين ما يعرف بجماعات اللعب .

ب ــ اطراد استقلال الطفل عن الراشدين ، مع عودة ثقته فيهم .

حـ ــ ازدياد اعتماده على النشاط اللغوى فى علاقاته الاجتماعية .

فالطفل قبل أواخر الثالثة لا يكاد يعقد علاقة اجتماعية مع طفل آخر (غريب) ، لا بالتعاون ولا بالتنافس . وأقصى ما فى الأمر بعض الاتصالات السطحية العابرة ، واللعب الانفرادى بجوار الطفل الآخر . وتكون علاقاته واستجاباته الاجتماعية محدودة إلى حد كبير بحدود الراشدين المألوفين له . وقد أوضحنا فى الفصل السابق مثالا على ذلك ابتسامات الطفل وكيف أن معظمها يصدر نحو الراشد حتى نهاية الثالثة ، وابتداء من الثالثة والنصف يتغير الميزان ، فتتجه معظم ابتسامات الطفل إلى طفل آخر . وهذا ما تقرره دراسات بارتن M. Parten فهذه الباحثة بعد أن صنفت سلوك الأطفال إلى ستة أصناف : « السلوك المعطل »[١] و« سلوك المتفرج »[٢] و« اللعب الانفرادى » و« اللعب المتوازى »[٣] (وهو اللعب الانفرادى بجوار طفل آخر) و« اللعب التجمعى »[٤] و« اللعب التعاونى »[٥] ، وجدت أن الأصناف الأربعة تكثر لدى

---

(١) unoccupied behavior (٢) onlooker behavior (٣) parallel play

(٤) associative group play (٥) cooperative play

الأطفال فيما بين الثانية والثالثة . أما الصنفان الأخيران فتبدو بوادرهما لدى الأطفال أثناء الرابعة (M. Sherif 1947, p. 181) كذلك لاحظ لوبيا C. Leuba أنه لا أثر للتنافس بين الأطفال فى سن السنتين حتى فى حالة اشتغال طفلين بعمل واحد . وكل ما قد يوجد بينهما حينئذ تبادل بعض النظرات من حين لآخر . ويبدأ يظهر التنافس فى أواخر الثالثة ، على أنه يظل خافتاً فلا يظهر بوضوح إلا فى حوالى الخامسة وهذه النتائج فى خطوطها العامة تؤيدها بحوث جرينبرج P.J. Greenberg ، كما تأخذ بها هيرلوك E. Hurlock (1950, p. 300-305) فبزوغ القدرة لدى الطفل على عقد علاقات اجتماعية مع أطفال آخرين يعنى إذاً بداية مرحلة جديدة فى ارتقائه الاجتماعى . وتستمر هذه القدرة فى نشاطها حتى تقترب فترة المراهقة فتطرأ عليها تغيرات هامة تنطوى على تغاير عميق فيها ، وإعادة تنظيم لدلالتها بالنسبة للأنا .

كذلك تتسم هذه المرحلة باطراد استقلال الطفل عن الراشدين ، هذا الاستقلال الذى بدأ بأزمة عنيفة هى أزمة السنة الثالثة ، قوامها تأكيد الذات برفض معظم ما يأتى من قبل الراشدين من مساعدة أو توجيه، ويساير هذا الاستقلال جنباً إلى جنب عودة للثقة فى الراشدين (S. Isaacs 1933, p. 268) وقبول لبعض توجيهاتهم ومحاولات مقصودة لاسترضائهم والفوز بمديحهم ، ومحاولات مقصودة لمحاكاتهم وذلك فى بعض الألعاب التمثيلية ، ثم هذه الظاهرة المعروفة باسم عبادة البطولة[1] التى تظهر عند الأولاد فى حوالى الثامنة من العمر ، حينما يكون مثلهم الأعلى غالباً هو الأب أو المدرس . وتستمر هذه الحال حتى تحل فترة المراهقة ، وعندئذ تتعرض هذه الصلة التعاونية التى يسودها الاستقلال والتقارب معاً، تتعرض لتغير عميق فى تنظيمها، من أوضح مظاهره الشعورية عودة إلى النفور من الراشدين المألوفين مع انخفاض الثقة فيهم ، وارتياب فى كثير من القيم التى سبق له أن تلقاها منهم ، ومحاولة للتمرد على هذه القيم .

(١) heroworship

والسمة الثالثة التى تتسم بها هذه المرحلة فى مجموعها هى ازدياد اعتماد الطفل على النشاط اللغوى بشكل ملحوظ ، واطراد هذه الزيادة . وقد ذكرنا فى الفصل السابق ما انتهت إليه الباحثة لويز بيتس إيمز L.B. Ames فى بحثها فى أهمية النشاط اللغوى لدى الطفل كمثير لابتساماته ، وكيف أن هذه الأهمية تزداد بتقدم العمر (L.B. Ames 1949) وأوردنا بعض النتائج التى انتهت إليها ، فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين ٢١ شهراً وثلاث سنوات (ص١٤٨) . والواقع أن هذه الأهمية تزداد بشكل ملحوظ بعد الثالثة بحيث تصبح على النحو الآتى :

عمر الطفل	عدد مرات الابتسام الناتجة عن نشاطه اللغوى (فى الفترة الزمنية المحددة للملاحظة)
٣½ سنة	٣٥١ مرة .
٤ سنوات	٣٥٦ مرة .

وثمة مظاهر أخرى كثيرة لهذه الحقيقة القائلة بازدياد اعتماد الطفل على نشاطه اللغوى . فكثرة الأسئلة التى يتقدم بها الطفل إلى الراشدين ظاهرة شائعة فى بعض أجزاء هذه المرحلة ، ولا يكون الدافع إليها دائماً هو حب المعرفة واكتشاف المجهول بل ممارسة عمليتى الكلام والإنصات ، أعنى ممارسة الرابطة الاجتماعية فى المستوى اللفظى . أضف إلى ذلك أنه كلما تقدم العمر بالطفل ازداد نزوعه إلى حل خلافاته مع رفاق اللعب بوساطة الكلام . كما أن جماعات اللعب يزداد عنصر الكلام فى نشاطها بتقدم العمر بين أعضائها ، يساعد على ذلك ازدياد قدرتهم على أداء أكثر من ضرب واحد من ضروب النشاط فى وقت واحد . أما عندما تحل فترة المراهقة فيتضاءل — نسبيًّا — نزوع المراهق إلى الكلام تبعاً لتضاؤل نزوعه إلى التوسع فى التواصل الاجتماعى[1] بوجه عام .

من ذلك يتضح أننا بصدد مرحلة ذات سمات سلوكية واضحة تبدأ ببدئها وتطرد فى البروز والتمكن كلما تقدم العمر بالطفل داخل هذه المرحلة ؛

(١) social expansiveness

ثم إذا بهذه السمات تعانى تغيرات عميقة ، فيكون ذلك إيذاناً بانتهاء المرحلة واقتراب مرحلة أخرى ذات صفات مغايرة . ولما كانت هذه السمات هى أوضح مظاهر الارتقاء الاجتماعى للأنا ، فقد تحتم علينا أن نضعها نصب أعيننا ونحن نحسم الرأى فى وحدة هذه المرحلة أو تجزئتها .

والآن كيف يمضى الارتقاء الاجتماعى للأنا فى هذه المرحلة ؟

نعود فنقرر ما سبق أن قررناه فى الفصول السابقة من أن الارتقاء يتذبذب بين قطبى « الفردية » و « الاجتماعية » . فيزداد شعور الذات بذاتيتها وتزداد مظاهر استقلالها أحياناً ، وتندمج فى الآخرين أحياناً أخرى حتى لتكاد تفقد كل مظهر لاستقلالها . ولا يظل الأمر عند هذا المستوى من التعقد بل يزداد تعقداً عندما ننظر بعين نافذة فنرى أن اتجاه الأنا نحو أحد القطبين أحياناً يتضمن فى نفسه اتجاهاً نحو القطب الآخر ، فكأن كلا من القطبين يحوى نقيضه .

قلنا إن أزمة السنة الثالثة تكون أزمة تضخم للأنا ، يسودها صراع حاد ، لا يمكن فهم دلالته الارتقائية على أنه مجرد خلفة ، بل هو تغاير عميق بين نسيجين كانا متصلين إلى حد كبير . ولم يبدأ هذا التغاير ببداية هذه الأزمة أى أواخر الثالثة ، لكنها عملية طويلة شاقة تبدأ منذ ميلاد الطفل ، وتطرد شيئاً فشيئاً ، وهى لا تسير بإيقاع واحد فى جميع مراحل العمر ، بل تزداد سرعة الإيقاع فى بعض الفترات ، ومن هذه الفترات فترة أواخر السنة الثالثة . ويخرج الطفل من هذه الأزمة ليواصل السير فى نفس الطريق ولكن بإيقاع بطىء نسبياً (ولا يعود هذا الإيقاع إلى مثل سرعته التى اتخذها فى الأزمة إلا فى فترة المراهقة) ، على أن هذا السير البطىء نفسه فيما بين الأزمتين الكبيرتين لا يظل ثابتاً على ما هو عليه بل يزداد بطئاً أحياناً ويزداد سرعة أحياناً أخرى . ويبدو أن فترة ما بين الثالثة والخامسة يكون سير العملية فيها أسرع بوجه عام مما هو عليه بعد ذلك .

فى هذه الفترة يفتتح الطفل مرحلة جديدة من مراحل ارتقائه الاجتماعى تفوق المراحل السابقة سعة وعمقاً . فأما من حيث السعة فمجالات نشاطه الاجتماعى تزداد اتساعاً فعلا ؛ فلا تقتصر على الأسرة والراشدين ، بل تحتوى كذلك على جماعات للعب مع الأطفال المماثلين . وأما من حيث العمق ففى هذه المرحلة تتكشف للطفل أعماق وجدانية وعالم باطنى لم يكن يعلم من أمره شيئاً . وذلك من خلال الصراعات الانفعالية العميقة ، وظاهرة الرفيق الخيالى[1] التى يتعرض لها حينئذ (L.B. Ames 1946) . وعلى ذلك يُجمع عدة باحثين متباينين فى اتجاهاتهم النظرية ، نذكر من بينهم ڤالون (1946, p. 62) وجيزيل (1941, p. 207) وإلج (L.B. Ames, F. Ilg & others 1949) والمحللين النفسيين (الفرويديين) . ونتيجة هذه المرحلة زيادة اقتراب الطفل من نموذج الشخصية الراشدة القادرة على التكامل الاجتماعى والساعية إليه ، حتى ليقول عالم مثل جيزيل إن الطفل فى الخامسة من عمره يكاد يكون نسخة مصغرة للراشد الذى سيكونه فيما بعد (A. Gesell & F. Ilg 1946, p. 62) . أضف إلى ذلك أن ظهور هذه المرحلة ، هذا الظهور نفسه ، دليل بزوغ قدرات نفسية جديدة (إلى حد ما) عند الطفل تزيد من أهليته للعضوية الاجتماعية .

على أن هذه الحقائق بوجه عام تكاد تكون معرفة شائعة لدى الأمهات جميعاً . ومن ثم فلا فضل لباحث علمى يقتصر على تقريرها . ولا قيمة لمثل هذه الأقوال إلا إذا اقترنت بالملاحظة الدقيقة ، والضبط الكمى بالقدر الممكن . ومن الجدير بالذكر أن التحليل النفسى قد ساهم فى تنظيم هذه الحقائق مساهمة لا يمكن الغض من شأنها . إلا أن التحليل النفسى لا يمكن الاكتفاء به ، وذلك لاقتصاره على الكشف عن الحقيقة النفسية من زاوية معينة هى زاوية السلوك المنحرف . ومن ثم فقد لزم المهتمين بهذه المرحلة من مراحل الارتقاء النفسى أن يتجهوا إلى مناهج أخرى . وقد اتجهوا فعلا وانتهوا إلى عدة نتائج ،

(١) imaginary companion

بعضها يؤيد ما انتهى إليه المحللون النفسيون ، وبعضها يلقى على نتائجهم ضوءاً جديداً ، والبعض الآخر يكشف عن حقائق أخرى لم يكشف المحللون النفسيون عنها . ومن الجلى أن تعدد المناهج كان فى كثير من الأحيان سبيلا إلى اطراد التقدم العلمى . وهذا ما تشهد به العشرون سنة الأخيرة من تاريخ علم النفس ذاته .

من البحوث القيمة فى هذا الميدان ، التى تعتمد على المشاهدة الدقيقة المباشرة لسلوك الأطفال الأسوياء بحوث الباحثة لويز بيتس إيمز L.B.Ames فقد نشرت ثلاث بحوث متتالية فيما بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٥٢ تناولت فيها عدة جوانب من ارتقاء الطفل فى الخمس سنوات الأولى من العمر ، واهتمت بوجه خاص بالسنتين الرابعة والخامسة . وهذه الجوانب هى « ظاهرة الرفاق الخياليين » و « ارتقاء استجابات الابتسام المتبادل » و « الشعور بالذات » . ولهذه البحوث أهمية بالغة لا من حيث الحقائق التى تكشف عنها فحسب ، ولكن من حيث تطوير الباحثة لمنهج المشاهدة العلمية أيضاً .

تكشف هذه البحوث مجتمعة عن هذا الطابع الفريد للارتقاء ، أعنى الارتقاء ذى الشعبتين ، « الفردية » و « الاجتماعية » . فالطفل فى الثالثة والنصف يكون اجتماعياً جداً ومتنبهاً للآخرين ، وقلما يكون حديثه انفرادياً منعزلا ، وحتى عندما يحدث نفسه فإن حديثه يتضمن الآخرين غالباً . ويزداد الطابع الاجتماعى لأحاديثه عما كان قبل الثالثة ، سواء أكانت هذه الأحاديث موجهة إلى الراشدين أم إلى الأطفال ؛ فهو يسأل ويجيب ويعطى أخباراً ويطلب المساعدة . وفى أحاديثه الموجهة إلى الأطفال تدور هذه الأحاديث أحياناً حول المشاركة بعد أن كانت مجرد أوامر ؛ فهو « يقترح » أحياناً على الطفل الآخر أن يتبادلا اللعب ، بدلا من أن يتقدم لاغتصاب اللعبة أو يصيح أو يأمر ، ويقترح أحياناً أن يمسك هو بجانب ويمسك الطفل الآخر بجانب آخر ، أو يقرر أنه « هو أيضاً » يريد كذا وقد « يستأذن »

الطفل الآخر فى عمل معين وقد « يدعوه » إلى اللعب . هذا إلى أن نسبة النشاط اللغوى بوجه عام تزداد زيادة محسوسة . أما اللعب فقلما يلعب الطفل منفرداً، بل الغالب أن يلعب فى جماعات تتألف الواحدة منها من ثلاثة أطفال . ويبدأ « عنصر » التعاون يظهر فى هذا اللعب ، متمثلا فى الأخذ والعطاء وتقديم الاقتراحات وقبولها ، لكنه على كل حال يظل بنسبة ضئيلة وفى مستوى منخفض (L.B. Ames 1952)

ولكن فى مقابل هذا الطابع الاجتماعى الواضح فى سلوك الطفل، تكشف الباحثة عن جانب آخر ينزع به إلى الانطواء والاستغراق فى عالم باطنى مغاير للعالم الخارجى ، وذلك بكشفها عن ظاهرة « الرفيق الخيالى » التى يغلب ظهورها بأعلى درجة من الوضوح فى منتصف الرابعة . وقد أجرت الباحثة ملاحظاتها على ٢١٠ طفلاً فوجدت أن الظاهرة موجودة بوضوح لدى ٤٥ طفلاً منهم أى بنسبة ٢١ ٪ . وهذه النسبة إذا نظرنا إليها فى ذاتها نجد أنها لا تغرى كثيراً بالتعميم ، لكنها من ناحية أخرى تضطرنا إلى الاعتراف بوجود الظاهرة ، مما يحتم تعميق البحث، فربما أدى ذلك إلى الكشف عن سبب ضآلة النسبة بهذا الشكل . ولعل السبب أن الباحثة لاتعترف بوجودها إلا إذا كانت متبلورة إلى حد كبير ، فى حين أن هذا التبلور تتدخل فيه عدة عوامل غير مجرد عامل العمر الزمنى . وقد أشارت الباحثة فعلاً إشارة لها دلالتها عندما قالت إن معظم الأطفال الذين وجدت لديهم هذه الظاهرة كانوا غالباً على درجة من الذكاء فوق المتوسط . ويبدو أن الباحثة تتنبأ بزيادة هذه النسبة فى ظروف أخرى للبحث ، لأنها تقرر فى إشارة أخرى لها دلالتها أيضاً أن الأطفال الأسوياء تظهر لديهم هذه الظاهرة عادة ، أما الأطفال الذين لا تظهر لديهم فهم طراز خاص من الأطفال يمتاز بفقر الخيال وأخذ الأمور كما هى، أى يمتاز بالواقعية المتحجرة . وهؤلاء يكونون فى العادة ميالين إلى التدمير، فقراء فى محصولهم اللغوى (L.B. Ames & J. Learned 1946) على

أننا نعرف من ناحية أخرى ، من بحوث جيزيل وإلج A. Gesell & F. Ilg (1941, p. 218) وڤالون (L.B. Ames & others 1949; 1943, p. 224 أن فترة السنة الرابعة فترة اكتشاف للعالم الباطنى ونمو للقدرات الخيالية لدى الأطفال بوجه عام ، ويظهر ذلك فى أثناء لعبهم خاصة . ويمكن فهم ظاهرة الرفيق الخيالى — ولو مؤقتاً — على أنها درجة معينة من درجات هذا الارتقاء الخيالى . والذى يهمنا أن هذه الدرجة من الارتقاء الخيالى ذات دلالة هامة فى الارتقاء النفسى الاجتماعى للطفل ، أعنى فى ارتقاء شعوره « بالحاجة إلى الآخرين » . فقد لاحظت الباحثة أن ٢١ طفلاً من الـ ٤٥ طفلاً الموجودة لديهم الظاهرة أطفال وحيدون ليس لهم إخوة ، وأن الباقين لهم أخ واحد يصغرهم بسنتين أو ثلاثة ، وبوجه عام أن هؤلاء الأطفال جميعاً كانوا من عائلات صغيرة الحجم . وتزيد الباحثة على ذلك قولها إننا لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن السبب فى ظهور هذه الظاهرة هو عدم وجود أصدقاء « واقعيين » ، بل إننا لنلاحظ أن الكثيرين منهم يكون لهم أصدقاء واقعيون فعلاً . لكن السبب غالباً هو أن الطفل رغم أن له بعض الأصدقاء فإنه عاجز عن أن يلعب معهم بطريقة مُرضية ، وذلك لأن إمكانياته للتعامل والتقارب الاجتماعى لاتزال قاصرة . ومن ثم فإن الرفيق الخيالى يمثل حلاً توافقياً للصراع الذى يتعرض له الطفل بين حاجته إلى « الزمالة » وقصوره دون تحقيقها على وجهها الذى يمكن أن يرضيه . وقد وجدت الباحثة أن الفترة التى تظهر فيها هذه الظاهرة بوضوح تبدأ من نهاية الثالثة وتنتهى فى منتصف الخامسة وتبلغ ذروتها فى منتصف الرابعة . كما وجدت أن الرفيق الخيالى يكون أحياناً إنساناً وأحياناً حيواناً وأحياناً أخرى جماداً يثير الطفل فيه الحياة . وقد يتقمص الطفل شخصية هذا الرفيق . وتختلف القيمة التوافقية لكون هذا الرفيق إنساناً أو حيواناً أو جماداً . والغالب أن يكون الرفيق « الإنسان » دليل توقد فى الخيال ، واستعداد اجتماعى ممتاز لدى الطفل وقدرة على حسن التوافق من سائر الأطفال . ويمكن اعتبار

تقمص الطفل لشخصية هذا الرفيق « الإنسان » دليلا أوضح على استعداده الاجتماعى الممتاز ؛ فالواقع أن هذه « القدرة على تبديل الشخصية » لا تظهر مقرونة إلى توافق اجتماعى سيء . ويكون اللعب لدى هؤلاء الأطفال زاخراً بالعناصر الخيالية إلى حد كبير ، كما أنهم يبدون حذقاً واضحاً فى تسلية أنفسهم. وفى مقابل ذلك يلاحظ أن الأطفال النزاعين إلى التدمير والعدوان ، والفقراء فى محصولهم اللغوى ، قلما تظهر لديهم أية ظاهرة من ظواهر الرفيق الخيالى . ومما هو جدير بالذكر أن التوائم أيضاً (لاسيما التوائم المتماثلة) لا تكاد تظهر لديهم هذه الظاهرة ، نظرًا لتماثل قدارتهم على التعبير والفهم إلى حد كبير ، مما ييسر لهم درجة مُرضية من التقارب . وتتضح مهمة الرفيق الخيالى التوافقية من الدور الذى يقوم به بالنسبة للأنا ؛ فهو غالباً زميل يلعب معه الطفل وكأنه قائم أمامه ، كما قد يكون موطئاً للوم الطفل على الأخطاء التى يتورط فيها الطفل ويرفض « أناه » أن يتحمل مسئوليتها ، وقد يقوم كذلك بالأعمال التى لا يستطيع الطفل أن يقوم بها . ومن الحقائق الطريفة التى انتهت إليها الباحثة أيضاً أن « عمر » الرفيق الخيالى يختلف من طفل إلى آخر ، وأنه يتحدد غالباً على أساس عمر الطفل نفسه ونوع العلاقات الاجتماعية التى يستطيع الطفل أن يعقدها فى هذا العمر . فأصغر الأطفال أى الذين هم فى أواخر الثالثة يكون رفاقهم الخياليون أكبر منهم عادة ، ومن المعلوم أن العلاقة الاجتماعية الغالبة عند الطفل فى هذه السن هى علاقته بمن هم أكبر منه وبالراشدين بوجه خاص . فإذا كبر الأطفال قليلا بحيث بلغوا منتصف الرابعة أو جاوزوها بقليل فرفاقهم الخياليون يماثلونهم فى العمر تقريباً ، ومن المعلوم أن الطفل فى هذه السن يبدأ اللعب مع الأطفال المماثلين له سناً . فإذا كبر الأطفال بحيث بلغوا نهاية الرابعة أو جاوزوها بقليل فرفاقهم الخياليون أصغر منهم ، ومن المعلوم أن الطفل فى هذه السن يستطيع أن يعطف على طفل أصغر منه ويقدم له بعض الخدمات . ومن الجدير بالذكر أن التقارير عن جانب آخر من جوانب النشاط الخيالى لدى الطفل تؤيد هذه الحقائق ، وأعنى بهذا الجانب الأحلام . فالأحلام المبكرة للأطفال تدور

غالباً حول أفراد كبار ، فإذا تقدم بهم العمر قليلاً أصبحوا يحلمون بأطفال صغار (L.B. Ames & J. Learned 1946) .

من الجلى إذاً « أننا » إذا وضعنا هذا النمو الخيالى المتدفق وما يتضمنه من ازدياد شعور الطفل بذاتيته ، جنباً إلى جنب مع نمو قدراته الاجتماعية التى تتجلى فى اللعب مع الأطفال وازدياد نشاطه معهم بوجه عام ، تكونت لدينا صورة واضحة عن مدى التوتر الذى يعيش فيه الطفل طوال السنة الرابعة . فإذا أدركنا أن هذا اللعب الخيالى الذى يزيد من شعوره بذاتيته والذى نتج هو نفسه عن نمو فى هذه الذاتية ينطوى فى الوقت نفسه على زيادة قدرة الطفل على التوافق الاجتماعى ويزيد من شحذها ازدياد إدراكنا لعمق التوتر الذى يعيشه الطفل ، وهذا بدوره يزيد من شعوره بذاتيته وبمغايرته للآخرين .

وقد أجرى إلج وآخرون بحثاً فى هذه التوترات التى تجتاح الطفل فى هذه الفترة، ومن هذا البحث نستطيع أن ندرك أنها توترات بالغة العمق والشمول ، إذ تنتاب الطفل فى جوانبه العضوية والنفسية وفى علاقاته الاجتماعية جميعاً . فالتآزر الذى كان قد بلغ درجة لا بأس بها بين أعضائه فى نشاطها الحركى فى أواخر الثالثة ينتابه بعض الاختلال ، ويبدو لدى الطفل بعض الخلط بين يده اليمنى ويده اليسرى بعد أن كان استقر على استعمال إحداهما . وتكثر انفجارات الطفل الانفعالية،وقد يظهر لديه التلعثم فى الكلام ، ويتأرجح كثيراً بين تطرفات انفعالية، فإذا واجه راشداً فى موقف جديد كان خجلا فى البداية ، ثم لا يلبث أن يصبح جريئاً وسليطاً . وكثيراً ما يتمكن منه الشعور بعدم الطمأنينة فإذا به يسأل والديه : « هل تحبوننى ؟ » . ولا يسمح لأبويه بالسخرية منه ، وأتفه الأمور تؤذى شعوره وتؤلمه . ويرجع إلج هذه الاضطرابات جميعاً إلى أسباب فى النمو العضوى للطفل ، على أساس أن الفترة المحيطة بمنتصف الرابعة فترة تغيرات عضوية هامة (L.B. Ames & others 1949) . على أن الزاوية التى ننظر منها تلقى بدورها ضوءاً على جانب آخر من المشكلة بأن تكشف لنا عن دلالتها فى الارتقاء النفسى الاجتماعى . ونضيف

إلى ذلك أننا نرى فيها امتداداً لأزمة أواخر الثالثة، ولكن بدرجة أعقد وأعمق، ذلك أننا هنا بصدد طفل أكثر تغايراً .

على أن المحللين النفسيين يرون فى هذه الاضطرابات بعض مظاهر الصراع الأوديبى الذى ينتهى حوالى نهاية الخامسة بتغاير الأنا (S. Isace 1933, 387-395) ومن ثم فهم يؤكدون أهمية هذه الفترة فى نمو اجتماعية الطفل . ومن المعلوم أن للمحللين النفسيين مفاهيمهم الخاصة لفهم وتفسير ديناميات هذه المرحلة . وأهم المفاهيم فى هذا الصدد الآليتان المعروفتان باسم : « التقمص »[١] و « الكبت »[٢] . فهاتان الآليتان أو العمليتان تساهمان بنصيب كبير فى عملية تغاير الأنا الأعلى. وهنا نتوقف قليلاً لنوضح الفكرة الفرويدية ونناقشها .

يقرر فرويد أن هناك نوعين من التقمص يساهمان فى ظهور الأنا الأعلى؛ النوع الأول « تقمص مباشر» بالوالدين ،وهو أسبق النوعين فى الحدوث ، ويحدث مبكراً جداً. والنوع الثانى تقمص ناتج عن « تعلق بموضوع خارجى »[٣] كيف يجرى هذان التقمصان ؟ يمكننا أن نوضح ذلك بالنظر فى جميع العوامل المجتمعة فى أشد المواقف تبكيراً فى حياة الطفل . وتتلخص هذه العوامل فيما يأتى : يتضمن الطفل شتى الجنسية ، بحكم تكوينه البيولوجى . وهو يواجه الأب والأم ولا يستطيع أن يفرق بينهما فى البداية لأنه لا يعرف بعد الفوارق الجنسية . فتجرى بينه وبينهما عمليتا تقمص مباشر. يحدث هذا منذ الشهور الأولى فى حياة الطفل . إلا أن الطفل لا يلبث أن يدرك الفوارق الجنسية . فإذا كان طفلاً ذكراً اشتد تعلقه بأمه وأدرك أباه على أنه عقبة فى سبيله إلى الأم. وهنا يصبح الموقف أوديبيًّا . ويزيد فى حدة هذا الموقف أن يكتسب تقمص الأب دلالة الرغبة فى إبعاده لاحتلال مكانته عند الأم . وهكذا يصبح الاتجاه نحو الأب من نمط تكافؤى[٤] أما الاتجاه نحو الأم فيغلب عليه طابع التعلق بموضوع خارجى . ولا بد لهذا الموقف المشحون بالصراع

---

(١) identification (٢) repression

(٣) object-cathexis (٤) ambivalent

من حل . والحل السوى لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى التنازل عن الأم كموضوع للتعلق به . ولكى يتحقق هذا الهدف هناك طريقان : إما تقمص الأم ليحمل الطفل شخصيتها فى ذاته فيستغنى بذلك عن شخصيتها فى الواقع ، وإما زيادة تقمص الأب شدة . وقد اعتدنا أن نعتبر الطريق الثانى هو السوى ، لأنه يحفظ للطفل بعض التعلق بأمه ، ويمكنه كذلك من زيادة حصته من الذكورة . (هذا فى حالة الطفل الذكر أما فى حالة الطفل الأنثى فالعكس صحيح) ، هذا مع العلم بأن الطفل يقوم عندئذ ببعض التقمص للأم أيضاً . وهذان التقمصان يدخلان على بعض الأنا تحويراً معيناً ويتحدان معاً بداخله ، مكنونين منطقة متغايرة متميزة الحدود . وهذه المنطقة هى الأنا الأعلى . وتساهم عملية الكبت فى تدعيم هـــذه المنطقة ، إذ تكبت الرغبات الأوديبية المتجهة نحو أحد الوالدين . فمن ناحية « يجب أن أكون مثل أبى » فى صفات معينة ، ومن ناحية أخرى « يجب ألا أكون مثل أبى » فى صفات معينة أخرى . وهكذا يصبح فى استطاعة الأنا الأعلى القيام بوظيفتين ، الأولى وظيفة « المثل الأعلى للأنا » والثانية وظيفة « الزجر » (S. Freud 1942, p. 39-44) .

والفكرة العامة التى يقدمها فرويد والمحللون النفسيون فى هذا الصدد لا غبار عليها . فالقيم الأخلاقية التى يتمثلها الفرد ويحيا بها إنما يستمدها من البيئة الاجتماعية متمثلة بوجه خاص فى الأسرة ، والصورة التى يتمثلها عليها (مدى جمودها وثقلها) تتوقف على عدة عوامل سيكوبيولوجية واجتماعية . واضطراب علاقة الطفل بالأبوين فى هذه الفترة وامتلاؤها بالتوترات ، حقيقة تشهد بها الملاحظات المتعددة . إلا أن مفهوم عملية التقمص باعتبارها العملية التى تحل هذه الصراعات هو الذى يتعارض مع ما تشهد به وقائع الارتقاء العديدة التى أسلفنا ذكرها . فهى تفترض جهازا نفسيًّا متبلوراً مغلقاً منذ البداية ، يتفتح لامتصاص بعض « الأنوات » المحيطة به . وهذا غير

صحيح . إن العملية عملية تغاير لكل ٍّ على درجة كبيرة من التجانس يتألف من الوليد ومحيطه الفيزيقي والاجتماعي ، وليس للوليد ذات واضحة الحدود من البداية . وقد أوضحنا من قبل أثر ذلك فى تفتح الطفل منذ أسابيعه الأولى لمعظم مؤثرات البيئة واستجابته لها على حسب شدتها الفيزيقية كما أوضحنا كيف أن وجه الأم يبدأ يستحوذ على انتباهه منذ نهاية الأسبوعين الأولين ، وكيف أن ابتسامة الأم تثير لديه ابتسامة مماثلة منذ نهاية الشهر الأول ، وبكاء طفل آخر يثير لديه البكاء منذ الشهور الثلاثة الأولى . وكذلك أوضحنا آثار هذا التجانس الأولى فى كثير من الظواهر السلوكية لدى الطفل حتى عامه الثالث . وفى اعتقادنا أن بزوغ القيم الأخلاقية داخل الذات يجب أن يفسر على هذا الأساس ، فهذه القيم تنفذ إلى الطفل من خلال المواقف العينية ، من خلال ابتسامة الأم له ولأبيه ، وحنو الأب عليه وعلى أمه ، ودلالة الموقف ككل . وباطراد ارتقاء الطفل تنفذ إليه المعانى مع التعبيرات ، وارتقاؤه اللغوى يمكن أن نتخذ منه نموذجاً لتوضيح جوانب هذا الارتقاء الأخلاقى . فهو يقوم بالكثير مما يتفق والأوضاع الاجتماعية بنوع من الميميكا أولا دون أن أن يدرك المضمون المعنوى لأفعاله هذه . لكنه لا يلبث أن يدرك هذا المضمون شيئاً فشيئاً . تماماً كما يستخدم الكثير من الألفاظ قبل أن يدرك معانيها ، ثم يدرك هذه المعانى بفضل نمو قدراته على الفهم وبفضل استقرار أنماط السلوك فى البيئة والمساعدات التى يقدمها الآخرون له . فإذا تصورنا العملية على هذا النحو (وهى غير منفصلة عن عملية التطبيع بوجه عام) فلا بد من مفهوم غير مفهوم التقمص يتضمن التسليم بحالة التجانس الأولية بين الطفل وبيئته ولا يتعارض معها .

على أن نظرة فرويد إلى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، وأعنى بها فترة السنتين الرابعة والخامسة إنما تحاول تفسير جانب واحد من جوانب الارتقاء فيها ، وهو جانب ارتباط الطفل بقيم الراشدين من خلال تفاعله

معهم . ومن ثم فلا يمكن الوقوف عندها وحدها ، ولا بد من الرجوع إلى المشاهدة ، لإكمالها .

كلما تقدم العمر بالطفل نحو نهاية الرابعة ثم الخامسة ازداد بروزقطبي « الفردية » و « الاجتماعية » فيه . وفى هذا الصدد تبدى لويز بيتس إيمز ملحوظة هامة ؛ فتقرر أن الطفل فى نهاية الرابعة تزداد نسبة لعبة الانفرادى عما كانت فى الثالثة والنصف ، إلا أن نسبة لعبه الاجتماعى تزداد أيضاً بحيث تكون أعلى من نسبة لعبه الانفرادى (L.B. Ames 1952) . أضف إلى ذلك أن ارتقاء قدراته الخيالية يطرد بشكل واضح ، ويبدو ذلك فى تغاير هذه القدرات واتخاذها مظاهر متعددة . فيكثر فى لعبه أن يقوم « بأدوار » الآخرين ، دور الأم أو الأب ، وقد يحاول أن يرتدى ملابسهم زيادة فى تثبيت لعبه . ويروى قصصاً خيالية مطولة عن أعماله وأعمال أصدقائه (L.B. Ames & J. Learned 1946).[1] إلا أن خياله يظل زئبقياً بمعنى أنه سريع التنقل بين موضوعات متعددة (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 226) وهذا يكشف طبعاً عن عدم استقرار للأنا يدل على أن الطفل لا يزال بعيداً عن نموذج الشخصية الراشدة المتكاملة ، إلا أنه يكشف فى الوقت نفسه عن سعيه الحثيث نحو تحقيق هذا النموذج . ذلك أن القدرات الخيالية أساس لا بد منه لظهور الوظيفة اللغوية ، ولإدراك الواقع الاجتماعى الذى يمتاز من الواقع الفيزيقى بأن كثيراً من ضوابط السلوك فيه ذات وجود معنوى فحسب ، وكذلك لإمكان تمثل خبرات الآخرين ، فنحزن لأحزانهم دون أن يكون المكروه قد أصابنا نحن ونفرح لأفراحهم دون أن يكون الخير قد أصابنا نحن ، وكذلك للتوافق مع الآخرين لا من حيث

---

(١) من أهم مظاهر النشاط الخيالى لدى الطفل فى هذا العمر ما يقرره جيزيل وإلج من أن الطفل يستطيع أن « ينشط من أجل هدف » مثل أن يبنى بيتاً ليقوم بلعبة روائية معينة ، وذلك بدلا من مجرد البناء كما كان فى الثالثة (A. Gesell & F.Ilg, 1943). ومن الجلى أن لهذا المظهر أهمية كبرى فى إعداد الطفل لأن يكون فيما بعد شخصية متكاملة تحدد الهدف قبل أن تندفع إلى الفعل .

حاضرهم فحسب ولكن من حيث أهدافهم و « مانتوقعه » منهم ، ولكى نستطيع أن نرسم فى أذهاننا صورة لأنفسنا كما يتصورنا الآخرون، لنفهم مقدماً ما يتوقعونه منا، ونعمل على تحقيقه أو تعديله كما يقتضى حسن التوافق ، ثم لكى نستطيع أن نساهم مع الجماعة فى إعداد خطة السلوك للمستقبل .

إلى هذا الحد البعيد يساهم ارتقاء الخيال فى الإعداد لتكامل اجتماعى يسوده حد أدنى من الصراع . وإلى هذا الحد تبلغ خطورة هذه الفترة فى حياة الفرد ويتوقف محصولها أخيراً على ظروف البيئة ومدى ما توفره للطفل من طمأنينة وحرية ؛ وتمثل الطمأنينة فى استقرار الأنماط السلوكية فى البيئة مع خفض التوترات إلى حد معلوم ، وتتمثل الحرية فى استعداد البيئة لتفهم سلوك الطفل وقيادته بدلا من تحجرها وتحفزها لقمعه .

إلى جانب هذا النمو الخيالى تظهر عدة جوانب أخرى فى النمو تدل على ازدياد رسوخ قطب « الفردية » . من ذلك ازدياد تآزر جهازه الحركى وتغايره ، فهو يستطيع أن يقوم بنشاطين فى وقت واحد ، كأن يخلع ملابسه ويتكلم معاً (وهذه درجة جديدة مرتفعة من التآزر لم يكن يقوى عليها وهو فى الثالثة ، إذ كان يوقف أحد النشاطين إذا بدأ الآخر) . كما يستطيع أن يخضع نشاط هذا الجهاز لضبط دقيق يتجلى مثلا فى كونه يستطيع أن يستخدم المقص ويقطع متابعاً خطًّا مرسوماً ، كما يستطيع أن يقف على قدم واحدة ، وأن يربط حذاءه (A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 224) كذلك لوحظ أن الطفل فيما بين الثالثة والخامسة يستطيع أن يتحمل الانفصال عن أمه دون أن يتعرض للآثار البالغة السوء التى يتعرض لها الطفل الأصغر من جراء ذلك (J. Bowlby 1951, p. 26). وهذا دليل على ازدياد صلابة الذات وقدرتها على الصمود فى وجه مؤثرات البيئة — إلى حد ما . وكلما اقترب الطفل من الخامسة بدت عليه مظاهر صلابة الذات وبروز حدودها وعمق جذورها . وربما كان من أوضح الدلائل على ذلك نمو شعور الطفل بأن له تاريخاً ، بأنه كان صغيراً ثم صار كبيراً .

فكثيراً ما يحدثنا عن أنه « عندما كان صغيراً كان يقول كذا وكذا ، أو يفعل كذا وكذا » ، بل إنه ليكوِّن صورة ذهنية عن نفسه عندما كان صغيراً . ويبدأ هذا الشعور بأن للذات تاريخاً منذ نهاية الثالثة ، وربما قبيل ذلك ، (وقد حدثتنى طفلتى هذا النوع من الأحاديث فعلاً عندما كان عمرها ٣٣ شهراً . وكانت تقول « لما كنت صغيرة كنت رجلين بس . ولما كبرت بآلى وش »). على أنه يزداد وضوحاً واستقراراً كلما تقدم العمر بالطفل . كذلك يتضح ازدياد ثبات الأنا واستقراره فى نوع الاستجابة . فالطفل فى الرابعة ذو خيال وثاب سريع التنقل بين الموضوعات المتعددة ، وهو بالتالى يصبغ استجابات الطفل بصبغته الزئبقية هذه . إذا سألت طفلاً فى الرابعة : « ما الذى يخمش ؟» أجاب : « القط » . ثم يحكى قصة عن الكلب . والكلب سيطارد القط . والقط سيطارد العصفور . ولا تلبث التداعيات أن يطارد بعضها بعضاً ، كأنما نحن بصدد مريض يترك نفسه فى حالة استرخاء فى العيادة السيكولوجية . ويقلل (بقدر الإمكان) عنصرى الضبط والتوجيه اللازمين لممارسة الحياة الاجتماعية على وجهها السوى . أما إذا وجهت نفس السؤال إلى طفل فى الخامسة فإنه لا يلبث أن يجيبك : « القط » . هكذا فقط . فهو أكثر ضبطاً وتوجيهاً لسلوكه حسبما يقتضى الموقف الاجتماعى . يتجلى هذا الفرق أيضاً فى الرسم التلقائى للطفل . فالطفل فى الرابعة يرسم فى أى فرصة ، والصور التى يرسمها تتحور قبل أن تتم ، فهو يبدأ قاصداً أن يرسم جملا لكن الجمل لا يلبث (قبل أن يتم) أن يتحول إلى شاة ، أما الطفل فى الخامسة فلديه فكرة محددة فى ذهنه قبل أن يرسم لابعد أن يرسم ، وهو يقصد إلى تنفيذها . والطفل فى الخامسة يستطيع أن يوجه النقد إلى نفسه ، وهذا ما لم يكن يستطيعه قبل ذلك (A. Gesell & F. Ilg, 1943, p. 246) وهذا دليل على ازدياد شعوره بذاته ودليل على بدء تغاير فى الذات لا بد منه كأحد مؤهلات هذه الذات لكى تستطيع ممارسة الحياة الاجتماعية فيما بعد . ويتجلى التغاير هنا فى أن الذات تستطيع أن تقف

من نفسها موقفاً موضوعياً ، فتتأمل فى أعمالها وتحكم عليها . ومن الجلى أن هذه الوظيفة لا تتم على وجهها الأكمل فى هذا العمر ، لكنها تبدأ فى الظهور . وسوف نرى فيما بعد أن القدرة على النقد الذاتى من أهم القدرات التى تمكن الشخصية من حسن التوافق مع الآخرين .

والأنا لدى الطفل فى الخامسة أكثر تبصراً بالواقع وأكثر ارتباطاً به مما كان فى الثالثة وفى الرابعة (A. Gesell & F. Ilg 1946, p. 62-66) وهذا يدل على اطراد نموه . فمن المعلوم أن إدراك الواقع وظيفة للأنا (S. Freud 1942, p. 29) . ولذلك نجد أن الطفل فى الخامسة يضيق بأحاديث السحر والخرافة وكان فى الرابعة يرحب بها . كما أنه عندما يقص قصة لا يبالغ كثيراً فى ابتكاراته . على أننا يلزمنا ألا نبالغ فى مدى ارتباطه بالواقع فى هذه السن ومدى إدراكه للعلاقات بين أجزائه ، سواء الواقع الفيزيقى والاجتماعى . فهو ساذج جداً فيما يتعلق بإدراكه للعلاقات العلية والمنطقية فى الواقع الفيزيقى ، ويغلب على نظرته النزعة الإحيائية[١] أما فيما يتعلق بالواقع الاجتماعى فهو نفسه يكشف عن مدى بصيرته بالعلاقات القائمة فيه عندما يطلب إلى أمه أن تتزوجه (A. Gesell & F. Ilg. 1946, p. 66)

خلاصة القول أن الأنا ينمو نمواً فياضاً فى السنتين الرابعة والخامسة . ويتجلى ذلك بوجه خاص فى نمو الخيال ، وفى بزوغ الشعور بتاريخية الذات ، والقدرة على النظر الموضوعى إلى الذات ، وازدياد مطابقة الإدراك للواقع . ومن الجلى أن هذه القدرات جميعاً تدخل ضمن مفهوم قطب « الفردية » فى شخصية الطفل النامى . فهى تنمى فيه الاستقلال عن الآخرين ، والشعور بهذا الاستقلال . على أنها تعود فتنعكس على علاقات الطفل الاجتماعية ، فتزيد من شحذ قدراته[٢] على عقد هذه العلاقات بصورتها السوية .

---

(١) animism

(٢) يلاحظ أننا نكثر من استعمال كلمة « قدرات » ، ونحن فى الواقع نستخدمها بمعنى وظائف لا بالمعنى القديم المرادف لكلمة faculties أى ملكات . وهذه الملحوظة نقصد بها الإشارة إلى أننا لا نضمن الكلمة معنى « الفطرية » ولا نضمنها معنى الانعزال بعضها عن البعض .

فمن العناصر الهامة فى بناء العلاقات الاجتماعية عنصر « المسافة النفسية الاجتماعية* » ، هذا العنصر الذى جعله مورنو J.L. Moreno محور اهتمامه فى أبحاثه السوسيومترية . والذى يتضمن فى نهاية تحليله أننا عندما نلتقى بالآخرين نحتفظ ببعض استقلالنا . وعلى مقدار ارتقاء الأنا الذى يتمثل بوجه خاص فى تغاير مناطقه المتعددة ، وقدرته على ضبط التعبير ، وقدرته على إدراك مقتضيات الموقف ، يتوقف إلى حد كبير تحقيقنا لهذا « الوسط المحمود » بين الاقتراب من الآخرين والاستقلال عنهم .

ومن العناصر الهامة فى بناء العلاقات الاجتماعية عنصر صلابة الشخصية وتماسكها ، أى أن يكون للشخصية منطق واحد يتجلى فى استجاباتها جميعاً ، هذا المنطق هو ما يعرف « بأسلوب » الشخصية ، وهو أوضح مظاهر وحدتها . ذلك أننا عندما نتعامل مع الآخرين نعتمد فى كل لحظة على ما نتوقعه منهم ، وما نتوقعه هذا نستنتجه بناء على ما اعتدنا منهم ، مسلمين ضمنياً ببديهية لا نناقشها ، مؤداها أن للشخصية أسلوباً واحداً مستقراً فى التعامل معنا . وفى معظم الأحيان يصح ما توقعناه . ولو أن عنصر الوحدة هذا لم يتوفر فى أحد الأشخاص لاضطررنا فى كل خطوة نخطوها نحوه أن نتوقع عشرات الاحتمالات وحملنا بالتالى بقدر من التوترات لا يساعد على تنمية علاقة وثيقة به . ويحدث أحياناً أن تجمعنا الظروف بشخص لم نره من قبل وتضطرنا إلى التعامل المباشر معه ، عندئذ يصبح الموقف محملاً بالتوترات فعلا ، ويكون سلوكنا نحوه ذا دلالة استكشافية ، لأننا لا نعرف شيئاً عن أسلوبه فى التعامل. ونحن نحتمل هذا الموقف كموقف مؤقت ينتهى إلى مفارقة الشخص أو التعرف على أسلوبه ، لكنه ليس بالموقف العادى الذى نلقاه كل يوم فى حياتنا مع

(*) نشرت مجلة علم النفس « فى العدد ٣ من المجلد ٨ ، الصادر فى فبراير ١٩٥٣ بحثاً بعنوان « المواقف الاجتماعية لطلاب الجامعات فى الشرق الأدنى » بقلم بروتروول . ملكيان . وفى هذا البحث بيان ببعض الطرق التجريبية التى يمكن استخدامها لدراسة موضوع المسافة النفسية الاجتماعية .

أصدقائنا ومن تربطنا بهم صلات وثيقة . وكثيراً ما نفارق أصدقاء توثقت عرى الصداقة بيننا وبينهم من قبل ، لأنهم « تغيروا » .

والأنا الشاعر بذاته ، القادر على أن ينظر بنظرة ناقدة إلى أعماله ومواقفه ، أحد العناصر الهامة فى تحقيق توافق اجتماعى سوى . وتلك حقيقة ساهم فى توضيحها المحللون النفسيون بنصيب وافر ؛ فالتحليل النفسى — فى العيادات — يهدف إلى إعادة توافق العصابيين مع بيئاتهم ، عن طريق زيادة استبصارهم بحقيقة دوافعهم ، وبالتالى بالقيمة الموضوعية لمواقفهم .

هذه العناصر الهامة جميعاً فى تحقيق التوافق الاجتماعى تتوفر بنمو قطب « الفردية » . وعندما يبلغ الطفل نهاية الخامسة — فى حضارتنا الحديثة — تكون بوادرها قد ظهرت فعلا . على أنها تواصل النمو والازدهار بعد الخامسة ، غير أن هذا النمو — ونمو جوانب الشخصية — يكون بوجه عام أبطأ مما كان قبل الخامسة (ومن ثم فإن مستوياته تتسرب إلى الظهور بطيئة هادئة ، فلا تسترعى كثيراً من الانتباه كمستويات النمو فيما قبل الخامسة). (A. Gesell & F. Ilg 1946, p. 60) فالطفل فى السادسة يستطيع أن يدعى لنفسه عدة « أدوار » (أو شخصيات) متباينة ، فهو ملاك أحياناً وشيطان أحياناً وأمير أحياناً أخرى ، وهذا يمكنه من تعميق الشعور بذاته عن طريق الشعور بتعدد إمكانياته. وهو فى السابعة يبلغ درجة من التحكم فى سلوكه تمكنه من أن يفعل غير ما يرغب فيه دون تعبيرات انفعالية حادة ، كما أنه يستطيع أن يناقش أبويه ثم ينتهى إلى حل وسط بين رأيه ورأيهم ، كما يزداد نمو قدراته الإدراكية ، إذ يتسع أفق إدراكه للزمن ، فيستطيع أن يفكر فى المستقبل الذى سيقع بعد عدة شهور ويتصور المدة الباقية ويشعر بوطأة الانتظار . ويتسع أفق إدراكه للمكان فيزداد اهتمامه «بالأشياء» المحيطة به (A. Gesell & F. Ilg 1946, pp. 155-158) وتبدأ تظهر لديه هوايات متعددة ، فتنعكس عليه فى ازدياد شعوره بذاته . وازدياد نمو هذه الذات ، التى تبدو محلا لإمكانيات متعددة (H. Wallon 1941, p. 218) ولما كان

يسعى إلى تحقيق هذه الهوايات فى أثر مادى فى الخارج فإن النجاح الذى يحققه فى إنتاج هذا الأثر لا يلبث أن ينعكس عليه بالشعور بقدرته على التأثير والفعل ، مما يثير لديه انفعالات الفرح والفخار مع تيار من الأفكار والصور النابضة (C. Buhler 1937, p. 112) . والنتيجة النهائية ازدياد نمو الأنا وتغايره . حتى إذا بلغ الطفل العاشرة بدت ذاته قوية راسخة ، فهو يستطيع المثابرة على عمل واحد حتى ينجز الخطة التى وضعها منذ البداية ، وهو يستطيع أن يفكر لنفسه دون اعتماد على راشد يسأله ، وقدرته على نقد ذاته أوضح بكثير مما كانت فى الخامسة ، وهو بوجه عام يكشف عن بصيرة ونضج يقربانه كثيراً من شخصية الراشد الذى سيكونه (A. Gesell & F. Ilg 1946, pp. 210-213) .

وفى مقابل ذلك كيف يمضى نمو « اجتماعية الفرد » ؟ كيف يمضى «شعوره بالآخرين » واشتراكه معهم وارتباطه بهم ؟ لكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نركز اهتمامنا فى جماعات الأطفال ، ففيها تتجلى القدرات النامية للطفل بأوضح مظاهرها . ذلك أن هذه الجماعات نفسها تمر بمراحل متباينة فى مراحل العمر المختلفة من الرابعة حتى بدء المراهقة . ولما كانت هذه الجماعات تمتاز أولاً وقبل كل شىء بالتلقائية فى تكونها ، فمن اليسير أن نستشف وراءها نمو الاستجابات الاجتماعية لدى الطفل بصورتها الخالصة النقية إلى حد كبير . أضف إلى ذلك أن جماعات الأطفال لاتقتصر أهميتها على الكشف عن قدرات الطفل الاجتماعية النامية ، لكنها تؤثر فى شخصيته تأثيرات هامة وفريدة تساهم فى إعداده لحسن التوافق مع الآخرين ولا يتسنى له تحصيلها من غير هذا المصدر ، وهذا ما أوضحه بياجيه (1932) .

عندما نتتبع ارتقاء الطفل من خلال جماعات الأطفال المماثلين فى العمر يتبين لنا أن هناك عنصرين هامين فى حياة هذه الجماعات ، يتعاونان على الكشف عن دلالتها الارتقائية فى حياة الطفل ؛ العنصر الأول هو حجم الجماعة ، والثانى هو نمط تنظيمها والعلاقات بداخلها . ويمكن تلخيص

التغيرات التي تطرأ على هذين العنصرين منذ الرابعة حتى بدء المراهقة كما يلي :

ا — يزداد حجم الجماعة باطراد .

ب — تمضي الجماعة نحو التغاير والاستقرار ، وبالتالى يزداد تعقد العلاقات القائمة بين أعضائها .

وعلى هذا الرأى يتفق معظم الباحثين ممن ساهموا فى الكشف عن جوانب الارتقاء فى هذه المرحلة ، من أمثال جيزيل وإلج (1946, p. 354) وبياجيه (1932, p. 108) وفالون (1941, p. 218) وغيرهم . أما الخلافات القائمة فهى حول الأساس النظرى لتفسير هذه الوقائع لا حول إقرارها .

تبدأ جماعات الأطفال التلقائية فى الظهور فى خلال السنة الرابعة ، كما ذكرنا من قبل . ويجب أن يكون معلوماً أن معظم البحوث التى تقرر هذه الحقيقة لم تتجه إلا إلى الأطفال فى حضارتنا الراهنة . ومن ثم فهذه الحقيقة نسبية ولا تزال بحاجة إلى التمحيص على ضوء بحوث تجرى على الأطفال فى الشعوب البدائية . على أننا نرجح أن النسبية هنا محصورة فيما يتعلق بموضع المستوى من العمر الزمنى ، أما فيما يتعلق بكون الظاهرة — ظاهرة الجماعات التلقائية للأطفال — تمر بمستويات ارتقائية بوجه عام ، وكذلك فيما يتعلق باتجاه هذا الارتقاء نحو ازدياد الحجم وازدياد التغاير والتعقد ، فالراجح أنها حقائق ارتقائية لن تتغير من إطار حضارى إلى آخر . والواقع أن هذه الحقائق هى التى تهمنا أكثر مما يهمنا الربط بينها وبين عمر زمنى معين .

نقول إن جماعات الأطفال التلقائية فى حضارتنا الراهنة تظهر فى خلال السنة الرابعة . وتكون عادة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة أو أربعة . فإذا كان لدينا عدد كبير من الأطفال فى مكان واحد انقسموا إلى عدة تجمعات يتألف كل منها من ثلاثة أفراد أو أربعة (L.B. Ames 1952) . وفى هذه التجمعات يلعب الأطفال دون تنبه للفوارق الجنسية ، فالجماعة كثيراً

ما تتكون من ذكور وإناث معاً . كما أن اللعب لا يكشف عن شعور بأهمية هذه الفوارق ؛ فالكل قد يلعبون بالدمى ، على عكس ما سنرى فى جماعات الثامنة وما بعدها (L.B. Murphy 1947) . والنمط العام لهذه الجماعات تجمعى (H. Wallon 1941, p. 218). فهى على حظ ضئيل من التغاير ، يستطيع كل عضو فيها أن يقوم بكل شىء أى ليس ثمة تقسيم ثابت لعمل كل عضو ، كما أن استقرار الجماعة وتماسكها معرض دائماً لأن يتبدد . فرغم ظهور الأحاديث عن المشاركة والاستئذان المتبادل والانتظار أحياناً ، وبوادر المساعدة والإيحاء والنقد (G. Murphy & others 1937, P. 520) فإن هذه العناصر فى التعامل تظل بنسبة ضئيلة ، بينما تظل نسبة الطلبات والأوامر عالية ، وكثيراً ما يلجأ الأطفال إلى حل مشاكلهم فى مستوى غير لفظى ، وذلك بالضرب والدفع (L.B. Ames & others 1949). ويبدو الأطفال فى هذه السن سريعى الضجر بتجمعاتهم ، ويتضح لنا ذلك إذا راقبنا أحد هذه التجمعات مراقبة متصلة لمدة نصف ساعة تقريباً متتبعين ظهور التوترات بين أعضائها ، فإننا نلاحظ تزايد هذه التوترات بحيث يبدو أن الأطفال لا يحتملون البقاء فى تجمعاتهم هذه لمدة طويلة ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب ، أهمها :

ا — عجز لغة الطفل (رغم كل ما حققته من ارتقاء) عن حل الخلافات أولاً بأول فى المستوى اللفظى .

ب — وعجز الطفل عن التنازل عن بعض رغباته ، وبالتالى فهو يتعرض لكثير من تجارب الحرمان داخل الجماعة .

حـ — عدم قيام تنظيم مستقر واضح المعالم داخل الجماعة ، من شأنه أن يحدد مقدماً مسالك النشاط الاجتماعى لكل عضو فى الجماعة وبالتالى يمنع من تصادم الأعضاء . وقد أوضح ليبيت R. Lippitt وهوايت R. White هذه الحقيقة فى دراستهما التجريبية للفوارق بين سلوك الأطفال فى ثلاث مجموعات مختلفة ، إحداها ذات نمط « ديمقراطى » والأخرى ذات نمط « تسلطى » والثالثة

ذات نمط « فوضوى » (R. Lippitt & White 1943) ومع أن هذه الدراسة لم تتناول مجموعات الأطفال بين الرابعة والخامسة بل تناولت أطفالا يتجاوزون الثامنة ، فإن وجه الشبه شديد بين المجموعات الفوضوية وتجمعات الأطفال فى الرابعة من حيث انخفاض مستوى التنظيم وأثر ذلك فى ظهور توترات من من شأنها تفكيك الجماعة . ومن الدراسات التى تلقى ضوءاً على هذه النقطة أيضاً دراسات بيون W.R. Bion الذى عمد إلى دراسة ديناميات الجماعات التى تلتئم وليس لها برنامج محدد ، على أساس أن هذا النمط من الجماعات هو خير بيئة لظهور الحصر والعدوان بين الأفراد (G. Taylor 1950) .

د — عجز الطفل عن فهم وجهة نظر الآخرين وحاجاتهم . ويرى أندرسون H.H.Anderson أن فهم وجهة نظر الآخرين هو جوهر الاستجابة المرنة وهذه هى أساس ظهور السلوك التكاملى . فهو يقرر أن الاستجابة المرنة هى التى تتيح التفكير فى سلوك الغير وتشجع الحكم عليه . وأن صفات التناسق والانسجام لاتصدق على العلاقات الاجتماعية إلا بقدر ما يتحقق فيها من فهم متبادل يتيح للأعضاء أن يكيفوا سلوكهم بما يلائم رغبات الآخرين ووجهات نظرهم . أما إذا لم يتوفر الفهم المتبادل فإن التكامل بين سلوك أفراد الجماعة لايتحقق إلا مصادفة (H.H.Anderson 1943) . ويرى بياجيه أن هذا العجز جبلّى فى الطفل ، وأنه يستمر حتى نهاية السابعة تقريباً . ويتحدث عنه تحت اسم « التمركز فى الذات [1]». وفى هذه المرحلة يعجز الطفل عن أن يضع نفسه موضع الآخر ليرى بعينيه ، ومن ثم لا يهتم بمعرفة رأى الآخرين ، كما أنه لا يهتم بأن يبدو مفهوماً لديهم . ولذلك يصدر كلامه خالياً من توضيح الفوارق الدقيقة ، ويبدو الطفل مهتماً بالإثبات أكثر من اهتمامه بالتبرير . ولذلك أيضاً يندر أن يسأل الطفل زملاءه هل يفهمونه أم لا . ولا ينكر بياجيه أن الأطفال

(١) egocentrism

دون السابعة يتفاهمون أثناء لعبهم أحياناً ، إلا أنه يقرر أن تفاهمهم حينئذ — على قلته — يتم دون اعتماد على لغة الألفاظ ، بل يتم بالاعتماد على لغة الإشارات والحركات والميميكا ، وهذه عاجزة عجزاً شديداً عن نقل محتويات الفكر . (J. Piaget 1923,pp. 49-66) ويرى بياجيه كذلك أن حالة «التمركز فى الذات» لاتقتصر على مستوى النشاط الفكرى المعرفى لدى الطفل فحسب ، لكنها أعمق من ذلك بحيث نستطيع أن نتكلم عن وجود تمركز فى الذات وجدانى أيضاً يتجلى فى السلوك الأخلاقى للطفل وهو ضرب من الأنانية[1] (J. Piaget 1932,pp. 462-466) وذلك على أساس أن هناك توازياً دقيقاً بين الارتقاء العقلى والارتقاء الأخلاقى . ومن الجلى أن هذه «الأنانية» الجبليّة تعمل جنباً إلى جنب مع «التمركز فى الذات المعرفى» على إبقاء تجمعات الأطفال دون السابعة فى مستوى منخفض من مستويات التكامل . وترتضى سوزان أيزاكس مفهوم «التمركز فى الذات» هذا لتفسر به أيضاً انخفاض مستوى التكامل فى هذه التجمعات . ثم تحاول أن تزيد من ثراء مضمونه بقولها إنه يتضمن الاعتراف بوجود الأطفال الآخرين دون الاعتراف باتجاهاتهم وأهدافهم ، وإن اللعب فى هذه المرحلة يغلب عليه التهويم[2] والانفراد . ويندر أن يظهر فيه النشاط الواقعى والتبادل (S. Isaacs 1933, p. 214) . ومع أن معظم الباحثين يوافقون على القول بأن الاتجاه العام لارتقاء الاستجابات الاجتماعية للطفل يمضى نحو الاتساع فإن مفهوم «التمركز فى الذات» لا يلقى القبول لدى الكثيرين منهم . ونذكر من هؤلاء ڤالون ومكارثى وڤيجوتسكى ولوريا وشارلوت بوهلر . ولكل من هؤلاء الباحثين وجهة نظر خاصة فى مناقشة هذا المفهوم فڤالون ومكارثى يريان أن هذا المفهوم لا يطابق واقع الارتقاء النفسى الاجتماعى (H. Wallon 1946; M. Collins 1939) وڤيجوتسكى ولوريا يريان أن بياجيه أسرع فى التعميم عندما قرر أن هذا المفهوم يصدق على الطفل دائماً دون السابعة ،

(١) egoism (٢) phantasy

ويقرران أنه يجب أن يُقرن دائماً إلى مفهوم الموقف[١]. فعندما يكون الطفل فى موقف يواجه فيه مشكلة معقدة فإن مظاهر السلوك المتمركز فى الذات تزداد لديه ، ومن أهمها الكلام بصوت عال ، ويكون هذا الكلام موجهاً إلى حل المشكلة ، أى أن الطفل يحاول بواساطته أن يحل المشكلة فى المستوى اللفظى ، أى أن يفكر بصوت عال . (وذلك لأن الطفل لا يزال على درجة ضئيلة من التغاير) . ومن ثم يستنتج الباحثان أن هذا الكلام ذا « الطابع المونولوجى » لا يختفى تماماً باطراد النمو لكنه يصبح كلاماً باطنياً يؤدى الوظيفة نفسها فى المواقف المعقدة (G. Murphy & others 1937, p. 583). أما شارلوت بوهلر فترى التفرقة بين عنصرين يتألف منهما مضمون هذا المفهوم . فالطفل متمركز فى ذاته من حيث إن حياته النفسية تدور حول حاجاته وضروب نشاطه ووجهة نظره وتأويل أفعال الآخرين فى حدود دوافعه . أما عنصر « الطابع المونولوجى » لحديث الطفل فترى العدول عنه (C. Buhler 1937, p. 76) * . ومن الواضح أن هذه الاعتراضات المتعددة تلقى أضواء على مختلف جوانب المشكلة ، وتبين ضرورة إعادة النظر فى هذا المفهوم . على أن الواقعة نفسها تشهد بها الملاحظة الدقيقة . فالأطفال فى تجمعاتهم المبكرة يعجز كل منهم عن فهم وجهة نظر الآخرين وحاجاتهم ، ولا يبدى اهتماماً بتحصيل هذا الفهم ولا بأن يوضح نفسه للآخرين . ونحن نميل إلى تعليل ذلك بعدة أسباب * : منها عدم وجود خطة مستقرة للسلوك فى أذهان الأطفال فى هذه السن ، وذلك

---

(١) situation

(*) تقرر شارلوت بوهلر G. Buhler فى نفس المرجع والموضع أن بياجيه بدأ يعدل من فكرته فى « التمركز فى الذات » فى مؤلفاته الأخيرة . فلم يعد يؤكد الطابع المونولوجى للحديث بقدر تأكيده للمعنى الآخر .

(*) جدير بنا أن نذكر هنا ملاحظة جاردنر مورفى G. Murphy على العلاقات بين الأطفال فى هذه السن . فقد لاحظ وجود ارتباط إيجابى بين الصداقة والشجار . وهو يرجح أن يقل هذا الارتباط فى حوالى سن العاشرة . ويفسر ذلك بأن الاتجاهات العدوانية لدى الطفل تكون فى سن العاشرة قد ربخت وشقت لنفسها طرقاً ومخارج معينة ثابتة نحو طبقات أو سلالات أو فئات معينة .
(G. Murphy & others 1937, P. 513)

لما ذكرناه من قبل عن زئبقية الخيال لدى الطفل فى هذه المرحلة . ومن ثم فليس لدى الطفل وجهة نظر يتعلق بها نظام من الاهتمامات المستقرة أيضاً حتى يستطيع أن يبديها للآخرين فيساعدهم على فهم موقفه . ولذلك فإن هذه التجمعات تبدى درجة عالية من الاستقرار (نسبياً) عندما تقوم باللعب الروائى وخاصة لعبة البيت والأم والأطفال ، إذ أن الحدود العامة للعبة معروفة بوضوح للأطفال ، ودور كل طفل محدد منذ البداية . (L.B. Ames 1952) .

تلك هى أهم الأسباب المؤدية إلى سرعة ظهور التوترات فى التجمعات المبكرة للأطفال ، وبالتالى ضعف استقرارها . ومن الجلى أن هذه الأسباب ليست من قبيل العوامل المنعزلة بعضها عن البعض لكنها متداخلة بحيث يتضمن بعضها البعض الآخر .

هذا الطراز من السلوك الاجتماعى يمثل مستوى يمتد من الرابعة حتى السابعة أو الثامنة تقريباً . وبدهى أنه لا يستمر ثابتاً على هذا النمط بالضبط بل تتغير معالمه شيئاً فشيئاً ، حتى نجد أنفسنا بصدد نمط جديد يمثل مستوى أعلى ، يبدأ حوالى الثامنة ويظل حتى بدء المراهقة . وقد شبه جيزيل فكرة المستويات بألوان الطيف الشمسى لا نستطيع أن نحدد بخطوط حاسمة أين يبدأ كل لون وأين ينتهى ليبدأ اللون التالى ، لكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر انقسام الطيف إلى عدد من المناطق اللونية الواضحة . وأهم مميزات هذا المستوى من مستويات التكامل الاجتماعى : صغر حجم الجماعة، وضعف تنظيمها الداخلى، وبالتالى ضآلة التغاير بداخلها، وضآلة حظها من الاستقرار . وتظل هذه السمات العامة ماثلة فى تجمعات الأطفال حتى يقتربون من الثامنة . ويرى بياجيه أن هذه التجمعات تشبه — إلى حد ما — الجماعات البدائية من حيث تحقيقها لنمط « التكامل الآلى أو الميكانيكى » الذى تحدث عنه دوركهيم (J. Piaget 1932, p. 108) وذلك لأنها :

١ — مؤقتة .

ب ــ ومنعزلة عن بعضها البعض .

حـ ــ ولا تغاير للأفراد بداخلها .

د ــ ولأن الإيحاء والمحاكاة يبلغان أقصى قوتهما فيها .

هـ ــ ولأنها تنزع إلى قهر الفرد على الخضوع لقواعد السلوك فيها بدلا من استثارة تعاونه التلقائى .

ويرى جاردنر مورفى أن العوامل الرئيسية التى يتم على أساسها اختيار رفاق اللعب فى هذه التجمعات هى :

ا ــ السنة الدراسية الواحدة .

ب ــ قرب المسكن .

حـ ــ العمر الزمنى المتماثل .

د ــ العمر العقلى المتماثل .

وذلك بناء على بحث تجريبى أجرى على ٨٢٣ طفلا فى لوس أنجلوس تتراوح أعمارهم بين ثلاث وثمانى سنوات . ومن ذلك يتضح أن الصفات الشخصية التى تجتمع تحت « تقارب الميول والاتجاهات » لا يكاد يحسب لها حساب . ومن ثم فإن الطفل يرتبط بالتجمع ككل أكثر مما يرتبط بأى طفل آخر بداخله . ولذلك فإن ما يتكون أحياناً من صداقات ثنائية إنما يتم من خلال العضوية فى التجمع ، ويكون عادة ضئيل الاستقرار ، بالقياس إلى الجماعة التى تظل أكثر استقراراً وأطول عمراً . ومما يدل على شدة ضعف الصداقات الثنائية فى هذا المستوى من العمر ما لوحظ من أنه عندما طُلب إلى الأطفال فى البحث التجريبى سالف الذكر أن يعيِّن كل طفل أحبَّ الأطفال إليه لم يقع الاختيار المتبادل إلا بين ٢٣٠ طفلا فقط. ثم إنهم عندما طُلب إليهم هذا الطلب نفسه بعد شهر لم يقع الاختيار المتبادل بينهم جميعاً بل وقع بين ٥٨ طفلا فقط . (G. Murphy & others 1937, p. 513) . ومن ذلك يتضح أن الصداقات الثنائية زيادة على كونها قليلة الحدوث فإنها ضئيلة الاستقرار . وهذا هو مضمون

فكرة بياجيه فى أنه لا تغاير بين الأفراد بداخل التجمعات فى هذا المستوى . وسنرى أننا كلما ارتفعنا من هذا المستوى إلى مستويات أرقى من العمر ازداد تغاير الأفراد داخل الجماعات وازدادت نسبة ظهور الصداقات الثنائية واستقرارها .

على أن الدلالة الارتقائية لهذا المستوى من التجمعات ستزداد وضوحاً فى أذهاننا إذا ما انتقلنا إلى الحديث عن التجمعات فى مستوى أعلى ، وأعنى هنا تجمعات الأطفال بعد السابعة أو الثامنة .

ومن أهم البحوث التى أجريت فى هذا الصدد بحث بنيامين ولمان B. Wolman ذو الطابع الارتقائى (B. Wolman 1951) . وقد أجرى ولمان ملاحظاته على جماعات الأطفال والمراهقين التى تتكون تلقائياً دون تدخل من الراشدين فى تكوينها أو توجيهها . وأثبت كثيراً من الملاحظات القيِّمة فى هذا الصدد ، عن اختلاف درجة التعلق بالعضوية فى الجماعة باختلاف العمر الزمنى ، ونمط التنظيم القائم فى الجماعة ، وديناميات السلوك بداخلها ، ودرجة استقرارها .

ويبدو أن الطابع الغالب على الجماعات التى تتكون فى السن من ٨—١٢ سنة هو طابع « العصبة »[١] وأهم ما يميز هذه العصابات هو صلابة حدودها (فى وجه الراشدين) وتتجلى هذه الصلابة فى عدة مظاهر منها إصرارها على التميز الشديد من عالم الراشدين ، ومن ثم فإنها غالباً ما تتكون بعيداً عن أعينهم ورقابتهم ، ويكون لها طابع السرية * . ويبالغ الصغار فى ذلك فيستخدمون فى معظم الأحيان لغة سرية للتفاهم فيما بينهم تكون مليئة بالرموز وكذلك يستخدمون شعارات خاصة وألقاباً خاصة ينادون بها بعضهم البعض . وتدل كثير من الدلائل (الاستبطانية) على أن سرور الأعضاء يزداد كلما

---

(١) gang — ورد فى مختار الصحاح أن « العصبة » من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين . ويلاحظ أن متوسط عدد الأعضاء فى العصبة فى هذه السن ١٤ عضواً . أما العصابة بالكسر فالجماعة من الناس والخيل — هكذا بلا تحديد .

(*) وقد أوضحنا من قبل كيف أن الطفل يبدأ منذ الثامنة تقريباً يشك فى قيمة التعاليم والقيم التى يقدمها إليه الآباء والراشدون عامة .

ازداد حظ الجماعة من السرية . ويبلغ التعلق بهذا الطراز من الجماعات أعلى درجاته فى الفترة من ٨ — ١٢ سنة ويقل بعد ذلك بوضوح . ففى العينة التى أجرى عليها ولمان ملاحظاته تبين له أن عدد العصابات المتكونة فى عدة فترات بعد الثامنة يتناقص بالتدريج على النحو الآتى :

من ٨ — ١٢ سنة كان يوجد ٣٢ عصابة .
من ١٢ — ١٤ سنة كان يوجد ٢٠ عصابة .
ما بعد ١٤ سنة كان يوجد ٦ عصابات

وتبدو هذه الحقيقة نفسها من زاوية أخرى ، هى زاوية نسبة المشتركين فى هذه الجماعات فى الأعمار المختلفة (أى نسبتهم إلى مجموع أبناء هذا العمر فى العينة ، المشتركين منهم وغير المشتركين) .

جدول يبين نسبة المشتركين فى عصابات الأطفال والمراهقين من أبناء الأعمار المختلفة

العمر الزمنى بالسنة	نسبة المشتركين	العمر الزمنى بالسنة	نسبة المشتركين
٨ — ٩	٢١ ٪	١٤ — ١٥	١٨ ٪
٩ — ١٠	٢٨ ٪	١٥ — ١٦	١٠٫٥ ٪
١٠ — ١١	٣٠ ٪	١٦ — ١٧	٥ ٪
١١ — ١٢	٣٠٫٥ ٪	١٧ — ١٨	٣٫٢ ٪
١٢ — ١٣	٢٦ ٪	١٨ — ١٩	١ ٪
١٣ — ١٤	٢٠ ٪	١٩ — ٢٠	٠٠٠ ٪

ومن ذلك يتضح أن نسبة التعلق بهذه العصابات تبلغ أقصاها فى الفترة الواقعة ما بين التاسعة وبدء البلوغ . أما هبوط النسبة بعد ذلك ، هذا الهبوط الشديد ، فلا ينبغى أن يفسر بنزوع المراهق إلى الانطواء فحسب لكنه يرجع كذلك إلى عامل آخر هو اتجاهه إلى تفضيل الجماعات ذات الطابع الرسمى التى يكونها له الراشدون ويشرفون على نشاطها ويحددون أهدافها .

أما من الناحية التنظيمية فأول ما يسترعى الانتباه فى هذه العصابات أنها

تتألف غالباً من أطفال من شق واحد . فقد وجد الباحث أن ٣٠ جماعة من الـ ٣٢ المتكونة فى السن من ٨ — ١٢ سنة تتألف من أولاد فقط أو فتيات فقط . ويجب أن يلاحظ هنا أن نظام التعليم فى المنطقة التى أجرى فيها هذا البحث — وهى تل أبيب — يقوم على أساس اشتراك الفتيان مع الفتيات ، ولكن على الرغم من هذا المؤثر البيئى نجد أن الأولاد والفتيات يتباعدون عندما يتجهون إلى تكوين جماعات تلقائية .

وهذه الملحوظة على جانب كبير من الأهمية . فعلى ضوئها نستطيع أن نفهم جانباً هاماً من جوانب الدلالة الارتقائية لهذه العصابات . فهى وسيلة لزيادة شعور الطفل بذاته ، وذلك عن طريق تمييزه من أفراد الشق الآخر (الفتيات إذا كان الطفل فتى ، والفتيان إذا كان فتاة) ممن هم فى مثل عمره ، هذا إلى جانب وظيفتها الأخرى وهى أنها تميزه من الراشدين كما أوضحنا من قبل . وكما يتمسك الصغار بسرية عصاباتهم وعدم نفاذ عيون الراشدين أو توجيهاتهم إليها كذلك يتمسكون بعدم نفوذ الأطفال من الشق الآخر إليها .

فالطفل إذاً من خلال هذه العصابات يحاول أن يدعم ذاته . ولا نستطيع أن نجزم هنا بأن العامل الرئيسى هو عامل النضوج دون العامل البيئى . ولا تكفى هنا ملحوظة ولمانعن نظام التعليم المشترك لاستبعاد العامل البيئى ، إذ أن خصائص الإطار الحضارى أعمق فى تأثيرها من ذلك . وهى تنفذ إلى الطفل منذ أسابيعه الأولى ، وكلما تقدم العمر به ازداد تعرضاً لها . وهى تجمع بكل وضوح على التفرقة الحادة بين الرجل والمرأة . ومن ثم فلا سبيل إلى الجزم برأى فى هذه المشكلة فى الوقت الحاضر ؛ ولا بد من تأجيل الحكم حتى تجرى عدة بحوث مقارنة على أطفال يقيمون فى حضارات أخرى تختلف اختلافاً كيفياً عن إطارنا الحضارى الراهن . على أن هذا لا يقلل من قيمة استنتاجنا عن وظيفة هذه التجمعات فى تدعيم استقلال الطفل وشعوره بهذا الاستقلال .

كذلك يسترعى الانتباه فى تنظيم هذه العصابات قيام « تدرج اجتماعى »

صارم بداخلها .« فثمة »نظام سيطرة يعتمدعلىالعمر غالباً (ويشبه إلى حد ما نظام السيطرة لدى الطيور والحيوانات ، من حيث طابع الاستبداد الذى يغلب عليه) . وهو نظام صارم قوامه الأمر ثم الطاعة أو العقاب ، وغالباً ما يكون العقاب قاسياً . وفى معظم الأحوال يكون للعصابة زعيم واحد ويكون أكبر الأعضاء سنًّا . فقد وجد ولمان أن ٢٥ جماعة من الـ ٣٢ لها زعيم واحد ، وأربع جماعات لكل منها زعيمان وجماعة واحدة لها ثلاثة زعماء . وجماعةواحدة بدون زعيم .

والجماعة بهذا الطابع التنظيمى الغالب تلخِّص وتركز خصائص الإطار الحضارى الذى يضم أعضاءها وهى من هذه الناحية تتيح للناشئ أن يعد نفسه للعضوية فى مجتمع ذى خصائص تنظيمية معينة . ويكون لها دلالة الاكتشاف لبعض مسالك النشاط كما يحددها الإطار الحضارى القائم، والعمل على تثبيتها . ومن الجلى أن من أهم خصائص الإطار الحضارى القائم حولنا نظام التدرج فى العلاقات الاجتماعية . إلا أن للتدرج فى المجتمع عدة أسس معقدة متشابكة ، فى حين أن التدرج فى عصابات الأطفال ليس له غالباً سوى أساس واحد هو العمر الزمنى وما يتبعه من تفاوت القدرات الجسمية والسيكولوجية. ومن الجدير بالذكر أن الأطفال فى هذه المرحلة وقبل بدايتها بقليل يغلب عليهم الاتجاه إلى العالم الخارجى ، محاولين اكتشاف جوانبه وعلاقاته ،سواء فى ذلك العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى . ويرى جيزيل أن هذا الاتجاه يزيد زيادة واضحة بعد الثامنة . كما أن الطفل ينزع إلى أن يضع « انطباعاته التى حصَّلها من قبل » موضوع التجربة . كذلك يرى أن بوادر الشعور بكثير من القيم الاجتماعية تظهر فى هذه المرحلة ، كالشعور « بالعار » والشعور « بالعدل » وتمثُّل معناه والمطالبة به والتنبه إلى أن له أساسين «القواعد» و« السوابق » . (A. Gesell & F. Ilg 1946, p. 160; H. Wallon 1941, p. 208)

ويزداد وضوح المستوى الارتقائى لهذه العصابات إذا ما نظرنا فى ديناميات النشاط الذى يجرى بداخلها . فهى لا تتكون نتيجة خطة وتدبير سابقين ،

ولكن يغلب على تكونها طابع الصدفة ، فهى تتكون غالباً نتيجة اصطدام الأطفال بعقبة أثناء اللعب ؛ إذ تصبح هذه العقبة بمثابة المنبه المثير لتنظيم هجومى أو دفاعى ، هو تنظيم العصبة ، فتنتظم ويكون أمامها فى بدء تكونها تنفيذ خطة معينة توضع دون كثير من الروية والتدبر . ولا يلبث هذا أن ينعكس على نشاط الجماعة فتنسى هدفها الأصلى الذى قامت من أجله ، وتندفع فى كثير من ضروب النشاط المشتت المتقطع ، الذى يهدف أحياناً إلى تنفيذ خطوط قصيرة الأمد ، وأحياناً أخرى يمضى فى شكل اندفاعات فردية لا رابط بينها (B.Wolman 1951) .

ويزيد ڤالون من توضيح هذه الحقيقة إذ يبين كيف أن العلاقات الاجتماعية المتبادلة داخل العصبة تتغير تبعاً لعدة عوامل ، منها : « الخطة » وهى مؤقتة غالباً ، « والهوايات » الشائعة لدى الأعضاء ، « والوسط » . ومن ثم فإن الجماعة كثيراً ما تنقسم إلى جماعات صغرى تتبادل الأعضاء فيما بينها تبعاً للظروف ؛ وبالتالى فالطفل قد يغير زملاءه فى الفصل فيتخذ زملاء غير من يتخذهم أثناء اللعب ، كما أنه قد يغير زملاءه فى الألعاب المختلفة. (H. Wallon 1941, p. 211) وهذا التبديل والتغيير داخل الجماعة يدل على درجة من التغاير تفوق درجة التغاير الماثلة فى تجمعات الأطفال دون هذا المستوى ؛ فقد رأينا أن الأطفال فى تلك التجمعات يتجمعون على أسس أخرى غير « تقارب الميول والاتجاهات » ، ومن ثم فهم غالباً متجانسون داخل الجماعة ، ونمط العلاقات فيما بينهم أقل تعقداً . أما فى الثامنة وما بعدها فالميول والهوايات تتدخل إلى حد ما ، فتدفع إلى إعادة تنظيم علاقاته بزملائه من موقف إلى آخر . وهذا بدوره يزيد من نمو شعوره بذاته وبإمكانياته . على أن هذه العصابات تفوق التجمعات السابقة من ناحية أخرى لها دلالتها الارتقائية أيضاً ، وهى صفة « الاستقرار » . وقد حسب ولمان مدة استمرار هذه العصابات متكاملة فوجد أن حوالى ٦٩ ٪ من العصابات ظلت متماسكة مدة تتراوح بين نصف سنة

وسنتين ، وأن ٢٢ ٪ ظلت متماسكة لأكثر من سنتين . وهذا ما لا يتوفر فى التجمعات السابقة (B. Wolman 1951) .

وفى هذه العصابات يبدأ عنصر الصداقات الثنائية يظهر بشكل أوضح وأكثر استقراراً مما كان يظهر من قبل ، (إلا أنه لا يزال بوجه عام ضئيلا إذا ما قورن بما سنراه فى مراحل العمر التالية) . وقد أجرى هورروكس وبوكر J.E. Horrocks & M.E. Buker دراسة تجريبية تتبعا فيها تقلبات الصداقة [١] ابتداء من سن الخامسة إلى سن العاشرة ، انتهيا فيها إلى بضع نتائج قيمة . نلخصها فيما يلى :

يزداد الاستقرار فى الصداقة بازدياد العمر الزمنى ، أو بارتفاع الفرق الدراسية . ولا فرق فى هذه الظاهرة بين الأولاد والبنات — فى حدود هذا العمر (J.E. Horrocks & M.E. Buker 1951) . والطريقة التى اتبعها الباحثان فى بحثهما هى طريقة الاختبار السوسيومترى . وتتلخص فى توجيه سؤال إلى كل طفل من الأطفال موضوع الملاحظة ، (٣٦٦ طفلا . منهم ١٧٩ طفلة ، و ١٨٧ طفلا) ، أن يحدد أحب ثلاثة أصدقاء إليه من بين أفراد فرقته . وبعد أسبوعين يعاد توجيه هذا السؤال إلى الأطفال أنفسهم . وبإعطاء نتائج المقارنة بين الإجابات فى المرتين قيماً كمية أمكن للباحثين أن يسجلا الخط البيانى لهبوط نسبة تقلبات الصداقة ، أو بعبارة أخرى لازدياد استقرارها ، (انظر الرسم البيانى [٢])

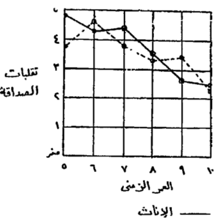
ومما يزيد فى توضيح الدلالة الارتقائية لهذا الخط البيانى أن هورروكس أجرى بحثاً آخر بالاشتراك مع تومسون (G.G. Thomson 1946) بين فيه أن هذا الخط يزداد هبوطاً كلما اقترب النشء من الراشد .

والخلاصة أن جماعات الأطفال فيما بين الثامنة وبدء المراهقة تمتاز إذا ما قورنت بجماعات الأطفال دون الثامنة بالمميزات الآتية :

---

(١) friendship fluctuations

(٢) الرسم مبين بصفحة ٢٢٢



رسم بيانى يوضح تناقص تقلبات الصداقة مع تقدم العمر

ا ـ كبر حجم الجماعة . إذ يبلغ متوسط عدد أعضائها حوالى ١٤ عضواً . (B. Wolman 1951)

ب ـ زيادة وضوح عنصر التنظيم فيها . ومن أهم مظاهره نظام السيطرة التدريجى ، وظهور الزعيم ، وكون الأعضاء من شق واحد .

حـ ـ زيادة استقرار الجماعة . إذ تتراوح مدة بقائها متماسكة بين سنة وسنتين .

د ـ ظهور الخطط التى تجمع شتات جهود الأعضاء بين الحين والآخر .

هـ ـ ظهور عنصر الصداقات الثنائية .

و ـ مساهمة عنصر الهواية والاهتمام فى تعيين نمط العلاقات القائم بين أعضاء الجماعة .

فإذا جمعنا بين هذه المميزات ومميزات الجماعات دون الثامنة (وقد سبق ذكرها) استطعنا أن نحدد الاتجاه العام للارتقاء الاجتماعى للطفل هكذا :

ا ــ فهو يمضى نحو زيادة قدرة الطفل على الاستجابة لعدد كبير من الأفراد دفعة واحدة .

ب ــ وزيادة استعداده لتشكيل سلوكه وتنميطه مما يمكنه من القيام « بدور معين » على درجة واضحة من التماسك ، وهذا يمهد لظهور عنصر التنظيم فى الجماعة كما يمهد لزيادة استقرارها .

حـ ــ كذلك يمضى ارتقاء الطفل الاجتماعى نحو المساهمة مع الآخرين فى وضع خطط للسلوك الجماعى .

د ــ ونحو تعميق العلاقة بالآخرين ؛ أى الالتقاء معهم فى أكبر عدد ممكن من مناطق الشخصية . ومن ثم فهو يهتم بتكوين صداقات ثنائية .

على أن هذا النمو لقطب الاجتماعية فى الطفل لا يمكن فهمه ولا تصور اطراده دون أن نقرن إليه نمو قطب الفردية فيه ، المتمثل بوجه خاص فى ازدياد ثبات الأنا ونمو قدراته الإدراكية والتخيلية ، والقدرة على ضبط التعبير .

ويبقى بعد ذلك أن نلقى بهذا السؤال : ماذا يفيد الطفل من هذه الجماعات فى إعداده ككائن اجتماعى ؟ يرى بياجيه أن الطفل يتعلم من نشاطه فى هذه الجماعات أخلاق التعاون والاحترام المتبادل والنقد ، وذلك فى مقابل ما يتعلمه من الراشدين ويتلخص فى الطاعة والاحترام الوحيد الاتجاه . ولو أن الأطفال جميعاً اقتصروا فى علاقاتهم على الارتباط بالراشدين لنتج لدينا مجتمع يقوم على القهر والإلزام فحسب ، شأنه فى ذلك شأن المجتمع البدائى . لكن جماعات الأطفال تحرر أعضاءها بعض الشىء من سلطان الآباء ومن قيمهم ، كما أنها تفتح أذهانهم وتشحذ استعداداتهم لنمط جديد من العلاقات يقوم على التقدير المتبادل والتلقائية . ومن ثم فإن هذا الطفل عند ما يشب ويصبح راشداً يتذبذب فى سلوكه الاجتماعى بين نمطين : نمط القهر والإلزام ونمط التعاون ، وبمرور الزمن تتمكن أخلاق التعاون من نفوسنا شيئاً فشيئاً وتتسع رقعتها على حساب أخلاق القهر والتسلط . ومن ثم يصح رأى دوركهيم القائل بأن التكامل

الاجتماعى يسير من النمط « الآلى » إلى النمط « العضوى» . إلا أن دوركهيم على الرغم من ذلك لم يفطن إلى أهمية جماعات الأطفال ، ولم يجعلها مصدراً من مصادر القواعد الأخلاقية فى حياة الطفل . (J. Piaget 1932, pp. 393, 467)

ويرى بياجيه كذلك أن التحرر من سلطان الكبار وهو ما يكتسبه الطفل من جماعات الأطفال المماثلين فى العمر هو الشرط الضرورى للتلقائية الحقيقية فى جانبيها العقلى والأخلاقى . فمن الناحية العقلية نجد الطفل يتحرر من الآراء المفروضة عليه . ويحل محل القهر مبدأ الاتساق الباطنى والضبط المتبادل ، كأساس لقبول الآراء أو رفضها . ومن الناحية الأخلاقية يحل محل معايير السلطة ذلك المعيار الذى يرتبط ارتباطاً عميقاً بطبيعة الفعل والمشاعر التى قوامها التعاطف (J. Piaget 1932, p. 114) وتوضح سوزان إيزاكس جانباً آخر من جوانب هذا التحرر للصغار من سلطان الكبار بفضل هذه الجماعات . فتبين كيف أن الطفل لا يتعامل مع أبويه كما هما فى الواقع ، لكنه يتعامل معهما كقوى متضخمة نستطيع أن تسحقه متى شاءت . إلا أن ارتباطه بجماعات الأطفال واتخاذهم معاً مواقف ضد إرادة الراشدين من حين لآخر يكشف له شيئاً فشيئا عن واقعية الأبوين وأن لقدراتهما حدوداً ، وأن غضبهما لا يعنى اضطراب العالم بأسره لكنه يعنى عقاباً عابرا (S. Isaacs 1933) ومما يؤيد هذا الرأى ما نلاحظه على أسئلة الأطفال من أن بعضها يتجه ــ ضمن الاتجاه الاستكشافى العام للأسئلة إلى استكشاف حدود قدرات الآباء . ويشير شريف وكانترل إلى عمق تأثير هذه الجماعات فى تنشئة الطفل عن طريق الكشف عن آثارها فى تشكيل الأنا . إذ يقرران أن فكرة الطفل عن نفسه تكون أقرب إلى رأى جماعة أصدقائه فيه منها إلى رأى الراشدين فيه (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 186t.). وجدير بالذكر أن الفكرة التى يكونها الشخص عن نفسه تعتبر على جانب كبير من الأهمية فى تحديد مكانته الاجتماعية ، وبالتالى فى تحديد النمط العام لسلوكه الاجتماعى وخاصة من حيث اتجاهه إلى التسلط والعدوان أو إلى التكامل والتعاون .

تلخيص

حاولنا أن نوضح فى هذا الفصل جوانب الارتقاء الاجتماعى منذ السنة الرابعة حتى بدء المراهقة . وبدأنا بذكر الاتجاهات العامة لهذا الارتقاء متمثلة فى :

ا ــ بدء استطاعة الطفل عقد علاقة مع الأطفال المماثلين فى العمر .

ب ــ وعودة ثقته فى الراشدين .

حـ ــ وزيادة اعتماده فى التعامل مع الآخرين على النشاط اللغوى .

بعد ذلك جعلنا نتتبع تحقق هذه الاتجاهات ، وبينا كيف أنها تمضى بنمو « قطبى الفردية والاجتماعية » فى شخصية الطفل . وفى هذا السبيل جعلنا نتابع نمو كل من القطبين وآثاره فى نمو القطب الآخر . فتابعنا نمو قطب « الفردية » متمثلا بوجه خاص فى نمو القدرات التخيلية وازدياد التآزر الحركى ، وتاريخية الذات ، واستطاعتها الوقوف وقفة موضوعية من أعمالها ، وازدياد قدرتها على إدراك الواقع كما هو . وبينا أهمية نمو هذه القدرات كشروط لابد منها لتحقق عناصر هامة فى التكامل الاجتماعى ؛ وهى : حفظ المسافة النفسية الاجتماعية بين الأنا والآخر بصورة تضمن تحقيق الاتزان بين الاندماج مع الآخرين والاستقلال عنهم ، وتماسك الشخصية الذى يتجلى فى وحدة أسلوبها ، والقدرة على النقد الذاتى .

ثم تتبعنا نمو قطب « الاجتماعية » من خلال تطور جماعات الأطفال . وقد فرقنا بين مستويين ارتقائيين لهذه الجماعات ، يمتد الأول من حوالى الرابعة حتى السابعة . ويمتد الثانى من حوالى الثامنة حتى بدء المراهقة . وقد تتبعنا مميزات الجماعات فى كل من المستويين . وانتهينا من ذلك إلى توضيح الاتجاهات العامة لنمو « اجتماعية » الطفل .

الفصل الخامس

الارتقاء الاجتماعى للمراهق

التغيرات الفيزيولوجية — التغيرات السيكولوجية — قطب
الفردية — قطب الاجتماعية — دراسة تجريبية للصداقة

عندما تحدثنا عن أزمة الشخصية الأولى ، أى أزمة السنة الثالثة ، أوضحنا كيف أنها ليست أزمة خلفة تامة وانفصال عن الآخرين ، لكنها أزمة ارتقائية تحمل فى طياتها نفس الدلالة الرئيسية لعملية الارتقاء السيكولوجى ، وتتلخص فى الاتجاه المزدوج : نحو ازدياد تغاير قطبى الفردية والاجتماعية . وقد أوضحنا مضمون هذا التغاير متمثلا فى نمو القدرات التخيلية والوجدانية من ناحية ونمو القدرة اللغوية والقدرة على المحاكاة من ناحية أخرى .

وفى هذا الفصل نتحدث عن أزمة الشخصية الثانية ، أى أزمة المراهقة . ودلالتها لا تختلف عن دلالة الأزمة الأولى . ففيها يحقق المراهق وثبة فى الارتقاء فى الاتجاهين الفردى والاجتماعى .

وإذا كان الرأى الشائع أن أزمة المراهقة أزمة خلفة تامة ومعارضة وتشكك فى القيم السائدة فليس هذا الرأى بأصدق من الرأى القائل بأن الأزمة الأولى أزمة خلفة تامة . وقد أوضحنا مدى مجانبته للحقيقة .

عندما تبدأ فترة المراهقة يضطرب اتزان الشخصية ، ويرتفع مستوى توترها بحيث تصبح معرضة للانفجارات الانفعالية المتتالية ، وتختل علاقتها الاجتماعية بأعضاء الأسرة وأصدقاء المدرسة . ولهذه المظاهر السلوكية أسباب فيزيولوجية واجتماعية ، ولا ينبغى الإقلال من شأن أحد الطرفين فى سبيل الطرف الآخر ، إذا لم يكن ذلك يستند إلى البحث التجريبى أو المشاهدة الدقيقة . وقد كان

الرأى السائد إلى أوائل العقد الثالث من هذا القرن أن أزمة المراهقة شديدة العنف دائماً بغض النظر عن الظروف الاجتماعية المحيطة بالمراهق[1] ، وكانت التغيرات الفيزيولوجية تحتل المكانة الأولى فى تعليل جوانب هذه الأزمة . إلى أن ظهرت بحوث مارجريت ميد M. Mead وغيرها من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين فى حياة الشعوب البدائية وعاداتهم ونظم التربية لديهم ، فأتاحت هذه البحوث للنظرة المقارنة أن تعم وتستشف أثر البيئة الاجتماعية ومدى نسبية الآراء السابقة حول سيكولوجية المراهقة . إلا أن ذلك أغرى بعض الباحثين بالتضخيم من شأن البيئة الاجتماعية على حساب العوامل الفيزيولوجية بشكل تبين فيما بعد أنه ينطوى على كثير من سرعة التعميم .

فقد ذهب كلينبرج O. Klineberg فى معارضته لرأى استانلى هول إلى حد القول بأنه فى بعض المجتمعات البدائية مثل مجتمع ساموا Samoa لا تكاد تواجه الفتاة المراهقة أى صراع أو اضطراب أو حصر ، وأنها لتجتاز مرحلة المراهقة فى يسر وهدوء نحو وضع اجتماعى جديد . وقد استند الباحث فى رأيه هذا إلى نصوص أوردتها مارجريت ميد . إلا أن هذه الباحثة قد أوردت نصوصاً أخرى لا تبيح هذا الاستنتاج ، بل تشير إلى أن المراهق فى هذه الجماعات البدائية يتعرض لبعض ضروب الصراع ، وإن لم تكن مماثلة فى شدتها وتعقدها لما يتعرض له المراهق فى مجتمعات الحضارة الغربية. فى مجتمع الأرابش Arapesh يتعرض المراهقون لبعض الصراعات التى لا تخفى مظاهرها رغم أن حياة هذا المجتمع يسودها بشكل عام انخفاض فى مستوى التوترات ، ويندر أن تظهر فيه اتجاهات عدوانية . وكذلك الحال بالنسبة للمراهقين فى مجتمع التشامبولى Tchambuli ، ولو أن نصيب الفتيات من الصراعات أقل من نصيب الفتيان منها ، لأسباب تتعلق بنمط النظام الاجتماعى السائد (M. Sherif & H. Cantril 1947, pp. 203-206) من هذين المثالين ومن أمثلة أخرى متعددة تتضح سرعة التعميم فى الرأى الذى ذهب إليه كلينبرج .

والاتجاه السائد فى كثير من البحوث الحديثة يوضح بمختلف الطرق التجريبية

---

(١) رأى ستانلى هول G. Stnaley Hall (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 203)

(من اختبارات ودراسات تتبعية [١] ودراسات سوسيومترية [٢] واستبارات [٣] . . . الخ) آثار التغيرات الفيزيولوجية التى لا يمكن إغفالها ، والتى تتضح فى ظهور أنماط سلوكية متشابهة فى بعض جوانبها بحيث تنم عن مستوى ارتقائى معين ، لكنها مختلفة فى جوانب أخرى بحيث تكشف عن آثار البيئة الاجتماعية فى تشكيل خصائص هذا المستوى وإبرازه بصورة معينة . وهذه النظرة هى التى سنحاول أن نلتزمها فى هذا الفصل كما التزمناها فى الفصول السابقة .

تتلخص التغيرات الفيزيولوجية التى تطرأ على الطفل مؤذنة بقدوم المراهقة فى أن الفص الأمامى من الغدة النخامية ينشط لإفراز نوعين من الهرمونات ؛ أحدهما هو الهرمون الخاص بالنمو وهو المهيمن على تحديد حجم الجسم ونسب أعضائه ، والآخر هو الهرمون الخاص بتنبيه المناسل [٤] . فإذا ما نبهت المناسل فإنها تفرز هرمونات خاصة تختلف فى الذكر عنها فى الأنثى . وهذه الهرمونات هى التى تجلب التغيرات النفسية والجسمية المصاحبة لسن البلوغ [٥] . فأما السبب فى زيادة إفراز الهرمون المنبه للمناسل أو فى زيادة حساسية المناسل لهذا الهرمون فى هذه المرحلة من العمر بوجه خاص فغير معروف على وجه التحديد . ولكن تدل جميع المشاهدات على أن هذه التغيرات التى تطرأ على النشاط الغدى تحدث على نحو منتظم وفى حدود مرحلة معينة من مراحل العمر الزمنى لدى الفتيان والفتيات . والرأى السائد أن الهرمون المنبه للمناسل يبدأ إفرازه قبيل سن البلوغ ، ويفرز أولا بكميات ضئيلة ، تزداد شيئاً فشيئا ، وفى الوقت نفسه تزداد حساسية المناسل لهذا الهرمون قليلاً قليلا (E. Hurlock 1949, p. 24)

هذه التغيرات التى لا تلبث أن تنتهى ببدء ظهور الطمث لدى الفتيات وظهور المنيات [٦] فى بول الصباح لدى الفتيان ، وهى علامات بدء المراهقة ، تكون مصحوبة عادة بتغيرات أخرى فى سرعة عمليات الأيض [٧] ودقات القلب

---

(١) longitudinal (٢) sociometric (٣) interview (٤) gonads
(٥) puberty (٦) spermatozoa (٧) metabolism

وضغط الدم . ومن ثم فنحن بصدد تغيرات بيولوجية شاملة . وطبيعى أن يترتب على ذلك بعض النتائج السيكولوجية التى تدور حول اختلال الاتزان الذى كان متحققاً لدى الطفل ، وشعور بالقلق والاضطراب الذى يكون غامضاً على الأقل فى بداية أمره . ولهذا السبب تكون فترة ماقبل المراهقة مباشرة ذات طراز معين من السلوك -من حيث الاتجاهات الاجتماعية- يفرق بينها وبين ماقبلها ومابعدها. ومن أبرز جوانب هذا الطراز أن الطفل- الذكر والأنثى -يكاد يفقد فى هذه الفترة الميل إلى التجمع ، ويفضل العزلة بعيداً عن صحبة الأنداد والراشدين (E. Hurlock 1949, p. 186) * . مع أنه كان من قبل يميل إلى تكوين العصابات (على نحو ما أوضحنا فى الفصل السابق) ، وسنراه يتجه بعد ذلك إلى تكوين صداقات وثيقة . ويمكن اعتبار هذا الميل إلى العزلة نتيجة مباشرة لحالة القلق الغامض وانسحاب الانتباه من الموضوعات المحيطة بالذات إلى الذات نفسها لما يعتريها من تغيرات بيولوجية شاملة لم تنتظم بعد فى نمط مستقر . على أن هذا السلوك الانعزالى قد يتضخم حتى يتخذ صورة مَرَضِيَة ، وقد يقتصر على كونه مرحلة عابرة تليها مراحل ذات أنماط أخرى للسلوك الاجتماعى . وظروف البيئة الأسرية والاجتماعية بوجه عام هى التى تحسم فى هذا الصدد .

وربما كان من أهم هذه التغيرات الفيزيولوجية التى سبق ذكرها ، ظهور الصفات الجنسية الثانوية ؛ وهى الصفات التى تميز الشكل الخارجى للرجل عن الشكل

(*) وقد أجرى ليل M. Leal دراسات فى هذا الصدد انتهى منها إلى أن الأولاد فى فترة ما قبل المراهقة مباشرة لم يكن فى سلوكهم أى دليل على مشاطرتهم للضعيف أو وفائهم لشخص ما ، ولم يكونوا يميلون إلى التجمع ، ولم يكن لديهم تحمس للقضايا الاجتماعية . بينما ظهرت لديهم فى المرحلة التالية اتجاهات اجتماعية واضحة وأصبح لها السيادة ؛ فالأولاد يظهرون الميل إلى التجمع ، والاهتمام بالقضايا الاجتماعية ، والرغبة فى إصلاح حال الآخرين ، والمشاطرة للضعيف . ومثل هذه الحقائق وجدها كذلك بالنسبة للفتيات . ففى المرحلة السابقة على المراهقة كن يكشفن عن اتجاه اجتماعى سلبى يفوق فى سلبيته مابدا عند الأولاد . وبتمام النضج الجنسى تغيرت الصورة تغيراً كبيراً ؛ فقد ظهرت لديهن تلك الاتجاهات الاجتماعية التى ظهرت لدى الأولاد . (E. Hurlock 1949, p. 157)

الخارجى للمرأة . فى الفتاة يبرز الثديان نتيجة لنمو الغدد الثديية[١] ، كما تزداد الإليتان اتساعاً واستدارة نتيجة لنمو عظام الحوض وازدياد كمية الدهن تحت البشرة ، ويتسع كتفا الفتاة وتنمو عليهما وعلى الذراعين بعض العضلات الثقيلة ، ويتحول صوت الفتاة المرتفع الدرجة إلى صوت رخيم منخفض الدرجة . أما فى الفتى فأبرز التغيرات فى هذا الصدد تغير الصوت نتيجة للنمو السريع للحنجرة واستطالة الأحبال الصوتية المشدودة عليها . وكذلك تبدأ تظهر بعض الشعرات على جانبى الذقن وعلى الجزء العلوى من الصدغين أمام الأذنين مباشرة ، كما يصبح الشعر النابت على الشفة العليا أكثر خشونة ويزداد لونه سمرة . ويلاحظ أيضاً ازدياد فى اتساع الكتفين ونمو بعض العضلات الثقيلة عليهما وفى الذراعين والساقين (E. Hurlock 1949,pp.45-49) .

وترجع أهمية هذه التغيرات العضوية من الناحية السيكولوجية إلى مالها من تأثير فى الوضع الاجتماعى للمراهق ، وما يترتب على ذلك من إثارة اهتمامه بذاته الجسمية والنفسية ، ودفعه إلى العمل على تغيير عاداته وعلاقاته وأنماط تكيفه بوجه عام . وهذا ما تكشف عنه البحوث المتعددة التى تناولت المشكلة من زوايا مختلفة . فقد أجرى لاثام A.J. Latham بحثاً للكشف عن مدى الارتباط بين النضج البيولوجى وسلوك الزعامة لدى المراهقين ، واتخذ موضوع البحث ٨٣٧ مراهقاً من الفتيان البيض فى المدارس الثانوية بمدينة بتسبورج ، وتتراوح أعمارهم بين ١١ و ١٧ سنة . وقسم الزعامة إلى نوعين منذ البداية ، زعامة اجتماعية (وتكون بالتعيين من السلطات المدرسية ، أو بالانتخاب الذى يجريه الزملاء) وزعامة رياضية . وحاول أن يكشف عن أثر النضج البيولوجى فى كل من هاتين الزعامتين ، فانتهى إلى أن له تأثيراً واضحاً فى الزعامة الرياضية ، أما فى الزعامة الاجتماعية فليس له تأثير يذكر . (A.J. Latham 1951) وفى بحث نشره ديموك H.S. Dimock سنة ١٩٤١ انتهى إلى القول بأن الحالة

---

(١) mammary glands

الجسمية لدى المراهق مرتبطة بشعوره بكفاءته الشخصية ، وأن المراهق المعتدل فى نموه الجسمى أكثر قدرة على التكيف من المراهق المتأخر فى النمو . فثمت إذاً ارتباطا ما بين التغيرات الجسمية التى تطرأ على المراهق وبين سلوكه الاجتماعى. والمهم هو أن نكشف عن ديناميات هذا الارتباط .

إن الملاحظة العابرة للمراهق فى أسرته أو فى مدرسته تكشف عن مدى تغير المعاملة التى يلقاها من الراشدين والأنداد نتيجة لظهور هذه التغيرات الجسمية المصاحبة للمراهقة ؛ فمن همس إلى ابتسامات ذات مغزى معين إلى نصائح وتوجيهات ذات اتجاه جديد ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الاستطالة المفاجئة للأطراف وتغير أبعاد الجسم بوجه عام تثير بذاتها فى السلوك الحركى للمراهق بعض الاضطراب حتى يعيد تنظيم عاداته الحركية بما يلائم هذا النمو الجديد ، وإذا تخيلنا أثر هذا الاضطراب الملحوظ فى نظرات المحيطين به ، أمكن لنا أن نتصور الأثر العميق غير المباشر الذى تتركه هذه التغيرات الجسمية فى سيكولوجية المراهق ، ويتلخص هذا الأثر فى تنبيه « الشعور بالذات » إلى درجة بعيدة ، وبذلك تكون هذه الخبرات ذات المنشأ الجسمى هى الدافع الأول لنمو قطب الفردية فى المراهقة . لكنها ليست الدافع الأوحد ، بل ربما لم تكن الدافع الرئيسى . إنما النواة التى تنسج البيئة الاجتماعية حولها مشاكل المراهقة .

من ذلك يتضح أن التغيرات الفيزيولوجية الداخلية والخارجية مسئولة بشكل مباشر أحياناً وبشكل غير مباشر أحياناً أخرى عن حالة القلق والاضطراب التى يجتازها المراهق فى بدء مراهقته . كما أنها مسئولة عن ظهور حاجات ورغبات معينة لديه لا تلبث أن تؤثر فى نظرته إلى الآخرين وتقييمه لهم . فالمسألة إذاً مسألة مستوى ارتقائى فى النمو البيولوجى للفرد ، تتفاوت شدة بروزه وحدة مشكلات التكيف التى ترتبط به من بيئة اجتماعية إلى أخرى .

نمو قطب الفردية : ننتقل الآن إلى تفصيل القول فى الارتقاء الاجتماعى للمراهق.

يمضى هذا الارتقاء فى اتجاهين : أحدهما نمو قطب الفردية ، والآخر نمو قطب الاجتماعية .

فأما الاتجاه الأول فقد أوضحنا أن المنبه الأول له هو التغيرات العضوية المفاجئة الداخلية والخارجية ، بما تشيعه من قلق ومن اضطراب فى أنماط التكيف الحركية لدى المراهق .على أن تغير أبعاد الجسم يكون له أثر غير مجرد الاضطراب واختلال الاتزان الذى كان متحققاً . إذ يتغير تصور الشخص لذاته ؛ فبعد أن كان الشكل الخارجى للجسم ذا قيمة ثانوية بالنسبة للطفل حتى الطفولة المتأخرة — كما يكشف عن ذلك إهماله مسائل الهندام والتنسيق والنظافة إلى حد ما — ترتفع قيمته حتى ليصبح أحياناً بؤرة الشخصية ، وربما ساعد على ذلك نظرات الآخرين والقيم الاجتماعية السائدة . ويبدو ذلك بوضوح فى مجتمعنا الحاضر الذى يؤكد أهمية الجاذبية الشكلية ، ويبرز بشكل حاد المعايير الشكلية للجاذبية الأنثوية والذكرية . ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام « بالجسم » لدى المراهق والمراهقة الاهتمام الشديد بالمقارنة بين أبعاد جسمه وأبعاد الجسم لدى الآخرين والأخريات . ومن أشد المواقف إبرازاً لهذه الحقيقة مواقف التأخر أو التبكير غير السويين فى ظهور التغيرات الجسمية لدى المراهق (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 229)

ولا يقتصر الأمر على هذه المقارنات بل يتعداه إلى الشعور بالقيمة الاجتماعية للتغيرات الجسمية ، فهذا النمو يعنى أن المراهق أصبح كبيراً ، يقترب حجمه من حجم الراشدين حوله ، ويعنى أيضاً أنه أصبح رجلاً أو امرأة بكل ما لهذين المفهومين من معان وقيم اجتماعية. ونتيجة لذلك يبدأ يشعر بعدم الرضا عن المعاملة التى يلقاها من الأسرة والراشدين بوجه عام ، فهو لم يعد بعد طفلاً . ولا تتغير معاملة الراشدين سريعاً ، ومن ثم يقع الصراع بينه وبينهم . ويتفاوت هذا الصراع فى شدته ومدته تبعاً لنمط الأسرة ، ومستواها الاجتماعى الاقتصادى ، ونمط المجتمع ، والنظام الحضارى السائد . وفى ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يبلغ هذا الصراع درجة عالية من الشدة ، نتيجة لفترة الانتقال التى تجتازها ، وما تمتاز به

هذه الفترة من انهيار لكثير من القيم الجديدة وعدم استقرار القيم الجديدة ووضوح معالمها . فنموذجا الذكورة والأنوثة قد فقدا الكثير من مضمونهما الذى كان سائداً راسخاً منذ حوالى نصف قرن ، لكن مضمونهما الجديد لم يتحدد بعد بصورة واضحة ، وظروف التربية والحياة الاجتماعية الاقتصادية لا تتيح فى كثير من الأحيان تحـــديد نموذج الراشد ومسئولياته فى وقت مبكر ، مما يطيل تلك الفترة المرهقة التى يقضيها المراهق فى صراع حول اكتساب مكانة مستقرة بين الراشدين .

فى هذا الصراع يشعر المراهق أنه يقف منفرداً . ويتجلى هذا الشعور فى عدة مظاهر من أبرزها الشكوى من أن الراشدين لم يعودوا يفهمونه . وقد أجرى فى تركيا بحث فى هذه الظاهرة ، وزع فيه استخبار على ٣٠٠٠ مراهق ومراهقة . وكان من بين ما ورد فى هذا الاستخبار السؤال التالى :

هل تظن أن الكبار يفهمونك على حقيقتك ؟ فكانت النتيجة أن معظم المراهقين الذين تزيد أعمارهم على ١٤ سنة أجابوا بالنفى . (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 245) . ومن هذه المظاهر أيضاً كتابة المذكرات الخاصة ، وقد كتبت إحدى المراهقات فى مذكراتها تقول إنها هى وحدها (أى المذكرات) التى تفهمها . ومنها كذلك الارتباط بالأصدقاء المماثلين فى العمر على أساس أنهم هم وحدهم الذين يمكنهم أن يفهموا موقف المراهق ومشاكله . ومن ثم فإنه يعرض عليهم أسراره ومتاعبه .

هذه التعبيرات جميعاً ، ناتجة عن ازدياد شعور المراهق بذاته ، ومن شأنها أن تنمى قطب الفردية فيه . وقد يزداد الصراع حدة فتكون هذه الاتجاهات فى النمو بمثابة بذور لعدد من الانحرافات ، كالجناح[1] والعُصاب ، وربما الذُّهان والانتحار . وقد أجرى كونكلين E.S. Conklin دراسة فى هذا الصدد على ٣٢٩ من طلبة المدارس الثانوية انتهى منها إلى أن ٢٦ ٪ من بينهم كانوا يمارسون « ذاتين » مختلفتين فى وقت واحد . كما روى ٢٨ ٪ من الطلبة أنهم شاهدوا هذه الظاهرة

(١) delinquency

بوضوح لدى آخرين (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 249). والإحصائيات والتقارير التى تتحدث عن أنسب مراحل العمر لظهور الفصام ذات دلالة فى هذا الصدد . فهندرسون D. Henderson يقرر أن معظم الحالات تبدأ حوالى سن البلوغ وفى فترة المراهقة (D. Henderson & R.D. Gillespie 1950, p. 296) . وشتريكير E.A. Strecker يقول إن حوالى ٧٠٪ من حالات المرض تحدث بين الخامسة عشرة والثلاثين (E.A. Strecker & others 1945, p. 382) . وترد جولد A.F. Tredgold يقول إن مما له دلالته فعلاً أن ما لا يقل عن ٧٥٪ من الحالات تبدأ بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين (A.F. Tredgold & others 1943, p. 125) وفى إحصائية مستخلصة من سجلات الاستقبال بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية تبين أن حوالى ٦٧ ٪ من الفصاميين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة . (وذلك فى حدود الواردين إلى المستشفى من الذكور فى المدة من أول يناير إلى آخر يونيو سنة ١٩٥٣).

العمر بالسنوات	١٠ — ١٥	١٦ — ٢٠	٢١ — ٢٥	٢٦ — ٣٠	٣١ — ٣٥	٣٦ — ٤٠
عدد المرضى	٤	٢٧	٣٤	١٦	٥	٤
النسبة المئوية	٤,٥	٣٠	٣٧,٥	١٨	٥,٥	٤,٥

الواردون من الذكور « المصابين بالفصام » إلى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية
« فى المدة من أول يناير إلى آخر يونيه ١٩٥٣ »

وفى إحصائية أخرى مستخلصة من سجلات الاستقبال بمستشفى الأمراض العقلية بالخانكة نجد أن ٧٣ ٪ من الفصاميين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة . (وذلك فى حدود الواردين إلى المستشفى من الذكور فى المدة من أول يناير إلى آخر يونية سنة ١٩٥٣) .

العمر بالسنوات	١٠ — ١٥	١٦ — ٢٠	٢١ — ٢٥	٢٦ — ٣٠	٣١ — ٣٥	٣٦ — ٤٠
عدد المرضى	٦	٥٩	٧٢	٣٣	٨	٢
النسبة المئوية	٣	٣٣	٤٠	١٤	٥	١

الواردون من الذكور « المصابون بالفصام » إلى مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة
« فى المدة من أول يناير إلى يونيه ١٩٥٣ »

هذه الحقائق جميعاً ومظاهر الصراع الأقل من ذلك حدة، تشير إلى تضخم الشعور بالذات فى فترة المراهقة. ومن أكثر المظاهر شيوعاً فى الحالات السوية تكوين الصداقات الوثيقة مع أفراد فى مرحلة العمر ذاتها؛ والدلالة السيكولوجية لهذه الصداقات تدعيم موقف المراهق إزاء الراشدين الذين اضطربت علاقته بهم. ولذلك يغلب على الأصدقاء أن يكونوا من نفس شق المراهق، ذكوراً إذا كان ذكراً وإناثاً إذا كان أنثى. وهذه الحقيقة تبدو بوضوح فى فترة المراهقة المبكرة، كما تثبت ذلك كثير من البحوث التجريبية. ومن أهم هذه البحوث بحث أجرى فى ديترويت على عدد كبير من التلاميذ تتراوح أعمارهم بين ٥ سنوات و ١٦ سنة، وهم جميعاً أعضاء فى نواد تعليمية مختلطة (يشترك فيها الصبيان مع الفتيات). وكان موضوع البحث هو عملية انتخاب الأعضاء. فتبين أن هناك ثلاثة مستويات تجتازها هذه العملية :

ا — مستوى يتضمن الحد الأدنى من التمييز بين الشقين فى الاتصال واختيار الصحاب، وذلك فيما بين الخامسة والثامنة بالنسبة للبنات، وبين الخامسة والثامنة والنصف بالنسبة للأولاد.

ب — ومستوى يتميز بتفضيل اتخاذ الصحاب من نفس شق الشخص، وهو يمتد إلى حوالى الثالثة عشرة والنصف لدى الفتيات والرابعة عشرة لدى الفتيان.

حـ — ومستوى يتميز بالانجذاب والصحبة من أفراد الشق الآخر، وذلك فيما بعد الرابعة عشرة بالنسبة للفتيات والرابعة عشرة والنصف بالنسبة للفتيان. (C.M. Fleming 1948, p, 155) وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أنها تكشف عن أنه رغم وجود المراهقين فى جماعات مختلطة فقد ظهر لديهم تفضيل اتخاذ الصحاب من شقهم فى سنوات المراهقة المبكرة.

وأجرى بحث آخر على ٢٥٢ تلميذاً فى إحدى المدارس الثانوية الحديثة بالقرب من لندن تتراوح أعمارهم بين ١١ سنة (وبضعة شهور) و ١٤ سنة (وبضعة شهور). وكان معظمهم من أبناء الطبقة المتوسطة، المقيمين فى إحدى

المدن الصغيرة والقرى المجاورة . وكانت الوسيلة الرئيسية المستخدمة بجمع الملاحظات هى الاستخبار . وقد توصل الباحثون إلى عدة نتائج منها أنه كان هناك نزوع عام لدى الصبيان والفتيات إلى التجمع على أساس وحدة الشق . وحيث كانت توجد علاقات بين أفراد من الشقين كانت الدلائل تكشف عن طبيعتها غير المستقرة . وعندما طلب إلى هؤلاء المراهقين كتابة مقالات عن « الصداقة » وردت فى مقالاتهم عبارات لها دلالتها الواضحة . فقد وصفوا الصديق بأنه « الذى تستطيع أن تثق فيه » ، « والذى يظاهرك فى ساعة الخطر » و « الذى يمكن الاعتماد عليه » و « الذى لن يتركك فى الشدة » و « الذى تستطيع أن تلجأ إليه دائماً فى طلب النصح والمعونة » . . . . الخ. (J.E. Richardson & others. 1951, p. 196).

وإذا نظرنا من زاوية أخرى فقد نرى أن لهذه الحقيقة — أعنى اختيار الأصدقاء من نفس الشق فى مرحلة المراهقة المبكرة — دلالة أخرى ، فهى نتيجة غير مباشرة للبيئة الاجتماعية التى تفرق تفرقة حادة بين الذكورة والأنوثة . ويكون اتخاذ المراهق أصدقاءه من شقه إحدى المحاولات التى يبذلها للارتباط بقيم البيئة بعد أن اختلت علاقته بها اختلالا أثار حصره[1] واضطرابه . ولا يكفى للرد على هذا التفسير الأخير بحث كبحوث ديترويت التى سبق ذكرها ، ذلك أن الاختلاط القائم فى النوادى لا ينفى ولا يستطيع أن يطغى فى تأثيره على جوانب النظام الاجتماعى الذى لا يزال يلح فى تشريعاته وعاداته وقيمه على التفرقة بين الرجل والمرأة . ومن ثم فالطريق إلى حسم الرأى فى هذا الموضوع هو تعدد البحوث التجريبية فى بيئات اجتماعية متعددة تختلف اختلافاً أساسياً عن بيئتنا الحاضرة . ولكن تبقى بعد ذلك حقيقة هامة تؤيد التفسير الأول ، هذه الحقيقة هى أن المراهق يتخذ أصدقاءه المقربين من بين المماثلين له فى العمر فيرى لذاته نماذج خارجية تعانى مثل ما يعانى من مشكلات ، وتكافح مثل

---

(١) anxiety

ما يكافح من عقبات ، فيحذو حذوها ويستمد منها ما يقوى شعوره باختلافه عن الراشدين المحيطين به .

على أن هذا الضرب من الصداقة من شأنه بالإضافة إلى تقوية قطب الفردية فى المراهق ، تقوية قطب الاجتماعية أيضاً بما يتيحه من تجارب التعاطف والمساعدة المتبادلة والتضحية فى سبيل الصديق . . . الخ على ما سنبين فيما يلى ، وقد تحدثنا فى مواضع سابقة عن ضروب مماثلة من النشاط تمارسها الشخصية المترقية فتؤدى إلى نمو قطبى الفردية والاجتماعية فيها. من هذا القبيل اللغة ، والقدرة على المحاكاة وارتباط الطفل بجماعات المماثلين فى العمر .

نمو قطب الاجتماعية : يتجلى هذا النمو فى معظم جوانب النشاط التى يمارسها المراهق ، وفى إدراكه للآخرين ، وفى أحكامه الأخلاقية ، وفى أسلوب تعامله مع الآخرين ، وفى أحكامه عليهم والأسس التى يدخلها فى اعتباره إذ يفضل بعضهم على بعض ، وفى نمط ارتباطه بأصدقائه . وقد أجريت عدة بحوث تجريبية فى هذا الصدد على درجة كبيرة من الضبط والدقة ، تتضح قيمتها الموضوعية فى الاتفاق بين نتائجها رغم تعدد الزوايا التى عولج الموضوع منها .

تشير فلمنج E.G. Fleming إلى أن من مظاهر هذا النمو تنبه المراهق للفوارق بين الأفراد ، وازدياد نقده لنفسه ولعلاقته بالجماعة . وهذه مرحلة أكثر ارتقاء من مرحلة الطفولة التى لا يكاد الطفل يرى فيها غير أفراد الأسرة الذين يسود بينهم التشابه أكثر من التباين. (C.M. Fleming 1940, p. 151) وتشير هيرلوك إلى جانب آخر من جوانب نمو الإدراك له دلالته النفسية الاجتماعية ؛ فسلوك المراهق يكشف بوضوح عن أنه يميز بين من يعتبرهم « أعلى منه » ومن يعتبرهم « أدنى منه » . وليس هذا التمييز وليد مرحلة المراهقة ، لكنه يبلغ قمته فيها . أما البداية فى الطفولة فتحدث ، نتيجة لتعاليم معينة يبثها الآباء والراشدون عامة فى الأبناء .

ومن هذا القبيل أيضاً مشاعر التفوق الطبقى ، وتفوق الذكور على الإناث . ومن بين مظاهر هذا النمو كذلك معرفة لا بأس بها بدور الشخص فى الجماعة وما يستلزمه هذا الدور من مهام معينة ، وهذا مما يساعد المراهق على أن يساهم بشكل إيجابى فى نشاط الجماعة (E. Hurlock 1949, p. 163) .

أما فيما يتعلق بارتقاء التصورات الأخلاقية فقد أجرى ماكولى وواتكنز E. Macaulay & S. H. Watkins بحثاً فى هذا الموضوع ؛ فتتبعنا الظاهرة منذ الطفولة حتى المراهقة . وكانت وسيلتهما فى ذلك تكليف الأطفال والمراهقين بكتابة قائمة بالأعمال التى يرونها أقبح الأعمال . وجمعا ٢٥٠٠ إجابة . وبتحليلها انتهيا إلى الأعمال الآتية :

ا ــ الأفكار الأخلاقية عند الأطفال حتى سن التاسعة تكون عينية ومحددة ، ومصوغة فى حدود علاقاتهم الشخصية المباشرة . كأن يكون الطفل وقحاً يعصى أمه أو يؤذى القط . . . الخ .

ب ــ فى التاسعة أو العاشرة يبدأ طابع التعميم يظهر فى هذه الأفكار . فبدلاً من أن يتكلم الطفل عن سرقة كرة يتكلم عن السرقة بوجه عام .

حـ ــ وبعد الحادية عشرة تصبح الأحكام الأخلاقية مزيجاً من أحكام الراشدين والآراء المعروفة بشكل تقليدى .

د ــ فى فترة المراهقة المتأخرة يتنبه الشخص إلى ما يسميه الباحثان باسم «خطايا الروح» ، كالنفاق والأنانية . (G. Murphy & others 1937, p. 676)

ولا جدال فى أن إدراك المراهق لهذا النوع الأخير من الخطايا يدل على ارتقاء ملحوظ فى إدراكه للقيم الاجتماعية .

وفيما يتعلق بأسلوب التعامل مع الآخرين ، تشير هيرلوك إلى تفرقة دقيقة هامة بين مشاحنات المراهقين ومشاحنات الأطفال . فمشاحنات المراهقين تكون عادة لأسباب اجتماعية متعلقة بالعلاقات القائمة داخل الوحدة الاجتماعية المحيطة بالمراهق ، وهذا بعكس الحال فى جماعات الأطفال فمعظم المشاحنات تنشأ بينهم حول

المتلكات المادية (E. Hurlock 1949, p. 167) . ومعنى ذلك إذاً أن المراهق يزداد إدراكاً للواقع الاجتماعى ، وللتفرقات والقيم القائمة فيه ، كما يزداد حساسية لها . ومن ذلك يتضح صدق ما قلناه من قبل ، من أن أزمة المراهقة ليست أزمة خلفة تامة ، كما توحى النظرة العابرة ، لكنها أزمة وثبة فى الارتقاء وإعادة تنظيم للصلات الاجتماعية على نمط جديد وفى مستوى جديد ؛ فلا تختل الصلات القديمة إلا لتحل محلها صلات جديدة تتفق ومضمون المستوى الجديد فى النمو ؛ فصلة المراهق بالراشدين فى أسرته تختل لأنهم لم يعودوا يمثلون مركز الأفق الاجتماعى فى نظره ، فقد اتسع أفقه واتسع مجال اتصالاته بحيث أصبحت الأسرة جزءاً من كل بعد أن كانت هى الكل تقريباً . وصلته بصحبه الذين كان يكوّن معهم العصابات فى الحادية عشرة والثانية عشرة (B. Wolman 1951) تختل هى الأخرى لأن هذا النمط من الجماعة السرية المتسعة المنتظمة فى تدريج عسكرى(وقد سبق الحديث عنه) لم يعد يلائم نضجه الوجدانى الذى يهمه الآن العمق والشدة أكثر مما يهمه الاتساع على السطح . ومن ذلك نستطيع أن نقرر أن الطابع الاجتماعى للسلوك يزداد بروزاً فى سلوك المراهق ، بعكس النظرة التقليدية التى تلح على إبراز فرديته وانطوائه وأنانيته . وقد أجريت عدة دراسات تجريبية على المراهقه توضح هذه الحقيقة* . أجريت دراسة فى كاليفورنيا ، تتبع الباحثون فيها حوالى ٢٠٠ مراهق ومراهقة بالملاحظات والفحوص والاختبارات الجسمية والسيكولوجية

---

* ألقى هذا السؤال على ٢٠٠ تلميذ وتلميذة : أى هذه الأنواع من النشاط أحب إليك : «السباحة ، أم لعب الكرة ، أم الاشتراك فى جماعات ؟ » فكانت الإجابة عند ما كان متوسط سن التلامذة ١١ سنة و ٤ شهور على النحو الآتى :

الأولاد : ٦٧٪ فضلوا السباحة ، ٢٥٪ لعب الكرة ، ٨٪ الاشتراك فى جماعات .

البنات : ٨٨٪ فضلن السباحة ، ٤٪ لعب الكرة ، ٨٪ الاشتراك فى جماعات .

وبعد سنتين ، أصبحت النسبة فى البنات على النحو الآتى :

٤٥٪ يفضلن الاشتراك فى جماعات (G. Murphy & others 1937, p. 642)

لمدة سبع سنوات . فانتهوا إلى عدة نتائج . منها :

بالنسبة للمراهقين :

١ — فى فترة المراهقة المبكرة تنال المهارات الحركية والرياضية والقوة الجسدية أكبر تقدير فى جماعات المراهقين . والشخص الذى لا يحوز قسطاً طيباً من النجاح فى هذا الميدان لا يلقى التقدير والقبول وسط جماعة المراهقين .

٢ — بازدياد النمو تتطلب جماعة المراهقين من المراهق كثيراً من المهارات الاجتماعية ذات الطابع التعاونى ، كما تتطلب أن يكون المراهق ناجحاً فى أعماله الرسمية التى يضعها المجتمع الكبير له كالأعمال المدرسية وما إليها .

٣ — تزداد نسبة النشاط الذى يبذله المراهقون نحو الجنس الآخر .

بالنسبة للمراهقات :

١ — فى حوالى سن ١٢ سنة كانت أكثر المراهقات استيلاء على إعجاب زميلاتها ، تلك الودودة ، النظيفة ، الهادئة ، التى تهتم إلى حد ما بالألعاب المنظمة .

٢ — بعد ثلاث سنوات تبين أن النبوغ فى النشاط الرياضى وبعض مظاهر السلوك العدوانى تنال تقديراً كبيراً لدى المراهقات . كما تبين أن القدرة على تنظيم النشاط الجماعى أصبحت صفة مطلوبة . ومن أهم الصفات التى تحوز تقدير الزميلات أن تكون المراهقة مليئة بالحماس والنشاط والسعادة فى أثناء ممارستها لضروب النشاط التى تمارسها جماعات المراهقين والمراهقات معاً .

٣ — بعد ثلاث سنوات أخرى لم يعد من المهم أن تكون الفتاة ماهرة فى ضروب النشاط التى تمارسها الجماعات الكبيرة ، لكن أهم الصفات عندئذ أن تكون الفتاة ذات نظرة صائبة فى صلاتها الاجتماعية ، حسنة الهندام ، جذابة لخير الفتيان . وفى هذا السن تحتفظ المهارات الرياضية ببعض التقدير ، لكن تقديرها يكون ضعيفاً إذا لم تكن مصحوبة بالجاذبية الشخصية والحصافة الاجتماعية .

ويلخص ميك L. H. Meck مجموعة التحولات التى تطرأ على المراهق وتشير إلى نمو قطب الاجتماعية من زوايا متعددة فيما يلى :

١ — من الثرثرة والوقاحة وفيض النشاط أياً كان اتجاهه ، إلى السلوك الأكثر ضبطاً واحتراماً لنفسه .

٢ — ومن الرغبة فى الارتباط بالقطيع ، إلى الارتباط بمجموعة صغيرة منتخبة .

٣ — ومن عدم الاهتمام بمنزلة الأسرة كعامل يؤثر فى علاقاته ، إلى الاهتمام المتزايد بالمنزلة الاجتماعية الاقتصادية للأسرة كعامل هام فى تحديد الأصدقاء .

٤ — ومن الصداقات المؤقته ، إلى الصداقات الأكثر دواماً .

٥ — ومن عدد كبير من الأصدقاء ، إلى صداقات أقل اتساعاً لكنها أكثر عمقاً .

٦ — ومن الاستبصار الضئيل بسلوك الشخص والآخرين إلى ازدياد واضح للبصيرة فى شئون العلاقات الإنسانية . (E. Hurlock 1949, p. 159)

وتزيد فلمنج على ذلك ميزتين لهما نفس الدلالة :

١ — فالحواجز التى تحيط بالجماعة كما يكونها المراهقون ، أشد صعوبة فى فى اجتيازها من الحواجز التى تحيط بجماعات الأطفال . وهذا دليل على أن جماعات المراهقين أشد تماسكاً من جماعات الأطفال .

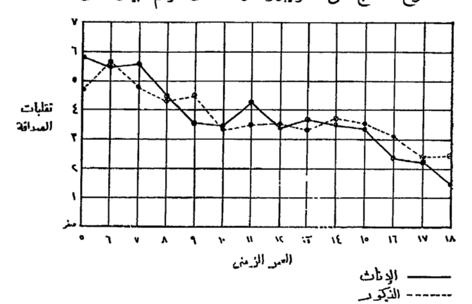
٢ — والخوف من الرفض — أى من أن ترفضنى الجماعة — أشد فى حالة المراهقين منه فى حالة الأطفال . وتلك نتيجة طبيعية للميزة السابقة ، ودليل على زيادة حساسية المراهقين الاجتماعية. (C.M. Fleming 1948, p. 157)

هذه الاتجاهات فى النمو الاجتماعى للمراهق كما يقررها ميك وفلمنج تؤيدها كثير من البحوث التجريبية . وقد أوردنا فى الفصل السابق ذكر البحث الذى أجراه بنيامين ولمان على عصابات الأطفال وخصائصها وتطورها . ومن بين

نتائج هذا البحث ما يؤيد رأى ميك فى انصراف المراهقين عن الارتباط بالقطيع ، إلى الارتباط بجموعة صغيرة منتخبة . ويكشف هذا البحث إلى جانب ذلك عن كثير من دقائق هذا التحول .فبينما تكون عصابات الأطفال ذات طابع تدرجى عسكرى ويخضع الأعضاء لمن هم أكبر من هم سناً من سائر الأعضاء ، يميل عمر الأعضاء فى صداقات المراهقة إلى التقارب أو التساوى ، ويكرهون أن يكون بينهم من هو أكبر منهم،ويتضاءل تسلط الزعماء عما كان عليه ، وبوجه عام يبدأ يظهر الطابع الديمقراطى فى العلاقات الاجتماعية . وينفر المراهق من الأساليب الصبيانية التى تتجلى فى جعل العصابة سحرية ، وذات لغة سرية ، ولها اسم يرمز إليها ، وللأعضاء فيها ألقاب غير أسمائهم . جميع هذه الصفات تصبح فى نظر المراهق صبيانيات يتخلى عنها ، ليرتبط بأصدقائه على أسس جديدة غير هذا التجمع الساذج . ويشير ولمان إلى أن الذين يبقون على هذه الأساليب وهذا النمط فى العلاقات إلى فترة المراهقة هم ذوو التوافق السيء والذكاء المنخفض (B. Wolman 1951) .

وتدل بحوث هوروكس J.E. Horrocks فى « تقلبات الصداقة» على صدق الرأى القائل بأن النمو الاجتماعى للمراهق ينتقل من الصداقات المؤقتة إلى الصداقات الأكثر دواماً. فقدأجرى بالاشتراك مع تومسون G.G. Thompson بحثاً فى « تقلبات الصداقة لدى الأولاد والبنات فى الريف » وكانت مادة البحث ٩٠٥ تلميذاً وتلميذة تتراوح أعمارهم بين ١٠ سنوات و١٧ سنة منهم ٤٢١ ذكراً و ٤٨٤ أنثى ، ويقيمون فى بعض الضواحى الريفية لمدينة نيويورك. وذلك بأن طلب إليهم أن يكتبوا أسماء أفضل ثلاثة أصدقاء لكل منهم بترتيب أفضليتهم ، وبعد أسبوعين طلب إليهم نفس الطلب مع التنبيه على أن لهم الحرية فى أن يغيروا الأسماء والترتيب فى المرة الثانية عما ذكروه فى المرة الأولى . وبتحليل النتائج انتهى إلى أن الصداقات تزداد ثباتاً بتقدم العمر الزمنى ، بحيث نجد أكبر درجة من الثبات لدى المراهقين فى سن ١٧ سنة . ولا فرق فى

ذلك بين المراهقين والمراهقات . (J.E. Horrocks & G.G. Thompson 1946)
وأجرى بحثاً آخر بالاشتراك مع تومسون أيضاً على نفس الظاهرة كما تبدو لدى الأولاد والبنات من أبناء المدن . واتخذ مادة البحث ٩٦٩ تلميذاً وتلميذة تتراوح أعمارهم بين ١١ سنة و١٨ سنة من أبناء نيويورك وبنسلفانيا . واستخدم نفس الطريقة التى استخدمها فى البحث السابق . فانتهى إلى مايؤيد نتيجة البحث السابق (J.E. Horrocks & G.G. Thompson 1947)
فإذا جمعنا هذه النتائج إلى نتائج بحث ثالث أجراه بالاشتراك مع بوكر M.E. Buker على نفس الظاهرة لدى الأطفال فيما قبل المراهقة وقد أسلفنا ذكره فى الفصل السابق (J.E. Horrocks & M.E. Buker 1951) استطعنا أن نصوغ النتائج على نحو يبرزها واضحة فى الرسم البيانى التالى :



رسم بيانى يوضح تناقص تقلبات الصداقة مع تقدم العمر

من الجلى إذاً أن صداقات المراهقين أكثر تماسكاً — كما أوضحت فلمنج — وأكثر ثباتاً . وثمة صفة أخرى تؤيد وضعها فى مستوى أرق ، لا سيما إذا أضيفت إلى هاتين الصفتين ؛ ذلك أنها أكثر تغايراً . وقد بينا فى الفصول السابقة كيف أن جماعات الأطفال تظل إلى حوالى سن الثامنة عديمة التغاير تقريباً . وفى عصابات الثامنة لا يتوفر إلا مستوى منخفض من التغاير ، وهو التغاير إلى

زعيم وأتباع . وكذلك رأينا من قبل أن هذا المستوى من التغاير يتوفر فى بعض الجماعات تحت البشرية ، كجماعات الطيور والشمبانزية . أما المستوى الجديد من التغاير الذى يتوفر فى جماعات المراهقين فهو مستوى إنسانى بما ينطوى عليه من إبراز لتغاير شخصية المراهق واستطاعته أن ينظم علاقاته بالآخرين بما يتفق وهذا التغاير . فمن الملاحظ بوجه عام أن أصدقاء المراهق ليسوا على درجة واحدة من القرب منه . تؤيد ذلك عدة بحوث تجريبية وبحث أجريناه وسنذكره بالتفصيل بعد قليل . وقد أجرى رنر J.W. Runner دراسات على عنصر المسافة الاجتماعية فى صداقات المراهقات أوضح فيها هذه الحقيقة إلى حد كبير . وكانت وسيلته إلى دراسة الظاهرة المذكرات التى كانت تدونها مراهقتان . فانتهى إلى تصنيف الزميلات اللاتى يحطن بالمراهقة على النحو التالى :

١ ــ الموثوق بها[١] : وهى لا تفارقها ، وتبيح لنفسها أن تحدثها فى جميع مسائلها الشخصية .

٢ ــ المقربة[٢] : صديقة يكثر الاتصال بها لكن الحديث معها يكون غالباً عن الأمور التافهة لا عن المسائل الشخصية .

٣ ــ المألوفة[٣] : تراها كثيراً ، ولكن لا تشعر نحوها بالكثير من الدفء العاطفى .

٤ ــ الصاحبة[٤] : شخصية معروفة فحسب .

٥ ــ صاحبة إيجابية من خلال الجماعة[٥] : شخصية تعمل معها فى جماعة ما ، ولكن لا تعرف عنها شيئاً أكثر من ذلك .

٦ ــ صاحبة سلبية من خلال الجماعة[٦] : شخصية تحضر اجتماعات الجماعة ، لكنها لا تقوم فيها بدور إيجابى .

٧ ــ المتفرجة : شخصية تعرفها اسماً ، لكنها لا تتكلم معها . (E. Hurlock 1949, p. 168.

---

(١) the confidente　　(٢) the intimate

(٣) the familiar　　(٤) the acquaintance

(٥) the active group-acquaintance　　(٦) the passive group-acquaintance

ولا جدال فى أن المراهقة لا تصنف زميلاتها بوضوح عقلى على هذا النحو ، لكن سلوكها يكشف عن أنها تصنفهن فى مرتبتين أو ثلاث على الأقل . وقد أوردنا فى استخبار طبقناه على عدد من المراهقين والمراهقات فى بعض المدارس المصرية هذين السؤالين . « هل تحدث أصدقاءك فى جميع أسرارك وتعرض عليهم جميع اهتماماتك ؟ » و « هل أصدقاؤك جميعاً فى مرتبة واحدة بالنسبة إليك ، أم بعضهم أقرب إليك من البعض الآخر ؟ » فكانت الإجابات غالباً من هذا الطراز : « ليست كلهن بل واحدة فقط تلك أحدثها فى كل شىء » .. « كلا ليست صديقاتى كلهن فى مرتبة واحدة بالنسبة إلى ، فبعضهن أقرب إلىّ ، والسبب فى ذلك أننى أشعر بشىء من الميل نحو هؤلاء أكثر من الأخريات ، وأن هذا الميل يكون عادة متبادلاً بيننا » . وقالت فتاة أخرى : « أحدّث الأولى منهن فى جميع أسرارى على وجه التقريب وأقلل ذلك بالنسبة للأخريات . أعرض عليهن جميع اهتماماتى تبعاً لظرفها » . « لسن جميعاً فى مرتبة واحدة ، والأولى هى المقربة إلىّ أكثر منهن ..... والفرق بينها وبينهن هو أنها تعرف عنى بعض مسائلى الشخصية أكثر مما تعرف الآخريات ولا أعرف سبباً لذلك ، إلا أنها هى الأخرى تفضى إلىّ بعض مسائلها الشخصية دون الأخريات . ... وكذلك تفعل الأخريات ، فهن أكثر تقرباً بالنسبة لبعضهن البعض أكثر منا نحن الاثنتين فى ناحية المسائل الشخصية فقط لا غير » . وأجاب أحد المراهقين بقوله : « الحقيقة أن بعض أصدقائى أقرب إلىّ من البعض الآخر . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى قدم عهد الصداقة ، أو كثرة الاختلاط ، أو المشاركة فى استذكار الدروس بالمنزل مثلاً أو التمتع بكثير من الصفات أو المزايا عن غيره مثلاً ... وهكذا » . وأجاب مراهق آخر بقوله : « أصدقائى ليسوا على مرتبة واحدة تبيح لى أن أحدثهم عن أسرارى أو اهتماماتى ، فبقدر قربهم أو بعدهم يكون تصريحى بأسرارى ..... غير أنى مع بعضهم أكثر تحفظاً منى مع الآخرين ، أو بعبارة أخرى ليس بينى وبين بعضهم كثير كلفة ، على حين تزيد مع الآخرين أو تنقص » . ..... وهكذا الحال فى

معظم الإجابات ، فهى تكشف عن هذه الحقيقة الهامة ، أعنى التغاير داخل جماعات أصدقاء المراهقين .

على أن هذه الصفات التى نثبتها لجماعات المراهقين من تماسك وثبات وتغاير ، ينبغى ألا تحملنا على المغالاة فى تقدير المستوى الارتقائى لهذه الجماعات . فإن نظرة مدققة إلى نوع النشاط الذى تنفق فيه هذه الجماعات وقتها كفيلة بأن تبين لنا أن هذه الجماعات وإن كانت أشد ارتقاء من جماعات الطفولة فإنها لا تزال فى مستوى أدنى من مستويات أخرى يمكن للجماعات الإنسانية أن تبلغها. ذلك أن النشاط الرئيسى الذى يملأ وقت هذه الجماعات هو غالباً مجرد الحديث فى الأسرار والاهتمامات الشخصية والتفاهات . فليس ثمة عمل منظم تقوم به ، ولا هدف تعمل على تحقيقه ، وسوف نبين فى القسم التالى من هذا البحث أن الشعور بهدف موحد ، والاتفاق على السعى نحو تحقيقه عن طريق العمل المنظم ، وما يتيحه هذا العمل من تقسيم للمهام وشعور بأن الشخص فى هذه الحال جزء من كل ، وما يحتمه إتمام المشروع من تعاطف وتبادل للاقتراحات والمعونة سوف نبين أن توفر هذه العناصر جميعاً شرط لا بد منه لبلوغ الجماعة أعلى مستويات التكامل الاجتماعى .

وهناك عدة دلائل أخرى ، يكشف عنها البحث الذى أجريناه ، وتؤيدها ملاحظات قام بها باحثون آخرون ، تحملنا على ضرورة عدم المغالاة فى تقدير المستوى الارتقائى لجماعات المراهقين .

بحث تجريبى فى ظاهرة الصداقة عند المراهقين والراشدين:

هدف البحث :

الكشف عن بعض العوامل التى تتدخل فى اختيار المراهقين والراشدين — من الذكور والإناث — لأصدقائهم . وذلك فى حدود بيئة معينة من من بيئات المجتمع المصرى .

مادة البحث :

١١٠٦ شخصاً . بينهم ٧٩٨ مراهقون و ٣٠٨ راشدون وهم موزعون على النحو الآتى :

المراهقون : ٤٠٠ ذكور . بينهم ٣٦٨ مراهق مسلم و٣٢ مراهق مسيحى.
٣٩٨ إناث . بينهن ٣٤٥ مراهقة مسلمة و٥٣ مراهقة مسيحية .
الراشدون : ١٨٦ ذكور . بينهم ١٣٩ مسلم و٤٧ مسيحى .
١٢٢ إناث . بينهن ٨٩ مسلمة ، ٣٣ مسيحية .

وقد اعتبرنا مرحلة المراهقة بين ١٢ سنة (وشهور) و١٩ سنة (وشهور) . أما الراشدون فكانت أعمارهم تتراوح بين ٢٠ سنة و٤٦ سنة .

ملحوظة :

جميع المراهقين وبعض الراشدين طلاب فى المدارس والمعاهد المصرية الآتية : مدرسة محمود فهمى النقراشى النموذجية . رقى المعارف الثانوية . معهد التربية الابتدائى للمعلمين بالزيتون . كلية الآداب بجامعة القاهرة . مدرسة الأميرة فوقية الثانوية . الثانوية الفنية بالحويانى . معهد التربية الفنية للمعلمات . وجميع هذه المدارس والمعاهد بالقاهرة .

مدرسة الرمل الثانوية . الفاروقية الثانوية . معهد التربية الابتدائى للمعلمين بالإسكندرية . الفنية الثانوية بلوران . وجميع هذه المدارس والمعاهد بالإسكندرية

ومدرسة أبى كبير الثانوية . وهى بمديرية الشرقية .

أما الراشدون والراشدات فمعظمهم من الموظفين الحكوميين ، إن لم يكونوا من طلبة المعاهد العليا والكليات .

ويلاحظ أن مجموع المجيبين ، من مراهقين وراشدين ، من أبناء الطبقتين المتوسطة الدنيا والمتوسطة العليا . ولكن يغلب بينهم أبناء الطبقة الأولى .

حدود تعميم نتائج هذا البحث :

لا يمكن اعتبار مادة هذا البحث عينه ممثلة للمراهقين والراشدين فى المجتمع المصرى بأكمله . وهذه الحقيقة تحتمها أولاً الوسيلة التى اعتمدنا عليها فى جميع ملاحظاتنا ، وكذلك البيئات التى قصدنا إليها لجمع هذه الملاحظات .

فالوسيلة هى الاستخبار ، وهذه تتطلب من المجيب معرفة بالقراءة والكتابة . والفئات الاجتماعية الاقتصادية التى تستطيع أن توفر هذا الشرط لأبنائها ضيقة الحدود بالنسبة للفئات التى لا تستطيع . وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للفئات التى تستطيع أن تلحق أبناءها بالمدارس الثانوية والمعاهد .

لذلك ينبغى اعتبار مادة البحث هنا عينة ممثلة لأبناء الطبقة المتوسطة من المجتمع المصرى فحسب * وقد راعينا تنويع العينة بقدر المستطاع ، بين ذكور وإناث ، ومقيمين فى المدن ومقيمين قريباً من المناطق الريفية . ونظراً للاختلاف الملحوظ بين نمط الحياة الاجتماعية فى الأسرة الإسلامية وبينه فى الأسرة المسيحية فقد راعينا هذا العامل أيضاً بتنويع المجيبين بين مسلمين ومسيحيين .

طريقة البحث ووسائله :

ا — تطبيق استخبارين « الصيغة ا » و « الصيغة ب » . الأول لسبر الأعماق ، وذلك لكى نطلع على نماذج لعلاقة الصداقة ونكشف عن جوانبها الدقيقة المختلفة . ولذلك راعينا أن يحتوى هذا الاستخبار على كثير من الأسئلة ذات النهاية المفتوحة . (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 277) .

ومن أهم مزايا هذا النوع من الأسئلة أنه — لما يتيحه للمجيب من حرية فى الاستطراد والكشف عن أعماقه — يتيح لنا إعادة النظر فى صحة تأويلنا لكثير مما ورد فى الاستخبار الآخر المصمم على أساس أسئلة الاقتراع [1] . كما أنه يكشف عن جوانب يعجز الاستخبار الآخر عن الكشف عنها . على أن لهذا الاستخبار جوانب نقص لا يمكن التغلب عليها إلا بمشقة . وأهمها أنه لا يتيح تصنيف الإجابات بسهولة لكى يمكن معالجتها معالجة كمية كما هى

---

* وحتى فى هذه الحدود ، نرى ضرورة الوقوف موقف الحرص الشديد من تعميم النتائج ، أو محاولة ترتيب بعض النتائج العملية عليها . ونفضل الانتظار إلى أن يتاح لنا تطبيق الاستخبارات على عينة أوسع نطاقاً ، وأفضل توزيعاً .

(١) Poll questions أسئلة الاقتراع هى الأسئلة التى توضع بطريقة تحتم على المجيب أن يجيب إجابات محددة يمكن تحويلها مباشرة إلى قيم كمية .

الحال فى استخبارات أسئلة الاقتراع . هذا إلى أنه من العسير تطبيقه على نطاق واسع . وقد طبقناه فعلا على ٤١ حالة فقط . بينما رفض الكثيرون الإجابة .

أما استخبار « الصيغة ب » فقد أمكن تطبيقه على ١١٠٦ حالة . وتقوم أمام هذا النوع من الاستخبارات (المصمم على أساس أسئلة الاقتراع) عدة عقبات ، معظمها مترتبة على طريقتها فى توجيه الأسئلة بشكل مباشر، وتحديد فئات الإجابة التى ينبغى على المجيب أن يختار بينها . إلا أن معظم هذه العقبات يمكن التغلب عليها بتوسيع نطاق تطبيق الاستخبار ، وبالجمع بينه وبين استخبار ذى أسئلة مفتوحة كالاستخبار السابق ذكره . أضف إلى ذلك ضرورة اتباع طريقة سليمة فى إعداد هذا الاستخبار ، حتى تجد الأسئلة الواردة فيه صدى فى نفوس المجيبين ولا تبدو فى نظرهم تعسفية .

طريقة إعداد استخبار « الصيغة ب » :

١ — كلفنا عشرين شخصاً بعضهم من المراهقين وبعضهم من الراشدين ، والبعض ذكور والبعض إناث ، كل منهم على حدة ، بكتابة قائمة بالصفات التى يرون ضرورة توفرها فى أصدقائهم الحاليين والتى لولاها لما عقدوا هذا الصداقات ، والصفات التى يستحسنون وجودها فيهم لكنها ليست ضرورية جداً كضرورة الصفات السابقة ، والصفات التى يستقبحون وجودها ويتحملونها على مضض ، والصفات التى إذا وجدت فإنها تقضى على الصداقة.

٢ — نُبه على المجيبين بأن لهم الحرية التامة فى الاستطراد والشرح والتعليق كيفما شاءوا .

٣ — جُمعت الصفات الواردة فى إجاباتهم ، ورتبت (مع بعض التنقيحات اللازمة) فى الاستخبار الذى نحن بصدده .

ملحوظة :

هذه الصورة للاستخبار « الصيغة ب » ليست من ابتكارنا لكننا اطلعنا عليها فى البحث الذى نشره ونسلاو C. N. Winslow وفرانكل

M.N. Frankel بعنوان « استخبار لدراسة السمات التى يعتبرها الراشدون ذات أهمية فى تكوين الصداقات مع أفراد من نفس شقهم » (C, N. Winslow & M. N. Frankel 1941) وقد أعدنا تكوين الاستخبار على النحو الذى بيناه ، حتى يمكن تطبيقه فى بيئتنا المصرية . ويلاحظ أن الكثير من الصفات الواردة فى استخبارنا لم ترد فى استخبار هذين الباحثين ، كما أن الطريقة الرئيسية التى اتبعناها فى استغلال هذا الاستخبار مختلفة عن الطريقة التى اتبعها الباحثان . فنحن لم نعتمد تماماً على مضمون الإجابة لكننا اعتمدنا كذلك على شكل الإجابة *

(ب) بالإضافة إلى هذين الاستخبارين ، بدأنا فى إجراء دراسة سوسيومترية لبعض مجاميع الطلاب . ولكن لما كان عدد أفراد العينة ضئيلا ، فإننا لا نزال بصدد التوسع فى إجرائها حتى تكون لنتائجها دلالة موضوعية . ومن ثم فسوف نقتصر هنا على ذكر هدفنا من هذه الدراسة والطريقة التى اتبعناها ، وما يبدو أنه الاتجاه العام للنتائج . وفيما يلى نص الاستخبارين :

« استخبار »

(الصيغة ا)

ملحوظة عامة :

ليس المقصود من هذا الاستخبار سوى الوصول إلى معلومات دقيقة عن العوامل الحقيقية التى تتحكم فى الصداقة كما هى فى الواقع . ولما كان الدافع إلى وضع هذا الاستخبار هو البحث العلمى فقط فإننا نرجو من المجيب أن يحاول التدقيق فى إجابته بقدر الإمكان ، غير متأثر فى ذلك بأى حكم أخلاقى أو اجتماعى ، لأننا لسنا هنا بصدد الحكم على درجة سمو الصداقة أو ما إلى ذلك ،

---

* وذلك لأننا قصدنا إلى الإفادة من هذا الاستخبار فى اتجاه آخر غير الاتجاه الذى قصد إليه الباحثان . إذ قصدنا به إلى تحديد درجة « الصلابة الاجتماعية للأفراد » . على نحو ما سنبين . وهذا ما لم يقصد إليه الباحثان . بل قصدا مباشرة إلى تحديد الصفات التى يدخلها الأشخاص فى اعتبارهم أثناء عقد الصداقات . ومن ثم فقد اعتمدا كل الاعتماد على مضمون الإجابة .

ولكن بصدد تحليلها إلى عواملها الحقيقية . وبقدر وضوح هذه الحقيقة فى ذهن المجيب ستكون درجة تعاونه الفعال معنا . وليذكر دائماً أننا لن نطالبه بذكر اسمه . وقد تعمدنا ذلك ليشعر بمزيد من الحرية فى أن يذكر أى خبرة من خبراته مع أصدقائه .

نرجو استيفاء البيانات الآتية :

عمر المجيب.............................. الجنس (ذكر أم أنثى) ....

الديانة .... عدد الإخوة والأخوات ....

(إذا كان لك إخوة وأخوات) كم أكبر منك وكم أصغر منك ....

مهنة الوالد .... (تذكر مهنته حتى ولو كان متوفى) .

مهنة المجيب .... إيراد الأسرة فى الشهر .... (بقدر الإمكان من الدقة) .

محل إقامة الأسرة .... (فى معظم أيام السنة) .

آخر مرحلة دراسية وصل إليها الوالد ....

آخر مرحلة دراسية وصل إليها المجيب ....

١ – هل لك أصدقاء الآن ....

(المقصود بالأصدقاء هنا الأشخاص الذين تقصد إلى الالتقاء بهم فى غير الأوقات الاضطرارية – كوقت العمل أو الدراسة – وتشعر أنك تقضى معهم وقتاً ساراً وتحدثهم فى أشياء عزيزة عليك وتعرض عليهم بعض اهتماماتك أو شكاواك) .

(إذا كنت أجبت بلا .... أى أنك ليس لك أصدقاء

الآن .... فأجب عن السؤال الآتى :

هل كان لك أصدقاء .... (إذا أجبت بنعم)

فكم كان عددهم .... ولماذا انقطعت الصلة بينك وبينهم

.... ولماذا لم تعقد صداقات جديدة مع غيرهم ....

(إذا أجبت على هذه الأسئلة أو إذا كنت قد أجبت بلا على سؤال « هل كان لك أصدقاء » ، فأعد الورقة إلى من سلمها إليك) .

(أما إذا كنت قد أجبت بنعم على سؤال « هل لك أصدقاء الآن » فأجب على الأسئلة التالية :

٢ – كم عدد أصدقائك ....

٣ – هل فيهم الذكور والإناث أم جميعهم ذكور فقط أم إناث فقط ....

٤ – ما عمر كل منهم تقريباً ....

٥ – ما ديانة كل منهم ....

٦ – آخر مرحلة دراسية وصل إليها كل منهم ....

....

٧ – فى مستواهم الاجتماعى والاقتصادى (كما يبدو فى ملابسهم ومسكنهم وكمية النقود التى يحملونها معهم عادة) هل تعتبرهم مثلك تقريباً ، أم أعلى منك كثيراً ، أم أدنى منك كثيراً

....

٨ – منذ متى بدأت صداقتكم ....

ابتداء من هنا نرجو الإجابة فى ورقة منفصلة :

ونرجو أن يتذكر المجيب بأننا لسنا بصدد إصدار أحكام أخلاقية على الصداقات المختلفة ، ولكن بصدد تحليلها إلى عواملها الحقيقية . والإجابة غير مقيدة من حيث الطول أو القصر . فللمجيب أن يسترسل فى إجابته كيفما شاء .

٩ – ماذا تذكر عن الظروف التى جمعت بينك وبين أصدقائك ؟ وما هى الظروف بالضبط ؟ وكيف أدت إلى ظهور صداقتكم ؟ هل تستطيع أن تحدثنا عما دفعك إلى تكوين هذه الصداقات ؟

١٠ – هل هناك موضوع معين يشغل معظم أحاديثكم عند ما تلتقون ؟ أم كيف تقضون الوقت معاً ؟

١١ – هل استمر السبب الأصلى لقيام صداقتكم حتى الآن ؟ أم تغير ؟ وإذا كان تغير فكيف تم هذا التغير ؟

١٢ – هل تحدث أصدقاءك فى جميع أسرارك وتعرض عليهم جميع اهتماماتك ؟

١٣ – هل أصدقاؤك جميعاً فى مرتبة واحدة بالنسبة إليك ؟ أم بعضهم أقرب إليك من البعض الآخر ؟ وإذا كان بعضهم أقرب إليك فماذا تظن السبب فى زيادة قربه ؟

١٤ – هل تعرضت صداقتك هذه لأزمات ؟ إذا كانت إجابتك بنعم فنرجو أن تبين كيف وقعت هذه الأزمات ومنذ متى ؟ وهل انتهت أم لا ؟ وإذا كانت قد انتهت فكيف ؟

١٥ – هل تتوقع لصداقتك هذه أن تدوم طويلا أم لا ؟

١٦ – هل لأصدقائك أصدقاء آخرون لا تعرفهم ؟ فى حالة الإجابة بنعم نرجو الإجابة على الأسئلة التالية :

(ا) متى اتخذوا هؤلاء الأصدقاء الذين لا تعرفهم ؟

(ب) هل اهتممت بمعرفتهم ؟

(ج) هل يهمك أن تعرف رأيهم فيك ؟

(د) هل يهمك أن تذكر أخبارك لهم أم لا تذكر أم لا هذا ولا ذاك ؟

١٧ – هل كانت لك صداقة أو صداقات سابقة وانقطعت ؟

فى حالة الإجابة بنعم نرجو الإجابة على السؤالين التاليين :

(ا) كم من الوقت استمرت تقريباً .

(ب) ماذا تذكر عن أسباب انقطاعها .

« استخبار »

(الصيغة ب)

فيما يلى قائمة لصفات قد تتوفر فى بعض الأشخاص . والمرجو ترتيب هذه الصفات بوضع إحدى العلامات التالية أمام كل صفة ، مع الرجوع فى ذلك إلى مالك من خبرة فى عقد بعض الصداقات الوثيقة مع أفراد من جنسك (شبان إذا كنت شاباً وفتيات إذا كنت فتاة) خلال فترة الخمس سنوات الماضية :

+ ٢ الصفات التى لا بد من توفرها لقيام الصداقة .

+ ١ الصفات التى أرغب فى توفرها لقيام الصداقة .

• الصفات التى لا تهمنى فى حكمى على من أصادق .

– ١ الصفات التى يحسن ألا توجد ، لكنها على كل حال محتملة .

– ٢ الصفات التى يجب ألا توجد ، وإذا وجدت فلا يمكن قيام الصداقة .

١ – الصراحة	٧ – حسن التصرف
٢ – حب الغير	٨ – الاهتمام بالثقافة
٣ – التعاون	٩ – سعة الأفق
٤ – التسامح	١٠ – الاهتمام بالمسائل السياسية
٥ – الإخلاص	١١ – الاستقلال بالرأى
٦ – الأخذ بالآراء الرجعية فى الحياة	١٢ – الطيبة

١٣ — المرح
١٤ — الوفاء
١٥ — النظافة
١٦ — لاهتمام بالمسائل الدينية
١٧ — الذكاء معادل لذكائك
١٨ — الخبرة بشئون الحياة العملية
١٩ — الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية
٢٠ — الأخذ بالآراء التقدمية فى الحياة
٢١ — التشبث بالرأى
٢٢ — الغرور
٢٣ — المستوى المادى أعلى من مستواك
٢٤ — عدم الميل إلى المرح
٢٥ — الانتهازية أو الوصولية
٢٦ — مستوى أخلاق رفيع
٢٨ — الكذب
٢٨ — المستوى الاجتماعى معادل لمستواك
٢٩ — أهل للثقة
٣٠ — الكرم
٣١ — الشجاعة
٣٢ — الاتزان
٣٣ — الذكاء يفوق ذكاءك
٣٤ — الجد فى الحياة
٣٥ — حب العزلة
٣٦ — الاعتداد بالكرامة
٣٧ — الانصراف عن التفكير فى المشاكل الاجتماعية
٣٨ — حسن السمعة
٣٩ — المستوى المادى دون مستواك
٤٠ — ضيق الأفق
٤١ — الشخصية الجذابة

٤٢ — البخل
٤٣ — الجبن
٤٤ — الأنانية
٤٥ — التشاؤم
٤٦ — عدم احترام الشخص لنفسه
٤٧ — الانصراف عن التفكير فى المسائل الدينية
٤٨ — قلة الذوق
٤٩ — الذكاء دون ذكائك
٥٠ — حب السيطرة
٥١ — الكبرياء
٥٢ — الجهل
٥٣ — الثرثرة
٥٤ — الحقد
٥٥ — المستوى الاجتماعى أعلى من مستواك
٥٦ — سوء السمعة
٥٧ — كثرة النقد لمواقفك
٥٨ — العمر مساو لعمرك
٦٩ — التهكم دائماً
٦٠ — عدم المشاركة فى اهتماماتك
٦١ — سوء التصرف
٦٢ — قبح المنظر
٦٣ — المستوى الاجتماعى دون مستواك
٦٤ — الانحلال الخلقى
٦٥ — النفاق
٦٦ — أصغر منك سناً
٦٧ — التشابه فى العقيدة الدينية
٦٨ — عدم احترام الآخرين
٧٩ — التشابه فى الرأى السياسى
٧٠ — المستوى المادى معادل لمستواك

جنس المجيب (ذكر أم أنثى) :
الديانة :
السن :
مهنة الأب (أو المجيب) :

ملحوظة :

١ ــ بعض نسخ هذا الاستخبار طبع عليها هذان السؤالان :

هل لك أصدقاء ؟

كم عددهم ؟

٢ ــ مجموعة التعليمات التالية كانت تلقى على المجيبين على سبيل الشرح ، وذلك فى البداية قبل بدء الإجابة :

(ا) الاختبار لا يتضمن الحكم بالخطأ أو الصواب على أية إجابة .

(ب) المقصود بهذا الاختبار الكشف عن الفروق بين ميول الأفراد فى اختيارهم لأصدقائهم . وعلى ذلك يجب أن يتحرى المجيب ميوله الشخصية الخاصة بغض النظر عن مدى اتفاق هذه الميول مع ما تقضى به الأوضاع والتقاليد .

(ج) يجب أن تتم الإجابة فى نفس الجلسة التى وزع فيها الاستخبار .

(د) ممنوع على المجيبين (إذا كانوا مجتمعين معاً أثناء الإجابة) أن يتناقشوا فى أى شيء يتعلق بالاختبار قبل الإجابة أو أثناءها .

طريقة تحليل الاستخبارين :

١ ــ الاستخبار الأول « الصيغة ا » بالاعتماد مباشرة على تحليل مضمون الإجابات ، تحليلاً أوليًّا دون ضبط كمى .

٢ ــ الاستخبار الثانى « الصيغة ب » :

(ا) بإحصاء عدد المرات التى يقطع فيها المجيب بالقبول أو بالرفض وذلك بوضع العلامة (+ ٢) أو (ــ ٢) . واعتبار المجموع دالاً على درجة النضج الاجتماعى للشخص . بحيث أن الارتفاع النسبى فى المجموع يدل على انخفاض

فى درجة النضج ، والانخفاض النسبى فى المجموع يدل على ارتفاع فى درجة النضج .

أساس هذا الاعتبار :

الأساس العميق لهذا الاعتبار هو تصورٌ جشطلتى ، « مطاوعة الشخصية » و « تصلبها » . وقد عرف لفين K. Lewin المطاوعة بأنها القابلية للتشكل .وتدل الملاحظة العابرة فى الحياة ، وملاحظات اندرسون H.H. Anderson) على السلوك المتكامل اجتماعياً (H.H. Anderson 1943)) على أن حظ الشخص من النضوج الاجتماعى يتناسب طردياً — فى حدود معينة — مع مطاوعته ، واعترافه بفوارق الغير ، والتماس التعاون من خلال هذه الفوارق ، بفضلها أحياناً وعلى الرغم منها أحياناً أخرى .

فإذا نقلنا هذه الفكرة العامة ، للإفادة منها فى بحثنا هذا فالشخص الذى لا يستطيع إلا أن يقبل كلية أو يرفض كلية (+ ٢ أو — ٢) فى معظم مواد الاستخبار لا شك فى أنه أقل نضجاً فى السلوك الاجتماعى من شخص يغلب عليه أن يقبل بعض الصفات فى أصدقائه على مضض فى سبيل ما لهم من مزايا أخرى ، كما يغلب عليه فى اشتراطاته لتوفر صفات معينة ألا يميل إلى القطع بأنها إذا لم توجد فسيبتر الصداقة أو لا يقيمها . وهذا الاستعداد للتنازل وقبول بعض الصفات على مضض فى سبيل صفات أخرى ، يدل — إلى جانب دلالته على مطاوعة الشخصية — على ازدياد تبصرها بالواقع الاجتماعى ومقتضياته . كما أنه يدل على قدرة على « تأجيل الرغبات » ، أعنى تأجيل الرغبة فى أن يتصف الصديق بكذا وكذا ، وعلى الاستعداد للبذل ، أعنى لبذل المجهود ، عسى أن يتطور الصديق من خلال صداقته معه .

وقد وضعنا هذا الفرض ، وعلى أساسه بدأنا نستخلص النتائج فجاءت محققة له ، على نحو ما سنبين فيما يلى .

(ب) بإحصاء عدد المرات التى يقطع فيها المراهقون (بوضع + ٢) بضرورة توفر « مستوى أخلاقى رفيع » عند الصديق ، (مادة رقم ٢٦ فى الاستخبار) . وذلك لتحقيق فرض وضعه ڤالون على سبيل الملاحظة العابرة على مميزات سلوك المراهق ؛ إذ يقول إن من أهم مميزات سلوكه الاجتماعى أنه يبحث دائماً عن تبريرات أخلاقية لأفعاله . * (H. Wallon 1941, p. 218)

(حـ) لتوضيح دلالة إجابات المراهقين سنورد أيضاً نتائج إجابات الراشدين . إذ لا تتضح هذه الدلالة إلا على أساس هذه المقارنة .

النتائج :

أولاً : نتائج استخبار « الصيغة ا » :

ملحوظة :

عدد المراهقات المجيبات على هذا الاستخبار ١٥ فتاة . وجميعهن فى فترة المراهقة المتأخرة ، إذ تتراوح أعمارهن بين ١٦ سنة و ١٩ سنة (وشهور) .

عدد المراهقين المجيبين على هذا الاستخبار ٩ فتيان . وجميعهم فى فترة المراهقة المتأخرة ، إذ تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و ١٩ سنة (وشهور) .

عدد الراشدين والراشدات المجيبين على هذا الاستخبار ٢١ شخصاً . وتتراوح أعمارهم بين ٢٠ سنة و ٣٣ سنة .

---

* يقرر ڤالون هذا الفرض فى الصورة الآتية :
إن علاقات المودة والمنافسة التى يعقدها المرء فى بدء مرحلة المراهقة ، تحاول أن تبرر نفسها على أسس أخلاقية .
وفى محاولتنا التثبت من صحة هذا الفرض على أساس من المشاهدة والضبط الإحصائى تبين لنا أنه يصدق بالنسبة لفترة المراهقة بمرحلتيها المبكرة والمتأخرة .

١ — صداقات المراهقة ، سواء عند المراهقات والمراهقين * ، تجمعات تقوم لرغبات فى التجمع . وليس لها هدف محدد ، ولا عمل منظم (فى خطوات) وموزع على الأعضاء للوصول إلى هذا الهدف . ويستمتع أعضاء هذه التجمعات بمجرد تجمعهم ، ويمارسون شعورهم بالتجمع بالتحدث معاً فى أى شىء (لا شىء على وجه التخصيص) . وأحاديثهم تكاد تكون طقوساً متكررة يمارسونها ليجددوا ارتباطهم ويزيدوه توثقاً .

٢ — موضوعات الحديث التى يطرقها المراهقون والمراهقات مع أصدقائهم متماثلة إلى حد كبير . وهى محصورة غالباً فى النطاق الآتى :

الشكوى المتبادلة — المسائل المدرسية — الحب والزواج — السينما — أحداث لم يشهدها الصديق — النكت والنوادر — وقليل جداً من المسائل السياسية والاجتماعية وقد وردت فى إجابات المراهقات موضوعات أخرى لا وجود لها فى إجابات المراهقين . أهمها :

أحاديث الموضة — الحديث عن المدرّسة المحبوبة .

كما ورد فى إجابات المراهقين موضوع الألعاب الرياضية ، وهو ما لم يرد فى إجابات المراهقات .

٣ — أما ضروب النشاط الحركى التى يمارسونها فهى :

الضحك والتهريج — لعب الشطرنج — الزيارات المنزلية المتبادلة — النزهات الخلوية .

٤ — الأسباب التى يعتقد المراهقون والمراهقات أنها قائمة وراء نشوء صداقاتهم هى :

اتفاق الآراء — اتفاق الذوق — اتفاق العادات والأخلاق — ميل الشخص

---

* التحليل الذى نورده فيما يلى تحليل أولى للإجابات ، لا يقوم على التقدير الكمى الدقيق لورود كل عنصر من عناصر الإجابة . وقد اضطررنا إلى ذلك نظراً لقلة عدد الإجابات التى حصلنا عليها . على أن قلة عدد الإجابات لم تكن لتغنينا عن إيراد هذه النتائج نهائياً ، لا سيما وقد لاحظنا أنها تتفق فى اتجاهاتها العامة مع ما تشير إليه نتائج بحوث أخرى سابقة .

إلى المصادقة — تشابه العائلات .

أما خبرات الحياة التى يكتشف المراهقون والمراهقات من خلالها هذا الاتفاق فهى :

الإعجاب بمدرّسة واحدة (لدى المراهقات) — مواجهة موقف معقد معاً ومتشابه بالنسبة للطرفين من حيث وطأته — أداء خدمة فى وقت الشدة .

٥ — يلاحظ أن هذه الصداقات تنعقد بسهولة ، بعد وقت يسير من بدء التعارف . والفرص المهيئة لانعقادها عادة هى التجاور المكانى فى المسكن أو فى المدرسة ، وصلة القربى العائلية .

كما يلاحظ أنها تتفرق بسهولة ، ويكون ذلك غالباً نتيجة للبعد المكانى . ويلاحظ بالرغم من هذه السهولة التى تنعقد بها تلك الصداقات وتتفرق ، يلاحظ أنها تنطوى على شحنة عاطفية كبيرة يعبر عنها المراهقون بطرق متعددة .

٦ — تجمعات « صداقات المراهقة » ، سواء لدى الفتيان والفتيات ، يسودها التجانس من حيث الشق ؛ فهم غالباً ذكور جميعاً أو إناث جميعاً .

والسن فهم غالباً مراهقون جميعاً .

والدين فهم غالباً من دين واحد .

والمستوى الاجتماعى الاقتصادى .

٧ — برغم هذا التجانس فى الشق والسن والدين والمستوى الاجتماعى الاقتصادى ، فإن جماعات المراهقين يسود فيها غالباً عدم التجانس من حيث المسافة النفسية الاجتماعية بين الأعضاء . فبعضهم أقرب إلى بعض من الآخرين . وهذا صحيح بالنسبة للمراهقين والمراهقات .

٨ — تجمعات « صداقات المراهقة » مغلقة غالباً . و « الأسرار » التى لا تذاع هى من أبرز دلائل هذا الإغلاق ، كما أنها من أبرز الوسائل لإحكامه . وهذا صحيح بالنسبة للمراهقين والمراهقات .

إلا أن جماعات المراهقات تمتاز بميزة أخرى تبرز هذا الإغلاق وتزيد من

إحكامه ؛ وهى « الغيرة » من أية صديقة جديدة .

٩ — تكشف إجابات المراهقين عن ضعف استبصارهم بمقتضيات الواقع الاجتماعى واحتمالاته ويتبين ذلك بوضوح فى إجاباتهم على السؤال رقم ١٥ : « هل تتوقع لصداقتك هذه أن تدوم طويلاً أم لا ؟ » إذ أجاب معظمهم بحماس ، بأنها ستدوم طويلاً ، وإلى الأبد .

١٠ — هناك بعض الاختلافات بين إجابات المراهقين وإجابات المراهقات . ومن أوضح هذه الاختلافات أن المراهقين أقل اندماجاً فى صداقاتهم من المراهقات . ويتضح ذلك فى أن نسبة كبيرة من الفتيان أبدوا تحفظهم فيما يتعلق بالإفضاء بأسرارهم إلى أصدقائهم . فى حين أنه ندر بين الفتيات أن وجدت تلك التى كانت تبدى تحفظاً فى هذا الصدد . بل إن معظمهن يعترفن بالتصريح بجميع أسرارهن لصديقاتهن .

١١ — من الفوارق أيضاً ما لاحظناه من أن إجابات المراهقات كانت أكثر صراحة وانطلاقاً من إجابات المراهقين بوجه عام .

١٢ — من الفوارق كذلك ما لاحظناه من أن إجابات المراهقين كانت تفوق إجابات المراهقات من حيث الاستبصار بعوامل الحياة الاجتماعية التى سوف تحول دون دوام الصداقة إلى الأبد .

وفيما يلى نورد خلاصة إجابات الراشدين حتى تتضح الدلالة الارتقائية لإجابات المراهقين :

١ — موضوعات الحديث التى يتناولها الراشدون يكثر فيها ذكر المشكلات الاجتماعية والسياسية .

٢ — يذكر بعض الراشدين أن صداقاتهم بدأت أثناء الاشتراك فى عمل واحد (سياسى — رياضى — محاولة التغلب بشكل جماعى على عقبة قامت فى الطريق) ويذكر البعض مجالات معينة من النشاط ارتبطوا فيها بأصدقائهم . (النشاط الأدبى — أو الفلسفى — أو الدينى) . ويرد ذكر الشدائد والمصائب على أنها من

العوامل التى قوت من أواصر الصداقة .

كما يرد ذكر اتفاق الآراء ، وغرابتها فى الوقت نفسه أمام الغالبية ، على أنه من الأسباب التى تدفع أحياناً إلى عقد الصداقة .

٣ — من الفرص المهيئة لانعقاد الصداقة التجاور المكانى .

٤ — التغاير فى جماعات الأصدقاء الراشدين أكثر وضوحاً منه فى جماعات الأصدقاء المراهقين ، وذلك من حيث :

الشق : يرد فى بعض الإجابات ذكر صداقات من الشقين .

السن : فأعمار الأصدقاء تتفاوت أحياناً بمسافات كبيرة . ويحدث ذلك فى عدة حالات . إذ يصل الفرق أحياناً بين أعمار الأصدقاء إلى حوالى ١٦ سنة .

الدين : فقد ورد ذكر بعض صداقات بين مسلمين ومسيحيين .

المستوى الاجتماعى الاقتصادى : ورد ذكر صداقات عقدت بين أفراد من مستويات اجتماعية اقتصادية متفاوتة .

الثقافة : كذلك ورد ذكر صداقات كثيرة بين أشخاص توفروا على أنواع مختلفة من الثقافات .

٥ — يلاحظ فى إجابات الراشدين تحفظ واضح فى أحاديثهم عن دوام الصداقة . وهذا يشير إلى زيادة استبصارهم بمقتضيات الواقع الاجتماعى واحتمالاته .

٦ — كذلك يلاحظ فى إجاباتهم التحفظ فى موضوع ذكر الأسرار للأصدقاء . وقد نفى كثيرون منهم ذلك بوضوح .

ثانياً : نتائج استخبار « الصيغة ب »

ملحوظة :

(ا) نشير « بدرجة التصلب الاجتماعى » إلى عدد مرات القطع (+ ٢ أو — ٢) . وبناء على التوضيح السابق يمكن أن يقال إن درجة التصلب الاجتماعى تتناسب عكسياً مع درجة النضج الاجتماعى .

(ب) فيما يلى بيان بالتوزيع التكرارى للمراهقين والمراهقات فى عينة البحث حسب فئات العمر :

بيان بالتوزيع التكرارى للمراهقين والمراهقات
فى عينة البحث حسب فئات العمر

فئات العمر بالسنة	مراهقون	مراهقات
من ١٢ – أقل من ١٣	٨	٣
١٣ – » ١٤	٤٦	٦
١٤ – » ١٥	١٥	١٥
١٥ – » ١٦	١١٤	٤٢
١٦ – » ١٧	٦٩	٨٦
١٧ – » ١٨	٣٤	٨١
١٨ – » ١٩	١٩	٩٢
١٩ – » ٢٠	٢٤	٧٣

ويلاحظ أن هناك فرقاً واضحاً بين توزيع أفراد العينة فى الجدولين (الفرق بين المجموعتين جوهرى فى مستوى ٠,٠١ إذ تبلغ قيمة الكاى تربيع ٢٠٩,٩٥) ؛ فمعظم أفراد عينة المراهقين متجمعون فى فترة المراهقة المبكرة (من ١٢ – أقل من ١٦ سنة) فى حين أن معظم أفراد عينة المراهقات متجمعات فى فترة المراهقة المتأخرة (من ١٦ – أقل من ٢٠ سنة) . ومن شأن هذا الفرق أن يجعل العينتين غير متماثلتين ، ومن ثم يتعذر علينا المقارنة بين المتوسطات الدالة على خصائص السلوك فى كل منهما . إذ أننا سنكون فى هذه الحالة بصدد مقارنة بين سلوك المراهقين الذكور فى فترة المراهقة المبكرة وبين سلوك المراهقات فى فترة المراهقة المتأخرة ، وهذا من شأنه أن يضلل البحث . لذلك فإننا نتوقف عن عقد هذه المقارنات حتى يتم لنا التوسع فى تطبيق الاستخبار بما يضمن للعينتين درجة مرتفعة من التماثل من حيث توزيع العمر الزمنى . أما الآن فإننا نقتصر على المقارنة بين المراهقين وبين الراشدين فى جملتهم بغض النظر عن فروق الجنس والدين والطبقة الاقتصادية الاجتماعية .

النتائج :

١ – درجة التصلب الاجتماعي [١] :

متوسط درجة التصلب الاجتماعي للمراهق ٣٢,٩ .

» » » » للراشد ٢٩,١ .

والفرق بين هذين المتوسطين جوهري فيما بعد مستوى ٠,٠٠١ بكثير ، إذ تبلغ النسبة الحرجة ٥,٤٧ .

٢ – التزمت الخلقي : (فرض فالون) :

لاختبار صحة هذا الفرض اتبعنا الطريقتين الآتيتين :

(ا) الطريقة الأولى المقارنة بين النسبة المئوية للمراهقين المشيرين بضرورة (+ ٢) توفر مستوى أخلاقي رفيع وبين النسبة المئوية للراشدين المشيرين بذلك . فكانت النتيجة كما يلي :

٦٥,٥ ٪ من المراهقين أشاروا بضرورة توفر مستوى أخلاقي رفيع .

٥١ ٪ من الراشدين أشاروا بضرورة توفر مستوى أخلاقي رفيع .

والفرق بين النسبتين جوهري فيما بعد مستوى ٠,٠٠١ ، إذ تبلغ النسبة الحرجة ٤,٢ تقريباً .

---

(١) حاولنا تقدير درجة ثبات الاستجابات المتطرفة على الاستخبار (صيغة ب) واستخدمنا لذلك طريقتين :

(ا) طريقة تقسيم الاستخبار إلى نصفين متعادلين (البنود الزوجية – في مقابل البنود الفردية) وقد أعطتنا هذه الطريقة معامل ثبات مقداره ٠,٨٥ في حالة عينة من الذكور (ن = ١٠٠) . و ٠,٨٦ في حالة عينة من الإناث (ن = ١٠٠) . وبعد إجراء التصحيح اللازم لهذين المعاملين باستخدام معادلة سبيرمان – براون أصبحت قيمة كل منهما ٠,٩٢ .

(ب) طريقة إعادة تطبيق الاستخبار على نفس العينة ، وقد أجرينا هذه الطريقة أيضاً وكانت الفترة الفاصلة بين مرتي التطبيق أسبوعاً ، فكان معامل الثبات ٠,٦٦ (ن = ٢٦ ، منهم ١٦ ذكور و ١٠ إناث) . انظر البحوث التجريبية التالية التي نشرت عن هذا الاستخبار :

Soueif, M.I. Extreme Response Sets as a Measure of Intolerance of Ambiguity *Brit. j.Psychol.*, 1958,49,329-334.

سويف (مصطفى) «الاستجابات المتطرفة لدى مجموعة من الأحداث الجانحين» ، المجلة الجنائية القومية ، ١٩٥٨ ، ١ ، ص ٢٤ – ١٩٥٩,٠٣٨ ، ٢ ، ص ٨٩ – ٩٥ .

(ب) الطريقة الثانية هى طريقة حساب الكاى تربيع . وعلى أساس هذه الطريقة تبين أن الفرق بين إجابات المراهقين وإجابات الراشدين جوهرى فى مستوى ٠١, (إذ تبلغ قيمة الكاى تربيع ٢٥,٧٦) .

ثالثاً : تخطيط أولى لدراسة سوسيومترية :

الهدف من هذه الدراسة هو زيادة توضيح أثر درجة التصلب الاجتماعى للشخص فى صداقاته . وذلك بالإجابة التجريبية على الأسئلة الثلاثة الآتية :

السؤال الأول : هل هناك علاقة بين درجة التصلب الاجتماعى للأشخاص الذين اختار أحدهم الآخر صديقاً ؟

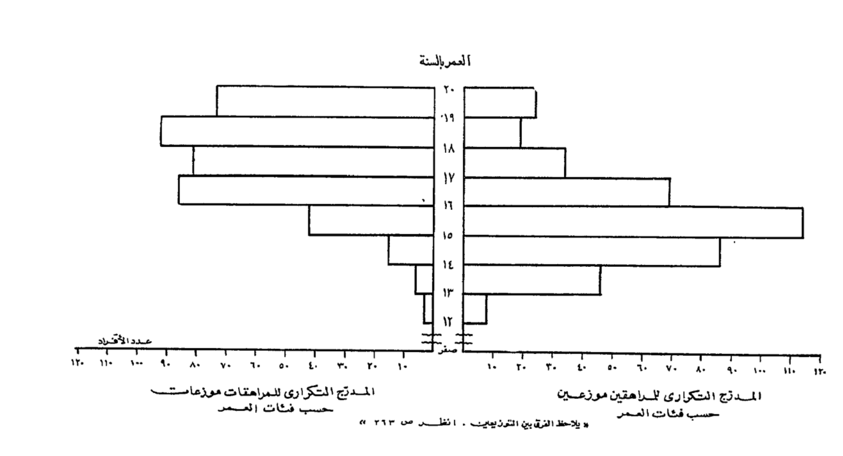
السؤال الثانى : هل هناك علاقة بين درجة الصلابة الاجتماعى لشخص ما و « قوة مركزه الاجتماعى » ؟(عدد الأشخاص الذين أجمعوا على اختياره صديقاً أو مقربا لهم).

السؤال الثالث : هل تدخل « قوة المركز الاجتماعى » للشخص كعامل من العوامل التى تؤثر فى صداقاته ؟ .

وتتلخص الطريقة التى اتبعناها فى محاولتنا الإجابة على هذه الأسئلة فيما يلى :

أولاً : وزعت على طلبة وطالبات بعض الفرق الدراسية بكلية الآداب بجامعة القاهرة (١٩٥١ — ١٩٥٢) نسخ من استخبار درجة التصلب الاجتماعى (الصيغة ب) لتحديد درجة تصلبهم الاجتماعى ، وكلفوا بكتابة أسمائهم على إجاباتهم .

ثانياً : كلفوا — مجتمعين — أن يكتب كل منهم أسماء ثلاثة أشخاص فى الفرقة يعتبرهم المجيب أصدقاءه أو أقرب الزملاء إليه . وقد تم ذلك دون السماح للطلاب بإجراء مناقشات فيما بينهم .



« يلاحظ الفرق بين التوزيعين . انظر ص ٢٦٣ »

ملحوظة : معظم الطلبة والطالبات كانوا من الراشدين .

وتدل النتائج الأولى لهذا البحث على ما يأتى :

بالنسبة للسؤال الأول : تميل الاختيارات المتبادلة فى الصداقة إلى أن تقع بين طرفين كلاهما ذو درجة تصلب اجتماعى دون المتوسط أو أحدهما دون المتوسط والآخر فوق المتوسط . ويندر أن يقع الاختيار المتبادل بين طرفين كلاهما ذو درجة تصلب اجتماعى فوق المتوسط . وربما كانت هذه الحقيقة أحد الشروط الهامة لاستقرار الصداقة . ومن الجلى أنها لا تتوفر بسهولة فى صداقات المراهقين والمراهقات .

بالنسبة للسؤال الثانى : يبدو أن هناك تناسباً عكسيًّا بين « درجة التصلب الاجتماعى» للشخص «وقوة مركزه الاجتماعى » . وبعبارة أخرى كلما أبدى الشخص فى سلوكه نحو الآخرين مظاهر المرونة أدى ذلك إلى زيادة احتمال أن يقبل عليه الآخرون ويتخذوه صديقاً .

وعلى ضوء هذا الفرض يتبين لنا جانب آخر من الصعوبات التى تقوم فى وجه استقرار الصداقات بين المراهقين وذلك لارتفاع درجة التصلب الاجتماعى لديهم بوجه عام .

بالنسبة للسؤال الثالث : يبدو أن الأشخاص ذوى المركز الاجتماعى القوى يتجهون عند عقد صداقاتهم « إتجاهًا تقريرياً » أى يتجهون إلى اتخاذ أصدقاء ذوى مركز اجتماعى قوى فى حين أن الأشخاص ذوى المركز الاجتماعى الضعيف يتجهون غالباً عند عقد صداقاتهم « اتجاهاً تعويضيًّا» أى يتجهون إلى اتخاذ أصدقاء « ذوى مركز اجتماعى قوى » .

ولتحقيق هذا الغرض تحقيقاً تجريبيًّا حاسماً (R. Thouless 1950) يمكن القيام بدراسات سوسيومترية للنظر فيما إذا كان الأفراد فى بعض المجموعات يغلب عليهم « الاتجاه التنزولى » فى اختيار أصدقائهم ، أى يختار ذوو المركز

الاجتماعى القوى أصدقاءهم غالباً من ذوى المركز الاجتماعى الضعيف . وللنظر أيضاً فيما إذا كان الأفراد ذوو المركز الاجتماعى الضعيف فى المجموعات يتجهون اتجاهاً تقريرياً فى اختيار أصدقائهم .

تعليق ومناقشة

فى هذا الفصل ، أوضحنا فى الجزء السابق على الدراسة التجريبية ، إلى أى مدى يعتبر السلوك الاجتماعى لدى المراهق أكثر ارتقاء من السلوك الاجتماعى عند الطفل . وجماعات المراهقين أكثر ارتقاء من جماعات الأطفال . أما هذه الدراسة التجريبية فيغلب عليها أن تبين إلى أى مدى يعتبر السلوك الاجتماعى لدى المراهق أقل ارتقاء من السلوك الاجتماعى عند الراشدين . وجماعات المراهقين توضع فى مستوى ارتقائى أدنى من مستوى جماعات الراشدين . وبالجمع بين هذين الطرفين يمكننا أن نكوّن فكرة على حظ لا بأس به من الدقة عن المستوى الارتقائى لسلوك المراهق فى الحياة الاجتماعية .

وأول ما توضحه لنا هذه الدراسة بعض الجوانب فى ديناميات جماعات المراهقين تزيد وضوح القضية التى تحدثنا عنها فى الجزء النظرى ؛ وهى بلوغ جماعات المراهقين مستوى أرقى من جماعات الأطفال . ويتضح ذلك فى كشفها عن هذه الحقائق :

(ا) عدم تساوى المسافات الاجتماعية بين الأعضاء .

(ب) الجماعة مغلقة بشكل يفوق إغلاق جماعات الأطفال ، وبالتالى فهى أشد تماسكاً واستقراراً .

(ج) قيام الشعور بالعضوية فى الجماعة ، واضحاً عند الأفراد . وهو نتيجة طبيعية للحقيقة سالفة الذكر .

(د) وقيام مشاعر واضحة باتفاق الميول والآراء والأذواق بين أعضاء الجماعة .

وهذه الحقائق تتفق إلى حد كبير مع ما ورد لدى كثير من الباحثين (M. Sherif & H. Cantril 1947, p. 262) . ولعدم تساوى المسافات الاجتماعية بين الأعضاء * أسبابه فى ارتقاء الشخصية وتغايرها الذى يتجلى فى تعدد ميولها ورغباتها ونمو قدراتها الإدراكية على فهم لغة الإشارات والإيماءات لدى الغير ، مما يجعل لديها درجة من الفطنة والفهم لإمكانيات سلوك الآخرين لا تتوفر عند الطفل (R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 71) . أما شدة تماسك الجماعة والشعور بالعضوية الاجتماعية ، وإصرار أحد المجيبين على الإشارة إلى الاتحاد السيكولوجى العميق فى وحدة تكاد تكون بدائية ، بقوله « لا يستطيع أحد أن يتحرك إلا باتفاق منا جميعاً » ، والشعور الواضح باتفاق الميول والآراء ، وإشارة بعض المجيبين إلى أن أصدقاءهم — المراهقين — هم وحدهم الذين يفهمونهم ، فهذه جميعاً تفسر حقيقة هامة هى تأثر المراهق بقيم أقرانه واتجاهاتهم وآمالهم بحيث تصبح هذه شيئاً فشيئاً قيمه واتجاهاته وآماله هو . ويزداد تأثره بها كلما ازداد الصراع حدة بينه وبين الراشدين . ويرى بلوس P. Blos أن هذا التأثير يزداد حتى يصبح أحياناً أقوى ما يتسرب إلى سلوك المراهق . ويقرر أن روابطه بجماعة أصدقائه تزداد أهميتها أحياناً حتى لتحتل مكان الروابط العائلية إلى حد ما .

من حيث هذه الاعتبارات تعتبر هذه الجماعات أرقى من جماعات الأطفال التى لا تكاد تزيد عن قطعان مفككة ، تتوم العلاقات بين أعضائها على السطح ،

* وقد أجرى بوجاردس R. Bogardus وأوتو P. Otto بحثاً لإلقاء الضوء على هذا التغاير تبين منه أن الأصدقاء المقربين جداً chums يتشابهون فيما بينهم فى ثلثى الصفات الهامة ، ويختلفون فى الثلث الباقى . ولما كان البحث قد أجرى على ١٣٨ فتى و ١٦٢ فتاة ، فالنتائج المستخلصة تصدق على المراهقين والمراهقات .

وقد وجد أن الأصدقاء المراهقين يتشابهون فيما بينهم تشابهاً كبيراً فى معاييرهم الأساسية ، ومثلهم العليا ، وفى هندامهم . ويختلفون فى الاهتمامات الشخصية وضروب النشاط والهوايات . ومن ثم فهم يمدحون بعضهم بعضاً على ما يتقنه أحدهم وينقص الآخر . كذلك الصديقات المراهقات ، تبين أنهن يتشابهن فى معاييرهن ومثلهن العليا وهندامهن واهتمامهن بالرقص . ويختلفن فى الهوايات والاهتمامات الشخصية (E. Hurlock 1949, p. 171) .

وبصورة متقطعة غالباً . ومن الجلى أننا نسلم هنا ضمناً بأن أرقى نماذج الجماعة البشرية ، هو نموذج الجماعة الأكثر استقراراً وتماسكا ، والأكثر تغايراً ، وهذا ما يتفق والتصور البيولوجى للنماذج الأرقى .

ومن هنا يلزمنا أن ندخل فى حسابنا اعتبارات أخرى :

(أ) فالنشاط داخل الجماعة عشوائى لا هدف موضوعى له ، ويرجع ذلك إلى أن السبب الذى التأمت الجماعة من أجله سبب ذاتى غالباً . فهو مجرد القلق والاضطراب الذى يسود نفس المراهق وعلاقته بأسرته والراشدين الذين اعتادهم منذ طفولته ، هذا إلى جانب الحاجة إلى تحبيذ أنماط سلوكه .

(ب) ولذلك تُلاحظ السهولة الشديدة التى تنعقد بها هذه الصداقات أو تنفرط ، والأسباب غالباً تافهة ، فهى مجرد الجوار أحياناً أو التشابه الغامض فى بعض الميول والعادات. ومما يلفت النظر فى هذا الصدد أن بعض الراشدين أشاروا إلى أن صداقاتهم بدأت من خلال الاشتراك فى نواد سياسية ورياضية ، أو من خلال الاشتراك فى عمل جماعى منظم للتغلب على عقبة معينة . كما ذكر بعضهم أن صداقاتهم بدأت من خلال اكتشاف ميول مشتركة نحو نشاط معين ، كالنشاط الأدبى أو الفلسفى أو الفنى . ومما لا جدال فيه أن هذه الأسباب ذات الدلالة الاجتماعية الواضحة ، من شأنها أن تجعل علاقة الصداقة ذات دلالة عميقة واضحة لدى الأطراف المشتركة فيها ، أعمق وأوضح ، وبالتالى أكثر استقراراً من صداقة تبدأ لاشتراك ميول غامضة . كما أن استمرار هذه الأسباب الموضوعية ينعكس على العلاقة التى نشأت على أساسها فيساهم فى طول بقائها .

(حـ) والتجانس فى الشق * والسن والدين والمستوى الاجتماعى الاقتصادى ،

* يرى بعض الباحثين من أمثال هنرى G.W. Henry أن هذا الارتباط الوثيق بأفراد من نفس الشق فى فترة المراهقة من شأنه أن ينمى فى الشخص نمطاً من الشبقية المثلية homoerotism قد يمتد معه فى حياته الراشدة . ويرى لاندس وآخرون P.H. Landis أن حدوث هذه الظاهرة قبيل بدء المراهقة أو فى فترة المراهقة المبكرة أمر سوى . أما استمرارها بعد اكتمال النضج الجنسى فدليل على سوء التكيف . ويقرر دافيز K.B. Davis أن ظروف البيئة الاجتماعية مسئولة إلى حد ما عن ظهور هذه الميول وانحرافاتها ؛

بل والثقافى ، من الأسباب التى تضع جماعات المراهقين فى مستوى أدنى من جماعات الراشدين . إذ أن هذه الأخيرة تنطوى على تغاير أوضح فى معظم هذه الجوانب .

(د) على أن درجة الإغلاق التى تبلغها جماعات المراهقين تجعلها كذلك فى مستوى أدنى من المستوى الذى تحتله جماعات الراشدين وهذه الحقيقة تزداد وضوحاً إذا نظرنا فى جماعات المراهقات . ولا جدال فى أن درجة معينة من الإغلاق لا بد منها لتحقيق وحدة الجماعة وتماسكها ؛ وقد أوضحنا أن جماعة المراهقين أكثر ارتقاء من جماعة الأطفال — بناء على هذا الاعتبار — مع اعتبارات أخرى . إلا أن الإغلاق فى الواقع حقيقة دينامية تزيد درجة توفرها أحياناً وتقل أحياناً أخرى . وفى درجة معينة من توفرها يتحقق بينها وبين بقية مضمون المجال اتزان معين . وبتحقيق الاتزان فى المجال نستطيع أن نعتبره مثلا لمستوى معين . فلا يمكن إذاً أن نتكلم عن الإغلاق كحقيقة مطلقة إذا توفر ترتب على ذلك نتيجة معينة وإذا لم يتوفر ترتب على ذلك نتيجة أخرى . بل لا بد من الحديث عن توفره بدرجة معينة . وهذه الدرجة التى يتوفر بها فى جماعات المراهقين تضع هذه الجماعات فى مستوى أرقى من مستوى جماعات الأطفال ، وفى الوقت نفسه أدنى من مستوى جماعات الراشدين . فجماعات الأصدقاء الراشدين لا تبلغ هذه الدرجة من الإغلاق غالباً ، أعنى الدرجة التى تحدث فيها الغيرة الشديدة من اقتراب صديق آخر نحو أصدقائنا .

(هـ) ومما يساعد على هذا الإغلاق قلة عدد المشتركين فى الجماعة . إذ

فقد وجد أن عدد حالات الممارسة الصريحة للجنسية المثلية بين الفتيات فى مؤسسة تعليمية منعزلة ضعف عددها بين الفتيات فى مؤسسة تعليمية مختلطة (E. Hurlock 1949, p. 456) . ويلاحظ أن هناك حقيقة أخرى أوردناها تتفق وهذه الدلالة الشبقية المثلية لجماعات المراهقين ، هذه الحقيقة هى ضآلة عدد الأعضاء فى الجماعة ؛ إذ لا يزيدون عن حوالى ٤ أفراد . وقد أوضح رامزى G.V. Ramsey أن جماعات المراهقين التى تمارس بداخلها الجنسية المثلية ممارسة صريحة لايكاد يزيد عدد أعضائها على ٥ أفراد . كذلك أوردنا حقيقة أخرى تتفق مع التعليل البيئى الذى يقول به دافيز ، إذ أوضحنا أن الروابط العاطفية داخل جماعات المراهقات أوثق منها داخل جماعات المراهقين . وهو ما يتفق وزيادة ثقل تعاليم البيئة الاجتماعية على الفتيات .

يبلغ فى المتوسط حوالى ٤،٣ صديقاً . وهذا العدد ضئيل إذا قورن بمتوسط عدد الأعضاء فى عصابات الأطفال بين الثامنة وبدء المراهقة إذ يبلغ ١٤ عضواً تقريباً (B. Wolman 1951) :

(و) هناك حقيقة أخرى لا تقل عن الحقائق السابقة أهمية ، وهى ضعف استبصار المراهق بالواقع الاجتماعى ومقتضياته . يدل على ذلك أمله فى أن « تستمر صداقته إلى الأبد » ، وثقته البالغة فى الصديق بحيث يلقى إليه بالكثير من أسراره . وهذا ما لا نجده فى صداقات الراشدين . على أن هذا الأمل الكبير والثقة البالغة هى نفسها من الأسباب التى تعمل على عدم استقرار صداقات المراهق ، إذ تجعله أشد تعرضاً لتجارب خيبة الأمل من جراء أتفه الأخطاء التى يرتكبها أصدقاؤه من غير قصد أحياناً

(ز) ومما يلقى ضوءاً على أسباب الاختلاف بين سلوك المراهق الاجتماعى وسلوك الراشد مسألة « التصلب الاجتماعى » وارتفاع درجته لدى المراهق وانخفاضها لدى الراشد . وهذه الحقيقة تتفق مع الاتجاه العام للحقائق السابقة . كما تتفق مع الحقيقة السيكولوجية العامة التى مؤداها أن سلوك الشخص يقل حظه من المرونة كلما كان الموقف والشخص مشحونين بالتوترات . وقد أوضحنا من قبل أن مستوى التوتر يكون مرتفعاً بوجه عام لدى المراهق . ويزيد من حدة ذلك التوتر بشكل ملحوظ وبالتالى يزيد من درجة التصلب الاجتماعى لدى المراهق كون البيئة الاجتماعية المعتادة « تتخذ شكلا عدائياً* » بالنسبة له .

وربما ازدادت هذه الحقيقة وضوحاً إذا استطعنا أن نبين بالدليل الإحصائى أنه كلما ازداد تصلب البيئة الاجتماعية — لأى سبب كان ، كالاضطهاد

---

* استكمالا للفرض المذكور أعلاه نرجح أن يظل التناسب طردياً بين تصلب البيئة الاجتماعية وبين درجة التصلب الاجتماعى الشخصية ، فإذا ما ازداد تصلب البيئة الاجتماعية عن درجة معينة كانت النتيجة انخفاضاً واضحاً فى درجة التصلب الاجتماعى للشخصية . وهو ما يمثل نوعاً من انهيار المقاومة . وقد أمكن بالفعل التحقق من صحة بعض جوانب من هذا الفرض فى البحوث التى أجريناها والتى ورد ذكرها فى هامش ص ٢٦٣ . (الطبعة الثانية)

بأشكاله المختلفة ، أو الوضع الاقتصادى أو غير ذلك — ارتفعت درجة التصلب الاجتماعى للشخص .

والذى يهمنا من هذه الحقائق وما سبقها أنها تلقى ضوءاً على الصعوبات التى تقوم فى وجه عقد صداقات مستقرة بين المراهقين . فارتفاع درجة تصلب المراهق الاجتماعى تجعل شخصيته « متحجرة » ، بحيث يغلب تصادمها مع شخصيات الآخرين أكثر مما يحتمل التقاؤها معهم . ولذلك فإن احتمال التصادم والتشاحن داخل جماعات المراهقين أكثر من احتمال حدوثه داخل جماعات الراشدين . والاتجاهات الأولى لنتائج الدراسة السوسيومترية تؤيد هذا الاستنتاج . إذ تشير إلى أن الاختيارات المتبادلة فى صداقات الراشدين تقع غالباً بين شخصين أحدهما على الأقل ذو درجة تصلب منخفضة . كما تشير إلى أن الأشخاص ذوى أقوى مركز اجتماعى بين زملائهم هم أشخاص ذوو درجة تصلب اجتماعى أقل من درجة التصلب لدى ذوى أضعف مركز اجتماعى .

هذه الحقائق جميعاً يمكن تلخيصها فى أن جماعات المراهقين بطبيعة النشاط العشوائى القائم فيها، وزيادة تجانسها، ودرجة إغلاقها المرتفعة، وارتفاع درجة التصلب الاجتماعى لأعضائها ، وضعف استبصارهم بالواقع الاجتماعى ، تقف فى مستوى ارتقائى أدنى من المستوى الذى تبلغه بعض جماعات الراشدين .

وقد أوضحنا فى هذه الدراسة بعض الحقائق التفصيلية عن سلوك المراهق . فحققنا فرض ڤالون ، إذ يغالى المراهقون فى ضرورة توفر مستوى أخلاقى رفيع لدى أصدقائهم ،وهذا أحد مظاهر ميولهم الغالبة إلى إيجاد تبريرات أخلاقية لأعمالهم (H. Wallon 1941, p. 218). ويلاحظ أن الفتيات المراهقات تزيد مغالاتهن فى هذا الصدد عن مغالاة الفتيان ، ويرجع ذلك إلى ظروف البيئة الاجتماعية التى تغالى فى شأن المطالب الأخلاقية التى تفرضها على الفتيات فتزيد من حساسيتهن فى هذا الصدد .

على أن الفوارق بين المراهقين الذكور والمراهقات عديدة . وقد أوضحنا

بعض هذه الفوارق . منها مثلاً أن المراهقات يبدين اندماجاً فى صداقاتهن وتعلقاً بها أكثر مما يبديه المراهقون . وهذه الحقيقة تتفق مع ما يثبته ريتشاردسون وآخرون. إذ أمكن فى أحد البحوث التجريبية الوقوف على ٥٦ زوجاً من الأصدقاء المراهقين و ٦٥ زوجاً من الصديقات المراهقات . وبالدراسة الدقيقة تبين أن ١١ زوجاً فقط من الأصدقاء الذكور كانت العلاقة فيما بينهم وثيقة . فى حين أن ٢٣ زوجاً من الفتيات كن على علاقة وثيقة (J.E. Richardson & others 1951, p. 196)

وتقرر هيرلوك الحقيقة نفسها ، إذ تقول إن الارتباط بين الفتيات الصديقات يكون عادة أقوى منه بين الأولاد ؛ فالفتاة تشعر بالحرية فى أن تناقش أى شيء وكل شيء مهما كان شخصياً مع صديقتها المقربة . أما الأولاد فأكثر تحفظاً فى علاقتهم بأصدقائهم . وهم لا يكثرون من منافشة المسائل الشخصية ، ولا يعبرون بصراحة عن عواطف المحبة نحو الأصدقاء كما تفعل الفتيات (E. Hurlock 1949, p. 172)

وهناك فوارق أخرى تثبتها هيرلوك وغيرها من الباحثين . فهى تقرر أن الأولاد يختلفون عن البنات من حيث المشاحنات ؛ فنى الطفولة تزيد المشاحنات بين الأولاد عنها بين البنات . أما فى المراهقة فينعكس الحال ، إذ تزيد المشاحنات بين المراهقات عنها بين المراهقين . وتضيف الباحثة أن مظاهر الشجار نفسها تختلف عند الفتيان عنها عند الفتيات . ومن أهم مظاهر الاختلاف أن الفتيان يدخلون المعركة بأنفسهم ويتولونها حتى النهاية . أما البنات فينزعن إلى إذاعة أشجانهن ومحاولة كسب الأنصار لهن ، وقلما يدخلن فى اصطدام مباشر (E. Hurlock 1949, p. 167)

ومن الفوارق أيضاً ما تقرره هيرلوك من أن الفتيات المراهقات يقضين مع صديقاتهن وقتاً أطول مما يقضيه المراهقون مع أصدقائهم . إذ تبين فى بحث أجراه بوجاردس وأوتو على ١٣٨ فتى و ١٦٢ فتاة أن الفتيان يقضون فى المتوسط ١٥ ساعة أسبوعياً مع أصدقائهم . بينما يبلغ متوسط ما تقضيه الفتيات مع صديقاتهن ١٨½ ساعة فى الأسبوع . ويلاحظ ريتشاردسون على إجابات المراهقين والمراهقات

على بعض الاستخبارات أن الفتيات عنين بوصف المظهر الخارجى لصديقاتهن بالإضافة إلى ذكر خصالهن ، فى حين أن الفتيان لم يعنوا بذكر شيء عن الشكل الخارجى لأصدقائهم . ويلاحظ كذلك أنه بالرجوع إلى نسب الذكاء والأعمار العقلية التى أمكن تحديدها لـ ٤٢ زوجاً من الأصدقاء المراهقين ، و ٤٦ زوجاً من الصديقات المراهقات ، تبين أن نسبة الذكاء ليست ذات أهمية فى انتخاب المراهقين لأصدقائهم . أما فى انتخاب المراهقات لصديقاتهن فيبدو أنها ذات أهمية بالغة ، إذ أن الارتباط مرتفع بين نسب الذكاء لكل زوج من الفتيات موضوع البحث . أما الأعمار العقلية فذات أهمية واضحة فى انتخاب الصديق لصديقه ، سواء لدى الفتيان أو الفتيات (J.E. Richardson & others 1951, p. 196)

تلخيص

بهذا الفصل نختتم القسم الارتقائى من البحث . وقد حرصنا فى هذا القسم على أن نوضح حقيقة هامة وهى أن التكامل الاجتماعى عملية يجرى عليها الارتقاء ، وليست مجرد حالة تتوفر أو لا تتوفر . وفى هذا السبيل أوضحنا المستويات المتعددة التى تمر بها فى ارتقائها ، منذ المستويات البيولوجية تحت البشرية ، حتى أعلى المستويات البشرية ، مستوى جماعات الراشدين . وفى هذا السبيل تبين لنا أن ازدياد ارتقاء الجماعة يكون بازدياد استقرارها وتغايرها ، أو بازدياد ثباتها ومطاوعتها . وهو نفس المبدأ الذى يحدد مضمون الارتقاء فى الدراسات البيولوجية بوجه عام .

وفى الجزء الأنتوجينى عنينا منذ بدايته بتوضيح الفارق الكيفى الذى يميز الارتقاء الاجتماعى للطفل البشرى ، وهو اتجاه ارتقائه فى شعبتين تؤدى إحداهما دائماً إلى نمو شعوره بذاته ، وتؤدى الثانية إلى زيادة اندماجه فى الجماعة وارتباطه بها . وقد أوضحنا فى البداية ما يساهم به فى هذا الصدد طول مدة اعتماد الطفل البشرى على الراشدين وارتباطه بهم ، بشكل يفوق كثيراً ما نجده فى أى مستوى من

المستويات تحت البشرية ، وما يساهم به كذلك نموه اللغوى ونمو قدراته التخيلية والوجدانية وقدرته على المحاكاة . وحاولنا أن نبين – بقدر المستطاع من الدقة – إلى أى مدى يعتبر النمو فى هذه الجوانب فريدا (إنسانيا) فى مقداره ونوعه . كما حاولنا أن نبين كذلك أثر البيئة الاجتماعية فى هذا النمو وفى السير بالطفل نحو تحقيق نموذج الشخصية المتكاملة بوجه عام . وقد حرصنا فى أثناء ذلك على الاستناد إلى الملاحظة المباشرة والرجوع إلى البحوث التجريبية التى ساهمت فى توضيح نقاط الموضوع .

وقد استمرت عنايتنا فى هذا الاتجاه ، وازدادت شيئاً فشيئا نحو توضيح الارتقاء الحادث فى استجابة الطفل نحو الآخرين من أطفال وراشدين . ثم تركزت هذه العناية بوجه خاص فى ظاهرة التجمعات التلقائية للكشف عن جوانب السلوك التى يبديها الطفل بداخلها ، وما لهذه الجوانب من دلالة ارتقائية. وهذا ما واصلنا توضيحه فى هذا الفصل الأخير عن السلوك الاجتماعى لدى المراهق .

وفى هذا الفصل الأخير قدمنا دراسة تجريبية على المراهقين فى البيئة المصرية من أبناء الطبقة المتوسطة ، نساهم بها مع مجموعة البحوث التى أجريت فى هذا الصدد ، لإلقاء الضوء على بعض جوانب السلوك الاجتماعى للمراهق ، وإلى أى مدى يمثل مستوى ارتقائياً أعلى من مستويات السلوك لدى الطفل ، وأدنى من مستوى السلوك لدى الراشدين . وهكذا ننتهى من هذه الدراسة الارتقائية لنبدأ القسم الأخير من البحث ، فى دراسة شبكية لعملية التكامل الاجتماعى .

القسم الثاني

دراسة شبكية
لعملية التكامل الاجتماعى

الفصل الأول

المستويات والمواقف

معنى المستوى – معنى الموقف – أهمية كل من المفهومين

لا تكتمل دراستنا لعملية التكامل الاجتماعى إلا إذا قمنا بدراسة شبكية ، نكشف فيها عن مختلف العوامل التى تتدخل فى تحقيقها وفى تشكيلها . أما الاقتصار على الدراسة الارتقائية فيوهم بأن المسألة مسألة مستويات من الارتقاء البيولوجى تتحقق بتحققها أنماط متتابعة من التكامل دون أن يكون للعوامل المختلفة الأخرى فى مجال حياة الشخص أى مساهمة فى تحقيق هذه الأنماط أو تشكيلها . ومنعاً من حدوث هذا الوهم ، وزيادة فى توضيح وتفصيل فكرتنا عن عملية التكامل الاجتماعى رأينا أن نقوم بهذه الدراسة المكملة .

بعبارة أخرى ، إن دراسة عملية التكامل الاجتماعى من خلال مفهوم « المستويات » فحسب غير كافية لتوضيح جميع جوانب العملية . لذلك ينبغى أن ندرسها أيضاً من خلال مفهوم « المواقف » ، على أن يتسع هذا المفهوم بحيث يتضمن جميع العوامل التى تؤثر فى العملية بطريق مباشر أو غير مباشر ، كالعوامل الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ، ونظام التربية ، ونمط العلاقات الأسرية . . . ألخ . وهذه الدراسة هى وحدها التى تستطيع أن توضح لنا السبب فى اختلاف الاستجابات الاجتماعية للأطفال الذين يشغلون مرحلة واحدة من مراحل العمر الزمنى ، بحيث يقال عن بعضهم إنه متقدم وعن البعض الآخر إنه متأخر . كما يلاحظ أن بعضهم يبدى أنماطاً من الاستجابات لا يبديها البعض الآخر . وهذه الدراسة هى وحدها أيضاً التى تستطيع أن تكشف لنا عن الكثير من دقائق عملية التكامل ، ودلالة الفرد داخل الجماعة ، وذلك نتيجة لغلبة

النظرة التحليلية عليها ، ولاعتمادها فى كثير من الأحوال على الدراسة التفصيلية لحالات أو نماذج فردية .

لقد تحدثنا فى بعض الفصول السابقة — فى الجزء الأنتوجينى — عن ارتقاء اللغة والذاكرة باعتبارهما من أهم شروط الارتقاء الاجتماعى للطفل ومظاهره ، وبينا كيف يمضى ارتقاؤهما فى مراحل مرتبطة — إلى حد ما — بمراحل معينة من العمر الزمنى . إلا أن الحدود الفاصلة بين هذه المراحل غير ثابتة دائماً ، بل إنها لتتذبذب من فرد إلى آخر داخل الأسرة الواحدة كما تتذبذب فى نطاق أوسع إذا ما فحصنا أفراداً من مستويات اجتماعية اقتصادية مختلفة . كذلك الحال فيما يتعلق بدرجة الارتقاء التى يصل إليها الأفراد فى ظروف اجتماعية مختلفة . وقد أجرت ديكودر A. Descœudres بحثاً فى المحصول اللغوى عند الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وسبع سنوات ، وانتخبت مادة دراستها من أطفال الطبقة العاملة وبعض الطبقات المرفهة التى يلقى أطفالها حظاً متفوقاً من التعليم . فانتهت إلى أن أطفال الطبقات المرفهة يفوقون أطفال الطبقة العاملة بشكل واضح ، إذ يتقدمونهم بما يعادل ثمانية أشهر فى كل مرحلة . وكتبت كولنز تعلق على ذلك بقولها : لم يكن هناك ما يدل على أن أطفال العائلات العمالية ذوو عقلية متأخرة أصلاً ، ولكن يعزى هذا الفرق إلى قلة الفرص المواتية نسبياً ونقص الوراء الثقافى (M. Collins 1939) . كذلك قامت هيرتسمان A. Hertzman بدراسة الذاكرة البصرية لدى الأطفال فى السن السابق على الالتحاق بالمدرسة ، فكانت تضع قطع الشيكولاتة تحت صناديق ورقية مختلفة الألوان ، وكان على الطفل أن يتذكر تحت أى صندوق توجد قطعة الشيكولاتة . وقد وجدت أن الأطفال — وكانت أعمارهم تتراوح بين ٤ ،٥ سنوات — من الطبقتين المتوسطة والعاملة ، بينهم اختلاف واضح . فالأطفال القادمون من أسر من الطبقة المتوسطة يتفوقون على أطفال الطبقة العاملة بما يتراوح بين ٣٠ و ٥٠ ٪ من مرات النجاح . (C. Buhler 1937, p. 123) كذلك فيما يتعلق بمرحلة المراهقة كان الاتجاه

التقليدى السائد إلى وقت قريب يقرر أن هذا الشكل الذى تتخذه عادة كأزمة عنيفة ذات نتائج خطيرة فى تقرير مستقبل الفرد إنما يحتمه المستوى الارتقائى بما له من مضمون فيزيولوجى يعينه نمو الفرد، إلا أن بعض الدراسات الحديثة أخذت توضح بفضل البحوث الأنثروبولوجية والمقارنة بوجه عام — مدى عمق الآثار الحضارية والاجتماعية فى هذا الصدد. (R.T. La Piere & P.R. Farnsworth 1942, p. 226)

هذه الحقائق المترتبة على هذه البحوث وأمثالها ، هى الأسس التى استند إليها مورفى G. Murphy فى تحذيره من الاندفاع فى استخدام مفهوم المستوى أو المرحلة [1]. فهو يقول إن « المرحلة » ظاهرة من ظواهر الارتقاء . ومما لا شك فيه أن كل إنسان يمضى فى مراحل الطفولة والنضج والشيخوخة . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن كل شخص يخترق هذه المراحل بطريقة مختلفة . فمن الأشخاص من لا يبلغ النضج الوجدانى أبداً ، ومنهم من يصبح طفلاً فى شيخوخته ، ومنهم من يحتفظ بوقاره وبالاهتمام بالحياة طوال العمر . ومن ثم فمن الخطورة بمكان أن ننظر إلى أى سلوك مما لا يرتبط ارتباطاً وثيقا بارتقاء الوظائف البيولوجية ، فى ضوء فكرة المراحل . مثال ذلك أننا قد نجد فى نمو النشاط الحركى ، والارتقاء الفكرى الحسى ، والوظائف التناسلية ، قد نجد فى نموها وذبولها أساساً حقيقياً لمراحل فى السلوك الاجتماعى يعتمد عليها . ولقد شجعنا ذلك على أن نأمل فى أن نجد فوارق على أساس مراحل العمر تفسر الجوانب المختلفة للسلوك الاجتماعى . وهذا صحيح إلى حد ما ، فالطفل فى سن السنتين لا يؤلف عصابات ، أما فى العاشرة فإنه يؤلف. فإذا توغلنا أكثر من ذلك فإن كل طفل يمر بمرحلة الكلام الناقص قبل أن يبلغ مرحلة السيطرة على اللغة ، كما أنه يجتاز مراحل متتابعة فى السيطرة على الحركة والتآزر الجسمى العام . ومع ذلك فإن الاعتماد الشديد على فكرة المراحل ينطوى على أخطار بالغة . فمن الأطفال من لا يكون على استعداد للقراءة قبل سن السابعة ، ومنهم من يمارسها فى سن الخامسة . وفى حين نجد بعض الأطفال يقومون بالألعاب

---

(١) stage

التمثيلية قبيل الرابعة أو الخامسة ، نجد بعضهم يقومون بها في سن الثالثة . والواقع أن لكل المراحل أطرافاً غير محدودة ، تتداخل في أطراف المراحل الأخرى إذا ما تناولنا بالنظر مجموعات من الأطفال في وقت واحد . وللمراحل بالنسبة للأفراد مداخل ومخارج متعددة ، وليس هناك فردان يجتازان جميع المراحل بطريقة واحدة . فنمط التتابع بين القدرات الحركية واللغة والسلوك الاجتماعي — كالعدوان والتعاون والتعاطف — مختلف بالنسبة للأطفال المختلفين . ونمط الشخصية الذي يعطي صفة فردية لمراحل معينة يؤدي إلى خبرات متباينة في كل مرحلة لكل طفل .

(G. Murphy & others 1937, p. 323)

ومع أن البحوث التي تؤيد هذا الرأي الذي يقرره مورفي قد تتابعت وتعددت بشكل ملحوظ في العشرين سنة الأخيرة فإننا لانزال نجد بعض كبار العلماء يقللون من أهمية مفهوم المواقف ، ويكادون يقتصرون في معالجتهم للسلوك الاجتماعي لدى الأطفال على مفهوم المستويات. ومن هذا القبيل جيزيل وإلج A. Gesell & F. L. Ilg في كتابهما « الوليد والطفل في حضارتنا الراهنة » . فبالرغم من هذا العنوان الذي يوحي بالاهتمام بآثار الإطار الحضاري ، نجد المؤلفين يلحان على إبراز أهمية « النضوج » . وقد انتقدا النظرية السلوكية لأنها تبالغ في الاهتمام بالبيئة ، وبالتالي تتورط في التسليم بأشياء أكثر مما يطابق الواقع . إلا أن المؤلفين ردا على ذلك بالمغالاة في تأكيد أهمية العوامل الفطرية والوراثية ، على حساب العوامل البيئية . وهما يبدوان وكأنهما يريدان أن يقررا أن النمو والارتقاء يتمان في الزمن ، فما علينا إلا أن ندع الوراثة وشأنها ونتيح لها أكبر فرصة لتشكل هي الأمور وفق ما تشاء . ومع أن جيزيل كتب في سنة ١٩٣٠ يقول إن النمو يحل « التناقض القائم بين الفطرة والبيئة مُظهرا الجانبين في مشهد دينامي موحد » وهذا القول يدل على أنه سيحرص على التمسك بطرفي التناقض لإبراز أثر كل منهما في العملية الناتجة عن تفاعلهما ، مع ذلك فإنه يعود في مؤلفه الحديث فيقرر أن الأهمية الكبرى للوراثة من ناحية الأسرة والسلالة على أساس أنها تعين نتائج النمو ونمطه المتميز لدى كل طفل على حدة .

(N. Israeli 1945) وقد أشار لڤين K. Lewin إلى هذا الموقف عند جيزيل والمواقف الأخرى المشابهة، أشار إليها بطريقة عابرة عند ما تساءل قائلا : لم لا يوجد عندنا علماء النفس الذين يعنون بتأثير الحضارة فى الشخصية والسلوك ؟ ثم أجاب بقوله : يحدث كثيراً فى تاريخ العلوم أن نجد بعض الصعاب الموضوعية تتعاون مع عواطف معينة على سد الطريق أمام الباحثين . (K. Lewin 1943) .

يلزمنا إذاً دراسة السلوك الاجتماعى من خلال المواقف ، مع الحرص الشديد على إبراز متغيراتها المتعددة ، وأثر كل متغير على حدة ، كلما أمكن ذلك . وتكون دراستنا أكثر تعمقاً وأكثر دقة كلما اقتربنا من تحقيق هذا الهدف . « فالموقف» الاجتماعى وكذلك «البيئة » الاجتماعية بعيدان عن أن يكونا متجانسين . كذلك يلزمنا فى هذه الدراسة الحرص على إبراز جوانب الشخصية، كالذكاء ، والقدرات الحسية الحركية، والتعبيرات الوجدانية ، والتحصيل اللغوى . . . الخ ، وذلك لإبراز مدى تأثير متغيرات المواقف فى كل منها ، وهل هى جميعاً فى درجة واحدة من الثبات أمام تأثير هذه المتغيرات، أم أن بعضها أشد ثباتاً وأكثر مقاومة من البعض الآخر ، ثم إلى أى مدى تساهم هذه الجوانب فى تنميط السلوك الاجتماعى للشخص . وأخيراً يلزمنا توضيح حقيقة هامة ، ومؤداها أن هذه الجوانب المختلفة يتفاوت حظها من الثبات فى مراحل العمر المختلفة ، ومن هنا يكون للتغييرات التى تطرأ على بعض جوانب البيئة تأثير عميق فى تشكيل سلوك الشخص ، أعمق مما قد يطرأ على هذه الجوانب نفسها فى مراحل أخرى من العمر .

وقد أوضحنا من قبل كيف أن الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من العمر يستطيع أن يتحمل الانفصال عن أمه دون أن يتعرض للآثار السيئة التى يتعرض لها طفل أصغر منه . كما أن الطفل فيما بين الخامسة والثامنة يبدى قدرة أكبر على احتمال هذه الخبرة القاسية . ومما يسترعى الانتباه أن نتائج الانفصال عن الأم تختلف عند الطفل فى حوالى الثامنة من عمره اختلافاً كبيراً عنها عند الطفل فى سن دون ذلك . إذ لوحظ أن أطفال الثامنة الذين كانت علاقاتهم بأمهاتهم طيبة قبل

الانفصال يتحملون دون أن يقعوا فريسة للكثير من الآثار السيئة ، والأطفال الذين كانت علاقاتهم بأمهاتهم سيئة تزداد قابليتهم للتأثر السيئ بالانفصال . أما الأطفال الذين كانوا دون الثامنة فقد كانت نتائج الانفصال لديهم عكس ذلك . وقد أشرنا فى موضع سابق * إلى البحوث المتعددة التى تثبت بوضوح عمق الآثار السيئة التى تترتب على تهدم الأسرة أثناء الطفولة المبكرة ، أو الانفصال عن الأم فى هذه المرحلة . وهذه الحقيقة تتفق والمبدأ الذى انتهت إليه البحوث الإمبريولوجية الحديثة من آثار الصدمات والتسمم والعدوى ، وما إلى ذلك من عمليات مؤذية للجنين ، لاتتفاوت فقط تبعاً للعامل المسىء وبناء النسيج الذى وقعت عليه الإساءة ووظيفته ، ولكنها تختلف أيضاً تبعاً لدرجة نضج هذا النسيج (J.Bowby 1951 ,pp. 146,) .

والخلاصة أننا لن نفهم المشاكل الأساسية فى علم النفس الاجتماعى إلا إذا تعمقنا فى بحث الصلات القائمة بين « الفرد الآخذ فى الاندماج فى الجماعة » وبين شكل الجماعة ونظامها ومضمونها الوجدانى . إن السلوك الفعلى للفرد فى أية مرحلة من مراحل العمر يمثل قطاعاً فى حاجات الطفل وقدراته البيولوجية إذ تقابل المطالب والفرص التى يقدمها « الموقف » للطفل. ومن ثم فكثير من المراحل لاتتحقق لمجرد أن مجرى النمو والارتقاء يتطلبها ، بل هى غالباً نتيجة تنبيه من موقف ذى خصائص معينة (G. Murphy & others 1937, p. 328) وليس فى هذا القول أى محاولة للإقلال من شأن الحتمية البيولوجية ، فنحن نعلم أن عادات النوع — كالمشى والقبض باليد والجلوس . . . — تكاد تتوقف فى ظهورها وتتابعها ، وانتظام نمطها على مستوى النمو العضوى . ونعلم أن الطفل فى مجتمع الهوبى رغم أنه يظل موثوقاً إلى لوح خشبى مدة ٢٣ ساعة يومياً ولا يفك وثاقه إلا ساعة واحدة ، فإنه عند ما يفك وثاقه يقوم بالكثير من الحركات التى يقوم بها طفل لم تمنع أعضاؤه من الحركة ؛ فيضع أصبعه فى فمه ويحاول أن يمسك الأشياء القريبة ويقربها من فمه ،

* الفصل الثالث من الباب الثانى .

ويحرك ساقيه فى الهواء ويضع أصابع قدميه فى فمه. كما أن مراحل الجلوس والزحف والمشى تتوالى بنفس الترتيب الذى تتوالى به فى حضارتنا (W. Dennis 1947) إلا أن جوانب السلوك هذه ليست كل الجوانب ، كما أنها ليست أهم الجوانب التى ينبغى أن يوجه الباحث فى علم النفس الاجتماعى نظره إليها ، وربما كانت الجوانب الأخرى ، الأكثر اعتماداً على المواقف والمناخ الحضارى ، أهم منها ، وأجدر بانتباه الباحث النفسى الاجتماعى . ومع ذلك ففى صميم مهمته أيضاً أن يفرق بين الجوانب المختلفة من حيث درجة تأثرها بالعوامل البيئية لتكون نتائج بحثه أكثر دقة ومطابقة للواقع .

الفصل الثانى

الشعور بالنحن

النحن والفرد – النحن والمجتمع – الجماعات المراجع

يمكن اعتبار « الشعور بالنحن » وانعكاسه فى التعبير اللغوى للشخص أوضح مظهر للتكامل الاجتماعى بين أعضاء أية جماعة . إلا أنه لا يمكن الوقوف عنده ، إذ أنه لا يكشف لنا عن درجة ارتقاء هذا التكامل ، ولا بد إذاً من الرجوع إلى مقاييس أخرى . وقد أوضحنا من قبل عدة أمثلة لتحقق النحن، تختلف فيما بينها من حيث مستوياتها الارتقائية ، كعصابات الأطفال بعد الثامنة ، وجماعات المراهقين والراشدين . ومن أمثلة المقاييس الأخرى التى ينبغى الرجوع إليها مدى الاستقرار ، والتعاون المشعور به ، والتغاير بين أعضاء الجماعة .

إلا أن الشعور بالنحن ، يمكن أن يعتبر مع ذلك نقطة للبدء لا بأس بها . ويندر أن يوجد من الناس من يستطيع مواصلة الحياة السوية دون دخول فى «نحن». * (H. Schulte 1938) . وأوضح ما يكون هذا الشعور داخل الجماعات التى يطلق عليها كوفكا اسم « الجماعات السيكولوجية »[1] . (K. Koffka 1935) أو التى يطلق عليها فارس E. Faris اسم « الجماعات الأولية »[2] . (E. Faris 1932) . ومن أمثلتها : جماعة من الأقرباء المنتشرين فى بلاد مختلفة ويتواصلون بالرسائل أو بأية وسيلة أخرى ، أو شخصان متحابان يؤثر كل منهما فى أفعال الآخر وعواطفه وأفكاره ، أو أشخاص يعملون فى سبيل قضية واحدة . ويصف كولى C.H. Cooley سلوك الأفراد داخل هذه الجماعات بقوله ، إن النتيجة النفسية للارتباط

---

(١) psychological groups

(٢) primary groups

الوثيق هي نوع من الامتزاج بين الأفراد في كلٍّ مشترك ، بحيث نجد أن ذاتنا نفسها تصبح هي الحياة المشتركة للجماعة ، ويصدق هذا على الأقل بالنسبة لبعض أهدافنا . وربما كانت أيسر الطرق لوصف هذا الكل أن نقول إنه «نحن» ، فهو يتضمن ذلك النوع من التعاطف والتقمص المتبادل الذى تبرز « النحن » بمثابة تعبير طبيعي عنه . فالفرد يعيش فى الشعور بالكل ، ويجد الأهداف الرئيسية لإرادته ماثلة فى ذلك الشعور[1] . ويقول فرتهيمر M. Wertheimer فى هذا الصدد : عندما يعمل مجموعة من الناس سويًّا ، فقلما يحدث أن يقتصر أمرهم على تكوين مجموعة من الأنوات المستقلة ، بل بالعكس ، يحدث غالباً أن يصبح المشروع العام محل عنايتهم المشتركة ، فيعمل كل منهم كجزء له دلالته الخاصة فى الكل. ولنضرب لذلك مثلا جماعة من أهل الجزر فى بحار الجنوب وقد انهمكوا فى عمل جمعي ، أو مجموعة من الأطفال يلعبون سويًّا . ولا يحدث إلا فى ظروف خاصة جدًّا أن توجد « أنا » واقفة وحدها . (M. Wertheimer 1938 b) . ويقول شولته H. Schulte إن الشخص داخل النحن يشعر ويفكر ويعمل ، لا باعتباره « أنا » فى مقابل أنوات أخرى ، بل كعضو فى جماعة . فنجد أن عمله وفكره بل وإدراكه يتشكل تبعاً لعضويته فى الجماعة · (H. Schulte 1938) .

ويتألف المجتمع من عدد من الجماعات السيكولوجية ، بحيث يمكن اعتبار هذه الجماعات هى الوحدات الدينامية الأولية فى البناء ، أو بعبارة أخرى هى الخلايا التى يتألف منها جسم المجتمع . وعلى هذا الأساس ينبغى إعادة النظر فى المقدمة الأولى لنظرية العقد الاجتماعى وما شابهها من نظريات ميكانيكية ذرية * ، إذ تقرر أن الفرد هو الوحدة الأولية للمجتمع .

(١) C.H. Cooley, "Social Organization", 1923 (Through E. Faris 1932).

* يلاحظ أن هذا الرأى يناظر الرأى الذى توصلنا إليه فى بحثنا « الأسس النفسية للإبداع الفنى » ؛ فقد توصلنا حينئذ إلى القول بأن الوحدة الدينامية الأولى للقصيدة هى « الوثبة » وليست البيت . فلا يظهر البيت فى ذهن الشاعر أثناء عملية الإبداع ولا تكتمل دلالته إلا من خلال عدد من الأبيات التى تؤلف معه وحدة دينامية أصيلة . وتتألف القصيدة فى النهاية من عدد من الوثبات

وتتفاوت درجات التكامل ، ودرجات الشعور بالنحن ، فى هذه الجماعات السيكولوجية تبعاً لعدة عوامل . فالجماعات السيكولوجية التى تتألف من الزوج وزوجه تسمح بدرجة من الاقتراب والتفاعل — فى حالات الزواج الموفق — تفوق كثيراً ما تسمح به جماعات الصداقة . كما أن الجماعات التى تتألف لخدمة قضية معينة قد تفوق فى درجة التكامل بين أعضائها ما تحققه الجماعات الأسرية وجماعات الصداقة .

إلا أن هذه الجماعات تتفق فى حقيقة معينة ، لها أهميتها الخاصة بالنسبة للباحث فى السلوك الاجتماعى ؛ ذلك أنها هى الوسائط التى لا بد منها لارتباط الفرد بالمجتمع . هى الوسائط التى من خلالها يتم تقطير قيم المجتمع وتقاليده وعاداته فى نفس الفرد . بعبارة أخرى هى الوسائط التى من خلالها يتم تطبيع الفرد . ومن هنا كانت هذه العملية أعنى عملية التطبيع بالغة التعقد ، لأنها لا تتم بشكل مباشر ، ولأن الجماعة تنتخب — على أسس معينة — من بين مجموع قيم المجتمع وتقاليده وعاداته مجموعة خاصة بها ، وتقدمها دون سواها للفرد الذى يقوم بدوره بانتخاب جديد . ولأن الفرد تتعدد عضويته فى جماعات سيكولوجية مختلفة تحاول كل منها أن تقطر له مجموعة خاصة بها .

لهذا السبب كان لزاماً على الباحث فى السلوك الاجتماعى أن يهتم بهذه

يمكن تحديد بداية كل منها ونهايتها ، كما أن العلاقة بين كل من هذه الوثبات وبين البنــاء الكلى للقصيدة تختلف اختلافاً أساسياً عن العلاقة بين البيت والقصيدة . وكذلك الحال فى المجتمع ، فهو بناء دينامى يتألف من وحدات دينامية صغرى هى أيضاً أبنية ، وهذه الأبنية هى « الجماعات السيكولوجية » ولهذا التناظر دلالة فلسفية تعبر حدود الدراسة السيكولوجية المتخصصة . إذ يمكننا أن نرى فى هاتين الحقيقتين ، الأولى الخاصة بعملية الإبداع الفنى والثانية الخاصة بعملية التكامل الاجتماعى ، بعض الأمثلة التى تشير إلى كيفية حل إحدى المشكلات المنهجية الهامة فى البحوث العلمية الحديثة ، وهى : إلى أى مــدى يمكن تحليل الأبنية أو المركبــات تحليلا لا ينتهى إلى تغيير طبيعتها ؟ هل يمكن الاستمرار فى عملية التحليل دون توقف ؟ وإذا كان لا بد من التوقف فى موضع ما فما هى الشروط الموضوعية التى لا بد من توفرها فى الموضع الذى تتوقف عنده ؟ بعبارة أخرى ما هى خصائص الوحدات الأولية للأبنية أو المركبات ؟

الجماعات . فعن طريقها يمارس الفرد عضويته فى المجتمع ، ولا يمارسها بطريق مباشر. وقد أجرى مايو Mayo وآخرون عدة بحوث فى سيكولوجية العمال فى بعض المصانع ، انتهوا منها إلى أنه فى أى قسم من أقسام المصنع كان العمال يأتلفون (سواء أقصدوا إلى ذلك أم لم يقصدوا) فى جماعات لها عاداتها الخاصة وواجباتها وأساليبها الثابتة بل وطقوسها . بل إن هذه الحقيقة لتبدو من الوضوح أمام الباحثين بحيث يقررون أنها لا تصدق فى ميدان الصناعة فحسب بل وفى الميادين الإنسانية الأخرى ؛ إذ نجدنا دائماً بإزاء جماعات إنسانية صغرى متماسكة بشكل واضح. فإذا حيل بين الأفراد وبين تكوين هذه الجماعات بفعل أى طارئ خارجى فالنتيجة المباشرة متاعب متعددة . (E. Mayo 1949, pp. 72, 99) فتكوين هذه الجماعات إذاً عملية تلقائية . وعندما ننظر نظرة تاريخية ابتداء من المجتمعات الموغلة فى البدائية إلى أكثرها تطوراً وارتقاء لا نستطيع أن نجد مجتمعاً واحداً ، فى أى مستوى من المستويات الارتقائية خلا من هذه الجماعات ومارس الأفراد عضويتهم فيه بطريق مباشر . إننا نجدها تقل بحيث يزداد المجتمع تجانساً كلما أوغل فى البدائية ، لكنها لا تختفى اختفاء تاماً . وهذه الحقيقة التاريخية تزيد فى تأكيد أهمية هذه الجماعات وتبرز دلالتها الجوهرية فى بناء المجتمع البشرى . فليست شيئاً عابراً ، ولا وليد ظروف خارجية بحيث يمكن أن تزول بزوال هذه الظروف . ولو أن هذا لا ينفى أنها تتشكل تبعاً لفعل هذه الظروف .

ومما يؤكد أهميتها أيضاً ما تكشف عنه بعض البحوث الحديثة من عمق آثارها فى الفرد. وقد أورد مايو E. Mayo مثالا على ذلك حالة عاملتين فى أحد المصانع رفضتا الترقية وزيادة الأجر لأن القبول كان يحتم عليهما الانتقال إلى قسم آخر فى المصنع وترك جماعتهما التى تكونت حولهما من خلال العمل . وحالة العاملة التى كانت تشعر بالضيق الشديد من أمها لأنها تلح عليها فى أن تحدث رئيسها فى أمر ترقيتها ، إذ كانت تعلم مقدما أن هذه الترقية سوف تكلفها ترك جماعتها إلى جماعة أخرى فى قسم آخر من أقسام المصنع . وهناك عدة أمثلة للحقيقة نفسها من زاوية أخرى .

فقد لاحظ هوايتهد J.N. Whitehead أن التنوع فى الإنتاج داخل المصنع يعتمد على التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعة . فى حين أن التغيرات الجوية وتغير ساعات العمل يكون تأثيرها تافهاً نسبيًّا ؛ وقد انتهى إلى هذا الرأى بناء على ملاحظات أجراها على خمس عاملات فى أحد مصانع شيكاغو ، عُزلن عن زملائهن فى العمل لمدة خمس سنوات . وهو يقرر أن التغير فى الإنتاج يتناول الكم والكيف. وكان يقارن إنتاج كل عاملة بإنتاج الأخريات ، فلاحظ أنه حينما تكاملت عاملتان بالمعنى الاجتماعى للكلمة سواء تكاملتا فى صداقة أم فى تقارب ما ، عندئذ يوجد ارتباط واضح بين التغيرات الطارئة على إنتاج كل منهما . ولا يعنى ذلك أن إنتاجهما يكون متساوياً أو قريباً من التساوى ، بل يعنى أن التغيرات فى منحنى الجهد المبذول فى العمل تكون مترابطة إلى حد بعيد . فإذا ما انقطعت العلاقة الاجتماعية بين أى عضوين أصبحت التغيرات مستقلا بعضها عن البعض. (E. Farmer 1939). ومن الملاحظات المماثلة ما يقرره يات Wyatt من أن الفصل بين العمال الداخلين فى علاقة تكامل اجتماعى يصحبه ازدياد الإنتاج لدى كل منهم . ولكن يصحبه فى الوقت نفسه ازدياد الشعور بالجوانب غير المريحة فى بيئة العامل . كذلك لاحظ هندرسون ومايو أن الجماعة تنزع إلى جعل أفرادها متقاربين فى مستوى الإنتاج ، كما لاحظ أن وجود عامل سريع فى الإنتاج مع عامل بطىء يترتب عليه إبطاء السريع وإسراع البطىء ، وهكذا يتحركان نحو مستوى واحد فى الإنتاج . (ibid) وبناء على هذه الملاحظات وما شابهها انتهى مايو إلى نتيجة بالغة الأهمية بالنسبة لبحوث علم النفس الصناعى ؛ إذ يقرر أن الاعتقاد بأن سلوك الفرد داخل المصنع يمكن التنبؤ به قبل إلحاق هذا الفرد بالعمل على أساس استخدام الاختبارات الدقيقة لمعرفة قدراته التكنيكية وغيرها اعتقاد خاطئ فالواقع أننا نستطيع أن نصل إلى نتائج أفضل من ذلك بكثير إذا نحن عنينا بفحص قدراته الاجتماعية وقدرته على التكيف عامة . ذلك أن ما يحدث فى الواقع هو أنه

بعد التحاق العامل بالمصنع نجد أن علاقته « بالفريق »[١] هى التى تحدد مدى استخدام هذا العامل لقدراته التكنيكية . وبمراعاة هذه الحقيقة واحترام واقعية الجماعات السيكولوجية التى يؤلفها العمال داخل المصانع انتهى إلى نتائج حاسمة من أبرزها أن نسبة العمال الذين كانوا يتركون المصنع إلى مصانع أخرى انخفضت من ٢٥٠ ٪ إلى ٥ ٪ تقريباً ، وزاد الإنتاج ولم يعد « الغياب » مشكلة مزعجة . (E. Mayo 1949, p. 99) . وقد أوضحنا فى بحث سابق أن حدوث « صدع » فى جماعة النحن بين أحد أعضائها والآخرين ينجم عنه أحياناً نتائج بالغة الأثر فى سلوك هذا العضو . (م . سويف ١٩٥١) .

وإلى جانب ما لهذه الجماعات السيكولوجية من تأثير عميق فى سلوك الفرد ، كذلك نجد لها تأثيراً عميقاً فى كيان المجتمع . وقد ذكرنا أنها وسائطه فى تقطير ما يكفى لتطبيع الفرد من قيم وعادات وتقاليد ، فهى بذلك عامل هام فى استقرار المجتمع وضم أعضائه . إلا أنها بالإضافة إلى ذلك عامل هام فى تغيير نظام المجتمع . وتواريخ الثورات والانقلابات تشير إلى هذه الحقيقة الهامة . فجميع الثورات والانقلابات — مع التسليم بأن الكثير منها وليد حاجات عامة منتشرة لدى معظم أبناء المجتمع — بدأت تتلمس طريقها إلى الظهور والتنفيذ من خلال هذه الجماعات السيكولوجية الضيقة الحدود . وكما كشفت البحوث السوسيومترية عن أن الشائعات تخترق فى سيرها الطرق التى تمثل أقصر المسافات الاجتماعية أو بعبارة أخرى أوثق الروابط الاجتماعية ، فكذلك انتشار السخط والتدابير الثورية نرجح أنه يخترق هذه الطرق نفسها ، على الأقل فى بعض مراحله .

على أن الشعور بالنحن ليس وقفاً على هذه الجماعات السيكولوجية التى يتم فيها الاتصال والتأثير المتبادل بين الأعضاء بطريق مباشر . بل إنه ليتعداها أحياناً إلى جماعات أخرى أوسع نطاقا ، والاتصال والتأثير المتبادل بين أعضائها

---

(١) team

لا يتم بطريق مباشر . من هذا الطراز الجماعات التي أطلق عليها شريف وكانترل M. Sherif & H. Cantril اسم «الجماعات المراجع»[١]. ونحن نشاهد لذلك عدة أمثلة . منها مثال الطالب غير الرياضي الذي يتحمس لكون مدرسته تتغلب على مدرسة أخرى في إحدى المباريات ، فيعنى بالدفاع عن اسمها وسمعتها ، وربما تورط في بعض المشاحنات لهذا السبب . ومنها مثال العالم الذي يغضب ويأسى لكون عالم آخر — ربما لم يره في حياته قط — قد وقع عليه الاضهاد . ومنها كذلك مثال المواطن الذي يتحمس للقتال دفاعاً عن وطنه في وجه معتد لم ينل باعتدائه أحداً من أقربائه بل بضع عائلات تقيم قرب حدود الوطن . عندئذ يبدو الشعور « بالنحن » وهو يضم الآلاف والملايين ممن لم تقم بينهم أية صلة مباشرة في الحياة. وفي مثل هذه المواقف يبدو أن حالة النحن كانت قائمة فعلا لكنها لم تكن في المستوى الشعوري . ويمكن القول بوجود عتبة[٢] تعين متى ترتفع هذه الحالة إلى المستوى الشعوري ، وتختلف من فرد إلى آخر تبعاً لعوامل متعددة . على أننا سنوجه اهتمامنا إلى حالة النحن ، تلك الحالة الدينامية التي تظل أحياناً دون المستوى الشعوري وترتفع أحياناً إليه . ما هي العوامل التي تعمل على ظهورها ؟ والشروط المهيئة لذلك ؟ ثم ما هي العقبات التي تقوم في سبيلها أو العوامل التي تعمل على اختلال التكامل ؟ ويعتبر التعبير اللفظي عن تحقق هذه الحالة أحد مظاهرها التي تتجلى إذا توفرت شروط معينة ، كما يحدث في ظروف التعبئة العامة[٣] للمجتمع ، أو في ظروف الحياة العادية لدى بعض الأفراد ذوي الاهتمامات الاجتماعية الواسعة الأفق . إلا أن عدم ظهور هذا التعبير اللفظي لا يعني عدم تحقق حالة النحن . فثمة عدة مظاهر سلوكية أخرى يمكن الاستدلال بها على نحو ما سنوضح فيما بعد.

والخلاصة أن الجماعات التي تتيح لأعضائها تحقق حالة النحن عديدة

---

(١) referenae groups

(٢) threshold

(٣) mobilization

الأشكال ، تختلف فيما بينها من حيث كثير من الخصائص ، كالحجم ، ونمط العلاقات القائمة بين الأعضاء، ومدى اختلاف المسافات الاجتماعية بينهم . . . . الخ ، لكنها تتفق من حيث القوانين الدينامية الأساسية التى تنتظمها . وهذه القوانين هى التى سنحاول الكشف عنها فى الفصول القادمة .

الفصل الثالث

عوامل التكامل الاجتماعى

الاشتراك – تقسيم العمل – التواصل – وحدة الهدف

إذا نظرنا فى الحياة الاجتماعية بنظرة فينوتيبية[1] – على حد تعبير لڤين K. Lewin – وجدنا أن بعض جوانب الحياة الاجتماعية تتخذ دور العوامل الرئيسية للتكامل ، وتتغير من مجتمع إلى آخر أو من مستوى ارتقائى فى حياة المجتمع إلى مستوى آخر . مثال ذلك ما نلاحظه إذا قارنا بين مجتمع إقطاعى ومجتمع صناعى حديث . ففى المجتمع الإقطاعى يبدو عامل القرابة[2] وكأنه العامل الرئيسى فى إقامة الشعور بالتكامل مع الآخرين فى وحدة اجتماعية وثيقة . أما فى المجتمع الصناعى الحديث فيبدو أن العضوية الطبقية[3] تحتل هذه المكانة .

إلا أن النظرة الجينوتيبية[4] التى تعنى بالكشف عن القوانين الأساسية للتفاعل تستطيع أن تتبين وراء هذه الظواهر المتغيرة مبادىء دينامية ثابتة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

(ا) « الاشتراك » ، فى طقوس ، أو فى عادات وتقاليد ، أو فى ذكريات . الخ .

(ب) تقسيم العمل ، والتنظيم .

(ح) التواصل[5] .

(د) الشعور بهدف موحد ، وقبوله .

وقد أجريت عدة دراسات توضح آثار بعض هذه العوامل ومدى مساهمتها

---

(١) phenotypical (٢) kinship (٣) class-membership

(٤) genotypical (٥) communication

وكيفية حدوث هذه المساهمة فى تحقيق عملية التكامل الاجتماعى . وقد قام بمعظم هذه الدراسات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والأركيولوجيا . أما علماء النفس فقد بدأوا فى السنوات الأخيرة يهتمون بهذا الميدان ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك لكورت لفين ، الذى استطاع ببحوثه المنهجية وبألمعيته فى ابتكار الطرق الملائمة لأداء التجارب بمعناها المعملى الدقيق أن يذلل الكثير من العقبات التى كانت تعترض سبيل الدراسة التجريبية لديناميات الجماعة . وقد أجرى رونالد ليپيت Lippitt ورالف هوايت R. White وهما من زملاء لفين والمتتلمذين عليه — تجربة نموذجية فى هذا الصدد تكشف عن أثر هذه العوامل جميعاً وعوامل أخرى ثانوية . وهذه التجربة هى المعروفة باسم « تجربة المناخ الاجتماعى لجماعات الأطفال » (R. Lippitt & R. White 1943) . والهدف الرئيسى للتجربة هو الكشف عن أثر نمط التنظيم فى الجماعة — وهو ما أشار إليه الباحثان باسم « المناخ الاجتماعى للجماعات » — فى روحها المعنوية(١) التى تتجلى فى درجة تماسك أعضائها وولائهم للجماعة ولأهدافها . أما الطريقة التى اتبعها الباحثان فى أداء هذه التجربة فتتلخص فى تكوين عدة جماعات من الأطفال — تزيد أعمارهم عن الثامنة — مع مراعاة التشابه بين هذه الجماعات من حيث الظروف الاجتماعية الاقتصادية لأعضائها ومستويات ذكائهم ونمط العلاقات بينهم . وبذلك تم تثبيت المتغيرات التى قد تتدخل فى تحديد النتيجة . ثم نظم الباحثان علاقات الأعضاء داخل كل جماعة بحيث تمثل نمطاً معيناً . وتكونت نتيجة لذلك ثلاثة أنماط للتنظيم الاجتماعى : النمط الديمقراطى ، والنمط التسلطى * ، والنمط الفوضوى . وفى ظل هذه العلاقات أتيحت للجماعات فرصة القيام بنشاط عملى ، وجعل عدد من الملاحظين المدربين يسجل مختلف التغيرات التى كانت تنتاب أهم جوانب

---

(١) morale

* وقد كشفت التجربة عن أن بعض الجماعات ذات التنظيم التسلطى يغلب عليها الاستجابة العدوانية ، فى حين أن البعض الآخر يغلب عليها الاستجابة الخضوعية .

السلوك لدى الأعضاء .

والنتيجة الرئيسية لهذه التجربة أن الروح المعنوية ، أو التماسك التلقائى ، تتحقق بأعلى درجاتها فى الجماعة الديمقراطية . فمظاهر الصداقة تبدو فى الجماعة الديمقراطية بما يعادل ١ , ٢٦ ٪ من مظاهر السلوك فى حين أنها لا تتعدى ٧ , ٢١ ٪ فى الجماعة التسلطية (التى كان يغلب على سلوك أعضائها الأرجاع العدوانية) . و ٢٠,٦ ٪ فى الجماعة الفوضوية ، و ١٧,١ ٪ فى الجماعة التسلطية (التى كان يغلب على أعضائها الأرجاع الخضوعية) . واستخدام ضمير « نحن » يفوق استخدام ضمير « أنا » فى الجماعات الديمقراطية ٣٩ مرة ، فى حين أنه فى الجماعة الفوضوية يتفوق ٣٨ مرة . وفى الجماعة التسلطية العدوانية ٣٦ مرة وفى الجماعة التسلطية الخضوعية ٢٩ مرة . وفيما يتعلق بالعمل معاً فى سبيل أهداف مشتركة ، كانت النسبة المئوية فى الجماعة الديمقراطية ٥٠ ، وفى الجماعة الفوضوية ٣٣ ، وفى الجماعة التسلطية العدوانية ٥٢ ، وفى الجماعة التسلطية الخضوعية ٧٤ . وهذا الارتفاع الملحوظ فى الجماعات التسلطية يخفى وراءه حقيقة هامة هى أن العمل فى هذه الجماعة كان متوقفاً دائماً على حضور الرئيس بحيث ينقطع بمجرد غيابه .

وبتحليل ديناميات الجماعة الديمقراطية يتضح لنا أثر عوامل التكامل الرئيسية التى أسلفنا ذكرها ، تلك العوامل التى لا يتاح لها العمل مجتمعة فى الجماعات الأخرى . ذلك أن الجماعة الديمقراطية كان رئيسها يتعاون مع أعضائها على وضع خطط العمل مستقبلا ، ويشجعهم على إظهار رغباتهم ويحدد معهم أهداف الجماعة . (فى الجماعة الديمقراطية تولى الرئيس استثارة الأعضاء وتشجيعهم على تحديد الهدف ٦٠ مرة ، أما فى الجماعة الفوضوية فقد أدى ذلك ٣٠ مرة ، وفى التسلطية ٧ مرات) . فكانت النتيجة أن أعضاء الجماعة كانوا يشعرون بأن لهم هدفاً واضحاً ، وكانوا يقبلون هذا الهدف لأنهم ساهموا فى تحديده مقدماً . وكان تحديدهم لخطط العمل مستقبلا عنصراً مهما فى تنظيم خطواتهم

وتعاونهم فى سبيل هذه الخطوات . وكانوا بين الحين والآخر يعبرون عن سرورهم للنجاح الذى يحرزونه ويتبادلون المديح ، كما كانوا يتبادلون الأحاديث للتعبير عن مشاعر أخرى .

فإذا قارنا بين الجماعة الديمقراطية والجماعة التسلطية فالفروق واضحة . ومن أهمها أن الرئيس كان ينفرد بتحديد الهدف وخطة العمل نحوه دون أن يسمح للأعضاء بالمشاركة فى ذلك ، وكان ينفرد بتوزيع أدوارهم فى العمل عليهم . فكان تقسيم العمل قائماً وغير قائم ، كان قائماً فى ذهن الرئيس ، لكنه لم يكن قائماً فى أذهان الأعضاء ، ومن ثم فلم يكونوا يشعرون بوحدة المشروع الذى يضمهم وبالاعتماد المتبادل فيما بينهم ، أى أن وحدة المشروع وتقسيم العمل لم يكونا قائمين فى واقعهم السيكولوجى. وبالتالى فقد اضطر الرئيس أن يصدر ٢٥٦ أمراً فى ستة اجتماعات ، بينما أصدر الرئيس الديمقراطى ١١ أمراً فقط فى المدة نفسها . أما فيما يتعلق بالشعور بهدف موحد وقبول هذا الهدف فلم يكن قائماً أساساً . ذلك أن الهدف لم يكن من صنعهم بل كان من صنع الرئيس منفرداً ، وكان يفرض عليهم السعى نحوه . ولم يقتصر الأمر على عدم شعورهم بالهدف بل كانت تصدر منهم بين الحين والحين تعبيرات عدائية نحوه ونحو الرئيس . والنتيجة النهائية أن الجماعة التسلطية لم تحقق درجة من التماسك التلقائى تماثل الدرجة التى وصلت إليها الجماعة الديمقراطية . ومن أوضح الأدلة على ذلك — كما أنه من عوامل تخفيض درجة التماسك — أن الأطفال فى الجماعة التسلطية أجروا فيما بينهم ١٢٦ وحدة حديث فى الاجتماعات الست . بينما أجروا فى الجماعة الديمقراطية ٢٢٠ وحدة حديث .

على أن الجماعة الفوضوية لم تحقق هى الأخرى درجة التكامل التى حققتها الجماعة الديمقراطية ، لأسباب مماثلة . فلم يكن ثمة هدف للجماعة يُجمع عليه الأعضاء ، ولم تكن هناك خطة للعمل ، مع ما يترتب عليها من تقسيم للعمل بين الأعضاء وتنظيم علاقاتهم تنظيما مستقراً تبعاً لأدوار يضطلعون بها فى المشروع .

هذه هى النتائج الرئيسية للتجربة . وهى تلقى ضوءاً لا بأس به على أهمية

عوامل التكامل الاجتماعى التى ذكرناها . وقد نبه الباحثان على ضرورة الحذر عند محاولة تعميم هذه النتائج على المجتمعات ، وذكر بعض الباحثين أن من أهم الاعتراضات التى تقوم فى وجه هذا التعميم عدم اكتمال مقومات الحياة الاجتماعية — وخاصة النشاط الاقتصادى — داخل هذه الجماعات . إلا أن هذه الاعتراضات وأمثالها لا تمنع من الإفادة الجزئية من مثل هذه التجربة ، على أساس أنها تمكننا من وضع الفروض لتفسير ديناميات التكامل فى المجتمع ، ثم امتحان مدى صدق هذه الفروض وانطباقها بالرجوع إلى نتائج البحوث الأنثروبولوجية والتاريخية والاجتماعية ، وجميع المصادر التى يمكن الإفادة منها ، عملا بتوجيهات جاردنر مورفى . (1937, p. 24)

وهنا نستطيع أن نستعين بمبدأ منهجى هام لجأ إليه كثير من الباحثين فى عدة ميادين للبحث العلمى ، وأوضح لفين أننا يلزمنا الاستناد إليه فى بحوثنا فى ديناميات الجماعة ، إذا أردنا لهذه البحوث أن تحرز من التقدم ما أحرزته البحوث فى ميادين العلم الأخرى . يقول لفين : هناك نقطة هامة يجب عدم إغفالها لأنها تنطوى على آمال عريضة فى مستقبل بحوثنا ، فمع أن للجماعات المختلفة الأحجام مشكلاتها الخاصة فإن هناك خصائص دينامية معينة تعتمد على الخصائص البنائية للجماعة أكثر مما تعتمد على الحجم المطلق . ولذلك نستطيع أن نبحث خصائص الجماعات الكبرى فى نماذج صغيرة . ويضرب مثلا لذلك ، أن « الروح المعنوية » للجماعة أيًّا كان حجمها تكون أقوى إذا كان فعلها قائماً على تصميمها الخاص وعلى « قبولها » لوضعها (K. Lewin 1943) .

يتلخص هذا المبدأ إذاً فى صنع نماذج مصغرة ومبسطة لأحداث الواقع . والهدف من التصغير والتبسيط هو جعل متغيرات الموقف فى متناول يد الباحث وملاحظته ، يُجرى فى أوضاعها وعلاقتها التغيير والتبديل ويسجل الملاحظات الدقيقة عن نتائجه ، وبذلك يتاح له أن يستخلص قوانين التفاعل . والمشكلة الجوهرية فى صنع النماذج هى مدى تمثيلها لمقابلاتها فى الواقع . ذلك أن التصغير

والتبسيط إنما يكون بحذف بعض جوانب المواقف والإبقاء على جوانب أخرى. فعلى أى أساس يتم هذا الانتخاب ؟ المسألة هنا مسألة مغامرة علمية إلى حد كبير. فالباحث يعتمد اعتماداً كبيراً على نوع من « البصيرة النفاذة » ، ينتخب بها ما يعتبره جوهرياً فيبقى عليه فى النموذج ويحذف ما يعتبره ثانوياً. وقد تقوم أمامه عقبات تكنيكية تمنعه من أن يوفر فى النموذج بعض ما يعتبره جوهرياً وأمام هذه العقبات يضطر إلى أن يتنازل عنه — ولو تنازلاً مؤقتاً —. وهنا يتضخم عنصر المغامرة فى عمله.

على أن المسألة ليست مغامرة خالصة. فهذه « البصيرة النفاذة » يكونها الباحث من خلال ثقافته العلمية التى تمثل — بدرجات متفاوتة — خلاصة بحوث العلماء الآخرين وخبراتهم النظرية والتكنيكية. وبقدر ضخامة ثقافته هذه — مع قسط من الذكاء لابد منه — ، وبقدر ضخامة التراث والخبرات التى خلفها العلماء الآخرون ، وبقدر رسوخ هذه الخبرات بحيث تمثل قسطاً ثابتاً منظما من المعلومات وتقاليد التجريب ، بقدر توفر ذلك يقل عنصر المغامرة فى عمل الباحث. ولنا أن نقارن بين باحث فى الفيزيقا أو الكيمياء الطبيعية وباحث فى علم النفس الاجتماعى ، وسيتضح لنا حرج مركز الأخير. ومن هنا تبرز الأهمية البالغة للبحوث التجريبية الحديثة فى ديناميات الجماعة على قلتها ؛ فهى تمثل المحاولات الأولى لتوطيد دعائم البحث فى هذا الميدان ، والكشف عن طرق التجريب فيه ووضع تقاليده. ومع التسليم بأن عنصر المغامرة متضخم فى هذه الحال ، إلا أن هذا هو الطريق الذى اجتازته العلوم التى تمثل أكثر جبهات المعرفة العلمية تقدما. والتجربة فى كل البحوث العلمية ليست سوى تنفيذ لتصميم تصورى ، لا نسخة من الواقع. وباطراد البحث وتكاتف الجهود يقترب مجموع التجارب فى العلم من تمثيل الواقع شيأً فشيئا.

لهذه الاعتبارات جميعاً نبيح لأنفسنا الإفادة من تجربة « المناخ الاجتماعى » وما إليها من تجارب « القرار الجماعى » و « التحبيذ » « وأثر التنظيم » .... الخ

فى وضع الفروض المفسِّرة لعملية التكامل الاجتماعى ، أو فى تأييد بعض الفروض التى نتوسمها بالاستناد إلى مراجع أخرى . يشجعنا على ذلك قول لفين : يجب ألاّ تفتّ فى عضدنا تلك الصعاب التى تعترض سبيلنا . والرأى عندى أن علماء النفس الاجتماعيين لهم الحق كل الحق فى أن يثقوا بأنفسهم ويفخروا — إلى حد ما — بما تم فى السنوات الأخيرة . فمن منا كان يجرؤ أن يتنبأ منذ بضع سنوات بأننا سوف نستطيع ذات يوم أن نقيس الأجواء الاجتماعية ، ونقيس الزعماء وندربهم ، وندرس توترات الجماعة ، وعمليات التصميم الجماعية كما هى الحال الآن (K Lewin 1943) .

وظيفة « الاشتراك » :

يعتبر الاشتراك « وظيفة » هامة فى المجتمع تساهم فى تحقيق تكامله واستمرار هذا التكامل. وقد كان مكدوجل W. McDougall يقول إن شرط التئام أى جمع من الناس ليكوّن جماعة بالمعنى السيكولوجى الدقيق هو وجود شىء مشترك بين أفراد الجماعة لما يترتب على هذا الاشتراك من تجانس نفسى يمكن الأفراد من سرعة التفاهم وزيادة التقارب. (S. Freud 1940, p. 26) .

ويقول كاتس وشانك D. Katz & R.L. Shanck إن امتلاك مجموعة من الناس لعدة عادات وممتلكات يمكنهم من أن يتصوروا أنفسهم جماعة، وينشط التقمص تلقائيًّا لدى من يتكلمون نفس اللهجة أو يلبسون نفس النوع من الملابس أو يشتغلون بنفس النوع من الآلات . فمالك البيت الذى يدفع الضرائب ويقود سيارته ويقبل الأوضاع الفكرية والخلقية التقليدية ما أيسر ما يوحد بين نفسه وبين دافعى الضرائب وملاك العقارات . ولما كانت الطرق المشتركة والممتلكات المشتركة تساهم فى تكوين الجماعة فإن البعض يستخدمونها كوسيلة لزيادة ربط الجماعة . وكلنا نعرف التحيات وكلمات السر والشارات بل والزى الموحد فهى جميعاً تستخدم كوسائل لتوطيد دعائم النوادى والأحزاب والحركات الاجتماعية .(D. Katz & R.L. Shanck 1947, p. 328)

والشيء المهم فى هذا الاشتراك أنه يؤدى — بطرق مباشرة وغير مباشرة — غالباً إلى ظهور اهتمامات[1] مشتركة . فإذا لم يقم فى المجال السلوكى ما يحول دون ظهور هذه الاهتمامات وتعمقها فى المستويات العميقة للشخصية فستقوم وظيفة « الاشتراك » بمساهمة فعالة فى تحقيق تكامل الجماعة . وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية . فالوظيفة هنا تتم فى كل دينامى ، متفاعلة مع عدة وظائف أخرى ، والنتيجة دائماً محصلة للتفاعل . من هنا يلزمنا الحذر من المبالغة فى أهميتها كأنها ذات قيمة مطلقة . كما يلزمنا التنبه إلى أن « الاشتراك » وسائر الوظائف التى تحقق التكامل الاجتماعى تختلف فى تأثيرها من فرد لآخر تبعاً لعدة عوامل .

وتعتمد وظيفة « الاشتراك » فى العادات أو الممتلكات أو بعض خبرات الحياة فى نفوذها فى أعماق الشخصية وتوليد حاجات واهتمامات معينة ، تعتمد على المستويات تحت الشعورية[2] غالباً . ومن هنا ينجح « الاشتراك » فى الشارات والملابس والحركات الرمزية وبعض الأسرار ، ينجح فى أداء مهمته فى التجميع والتوحيد لدى البدائيين لانخفاض مستوى ارتقاء الشخصية بوجه عام لديهم ، كما ينجح لدى فئات معينة من أبناء المجتمعات المتمدينة ممن يتميزون بانخفاض مستوى ارتقاء الشخصية . أما نجاحه بين فئات الشخصيات الناضجة فرهن بتوفر عوامل متعددة تساهم جميعها فى توليد الاهتمامات المشتركة .

فالاهتمامات المشتركة إذاً هى الحقيقة السيكولوجية الهامة وراء وظيفة « الاشتراك » . وهذا ما أشار إليه فرويد S. Freud بقوله إن ظهور اهتمامات مشتركة بين أعضاء الجماعة يولد بينهم شعوراً بالوحدة والتضامن . أما ظهور الاهتمامات المتعارضة فهو من أهم مصادر الصراع والتمزق . (S. Freud 1939,pp. 85-87) ويلى ذلك فى الأهمية ما يترتب على « الاشتراك » من تشابه فى أنماط العمليات النفسية لدى أعضاء الجماعة ، مما ييسر سبل التفاهم والتقارب . ولنا أن نتصور حالة شخصين بينهما كثير من التشابه فى الذكريات والآمال ومعايير القيم ، مثل هذين الشخصين يسهل أن تتوثق بينهما عرى الصداقة ، بعكس الحال لدى شخصين مختلفين من هذه الوجوه . وفى ذلك يقول فرويد ، كل ما يحقق التشابه بين الناس يؤدى إلى

(١) interests

(٢) subconscious

ظهور الشعور الجماعى بينهم وتقويته ، إذ ييسر حدوث التقمص (ibid. p. 95)
بعبارة أخرى ، إن بروز الشعور بحدود الأنا يعتمد أساساً على الشعور بالفوارق .
وقد أوضحنا فى فصول سابقة كيف أن الطفل فى أزمة السنة الثالثة يتبين هذه الفوارق فيعمل على زيادة شحذ شعوره بها عن طريق المعارضة الملحة والعناد المستمر ومن خلال ذلك ينمى شعوره بذاته . ومعنى ذلك أنه كلما قل الشعور بالفوارق ازداد اتحادنا بالآخرين عمقاً وتوثقاً . وهذا من الأسباب المهمة فى زيادة توثق الرابطة بين البدائى وقبيلته .

إن الصداقات الوطيدة والعلاقات الزوجية التى يطول العهد باستقرارها تزداد قدرة على الثبات والاستقرار لما يلقاه أعضاؤها من خبرات عديدة متشابهة فى الحياة تزيد من تجانس أنماطهم النفسية ، وبالتالى تعمل على تقاربهم .
والصداقات والزيجات التى تنطوى على درجة من التماثل يمكنها غالباً أن تستقر وتتوطد أكثر من سواها . وقد أوضحنا فى الدراسة السوسيومترية لصداقات الراشدين التى قدمناها فى الباب السابق كيف أن كثيراً من هذه الصداقات تنطوى على تماثل فى درجة الصلابة الاجتماعية (وهى منخفضة غالباً لدى الطرفين) ، كما تنطوى على تماثل فى قوة المركز الاجتماعى للطرفين . وربما كان أحد الأسباب المساهمة فى ارتفاع نسبة الطلاق فى هذه الأيام ازدياد اتساع الهوة الفاصلة بين نمط البناء النفسى لدى الرجل والمرأة * . بل إن هذا السبب هو أحد الأسباب المساهمة بطريق مباشر فى تفكك الكثير من المجتمعات الحديثة . فانقسام المجتمع إلى فئات متباعدة ، وازدياد صلابة الحواجز القائمة بينها واختلاف خبرات الحياة التى يلقاها أبناء كل فئة اختلافاً كبيراً عن الخبرات التى يلقاها أبناء الفئات الأخرى ، قد أدى إلى درجة من التباين فى الأبنية النفسية بين أبناء هذه الفئات يصل إلى درجة التعارض أحياناً ، حتى إن الباحث فى السلوك الاجتماعى لم يعد يستطيع أن يغفل هذا التباين بين أبناء المدينة وأبناء الريف مثلا ، أو بين أبناء الطبقات الاجتماعية الاقتصادية المختلفة .

ولكن ما هو مضمون نمط البناء النفسى ؟ ماذا نعنى بهذا الاصطلاح

(*) يضاف إلى ذلك ارتفاع درجة التصلب الاجتماعية بوجه عام ، نتيجة لازدياد التوترات .

بالضبط؟ إن الشخصية بناء وليست مجرد مجموعة من الخبرات والعادات والذكريات والآمال . الشخصية بناء منظم محوره الأنا ، ومن حيث ارتباط أجزاء هذا البناء بالأنا تعتبر هذه الأجزاء قيما[1] . ويقال عن الروابط التي تربط الأنا إلى هذه القيم إنها اتجاهات[2] أو اهتمامات أو حاجات[3] . ومواقف الحياة إذ تقدم لنا المدركات والخبرات إنما تقدم لنا قيما لكل منها وزن خاص وليست متعادلة ولا فاقدة الوزن ، وتسعى كل منها لأن تحتل مركزاً فى البناء المنظم ، ولا تقوم هكذا فى فراغ أو فى مجرد تجاور مع قيم أخرى . فمواقف الحياة إذاً تصوغ بناءنا النفسى إذ تقدم هذه المدركات والخبرات ، وتعيد صياغته من لحظة لأخرى . (G. Murphy & others 1937, p. 218). ومن ثم يمكن القول بأن نمط البناء النفسى ومضمونه هما نتاج تاريخى لمواقف الحياة الاجتماعية التى يجتازها الشخص . ويمكننا بذلك أن نفهم كيف أن مواقف الحياة المتشابهة تنتج أنماطاً نفسية متشابهة .

ويتجلى أثر هذه الحقيقة ونتائجها بأوضح ما يكون فى المجتمعات البدائية . وهذا التشابه يتفق مع ما تقرره جميع الدراسات للمجتمع البدائى من ضآلة مدى التغاير بداخله وضآلة نطاق الفوارق الفردية . ثم ما تقرره تلك الدراسات من شدة التماسك بين أعضائه بدرجة تفوق كثيراً ما نشاهده فى بعض المجتمعات الحديثة . والاشتراك حقيقة نشهدها فى معظم جوانب الحياة الاجتماعية فى المجتمع البدائى .

يقول تومسون G. Thomson : حرص الدوريون الغزاة المقيمون فى اسبرطة على أن يحكموا البلد رغم أنهم كانوا أقلية . ولكى لا تغتالهم الأكثرية من أهل البلاد نظموا أنفسهم على أن يكونوا على استعداد دائم . ومن ناحية أخرى نظموا صفوفهم الداخلية ، فمنعوا تراكم الامتيازات الخاصة فى يد أفراد حتى لا يؤدى ذلك إلى تمزق فى روابطهم القبلية . كما حرصوا على أدب المآدب الجماعية فيما بينهم ، تساهم فى إعدادها كل أسرة بجزء من غلة الأرض . وكذلك حرصوا فى

---

(١) values (٢) attitudes (٣) needs

سنعود إلى توضيح هذه الحقيقة فى موضع أخرى .

كريت على أدب هذه المآدب الجماعية ليتماسكوا فيما بينهم كحكام ضد الشعب المحكوم (G. Thomson 1950, p. 70) ويقول ونسبير A.D. Winspear إنه من النظم التى كانت سائدة فى كريت ضرورة انتماء أفراد الطبقة الحاكمة الدوريين إلى نواد . ولم يكن ثمة فرد من هذه الطبقة لا ينتمى إلى ناد ، وهذا أيضاً ليتحقق التماسك بين أفراد هذه الطبقة . كذلك كان الفيثاغوريون يعملون بنظام المآدب الجماعية التى تجمع بينهم . (A.D. Winspear 1940, p. 251-257)

ويتحدث برستيانى J.G. Peristiany عن طقوس تلقين الأسرار (١) عند قبائل الكپسجيس فيقول إن ما يجعل لتلك الطقوس هذه الأهمية الكبرى التى ترتبط بها إنما هو الختان والطقوس السرية التى يتلقاها جمع من الفتيان سويا ، مما يجعلهم يشعرون بأنهم يشاركون فى خبرة واحدة ومعرفة بأشياء لا يدركها الغرباء ، وبذلك ينهض لديهم الشعور بالوحدة والتمسك القبلى (J.G. Peristiany 1939, p. 27) . ويتحدث عن الأپندا فى موضع آخر ، وهى إحدى منظمات الكپسجيس فيقول : فى خلال السنوات التى تسبق زواج الرجل وتليه ، أو بعبارة أخرى عندما يكتسب الفتى حق الرجولة (بتلقين الأسرار والختان ويباح له الزواج) يحتم عليه أن يرقص ويصطاد وينام فى السنجروينا مع أفراد مجموعة عمره (الإپندا) . وهذا « الاشتراك » فى المجالات المختلفة للحياة يقوى أواصر الصلة بين أفراد الأپندا . ومن الحكم المأثورة لدى الكپسجيس قولهم ، إذا أردت أن تقوى الجيش فإن خير وسيلة إلى ذلك أن تضع إلى جانب كل محارب منافسه فى حب فتاته ، أو الزملاء فى السنجروينا . « فالمحب لن يحط من قدر نفسه أمام منافسه ، والأعضاء فى السنجروينا الواحدة يصمدون لحماية بعضهم بعضا حتى الموت » (ibid., p. 41)

ويقول برتسيلوسكى J. Przyluski : من المظاهر المميزة لديانة قبائل الأرونتا فى استراليا قيام الحفلات الموسمية وبعض الأساطير . وتختلف هذه الحفلات من قبيلة إلى أخرى . ومن المسلم به أن كل شخص فى القبيلة يستطيع

(١) initiation

أن يشترك فيها . ويفصّل الباحث القول فى بعض هذه الحفلات فيقول إن أبناء القبيلة يرتدون زيًّا متماثلا يجعلهم يشبهون طوطمهم [١] ، ويقومون ببعض الحركات المنتظمة التقليدية بقصد محاكاة الطوطم . ولكى يكون الحفل مجدياً ومؤديا لوظيفته يتحتم على أبناء القبيلة أن يشتركوا فى الأكل من طوطمهم (J. Przyluski 1940, p. 86) .

ويذكر سمنر W.G. Sumner عن قبائل أخرى ممن يمارسون أكل اللحم البشرى أن أعضاء القبيلة يشتركون جميعًا فى أكل لحم المجرم ، ويتخذ هذا الأكل شكل طقس . وتتمثل فى ذلك فكرة المسئولية الجمعية ؛ فإن القضاء على حياة زميل فى القبيلة ظل وقتاً طويلا عملا يحتاج إلى دافع قوى ويحتاج إلى سلطة . وكان العبريون عندما يحكمون على أحد المجرمين بالرجم يحتمون على أبناء الجماعة أن يشتركوا جميعاً فى القيام بهذه العملية ، فإنهم جميعاً ينبغى أن يشاركوا فى ذنب الدم (W.G. Sumner 1930) .

ويمكن القول بأن البدائيين يحرصون على « اشتراك » جميع أفراد القبيلة فى معظم جوانب نشاطهم الاجتماعى . كما أنهم يضاعفون هذا الاشتراك بالطقوس التى ينبغى إجراؤها بصورة جمعية قبل الإقدام على أداء معظم الأعمال . فإذا أضفنا إلى ذلك الاشتراك فى مجموعة من الأساطير حول أصل القبيلة وتطورها ، وأصول بعض الكائنات التى تظهر فى مجال حياة القبيلة ، والأساطير التى تمثل حكمة الحياة وعبرة الأيام ، وهى تمثل مجمل البناء الأيديولوجى لدى الأفراد (J.G. Peristiany 1939, p. 235) استطعنا أن نتصور مدى التجانس القائم بين أنماط الأبنية النفسية فى هذه المجتمعات ، وبالتالى أن ندرك سبباً هامًّا من أسباب شدة التماسك التلقائى داخلها .

على أننا إذا أردنا أن نستنتج من هذه الحقائق شيئاً يخص المجتمعات الحديثة فيلزمنا أن ننظر إلى هذه الوظيفة ، وظيفة « الاشتراك » ، بنظرة ارتقائية . فنمط الاشتراك كما كان قائماً فى المجتمعات البدائية تحدده عوامل متعددة ، كأحجام

---

(١) totem

تلك المجتمعات، والمستويات التى بلغتها نظمها، ومستوى التقدم المادى التكنولوجى لديها. ولما كانت المجتمعات الحديثة تختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمعات البدائية من هذه الوجوه، فلابد أن تختلف عنها فى نمط «الاشتراك» أيضاً. لكن ذلك لا يعنى إمكان استغناء المجتمعات الحديثة عن ممارسة هذه الوظيفة.

ولنضرب لذلك بضعة أمثلة. كان أعضاء المجتمع البدائى يشتركون فى أداء طقوس معينة. والطقوس التى تضم المجتمع الحديث بأسره لم تنعدم، لكنها تضاءلت إلى حد كبير، لا سيما من حيث مظاهرها فى مجتمع المدينة. ومع ذلك فمما يعوض هذا التضاؤل ظهور صور أخرى من النشاط تؤدى الوظيفة نفسها. من هذا القبيل الإنتاج الفنى. فالأعمال الفنية العظيمة — كما يدل على ذلك تاريخ الفنون والدراسات النقدية — إن هى إلا خبرات «ومواقف اجتماعية» منشورة على نطاق واسع بالطباعة أو الإذاعة أو السينما أو المسرح أو المعارض، وكلما اتسع نطاق المتذوقين لها كان معنى ذلك تحقيق وظيفة «الاشتراك» على نطاق أوسع. والدوريات العلمية إذ تعمل على نشر أحدث نتائج البحث العلمى تقوم بمهمة الأسطورة فى المجتمع البدائى؛ ذلك أنها تعمل على إيجاد قسط مشترك فى البناء الأيديولوجى لأعضاء الجماعة، وكلما اتسع نطاق قرائها تحققت مهمتها على نطاق أوسع. وأهم من ذلك جميعاً أن يزداد التشابه بين خبرات الحياة الواقعية التى تواجه الأفراد دون أن يقضى على ثمرات الارتقاء.

تقسيم العمل الاجتماعى، والتنظيم:

إذا كان «الاشتراك» هو الوظيفة المحققة للتكامل عن طريق تحقيق التشابه بين أعضاء المجتمع، فتقسيم العمل الاجتماعى هو الوظيفة المحققة لهذا التكامل عن طريق التغاير والإفراد وإثارة الشعور بضرورة التواصل والتعاون. ومع ذلك فإن موضوع العمل بوجه عام لم يحظ بالعناية الكافية لدى الباحثين فى علم النفس

الاجتماعى . ويبدو هذا الإغفال واضحاً إذا قارنا بين البحوث السيكولوجية فى العمل والبحوث التى أجريت فى موضوعات الإدراك والحياة الوجدانية عامة . فالأخيرة تفوق الأولى كمًّا وكيفاً . وقد أوضحنا فى بحث سابق كيف أن هذا وليد أسباب اجتماعية معينة ، كما أنه نتيجة طبيعية لسير البحوث على خطة غير رشيدة. كما أوضحنا النتائج المترتبة على إغفال هذا الجانب الرئيسى من جوانب الحياة الاجتماعية ، وتتجمع كلها فى حقيقة هامة هى تأخر البحث فى ميدان علم النفس الاجتماعى تأخراً ملحوظا ، وتشتته وعدم تجمعه حول فرض عام منظم . وفى رأينا أن هذا الفرض العام المنظِّم لا يمكن الوصول إليه دون أن يحسب الباحثون حساب موضوع « العمل » وآثاره السيكولوجية فى أعضاء المجتمع (م . سويف أكتوبر ١٩٥١) وهذا بالضبط ما يشير إليه لڤين K. Lewin بقوله : على الرغم من أن البحوث العلمية فى العمل الجماعى[1] حديثة العهد فإننى لا أتردد فى التنبؤ بأن هذا الميدان سوف يكون فى القريب العاجل من أهم المجالات العملية والنظرية . (K. Lewin 1943) وقد أحصى مكدوجل W. McDougall ضمن الشروط الخمس التى لابد منها لتحقيق الوحدة الاجتماعية ورفعها إلى مستوى أرفع من مستوى حياة الجمع غير المنظم ، تنظيم الجماعة وتقسيم العمل (J.F. Brown 1936, p. 73) . وكان فرويد S. Freud يقول إن الملاحظة الدقيقة تدلنا على أن « الاشتراك فى عمل واحد » يقوى الروابط الليبدية بين الزملاء ، بحيث يتجاوزون التقارب من أجل المنفعة العاجلة فحسب إلى ما هو أعمق منها . (S. Freud 1940, p. 57) . ويقول الكاتب الفرنسى روجيه جارودى R. Garaudy إن المجتمع فى جوهره تنظيم للعمل.

وبديهى أن هذه الإشارات من هؤلاء الباحثين ، وغيرهم من أمثال فرتهيمر M. Wertheimer (1938 b) ، ودوركهيم E. Durkheim (1926) ومالينوفسكى B. Malinowsky (1932, 1935) تحتم على الباحث فى ديناميات التكامل الاجتماعى أن يولى هذا الموضوع ما هو جدير به من العناية والاهتمام. إلا أن الباحث واقع تحت وطأة

---

(١) group work

ضرورة اجتماعية لا يستطيع أن يتجاهلها . تلك الضرورة هى أنه لابد أن يعتمد أولا على استقصاء بحوث من سبقوه فى ارتياد هذا الميدان للإفادة من خبراتهم المنهجيةونتائجهم .و بعدذلك يستطيع أن يقدم مساهمته . (W.I.B.Beveridge 1948) وهذه المساهمة مشروطة إلى حد ما بمقدار هذه البحوث واتجاهها ومدى عمقها . فإذا كانت لا تزال ضئيلة — كما هى الحال فى موضوعنا — فستكون المساهمة كذلك ضئيلة . ومع ذلك فمن مجموع المساهمات الفردية الضئيلة يحرز العلم تقدمه العظيم .

يستهل دوركهيم كتابه « فى تقسيم العمل الاجتماعى » ، بقوله إن قانون تقسيم العمل يعم جميع أوجه النشاط الاقتصادى للمجتمع فى الصناعة والزراعة والتجارة . ويعتبره الاقتصاديون القانون الأعلى للمجتمعات البشرية والشرط الأول لتقدمها . على أنه لا يقتصر على الجانب الاقتصادى من حياة المجتمعات فحسب بل يتعداه إلى سائر جوانب النشاط الاجتماعى ، كالوظائف السياسية والتشريعية والقضائية ، بل ويتعدى ذلك إلى ميدان النشاط الفنى والعلمى أيضاً (E. Durkheim 1926, p. 2) . ولما كان تقسيم العمل الاجتماعى يزداد تحققاً بارتقاء المجتمعات فقد رتب دوركهيم على ذلك تفرقة بين نمطين من التكامل ، يتحقق أحدهما فى المجتمعات البدائية وهو التكامل الميكانيكى[١] ويعتمد أساساً على غلبة التشابه بين أعضاء المجتمع ، نتيجة لانتشار عقائد وعواطف متشابهة بينهم . وفى مقابل ذلك يتحقق فى المجتمعات الحديثة نمط آخر من التكامل ، وهو التكامل العضوى[٢] ، الذى يتضمن تباين الأفراد ولا يتحقق إلا بقدر ما يكون لكل امرئ من شخصية متميزة . (ibid., p. 100) فتقسيم العمل إذاً قد نقل المجتمع من نمط من أنماط التكامل إلى نمط آخر . وفى هذا الرأى جانب من الصحة

---

(١) intégration mécanique

(٢) intégration organique

تشهد به معظم البحوث الاجتماعية والاقتصادية التى جاءت بعد بحث دوركهيم أو قبله . ذلك هو إبراز أهمية تقسيم العمل فى تشكيل العلاقات الاجتماعية ، وفى تغيير سيكولوجية الأعضاء . إلا أن هذا التصنيف لأنماط التكامل إلى نمط ميكانيكى وآخر عضوى يبدو الآن غير مقبول إذا قارنا بينه وبين المفاهيم الدينامية الحديثة ، فليس ثمة مجتمع مهما كان بدائياً يسود فيه التشابه التام بين الأعضاء، ولا مجتمع مهما كان حديثاً يسود فيه التباين التام بين الأعضاء . ومعنى ذلك أننا لن نجد النمط الميكانيكى الخالص من التكامل ، ولا النمط العضوى الخالص.

ولما كانت المفاهيم العلمية أدوات لتمثيل الواقع تمثيلا ذهنياً منظماً (H. Blumer 1940) فإنها تكون أكثر كفاءة لتأدية مهمتها إذا كانت أكثر مطابقة للواقع ، من حيث خصائصه الرئيسية . على أن دوركهيم لم ينفرد بهذه النظرة التصنيفية دون غيره من العلماء ، فقد كانت شائعة لدى الكثيرين فى القرن الماضى . ومن أمثالها تفرقة ليفى بريل L. Bruhl بين « عقلية بدائية سابقة على المنطق »[1] « وعقلية متحضرة منطقية » ، وتفرقة برجسون H. Bergson بين « مجتمعات مغلقة » و « مجتمعات مفتوحة » ، و « أنا إجتماعية » و « أنا فردية » ، وتفرقة لوبون G. Le Bon بين « سيكولوجية جماعية » و « سيكولوجية فردية » ، وتفرقة مكدوجل بين « عقل » و « غريزة » ، وتفرقة فرويد بين « غريزة للموت » و « غريزة للحياة » . . . . الخ . على أن هذه النظرة التصنيفية بدأت تختفى شيئاً فشيئاً من البحوث الحديثة ، لتفسح مكانها للنظرة المجالية الارتقائية (K. Lewin 1935 'b') .

إن ما أشار إليه دوركهيم من تغير نمط التكامل الاجتماعى من ميكانيكى إلى عضوى ، هو ما يمكن أن نشير إليه من خلال مفاهيمنا الدينامية الحديثة بقولنا إن أعضاء المجتمع يزدادون شعوراً بعضويتهم فى المجتمع وبضرورة تعاونهم ، وهذا ناتج عن ازدياد التغاير الاجتماعى الذى ينعكس على الأفراد بازدياد شعورهم بذواتهم ، وهذا التغاير نفسه ناتج عن تقسيم العمل . والمشكلة التى تهمنا فى هذا

---

(١) prélogique

الصدد هى كيف يؤثر « تقسيم العمل » فى الأفراد المشتركين فى تنفيذ مشروع معين ، بحيث يحقق بينهم درجة معينة من التكامل الاجتماعى ؟

يلزمنا أولا أن نلقى بعض الضوء على سيكولوجية العمل . إن ما هو جوهرى فى العمل أنه نشاط مقصود ، يتضمن خطة وتدبيرا ، ويمضى بين الإنسان وأحد أجزاء البيئة ، لإحداث تغيير معين فى هذه البيئة . ويستعين الإنسان بآلة معينة — تتفاوت درجة تعقدها — لإتمام هذا النشاط . فعناصر موقف العمل إذاً هى :

١ — الخطة .

٢ — والنشاط المقصود .

٣ — والتفاعل من البيئة .

٤ — والتفاعل مع الآلة .

٥ — وانتظار النتيجة .

ومعنى ذلك أن الشخصية تدخل بجميع أجهزتها فى هذا النشاط ، فإذا أضفنا إلى ذلك القيمة الواقعية لهذا النشاط ، وهو مايتجلى فى شعور الفرد إزاءه بالمسئولية ؛ (وتلك هى النقطة الرئيسية فى التفرقة بين سيكولوجية العمل وسيكولوجية اللعب) أدركنا إلى أى مدى يكون الفرد مهيأً للتأثر فى بنائه النفسى بالجوانب المختلفة فى موقف العمل . إن الفرد فى موقف العمل يحاول أن يغير البيئة ، لكنه فى أثناء ذلك يغير نفسه أيضاً . فيكتسب مهارات جديدة ، ويتخلى عن عادات (حركية أو ذهنية) أثبتت الخبرة أنها عائقة أو مشتتة أو زائدة عن الحاجة. وإذا نجح فى الوصول إلى هدفه فإنه يمارس السرور والثقة بالذات وربما ارتفاع مستوى الطموح بحيث لا يلبث أن يفكر فى هدف جديد وعمل جديد لتحقيق هذا الهدف . بعكس الحال إذا فشل وتكررت خبرات فشله . وإن إيقاعه النفسى ومدى اتساع أفقه الذهنى ليتأثران إلى حد بعيد بنوع الخطط والتصميمات التى يضعها ، أهى بسيطة أم معقدة ، بعيدة المدى أم قصيرة الأجل . كما أنه فى

علاقته مع الآلة يدخل فى سلسلة من التفاعلات البعيدة الأثر . ويكفى أن نقارن مقارنة عابرة بين سيكولوجية العامل الزراعى والعامل الصناعى ، فسنقف حينئذ على اختلافات عميقة ؛ فالعامل الزراعى الذى يستخدم بضع آلات يدوية بدائية ، والذى يبذر البذور ثم ينتظر أياماً وأسابيع حتى تصبح البذور ثمارا بفعل قوى طبيعية غامضة لا يكاد يشهد أى جانب من فعلها أو يساهم فيه ، (وقد تطرأ تغيرات جوية عنيفة تتلف محصوله أو يظل الجو ملائماً فيأتى المحصول وفيرا) والذى يضطر أن يعتمد فى إنجاز بعض أعماله على كائنات بيولوجية تبدو هى الأخرى خارج نطاق إرادته أحياناً ، والذى يعمل غالباً متعاوناً مع أفراد أسرته لا مع الغرباء ، هذا العامل لا شك أنه يختلف اختلافاً عميقا عن العامل الصناعى الذى يتعامل مع آلة معقدة تلزمه أن يكون على درجة عالية من التنبه وسرعة الاستجابة ، والذى يتناول المادة الخام فيصنع السلعة منها بسرعة تفوق كثيراً سرعة ظهور الثمار من البذور ، كما أنه يشهد الكثير من المراحل التى تمر بها المادة الخام إذ تتحول إلى سلعة ، ولا يقف سلبيا إزاءها بل يساهم من حين لآخر فى دفعها من مرحلة إلى مرحلة ، أضف إلى ذلك أنه يعمل متعاوناً مع غرباء ليسوا من أفراد أسرته .

هذا الاختلاف المتعدد الجوانب بين موقف العامل الزراعى وموقف العامل الصناعى كل فى عمله ، وهو السبب فى الاختلاف العميق بين سيكولوجيتيهما . هو السبب فى أن العامل الزراعى بطىء الإيقاع ، يؤمن بالغيبيات أكثر مما يؤمن بقدرته ، ويقابل تغيرات البيئة بالتوجس ، ولا يبدى استعداداً كبيراً للتعاون على نطاق واسع . بعكس الحال مع العامل الصناعى الذى يغلب عليه سرعة الاستجابة ، والإيمان بقدرته والاعتزاز بها ، ويقابل التغيرات غير المنتظرة فى البيئة بأرجاع عدوانية غالباً ، كما أنه يبدى استعداداً للتعاون على نطاق واسع . وبوجه عام يختلف نمط البناء النفسى لدى العامل الصناعى عنه لدى العامل الزراعى اختلافاً عميقاً ، بسبب الاختلاف الكبير بين ديناميات موقف العمل الذى

يواجه كلا منهما . وتدل جميع الدلائل على أننا نستطيع أن نعقد مقارنات مماثلة بين عدة فئات أخرى من أبناء المجتمع على أساس اختلاف ديناميات مواقف العمل المواجه لأفراد كل فئة .

وقد أجريت عدة بحوث تجريبية فى هذا الصدد ، إلا أنها لا تزال ضئيلة جداً إذا ما قورنت ببحوث التوجيه المهنى التى تلقى التشجيع لما لها من فوائد عاجلة . ومع ذلك فالقليل من البحوث الذى أجرى فعلا ينبئ عن خصوبة هذا الميدان ، ويشير إلى النتائج العلمية الهامة التى سنحصل عليها ومدى ماستحدثه من تعميق فى معلوماتنا عن التفاعل بين الشخص وبيئته الاجتماعية . فقد أشار چون كوهن J. Cohen إلى أهمية البحوث فى الصلة بين نظام الأجور (كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر) وبين مدى اتساع الأفق الزمنى للشخص وامتدا دتدبيره لفترة معينة فى الماضى والمستقبل. فالراجح أن نمط عادات العمال واتجاهاتهم يتغير بتغير نظام الأجر . مثال ذلك أن العامل الذى يتناول أجره كل شهر يكون أقدر على الاهتمام بشئون المستقبل أكثر من العامل الذى يتناول أجره كل يوم . ذلك أنه يعتاد وضع الخطط الواسعة النطاق لتدبير أمور فترة من المستقبل بعيدة المدى نسبياً . كذلك أشار كوهن إلى خصوبة البحث فى الفرق بين سيكولوجية العامل المتعطل والعامل المشتغل من حيث ممارسة كل منهما للشعور بالزمن . وأورد رأى بارتلت F.C. Bartlett فى هذا الصـــدد ، إذ يرى أنه بالنسبة للعامل المتعطل يفقد الزمن خاصيته كمرجع يتألف من عدة نقاط للتثبيت ، ولذلك تتضاءل لديه القدرة على المحافظة على المواعيد حتى بالنسبة لتناول الطعام . ويستشهد على ذلك ببضع ملاحظات أجريت على ١٠٠ عامل متعطل ، فقد امتنع ٨٨ منهم عن حمل ساعاتهم ، وتضاءل حرصهم على مطالعة الصحف بشكل منتظم ، وكادوا أن يفقدوا الميل إلى وضع أى برنامج أو خطة (J. Cohen 1949) . وفى بحث بعنوان « نحو علم نفس اجتماعى مهنى » أجرى وليم فورم W.H. Form عدة دراسات

تجريبية بهدف الكشف عن اختلاف « نظام القيم »[١] عند فئتين مختلفتين من العمال ، هما فئة «العمال اليدويين » و «العمال غير اليدويين » (كالموظفين الكتابيين وغيرهم) . وقد دلت هذه الدراسات على وجود اختلافات كبيرة بين الفئتين . وإليك بعض النتائج :

(ا) فى اختبار « ترتيب المهن » ، وضع الموظفون الكتابيون مهنة المدرس فى مرتبة أعلى من تلك التى وضعها فيها العمال اليدويون ، كما وضع العمال اليدويون « العامل الصناعى » فى مرتبة أعلى من تلك التى وضعه فيها العمال غير اليدويين .

(ملحوظة : تحتوى قائمة المهن التى استخدمت فى هذه الدراسة على المهن الآتية : طبيب — موظف حكومى كبير — مالك لمصنع كبير — عالم طبيعى — عضو فى البرلمان — مدرس — رجل أعمال صغير — موظف حكومى صغير — طابع حاذق — كاتب — مهنة الشخص الذى يقدم إليه الاستخبار — عامل صناعى — لاعب كرة).

(ب) عندما سئل أفراد الفئتين عن المهن التى يطمحون إلى توجيه أبنائهم نحوها ، لوحظ أن العمال غير اليدويين كانوا يميلون (أكثر من العمال اليدويين) إلى منح أبنائهم حرية الاختيار .

فقد قرر العمال اليدويون المهن التى يريدونها لـ ٤ ,٤٧ ٪ من أبنائهم .

فى حين قرر العمال غير اليدويين المهن التى يريدونها لـ ٣ , ٣٢٪ من أبنائهم فقط .

(حـ) عندما سئل أفراد الفئتين عما إذا كانوا يطمحون إلى زيادة فى التثقيف أم يكفيهم ما لديهم من الثقافة :

أجاب $\frac{1}{3}$ العمال اليدويين بأنهم يطمحون إلى زيادة حظهم من الثقافة .

فى حين أجاب $\frac{7}{10}$ من العمال غير اليدويين بأنهم يطمحون إلى هذه الزيادة .

(د) وعندما سئلوا هل يكفيهم حظهم من الثقافة :

أجاب ٤٥ ٪ من العمال اليدويين بالإيجاب .

---

(١) system of values

بينما أجاب ١٧,٣ ٪ فقط من العمال غير اليدويين بالإيجاب .

(هـ) وعندما سئل الفريقان ، إذا مُنحتم وقتاً للراحة زيادة على الوقت المعتاد ، فكيف تنفقونه صدرت الإجابات التالية :

١ — أجاب ٢٥٪ من العمال غير اليدويين بأنهم سوف ينفقونه فى الدراسة والتعلم والتمرين .

بينما أجاب ١٤,٣ ٪ فقط من العمال اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٢ — وأجاب ٢١ ٪ من العمال غير اليدويين بأنهم سوف يسافرون .

بينما أجاب ١١ ٪ فقط من اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٣ — وأجاب ١٠ ٪ من غير اليدويين بأنهم سوف ينصرفون إلى بعض الهوايات التى يمكن ممارستها فى المنزل .

بينما أجاب ٢,٩ ٪ فقط من اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٤ — وأجاب ١٠ ٪ فقط من غير اليدويين باختيار الرياضة والفسحة والراحة والتسكع . بينما أجاب ٤٠ ٪ من اليدويين بمثل هذا الاختيار .

(و) وعندما سئل الفريقان ، هل تعتقدون أنه يحسن بالمشتغلين بمثل مهنتكم أن ينضموا جميعاً إلى اتحاد أم لا ؟

أجاب ½ العمال غير اليدويين فقط بالتحبيذ .

بينما أجاب ⅔ العمال اليدويين بالتحبيذ .

هذه هى أهم النتائج التى انتهى إليها وليم فورم فى دراسته التجريبية ، وقد أجراها على عمال أمريكيين. ومما يزيد من القيمة الموضوعية لهذه النتائج ما تبينه هذا الباحث من أنها تتفق إلى حد كبير مع نتائج دراسة تجريبية مماثلة أجراها دوران H. Durant على عمال إنجليز . (W.H. Form 1946)

والذى يهمنا فى هذا النوع من البحوث ، هو ما يكشف عنه من عمق أثر مواقف العمل فى تشكيل أنماط الأبنية النفسية لدى أعضاء المجتمع (١) .ولا يقف

---

(١) يمكن للقارىء الذى يريد التوسع فى هذا الموضوع الرجوع إلى المرجع التالى :
Roe, A. *The Psychology of Occupations*, New York : John Wiley, 1956.

أثرها هذا عند حدود الأشخاص المواجهين لها مباشرة ، بل إنه لينفذ من خلالهم إلى أسراتهم فيطبعها بطابع خاص ، من حيث أنماط العلاقات القائمة بين أعضائها واستعداداتهم واتجاهاتهم . وقد أورد كلا ينبرج O. Klineberg البيان الآتى عن الصلة بين نسب ذكاء الأبناء ومهن آبائهم ، (O. Klineberg 1947, p. 240)

جدول يبين الصلة بين ذكاء الأبناء ومهن آبائهم

المهنة	متوسط نسبة الذكاء	مدى الاختلاف الفردى داخل الفئة الواحدة
فنية عالية	١١٦	١٠٦ — ١٢٦
كاتب	١١٣	١٠٥ — ١٢٢
مدير	١١٢	١٠٤ — ١٢٣
تاجر	١١٠	١٠٠ — ١٢٠
مقدم عمال	١٠٩	٩٨ — ١١٨
عامل فنى	١٠٤	٩٤ — ١١٤
عامل غير فنى	٩٥	٨٥ — ١٠٨

كما أورد بياناً آخر مماثلا للبيان السابق ولكن فى حالة الزنوج الأمريكيين

المهنة	متوسط نسبة الذكاء	مدى الاختلاف الفردى داخل الفئة الواحدة
فنية عالية	٩٨,١٥	٧٢ — ١٥٠
تجارية	٩٤,٩٩	٦٨ — ١٥٧
صانع حرفى	٩٣,٥	٨٠ — ١٣٥
عامل فنى	٨٧,٥	٦٠ — ١٢٦
عامل غير فنى	٧٣,١	٥٢ — ١٠٣

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الفوارق بين أبناء أسر المشتغلين بالمهن المختلفة وجدت لدى الأبناء قبل سن الالتحاق بالمدرسة ، وفى سن الالتحاق بالمدرسة ، كما وجدت عند الراشدين . إلا أنها لم توجد عند الأطفال الذين تقل أعمارهم عن

(١) professional

(٢) artisan

(٣) skilled labourer

سنة .* وهذا يدل بوضوح على أن هذا التحديد لنسب الذكاء سببه الرئيسى هو سيكولوجية مواقف العمل كما يواجهها الآباء .

فإذا كان لمواقف العمل هذا التأثير العميق الذى تثبته الدراسات التجريبية وتؤيده المشاهدة ، فلنا أن نستنتج عمق الأثر النفسى الذى يخلقه كل ما يتعلق بهذه المواقف ، لا سيما إذا كان يدخل فى صميم تنظيمها ويؤثر فى جميع خطواتها ونتائجها كتقسيم العمل . ولا بد من تقديم هذه المقدمة عن سيكولوجية مواقف العمل بوجه عام لتقدير خطورة النتائج المترتبة على موضوع تقسيم العمل . بل إننا لا نستطيع أن نغفل ذكر الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التى تبرز أهمية العمل فى تاريخ الإنسان بوجه عام ومدى مساهمته فى تحقيق إنسانية الإنسان . وسنكتفى هنا ببضع إشارات موجزة بالقدر الذى تسمح به حدود هذا البحث .

يقرر مالينوفسكى B. Malinowsky نتيجة لدراساته الأنثروبولوجية المستفيضة فى حياة الشعوب البدائية فى جزر المحيط الهادى أن السحر والزخرفة وتجمع الناس ارتبطت جميعاً فى كل واحد مع العمل ، وذلك لتنظيمه (B. Malinowsky 1932, p. 159) .
ويقرر شاندراداس J. Chandra Das نتيجة لبحوثه فى الحياة الاجتماعية لقبيلة الشيرو على الحدود الشرقية للهند أن الزراعة أساس الحياة الاقتصادية لقبيلة الشيرو ، وأن جميع ضروب النشاط الأخرى سواء الاجتماعية والدينية والاقتصادية ترتبط بطريق مباشر أو غير مباشر بهذا العمل المنتج للغذاء . فمعظم الطقوس والاحتفالات الدينية الموسمية ترتبط بعمليات مختلفة داخلة فى زراعة الحقول الجبلية . فهم لديهم طقوس تتعلق بالبذر وتنظيف الحقول والحصاد . . . الخ . ويجتمع أبناء القرية جميعاً ليشاركوا فى أداء هذه الطقوس (Chandra Das 1937) .

---

* Furfey, P.H. "The Relation Between Socio-Economic Status & Intelligence of Young Infants as Measured by the Linfert-Hierholzer Scale" *J. Genet. Psychol.*, 1928; 35 (Through O. Klineberg 1947).

وفى دراسة قام بها تومسون للمجتمع اليونانى القديم ينتهى إلى القول بأن الفنون الثلاثة، الرقص والموسيقى والشعر بدأت كفن واحد. كان مصدرها الحركة الإيقاعية للأجسام البشرية المنهمكة فى العمل الجمعى . (G. Thomson 1949, p. 451) وفى دراسة أخرى مماثلة يروى هذا الباحث إحدى الأساطير التى ينعكس فيها أحد جوانب العلاقة بين العمل والفن . فيقول : عندما أنجبت رياRhea الطفل زيوسZeus لم تقدمه لأبيه كرونوسKronos لأنه كان من عادة كرونوس أن يلتهم أبناءه أولا بأول . لكنها قدمت له بدلا منـــه حجرا ملفوفًا فى أقمطة فالتهمه . وخوفاً على زيوس الصغير من أن يعلو صياحه حتى يصل إلى سمع أبيه عهدت به إلى قبيلة الكوريتيس Koretes ، فجعلوا يرقصون حوله وهم يقرعون طبولهم ويضربون دروعهم بحرابهم . وهذه الرقصة هى رقصة الحرب، وكانت فى الأصل رقصة النحل. والمعروف عن الكورتيس أنهم ابتكروا فن تربية النحل G. Thomson 1950, p. 109) . ويجمع مالينوفسكى وتومسون وكارل بوخرG. Bücher على أن للعمل علاقة ثيقة بديناميات التكامل الاجتماعى . ذلك أنه من خلال مواقف العمل الجمعى ظهرت اللغة وارتقت ، ظهرت كتعبيرات إيقاعية وكمحاولات للتواصل بهدف تنظيم العمل . ويرى مالينوفسكى أنه على هذا الأساس ينبغى أن يعالج الكلام باعتباره شكلا من أشكال الفعل . والموقف اللغوى الأساسى هو الموقف الذى يقوم فيه عدد من الأفراد بعمل مشترك ، وألفاظ بعضهم تضبط وتقود أفعال الآخرين . وبقدر ما يكون الكلام مجرد أشكال للفعل ـ على الأقل، فى المجتمعات البدائية ــ فإن معناه يتحدد أولا بما ينتجه من تأثير فى الواقع الخارجى. وإذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية تقرر ذلك فالدراسات الأنتوينية تؤيد هذه النتائج أيضاً إذا نظرنا فى ارتقاء الألفاظ ذات المعانى عند الطفل . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم كيف أن البناء النحوى الأساسى والمقولات النحوية الأساسية هى تعبير عن مقولات واقعية تشير إلى أشكال سلوك الإنسان ، أى طرائقه العملية فى التصرف إزاء بيئته(E.A. Esper 1935) . ويرى تومسون أن

اللغة ظهرت كجزء من التكنيك الخاص بالإنتاج ؛ فقد كانت الجماعة البدائية تعمل معاً ، وكانت توقت كل حركة لليد أو القدم ، وكل ضربة على الحجر ، بصيحة غير مفصّلة يلقيها الجميع معاً . وبالدراسة التطورية لهذه الصيحة يتضح لنا أنها تنقسم منذ البداية إلى قسمين ، أحدهما يعنى الاستعداد — O ، والآخر يعنى مباشرة الفعل ، OP — . ويجرى التطور بحدوث تغير فى الجزء الأول فيزداد اتساعاً وتظهر فيه بعض الألفاظ التى تدل على « الاتجاه النفسى » للعامل نحو العمل الذى يمارسه ، أما الجزء الثانى المرتبط بمباشرة الفعل فيظل ثابتاً . ونستطيع أن نتبين هذه الحقائق فى بعض مواقف العمل الجمعى التى لا تزال قائمة فى مجتمعاتنا الحديثة كما هو الحال فى أعمال البناء والتجذيف . ويرى تومسون أن هناك نوعاً من التفاعل بين العمل والتعبير الصوتى المصاحب له . فالعمل اليسير ذو الوحدات الحركية الصغيرة — كالتجذيف — يصاحبه مقطع إيقاعى قصير « O.op. »، فى حين أن العمل الشاق الذى يحتاج إلى مجهود كبير يصاحبه مقطع إيقاعى طويل (Ho-li-ho-hup) كما هى الحال عندما يجر البحارة مركباً ثقيلا على مقربة من الشاطئ . وإلى مثل هذا الرأى يذهب كارل بوخر .

على هذا النحو تبدو مواقف العمل بالغة الأهمية فى حياة الإنسان الاجتماعية. فمن خلالها ظهرت الطقوس والفنون واللغة وأهم التنظيمات الاجتماعية التى هى فى أصلها ضروب من تنظيم العمل. ولهذا السبب لا يمكن لباحث فى السلوك الاجتماعى وفى موضوع التكامل الاجتماعى بوجه خاص أن يغفل هذه المواقف . وهنا يلزمنا أن نعيد ذكر ما سبق أن أوضحناه فى القسم الأول من هذا البحث بصدد فيلوجينية التكامل الاجتماعى. وقد بينا كيف أن الشمبانزية عاجزة — على أسس فطرية — عن القيام « بعمل » منتج متواصل ، وذلك نتيجة لافتقادها إلى شرطين أساسيين هما : اتساع « مجال الحياة الزمنى » نحو المستقبل، وهو الشرط اللازم لوضع خطط العمل ، « والاستقرار الوجدانى » وهو الشرط اللازم للارتباط بهدف العمل كقيمة ، واستمرار السعى نحوه لفترة تطول أو تقصر . وعلى

هذا الأساس نستطيع أن نتبين كيف أن مواقف العمل من أهم المواقف التى يحقق الإنسان من خلالها إمكانياته ، كما نستطيع أن نعمق فهمنا لقول كروبر A.L. Krœber إن الشمبانزية تعيش فى مرحلة الجمع والالتقاط ، ولا تستطيع أن تشيد حضارة .

وإذا كان لمواقف العمل هذه الأهمية البالغة فى حياة الإنسان ، وتاريخها هو مجمل تاريخه ، فتقسيم العمل حقيقة واقعة منذ أقدم العصور فيما تشير الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية ، وذلك منذ أن عرف الإنسان النار أى منذ الإنسان الموستيرى غالبا Mousterian . فى هذه الفترة يرجح بعض الباحثين ظهور أول صورة من صور تقسيم العمل ، وهى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة . وكانت هذه المرحلة أول مرحلة ترتفع فيها الجماعات البشرية عن مستوى الاكتفاء بالجمع والالتقاط . ثم تتابعت بعد ذلك مظاهر الارتقاء الاجتماعى ، وتعددت الأسس الاجتماعية لتقسيم العمل . فتاريخ العمل إذاً مرتبط بتاريخ تقسيم العمل . ولذلك عدة أسباب ونتائج . وفى بيان هذه الأسباب والنتائج يتضح أهمية هذه الوظيفة فى تحقيق التكامل الاجتماعى .

وربما كان من أهم الأسباب لذلك أن « العمل » ، كنشاط تكيفى يهدف إلى تغيير البيئة بما يحقق بعض مطالب الإنسان ، ظهر أول ما ظهر ، بصورة جمعية . فالجماعة هى التى تعمل لأنها هى التى تعيش . وهذا يتفق مع جميع الحقائق التى تدل على تضاؤل الفردية فى المجتمع البدائى ، كما يتفق مع ما تكشف عنه الدراسات الأنثروبولوجية من زيادة نسبة الأعمال الجمعية فى المجتمعات البدائية إلى درجة فائقة ، وازدياد نسبة الأعمال الفردية باطراد الارتقاء الاجتماعى . فالعمل إذاً قد بدأ جمعياً ، وبالتالى لم يكن بدمن أن يتولى كل فرد من أفراد الجماعة القيام بنصيب معين فى إنجازه قد يكون متشابها مع أنصبة الآخرين أو مكملا لها ، لكنه على كل حال جزء من المشروع العام .

ولنتناول بضعة أمثلة ، لنستطيع بتحليلها أن ننفذ ببصيرتنا فى ديناميات تقسيم العمل .

(ا) يعتبر صيد اللبؤة أحد الأمثلة الواضحة للعمل الجمعى لدى قبائل الكبسجيس . ويروى پرستيانى (1939, p. 172) تفاصيله على النحو الآتى : يجتمع المحاربون جميعا — وهم حوالى ٤٠٠ محارب — عقب اعتداء اللبؤة على ماشية إحدى القرى وينظمون عملهم هكذا :

عند الغروب يذهب محاربان لاستطلاع أخبار اللبؤة وهل هى لا تزال مختبئة فى مكمنها . ثم يوضع عدد من المحاربين لحراسة جميع المنافذ التى قد تهرب منها اللبؤة . ثم يتقدم بقية المحاربين — حوالى ٣٠٠ محارب — فى جماعات صغيرة فيكونون دائرة محكمة حول مكمن اللبؤة .

ويقطعون الأشجار والأعشاب فى تقدمهم لكيلا تختبئ اللبؤة فيها .

ثم تضيق الدائرة حتى يقف المحاربون كتفا لكتف .

ثم يتقدم رجل من عشيرة اللبؤة ، ويخاطب اللبؤة قائلا :

إنك تقتلين حاجيات الناس من الماعز والماشية .

لذلك ألعنك ، ولأنك تنتمين إلى عشيرتنا ، فإننى أرميك بورقة . (أى أنه يطرد الحيوان خارج العشيرة . ويلاحظ أن مثل هذا الطقس يجرى عندما ينفى شخص خارج العشيرة لارتكابه جريمة قتل) . وعندئذ يرمى ورقة شجر فى اتجاه اللبؤة .

ويرفع كل المحاربين حرابهم إلى أكتافهم كأنما يستعدون للطعن . ويؤكدون كلمات الرجل التالية بأن يخطوا خطوة إلى الأمام بقدمهم اليسرى ويدفعوا بالحربة ، عند نهاية كل جملة ، وفى الوقت نفسه يرددون نغمة عميقة .

ويستطرد الرجل لاعنا اللبؤة ، بينما يردد المحاربون نغمة عميقة واحدة ، هكذا :

الرجل	المحاربون (وكأنهم جوقة)
« أخبروا الحيوان أن يموت ، قولوا لتمت . »	« م . م . م . »
« أخبروا الحيوان أن يضم مخالبه ، قولوا ليضم مخالبه . »	« م . م . م . »
« أخبروا الحيوان أن يتشبث بجذع شجرة ، قولوا ليتشبث	« م . م . م . »

«أخبروا الحيوان أن يسقط فى أيدينا على غير وعى منه ،

قولوا ليسقط على غير وعى منه » «م . م . م . »

«أخبروا الحيوان أن يموت على يدى طفل ، قولوا سيموت« م . م . م . »

ثم يتقدم أبناء القرية التى اعتدت اللبؤة على ماشيتها ، يتقدمون نحو اللبؤة (وبذلك يتحملون أكبر قسط من المخاطرة) ، ويتبعهم سائر المحاربين يقرعون دروعهم بحرابهم وينفخون فى نفير ، حتى يقتلوا اللبؤة .

(ب) ويقدم مالينوفسكى B. Malinowsky مثالا آخر للعمل الجمعى لدى الشعوب البدائية فى المحيط الهادى: (1935, p. 102) وذلك فى عملية قطع الأعشاب من البساتين قبيل الزراعة . وتجرى على النحو الآتى :

١ — يجتمع الرجال أولا فى القرية ، حيث يتناولون قليلا من المنعشات .

٢ — ثم يبدأون العمل بأن يقفوا صفا واحدا ويتقدمون هكذا وسط الأعشاب ليقطعوها .

٣ — من حين لآخر يصيحون صيحة التاوكواكولا ta'ukwakula ، ثم يتقدمون للعمل من جديد . متجددى النشاط .

٤ — عندما يشعرون بأن العمل بدأ يتراخى (أو أن الحر قد اشتد ، أو الأعشاب قد ازدادت كثافتها بشكل منهك) يصيح أحدهم (وهو فى العادة رجل ذو مركز اجتماعية رفيع) :

« سأقدم اليوم كعكة من التارو » (أو أى طعام آخر) .

٥ — عندئذ يتوقف الجميع عن العمل ، ويجيبون فى شكل جوقة : « أويكالا أو يكالا ، أو يكالا ، أو أو أو . . . . »

ويعود الجميع إلى القرية فيأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث .

٦ — عندما ينتهى الرجال من الزراعة (التى يؤدونها بطريقة جمعية) ينشدون أنشودة معينة. وفيها تجد أحدهم يلقى بكلمات بينما يرد عليه الآخرون فى شكل جوقة.

٧ — ويلاحظ أن استئصال الأعشاب بالطريقة الجمعية التى وصفناها ، يمكن أن تقوم به النساء . أما الزراعة بالطريقة الجمعية فلا يقوم بها إلا الرجال .

(حـ) ويقدم شانداداس Chandra Das مثالا ثالثا للعمل الجمعى عند قبائل الشيرو الهندية (1937) ، وذلك فى بعض العمليات الزراعية :

١ — فقبل كل عملية من هذا القبيل يتفق عدد من أبناء القرية على المساعدة المتبادلة فى تلك العملية . ويكوّنون لذلك جماعة تعرف باسم « إيام » Iam ، كما يعرف هذا العمل باسم « فونكاى » Phunkai .

٢ — وليس ثمة أى حد لعدد أعضاء هذه الجماعة ، لكنها تتألف عادة من حوالى خمس إلى ثمانى أسر .

٣ — ويشترك فى العمل جميع أفراد الأسرة ، ذكورا وإناثا .

٤ — ولا تتكون الجماعة إلا من أبناء القرية الواحدة . ولا يمكن أن تتكون من أبناء عدة قرى .

٥ — وتكون معظم العمليات الزراعية مسبوقة بطقوس دينية جماعية يشترك فى أدائها جميع أبناء القرية .

٦ — تمضى طريقة العمل بأن تتناول الجماعة حقول الأعضاء حقلا حقلا ، كلما فرغت من أحدها انتقلت إلى الآخر .

٧ — فى بعض الحالات تحدد تواريخ بعض العمليات كالحصاد مثلا ، بناءً على ما يقرره كبار أبناء القرية فى اجتماع خاص يعقدونه لذلك .

ويقدم كاردنر A. Kardiner أمثلة أخرى للعمل الجمعى عند قبائل جزر الألور من جزر الهند الشرقية . وعند شعوب أخرى متعددة . (1945) . إلا أننا نكتفى بهذه الأمثلة الثلاث التى قدمناها بشىء من التفصيل لأنها تبرز بما فيه الكفاية الخصائص الدينامية الرئيسية التى ينطوى عليها الموقف الاجتماعى الذى يتضمن تقسيم العمل .

ويمكن تلخيص هذه الخصائص الرئيسية فيما يلى :

١ ــ الاتفاق مقدما على خطة معينة للعمل . وهذا يتضمن التسليم مقدما بضرورة التعاون ، كما يتضمن التعاون فعلا فى مستوى معين من مستويات النشاط ، أعنى مستوى النشاط الذهنى . وكذلك يتضمن الحرص على جعل هذا التعاون يبلغ أعلى درجة من درجات الكفاءة .

٢ ــ تقسيم « المشروع العام » إلى مجموعة من العمليات الصغرى ، بعضها متجانس والبعض الآخر غير متجانس ، ويناط بكل فرد القيام بإحدى هذه العمليات . ويتدخل أحيانًا مركز الفرد فى القبيلة فى تحديد الجزء الموكول إليه إنجازه فى المشروع العام . وهذا يتضمن غالبًا قبول الفرد للعمل الموكول إليه ، كما يتضمن إدراك الفرد للمشروع العام من حيث أهدافه وحدوده ، وإدراكه لكونه جزءاً من هذا المشروع. .

ونحن نقرر النقطتين الآخيرتين (أى إدراك الفرد للمشروع العام ، ولكونه هو نفسه جزءاً منه)بناء على حقية هامة هى ضيق نطاق المشروع ، (بما يلائم مستوى حياة مجتمع بدائى)، وحضور جميع الأعضاء معا فى مجال العمل ، وعلانية « الخطة العامة » للعمل بحيث يستطيع الجميع معرفتها . وهذه الحقائق من أهم مواضع الاختلاف بين ديناميات تقسيم العمل الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ونظيره فى المجتمعات الحديثة ، وبالتالى من أهم الأسباب فى اختلاف الآثار السيكولوجية المترتبة على كل منهما ، اختلافًا عميقًا .

٣ ــ يصدر الكلام خلال مواقف تقسيم العمل ، كضرورة تحتمها هذه المواقف . وذلك لأداء عدة وظائف :

(ا) فهو يؤدى أحيانًا وظيفة تنظيمية بالنسبة للعمل، وذلك عندما يتخذ شكل صيحات إيقاعية تصدر مصاحبة لحركات معينة ، ومحددة (بالنسبة للجميع) نهاية حركة معينة وبداية حركة أخرى . فهو هنا وسيلة لتنظيم الحركات العضوية ، وبالتالى لتنميطها ، وبذلك يعمل على تقليل أثر الفوارق الفردية التى قد تعوق سير العمل بالتشتيت أو عدم التحالف ، أو تقلل من كفاءته

بأية وسيلة أخرى . كما أنه يكون ذا أثر تنويمى يرفع عتبة الشعور بالتعب لدى الأعضاء ، فيزيد من قدرتهم على مواصلة العمل . أضف إلى ذلك أن هذا التأثير التنويمى نفسه يؤثر فى الأعضاء بزيادة قابليتهم للإيحاء المتبادل .

(ب) ويؤدى أحياناً وظيفة سحرية ، وذلك بمحاولة التأثير فى الواقع الخارجى « من بعيد » بحيث يكون التأثير فى نفس اتجاه تأثير العمل .

(حـ) ويؤدى أحياناً وظيفة «مساعدة العمل» عن طريق تشجيع الأعضاء العاملين ببذل الوعد بالمكافآت .

(د) ويؤدى أحياناً وظيفة تنظيمية بالنسبة للعلاقات الاجتماعية القائمة بين الأعضاء القائمين فى موقف العمل . وقد رأينا مثالا لذلك فى صيد اللبؤة ، إذ يتقدم رجل من عشيرتها ليقول لها « ألعنك . . . . وأرميك بورقة » . ومعنى ذلك إعادة تعيين الحدود ، حدود العشيرة بعد طرد هذا العضو منها .

٤ — يتجمع الأعضاء لأداء طقوس جماعية معينة تتعلق كلها بالعمل ، بعضها يسبقه وبعضها يتخلله بعد الانتهاء من كل مرحلة كبيرة من مراحله ، وبعضها يؤدَّى بعد الفراغ منه .

هذه هى الخصائص الرئيسية لديناميات المواقف الاجتماعية التى يتحقق فيها تقسيم العمل . فإذا نظرنا إليها على ضوء دراستنا الفيلوجينية التى قدمناها من قبل ، تبين لنا أنها — أى هذه الخصائص — إنسانية بأدق معانى هذه الكلمة . أى أنها تتضمن التسليم بتوفر شروط بيولوجية معينة ، لا تتوفر إلا فى المستوى البشرى . فوضع خطة جماعية للعمل قبل الشروع فيه ، وممارسة الكلام ، أمران ينطويان على تحقق مستوى ارتقائى معين للنشاط الذهنى وللعمليات الرمزية كما ينطويان على توفر القدرة على استحضار صورة ذهنية للواقع . مما لا يتحقق فى المستويات تحت البشرية . كما أن الاتفاق الجماعى على وضع هذه الخطة ، وتصميم أجزائها بحيث « يشترك فى تنفيذها » عدد من الأفراد يتضمن قدرة على تصور موقف «الآخر» وإدخاله فى حسابنا . وقد أوضحنا كيف أن هذا لا وجود

له فى المستويات البشرية .

وكذلك أوضحنا كيف أن المثابرة على القيام بعمل معين منذ بدايته حتى نهايته تتطلب شروطا لاوجود لها فى تلك المستويات . فهى تتطلب درجة معينة من الاستقرار الوجدانى ، تسمح بالارتباط لمدة كافية بقيمة هذا العمل ، كما تتطلب من الاستعدادات ما يسمح بالارتفاع المطرد لمستوى الطموح حتى يستطيع الشخص أن يعبر كل مرحلة من مراحل العمل إلى المرحلة التى تليها ، كما تتطلب القدرة على تصور « المثل الأعلى للذات » (وهو الذات عندما تنتصر فتحقق المهمة الموكولة إليها) وإسقاطه على المستقبل ، بحيث يضيف قيمة إيجابية جديدة إلى الموقف التصورى للوصول إلى الهدف ، فتعمل على زيادة تنشيط الشخص فى أداء العمل . وجميع هذه الشروط لا تتحقق إلا فى مستوى الحياة البشرية .

وقد يكون من المفيد أيضا أن ننظر إلى هذه الحقائق مرة أخرى ، بنظرة أنتوجينية . فلقد أوضحنا فى دراستنا الأنتوجينية كيف أن الضعف النسبى للنشاط الذهنى لدى الطفل فى الرابعة أو الخامسة ، وانخفاض درجة استقراره الوجدانى ، وعجزه عن « اعتبار موقف الآخر » ، تساهم جميعا فى جعل الجماعات التى يكونها ضئيلة الحظ من الاستقرار والتفاعل . وفى تتبعنا لارتقاء الطفل حتى المراهقة لم نجد الجماعات التى تقوم على برنامج موضوعى ، أو تأتلف للتعاون فى سبيل الوصول إلى هدف محدد . وهذا صحيح بالنسبة لعصابات ما قبل المراهقة وصداقات المراهقة . ورغم ما أوضحناه فى دراستنا التجريبية من شدة تعلق المراهق بأصدقائه ، فقد بينا كذلك كيف أن هذه الصداقات تكون غالبا ضئيلة الحظ من الاستقرار ، أما عصابات الأطفال قبل المراهقة فقد أوضحنا كيف يتوفر فيها عنصر « التنظيم » لكنه تنظيم أجوف ، يختلف فى دلالته عن التنظيم الذى يترتب على تقسيم العمل ، فهو مجرد انعكاس لظاهرة التنظيم فى الحياة الاجتماعية ، يتشبث الأطفال به كدعامة ترتكز الذات عليها فى أثناء نموها على نمط الذوات الراشدة حولها . أى أنها تكون مدفوعة بنفس الدوافع التى تظهر على أساسها « عبادة البطولة » فى

هذه المرحلة ، وامتصاص الطفل لكثير من قيم الراشدين المحيطين به . وهذا يختلف اختلافاً عميقاً عن التنظيم الذى يترتب على تقسيم العمل لزيادة الكفاءة . ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل قيمته كمرحلة من مراحل إعداد الشخصية وتدريبها لتصلح فيما بعد للدخول فى مواقف تقسيم العمل . إلا أن هذه الحقيقة ينبغى ألا تدفعنا إلى المبالغة فى تقدير قيمته ، ويكفى للدلالة على ذلك أن هذه العصابات لا يكون لها برنامج عمل واضح مستقر ذو قيمة موضوعية ، كما أن التنظيم القائم فيها يكون على درجة منخفضة من الارتقاء ، إذ لا يقوم التغاير فيها إلا بين « رئيس » ومرؤوسين .

تدل جميع الدلائل إذاً على أن مواقف تقسيم العمل هى أهم المواقف التى استثارت فى الإنسان استعداداته للتكامل الاجتماعى وأبرزت جميع إمكانياتها . ولا يمكن تفسير القدرة العظيمة لهذه المواقف على استثارة هذه الاستعدادات وتشكيلها إلا من خلال مفهوم « الحاجة » من ناحية ومفهوم « العمل كقيمة » رئيسية أو بالأحرى كمصدر للقيم المشبعة . على أن هذين المفهومين لا يكفيان للتفسير الدينامى الدقيق بل هما الأساس فقط لتفسير مدى ثقل هذه المواقف ، أما كيف استثارت هذه الاستعدادات وكيف شكلتها فلابد من الرجوع فى ذلك إلى جميع ديناميات الموقف متكاملة .

لابد من الرجوع إلى أثر « التنظيم » فى تحديد مهمة كل فرد منذ البداية ، وما لذلك من أثر هام فى تقليل احتمالات الاصطدام والاحتكاك المتكرر وظهور مشاعر الإحباط[1] من حين إلى آخر بين أعضاء الجماعة . وهنا يلزمنا الرجوع قليلا إلى تجربة ليبيت وهوايت R. Lippitt & R. White ؛ فقد كشفا فى هذه التجربة عن انخفاض درجة التكامل بين أعضاء الجماعات الفوضوية نتيجة للأسباب الآتية :

١ — ضيق « مجال الحركة الحرة » ، نتيجة لكثرة الاحتكاكات الناتجة

---

(١) frustration

عن عدم تحديد مهمة كل فرد منذ البداية .

٢ ــ إحباط محاولات إشباع «الحاجة إلى توضيح معالم البناء» الذى تسعى الجماعة إلى إقامته .

٣ ــ الدائرة المفرغة : إحباط عدوان إحباط . إذ أن حرمان الأفراد من التوجيه الذى من شأنه أن يزيد فى حريتهم ، يؤدى إلى ظهور توترات تظهر فى تنافس الأفراد تنافساً غير موجّه ، فينجم عنه إحباط الأفراد بعضهم لبعض (R. Lippitt & R. White 1943) كذلك أجرى فرنش J.R.R. French تجربة لاختبار رد الفعل الذى تحدثه جماعتان إحداهما منظمة والأخرى غير منظمة ، نحو الإحباط . وكان الموقف الذى أجرى فيه الاختبار عبارة عن تعاون أفراد الجماعة جميعا على حل مشكلة معينة . وبملاحظة سلوك الأفراد فى الحالتين ، وبالاستعانة بالاستبارات ، تبين أن بين الجماعتين اختلافا كبيرا . فالجماعة المنظّمة أظهرت مزيدا من الشعور بالنحن . كما أظهرت دافعا نحو حل المشكلة أقوى مما أظهرته الجماعة غير المنظمة . وكان بين أفراد الجماعة المنظمة مشاركة فى العمل على أساس المساواة ، أما فى الجماعة غير المنظمة فكان بعض الأفراد يتحملون نصيبا كبيرا من العمل والآخرون لا يكادون يتحملون شيئا . كما أن الجماعة المنظمة أظهرت مزيدا من الشعور بالإحباط ومن المشاعر العدوانية عندما أُغلقت فى وجهها المسالك المؤدية إلى حل المشكلة ، أى أن الجماعة المنظمة أظهرت دافعا أقوى إلى التغلب على عقبات الطريق (L. Festinger 1950) . فالتنظيم إذاً ، كما يتضح من هذه الدراسات وغيرها ، أحد العوامل الهامة فى تحقيق التكامل الاجتماعى (S. Freud 1940, p. 82) . وقد أوضحنا من قبل الآثار المختلفة لأنماط التنظيم المتباينة . كما أجريت عدة بحوث فى هذا الصدد . (R.B. Cattell 1945 'b'; K. Lewin 1947)

وكما أوضحنا أثر التنظيم يلزمنا كذلك أن نوضح أثر « التعاون الرشيد » . وربما كان من أهم آثاره تنمية الشعور بالحاجة إلى الآخر ، والتدريب على التنازل

والبذل وتعديل موقف الذات ، وتنمية مختلف الوسائل اللازمة للتفاهم مع الآخر ، واستثارته للتعبير عن وجهة نظره حتى نعرف كيف ننفذ إليه ، أو ماذا يطلب منا . وبقدر ضخامة القيمة الموضوعية للمشروع الذى ندخل فيه ، وثباته أو تكرار المواقف التى يمليها ، وبقدر موضوعية الهدف الذى نمضى إليه ، وقبولنا لهذا الهدف ، ولبذل المجهود فى سبيله ، ينتج التعاون آثاره التى نذكرها . على أن التعاون يتيح – زيادة على ذلك – ظهور التخصص وهو شرط لابد منه لإتقان العمل وزيادة كفاءته (J.F. Dashiell 1935) . وقد اهتم أصحاب المشروعات الإنتاجية بهذه الحقيقة الأخيرة اهتماما كبيرًا وبذلوا الجهود لتضخيمها إلى درجة جعلتها تناقض المطلب التعاونى الذى هو الأصل فى ظهورها . فالتخصص فى دور الأعمال الحديثة يختلف اختلافا كبيرًا عنه فى الأعمال الجمعية فى المجتمعات البدائية . فهو فى دور الأعمال الحديثة يعنى جهل الفرد بالخطة العامة للمشروع وأهدافه ، وعدم مساهمته فى إعدادها ، وجهله بالخطوات الكبرى اللازمة لتنفيذ المشروع ، بل وجهله بالخطوات التى تجتازها السلعة التى يساهم فى صنعها ، وعدم درايته بمستقبل الجزء الصغير الذى صنعه . وبذلك يستحيل العامل فى المصنع الحديث إلى ما يشبه الترس فى الآلة . وفى مثل هذا الموقف لا يحقق تقسيم العمل مهمته التكاملية التى كان يحققها فى المجتمع البدائى . فهو ينفى أساسًا لابد منه ، وهو الشعور بالكل وقبوله ، حتى يمكن إقامة الشعور بعضوية الجزء من خلاله . كما أنه ينفى الشعور بأهمية الآخرين فى تنفيذ المشروع .

وإلى جانب التنظيم والتعاون الرشيد لابد من ذكر « اللغة » . وقد أوضحنا الوظائف الرئيسية التى تقوم بها فى مواقف تقسيم العمل لدى البدائيين ؛ نذكر منها الآن تنظيم العمل ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى موقف العمل . وينبغى أن نضيف إلى ذلك إشباع الحاجة إلى الآخر ، تلك الحاجة التى تبرزها ضرورة التعاون الرشيد . ينبغى إذاً أن ندرك مواقف تقسيم العمل على هذا النحو ، حتى نتبين دلالتها فى بزوغ هذا المستوى الارتقائى الفريد الذى يحتله تكامل المجتمع

البشرى . ومن الجلى أن هذه المواقف تتضمن عدة إمكانيات أخرى ، بالإضافة إلى ما ذكرنا ، تساهم جميعا فى تحقيق هذا التكامل . ويكفى هنا أن نشير إلى البذور التى تبدو بكل وضوح حاملة إمكانيات الطقوس والدراما . وإن التشابه ليبدو بجلاء بين بعض التنظيمات التى ذكرناها ، وبين موقف الجوقة والممثل فى مسرحيات إسخيلوس Aeschylus [١].

التواصل :

أوضحنا فى حديثنا عن تقسيم العمل كيف نشأت اللغة كضرورة يحتمها موقف تقسيم العمل لأداء وظائف معينة هى :

(ا) « الإيقاع » ، لضبط خطوات العمل ، « والسحر » لزيادة كفاءته .

(ب) « وتنظيم علاقات » القائمين بالعمل .

وقد تطورت اللغة واتخذت عدة مظاهر ، إلا أنها لا تزال تؤدى هاتين الوظيفتين فى كل مظهر من مظاهرها ، فهى تهدف دائماً إلى التأثير فى الآخرين ، للتأثير عن طريقهم فى الواقع الخارجى . وفى اتجاهها نحو الآخرين تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعى كأداة شديدة الكفاءة .

إن لغة الألفاظ هى الأداة الرئيسية لتحقيق التواصل بين أعضاء المجتمع ، وذلك لتعقدها الشديد مما يجعلها أكثر مرونة واتساعاً لإمكانيات التعبير ، وللمساهمة فى تحقيق أدق عمليات التفاعل بين الأنا والآخر . وقد أوضحنا من قبل مدى ثراء النمو اللغوى للطفل ، ومدى مساهمته فى تنمية سلوكه الاجتماعى ، سواء من حيث اندماجه فى الآخرين ، وازدياد شعوره باستقلاله عنهم .

على أننا لا نستطيع أن نتوسع هنا فى موضوع سيكولوجية اللغة ، فمثل هذا

---

(١) يبدو هذا التشابه واضحاً فى مواقف صيد البقرة عند قبائل الكبسجيس . كما أنه يبدو فى مواقف العمل الجمعى الشاق التى تم بطريقة أقرب إلى البدائية منها إلى الطرق الفنية ، كما هو الحال فى بعض أعمال البناء ورصف الطرق .

الموضوع يحتاج إلى بحث مستقل ، لكن الذى يعنينا هو الإشارة إلى مدى مساهمتها فى تحقيق التواصل الذى هو أحد عوامل التكامل الاجتماعى . أى أن عنايتنا منصرفة أساساً إلى وظيفة التواصل للكشف عن دلالتها فى البناء الاجتماعى .

إن التواصل وظيفة رئيسية فى أى بناء متكامل ، سواء أكان هذا البناء بيولوجيا أم سيكولوجيا أم اجتماعيا . ويوضح پرنان M. Prenant هذه الحقيقة بالنسبة للأبنية البيولوجية ، فيقول إنه فى أى كائن مهما بلغ من التعقد ، نجد أن احتفاظه ببنائه وهيئته يعتمد على عدد من التفاعلات التى تجرى بين خلايا كل نسيج وبين الأنسجة المتلاصقة ، وبين الأعضاء التى قد تكون متباعدة أحيانا ، وذلك بوساطة الهرمونات أو الجهاز العصبى . ومن هذه التفاعلات ينجم . . . التوازن الكلى الذى لا يختل إلا فى حالات شاذة كحالة السرطان . ويوضح براون J.F. Brown هذه الحقيقة بالنسبة للشخصية فيقول إن التواصل بين المناطق المختلفة فى هذا الجشطلت شرط التكامل. (1936, p. 302) . وكذلك الحال فيما يتعلق بالمجتمع ، على أن نتنبه إلى الفوارق بين مستويات التواصل فى كل من هذه الأبنية الثلاث .

ولكى يزداد فهمنا لمدى تعقد عملية التواصل فى المجتمع ، وبالتالى لمدى عمق تأثيرها ، ينبغى لنا أن نقارن بينها وبين عمليات التواصل فى تجمعات النمل والشمبانزية . وقد أوضحنا أثناء حديثنا عن هذه التجمعات حدود هذا التواصل ، الذى يعتمد على اللمس المتبادل لدى النمل ؛ ويصل لدى النسانيس النابحة إلى درجة الاعتماد على الأصوات . لكنه يظل مع ذلك شديد الفقر والتحجر إذا قورنا بما يحققه فى المجتمع البشرى . وسبب ذلك أن التواصل فى المجتمع البشرى يعتمد على أساسين لا يتحققان فى المستويات تحت البشرية ، هما :

(ا) اللغة ذات الألفاظ ، ومصاحباتها من إشارات وإيماءات .

(ب) درجة فائقة من المرونة تتوفر فى البناء السيكولوجى لأعضاء المجتمع .

ويحقق التواصل مهمته من خلال عمليتين رئيسيتين ، هما :

(ا) أنه يزيد من قدرة الأفراد على التكيف المتبادل .

(ب) وأنه يزيد من درجة اندماج الذوات فى « النحن » .

ومن أوضح الدلائل على سير العملية الأولى ، ما نلاحظه من ازدياد قدرة الطفل على التعامل مع الأطفال المماثلين له فى العمر الزمنى بازدياد ارتقائه اللغوى ، وما نلاحظه من ازدياد اعتماده على النشاط اللغوى فى تعامله مع الآخرين بوجه عام .

وفى أثناء حديثنا عن تجربة ليبيت وهوايت ذكرنا تفوق عدد مرات التواصل بين الأعضاء فى الجماعات الديمقراطية عنه بين أعضاء الجماعات الأخرى . وقد أجريت عدة بحوث تناولت عملية التواصل وآثارها النفسية الاجتماعية من عدة جوانب ، وكلها تبرز مدى أهميتها فى تحقيق الاتزان داخل الجماعة على أساس الحد الأدنى من التوترات . ففى بحث تجريبى أجراه ألبورت F.H. Allport على عدد من الأشخاص بأن كلفهم بالحكم على عدة أثقال بالنسبة لثقلين معينين ، أحدهما أثقل من الأثقال المحكوم عليها جميعا والآخر أخف منها انتهى إلى أن الأشخاص كانوا فى حضور الجماعة يتحرجون فى أحكامهم ، فيميلون إلى الاعتدال (R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 444) كذلك أجرى نيوكوم T.M. Newcomb تجربة فى إحدى المدارس الثانوية الأمريكية ، بهدف الكشف عن أثر عضوية الفرد فى جماعة ما على اتجاهاته . فوضع لذلك استخبارا يمكنه من حصر الآراء السياسية لدى الطلبة وتنظيمها فى تدرج يبدأ من « اليسارى » أو الثورى « اليمينى » أو المحافظ ، وجعل يوزعه على الطلاب بعيد التحاقهم بالمدرسة ، ثم لمدة ثلاث سنوات متتالية . فتبين أن الطلبة يكونون غالبا محافظين فى البداية . لكن الاتجاه السائد فى المدرسة كان الاتجاه اليسارى ، فكان يلاحظ أن جميع الطلبة الذين قبلوا كأعضاء فى الجماعات القائمة بالمدرسة أصبحوا يساريين ، أما أولئك الذين ظلوا منعزلين بلا أصدقاء فقد أصبحوا متطرفين فى يساريتهم ، فى حين أن الذين حاولوا أن يلتمسوا القبول وفشلوا صاروا محافظين متطرفين ، (G. Taylor 1950)

ويروى جوردون تيلر G. Taylor قصة مجموعة من السيدات الأمريكيات ذوات المركز الاجتماعى الممتاز ، تقدمن إلى السلطات أثناء الحرب العالمية الأخيرة لأداء أية خدمة وطنية توكل إليهن. فطُلب إلى كل منهن على انفراد أن تقوم بتنظيف بعض المستشفيات ، لكن كلا منهن رفضت القيام بهذا العمل . فما كان من المشرف إلا أن جمعهن معا ووضع المسألة موضع نقاش عام . وبعد قليل ارتضين القيام بنفس العمل الذى سبق لهن رفضه . والمهم هو خطوات العملية التى تم بها اتفاقهن . فقد بدأت إحدى السيدات بأن أظهرت بعض الموافقة من هذا النوع . « سوف أقبل إذا قبل غيرى » . فاندفعت الأخريات تُعدن النظر فى موقفهن ، وتقدمت إحداهن خطوة أخرى نحو التعاون ، وعادت الأخريات إلى تقدير الموقف كله مرة أخرى. وهكذا انتقلن من موقفهن السلبى الأول إلى موقف إيجابى تعاونى عن طريق سلسلة من التعديلات الصغيرة التى ما كان لها أن تتم لولا اجتماعهن فى هذا الموقف الذى أتاح قيام التواصل بينهن . (ibid.) ويرى مورفى G. Murphy أن «التفكير الجماعى» الذى تتيحه أمثال هذه المواقف يتفوق غالبا على التفكير الفردى من حيث الكم والكيف . ويرجع ذلك إلى الحقائق الآتية : (G. Murphy & others 1937, p. 738).

١ ــ تعدد طرق النظر إلى المشكلة موضوع التفكير .

٢ ــ ظهور عدد كبير من « اللمحات » أو « الاقتراحات » المتجهة نحو الحل .

٣ ــ ظهور عدد كبير من ضروب النقد موجهة ضد الخطط المقترحة .

٤ ــ قبول النقد الاجتماعى .

ويُجمل داشيل J.F. Dashiell هذه الحقائق جميعاً فى قوله ، إن حضور الآخرين يؤدى إلى جعل التفكير أكثر موضوعية وأقل ارتباطا بالعوامل الشخصية (1935) . كذلك أجريت عدة بحوث تجريبية تبين عمق أثر القرار الجماعى

الذى يصل إليه عدد من الأفراد معا من خلال مناقشات تتيح لكل منهم أن يبدى مخاوفه واعتراضاته ويطلع على آراء الآخرين. فقد أجريت التجربة الآتية:

خطوات التجربة :

١ ـــ إيجاد ست مجموعات ، يتراوح عدد أعضاء كل منها بين ١٣ و ١٦ امرأة .

٢ ـــ ثلاث مجموعات من هذه المجموعات الستة ألقيت عليها محاضرة فى فائدة أكل أحشاء الشاة . وشرحت فى المحاضرة كل الوسائل التى تكفل التغلب على الجوانب التى تدعو إلى الاشمئزاز (كالرائحة والشكل) . ثم انصرف أفراد المجموعات الثلاثة .

٣ ـــ الثلاث مجموعات الأخرى نُظمت لها مناقشات فى الموضوع ، وفى أثناء المناقشات كان المسئول يذلل لهن كل عقبة تبدو أمامهن . وبعد انتهاء المناقشات اتخذت المجتمعات قرارا .

٤ ـــ تتبع الباحثون أفراد المجموعات الستة ، واتصلوا بهن فى بيوتهن لمعرفة أثر المحاضرة ، والفرق بينه وبين أثر النقاش المنتهى إلى قرار .

النتيجة :

١ ـــ فى حالة المجموعات الثلاثة التى تلقت المحاضرة لم يقدم على تجريب الطعام الجديد إلا ٣ ٪ من الأعضاء .

٢ ـــ فى حالة المجموعات الثلاثة التى اشتركت فى مناقشات انتهت إلى اتخاذ قرار أقدم على تجريب الطعام الجديد ٣٢ ٪ من الأعضاء .

تعليق :

يعلق لڤين K. Lewin على هذه التجربة ونتائجها بالتعليقات الآتية :

١ ــ فى المحاضرة يكون الشخص سلبيا إلى حد كبير . أما فى المناقشة فإنه يقف موقفا إيجابيا بين حين وآخر مما يجعله مندمجا[١] فى الجماعة أكثر من المستمع إلى محاضرة .

ولذلك يلاحظ فى المناقشات المنتجة نقطتان هامتان :

(ا) تهيئة الفرصة لزيادة اندماج الشخص فى الموقف الاجتماعى .

(ب) عدم منع حرية المناقشة ، بإعطاء الفرصة الكافية لإظهار الجوانب المختلفة للاعتراض .

٢ ــ المحاضرة تصل إلى الشخص « كفرد » فهو من الناحية السيكولوجية فرد منعزل عن الجماعة ولو أنه يجلس بينها . أما فى المناقشة فالآراء تصل إلى الشخص « كعضو » أو « كجزء فى الجماعة » .

٣ ــ القرار نفسه يعتبر عملية بالغة الأهمية فى التقدم نحو الفعل ، مع أنه عملية تتم فى دقائق (K. Lewin 1947) .

ويلاحظ أن السيدات اللاتى أجريت عليهن التجربة السابقة كن على تعارف سابق فيما بينهن نتيجة لعضويتهن جميعاً فى جمعية الصليب الأحمر . وقد أعادت دانا كليزوريخ D. Klisurich إجراء التجربة نفسها ولكن على سيدات لم يكن بينهن تعارف من قبل ، فلم يكن يتزاورن ، ولم يكن عضوات فى ناد أو جمعية واحدة . ومع ذلك فقد تحققت النتيجة نفسها (ibid.).

هذه الدراسات جميعاً توضح الآثار المختلفة للتواصل بين أعضاء الجماعة ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ــ تحقيق التقارب الذهنى .

٢ ــ تنميط الاتجاهات .

٣ ــ زيادة اندماج الشخص فى الجماعة .

---

(١) involved

٤ ــ زيادة كفاءة التفكير بزيادة موضوعيته ، نتيجة لانخفاض نسبة العوامل الشخصية .

٥ ــ زيادة تمكين الأعضاء من التكيف المتبادل ، فى مستويات الشخصية المختلفة. ويرى كرش وكرتشفيلد D. Krech & R.S. Crutchfield أن انغلاق الناس بعضهم بالنسبة للبعض وجهلهم بآراء واتجاهات بعضهم البعض يؤدى إلى ظهور «توترات» تقلل من استقرار الموقف وتكامل الجماعة . ولذلك فإن بحوث «الرأى العام» التى تهدف إلى معرفة اتجاهاته وإذاعتها من شأنها أن تساهم فى خفض التوترات داخل المجتمعات الحديثة (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 307) . وجدير بنا أن نشير فى هذا الموضع إلى رأى شولته H. Schulte فى أن «الحاجة إلى النحن» إذا استبدت بشخص وسُدت أمامه كل السبل إلى التواصل ترتب على ذلك ظهور توترات دافعة له نحو السلوك المنحرف الذى قد يصل إلى حد ظهور بعض الأعراض الذهانية (H. Schulte 1938) . وجدير بنا كذلك أن نشير إلى حقيقتين هامتين أوضحناهما أثناء حديثنا عن الارتقاء اللغوى للطفل فى السنة الثالثة : هما ازدياد كمية النشاط اللغوى للطفل بشكل ملحوظ فى المواقف الاجتماعية المحبوبة لديه ، ومحاولته توصيل خبراته الوجدانية العنيفة إلى الآخرين واحتجاجه الشديد على عدم استجابتهم بانفعال واضح . من ذلك يتضح مدى أهمية وظيفة التواصل فى المجتمع وفى المواقف الاجتماعية .

ومن البحوث القيِّمة فى ديناميات التواصل بحث أجراه لازارسفيلد (R.F. Lazarsfeld & others 1947) فى « العوامل الاجتماعية التى تؤثر فى عملية التصويت فى الانتخابات » ، فقد انتهز فرصة انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٠ فقصد قبيل إجرائها إلى تطبيق استبار على ٦٠٠ شخص من أوهيو ، وانتهى من ذلك إلى عدة نتائج ، يهمنا منها ما يأتى :

لتحقيق التجانس فى الرأى السياسى داخل الجماعة ، لوحظ أن الاتصال

الشخصى أبعد أثرًا من طرق التواصل المختلفة التى تتم عن بعد. (كالمنشورات ، والإذاعة اللاسلكية) وذلك لسببين :

١ ــ أن الاتصال الشخصى يصل إلى عدد من الناس أكثر غالبا ممن تصل إليهم الوسائل الأخرى .

كما أنه يصل إلى هؤلاء القوم عددًا من المرات يفوق عدد المرات التى تصل فيها الوسائل الأخرى إليهم .

٢ ــ أن للاتصال الشخصى مزايا سيكولوجية لا تتوفر لطرق الاتصال غير المباشر. منها :

(ا) أن الاتصال الشخصى يكون فى معظم الأحوال لأغراض غير سياسية ، (أغراض خاصة بالعمل ، أو مصادقة ، أو نزهة . . . الخ) ، ثم يعرض الحديث للسياسة عن غير قصد . وهذه الحقيقة نفسها ــ « العرض عن غير قصد » ــ ذات أهمية كبرى . إذ نفاجأ برأى الغير ، فإذا كان مخالفا لرأينا فإننا نواجهه غالبا بدون أسلحة ، وبذلك يغلب عليه أن يؤثر فينا تأثيراً فعالا .

(ملحوظة تتعلق بحدود صدق هذا الرأى: يصدق هذا الرأى على أغلبية أبناء المجتمع ، ممن ليس لديهم من قبل رأى متبلور وعلى درجة عالية من التفصيل والثبات) .

(ب) مرونة الاتصال الشخصى . فالشخص الذى يتولى الدعوة لحزب معين يمكنه أن يختار اللحظة المناسبة والظرف المناسب . وإذا صادف مقاومة فى لحظة ما يمكنه أن يتراجع تراجعا مؤقتا حتى لا يزيد من شدة المقاومة . وهذا لا يتيسر لوسائل الدعاية غير الشخصية .

(حـ) قدرة الاتصال الشخصى على أن يكافىء بالثواب أو بالعقاب . إذ يستطيع الشخص الذى يحاول أن يقنعك برأى معين أن يغضب إذا شعر بعدم موافقتك ، ويتركك تمضى ، فإذا بك تخسر صديقا ، ويشعرك بأن رأيه يمثل رأى الأغلبية ، فأنت إذاً تنعزل عن الأغلبية بمخالفتك له ، وتلك كلها عقوبات.

كما يستطيع أن يبتسم ويمدحك إذا وافقته . وهذه الميزة لا تتوفر بهذه الدرجة للدعوة أو للدعاية غير المباشرة .

الشعور بهدف موحد وقبوله :

يجمع براون J.F. Brown (1936, p. III) ، ولابيير وفارنزورث R.T. La Piere & P.R. Farnsworth (1942, p. 293) ، وكرش وكرتشفيلد D. Krech & R.S. Crutchfield (1948, p. 396) ، وهيدلى كانترل H. Cantril (1947) ، على اعتبار الشعور بهدف موحد وقبوله عاملا هاما من عوامل التكامل الاجتماعى. وقد أوضحنا بما فيه الكفاية أهمية « الاتفاق مقدما على خطة العمل» فى مواقف تقسيم العمل ، وهذا يتضمن معرفة بالهدف وقبولا له . كما أن مواقف المناقشات التى أوردناها فى حديثنا عن التواصل يمكن أن تلقى بعض الضوء على هذا الموضوع أيضا سواء من ناحية المعرفة ومن ناحية القبول . ومن ثم فإننا نكتفى هنا بذكر الجوانب الدينامية الرئيسية لهذا العامل ، كما أوردها كانترل (1947) :

(ا) « شعور الجماعة بالهدف » الذى تعمل من أجله ، ومن ثم وجب اطلاع الجماعة على كل ما يتعلق به .

(ب) درجة « الارتباط » بهذا الهدف وقبوله ، دون قهر ولا تهديد .

(ح) درجة اقتناع الجماعة بأن هدفها « يمكن أن يتحقق » .

(د) « تصميم الجماعة على بلوغ الهدف » بأى ثمن . ومن ثم فإن التضحيات التى يقدمها الأعضاء هى خير مقياس لقياس شدة اقتناعهم وتمسكهم بالهدف .

(ه) يجب أن يشعر الفرد بأنه يساهم بنصيب له أهميته فى خطوات الجماعة نحو الهدف . ويجب أن نضيف إلى ذلك شعور الجماعة بالقيمة الموضوعية للهدف ، وصلته بحاضر الجماعة ومستقبلها ، وموضعه من نظام القيم العام السائد فى المجتمع .

تلخيص

تحدثنا فى هذا الفصل عن العوامل الرئيسية للتكامل الاجتماعى ، وهى الاشتراك ، وتقسيم العمل الاجتماعى ، والتنظيم ، والتواصل ، والشعور بهدف موحد وقبوله . وقد حرصنا على أن نبين هذه العوامل فى صورة دينامية باعتبارها وظائف فى البناء الاجتماعى ، متأثرة بالكل الذى يحويها ومؤثرة فيه ، ومتأثرة ببعضها البعض . وعلى أساس هذه الصورة الدينامية أوضحنا أن اجتماعها وتفاعلها معاً شرط تحقق درجة عالية من التكامل الاجتماعى . وللبرهنة على ذلك ضربنا بضعة أمثلة لجماعات تتحقق فيها بعض العوامل دون الأخرى ، فتكون النتيجة انخفاض درجة تكاملها .

وقد أشرنا إلى ضرورة التنبه إلى بعض الجوانب السيكولوجية ذات الأهمية الخاصة فى تحقيق هذه العوامل لوظيفتها . فالاشتراك ينبغى أن يكون اشتراكا فى الاهتمامات ، وتقسيم العمل ينبغى أن يتضمن الشعور بوحدة المشروع ، والتواصل ينبغى أن يتيح الفرصة لظهور الفوارق الفردية رغم أنه يسعى إلى تقليلها ، ووحدة الهدف ينبغى أن يكون لها وجود فى الواقع السيكولوجى للأعضاء ، كما أن الهدف ينبغى أن يكون مقبولا .

وقد اعتمدنا فى الوصول إلى نتائجنا هذه ، على البحوث التجريبية فى علم النفس الاجتماعى ، وعلى بعض الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية .

الفصل الرابع

شروط التكامل الاجتماعى

(١) شروط خاصة بالبيئة

العوامل والشروط :

إن التفرقة بين عوامل التكامل وشروطه تفرقة اصطلاحية فحسب ، الغرض منها تيسير عملية التحليل العلمى التى تهدف أساسا إلى عزل متغيرات المجال لإمكان تحديد العلاقات القائمة بينها من ناحية ، والقائمة أيضا بينها وبين الكل الذى يضمها . فلا ينبغى إذاً أن تغيب عن أذهاننا دينامية الموقف أى تفاعله المتصل وتبادل التأثر والتأثير بين متغيراته التى هى نفسها عمليات . وأساس هذه التفرقة التى عقدناها بين مجموعتين من المتغيرات ، أطلقنا على إحداهما اسم « العوامل » والأخرى اسم « الشروط » أن العوامل أقرب نسبيا إلى الظاهرة من الشروط . بعبارة أخرى يمكن اعتبار العوامل بمثابة الأسباب المباشرة ، والشروط بمثابة الأسباب غير المباشرة . كما أنه يمكن اعتبار الشروط بمثابة « بيئة » يتم فيها فعل العوامل . ولا تتعارض هذه التفرقة — النسبية — مع التصور الدينامى للموقف ، إذ أن ديناميات أى جشطلت لا تعمل دائماً فى مستوى واحد .

درجة تصلب البيئة :

نقصد بدرجة تصلب البيئة مدى معارضتها لحاجات الشخص ومطالبه ، مهما يكن مظهر هذه المعارضة . فقد تختلف المظاهر فى المواقف المتعددة ، لكن الدلالة الدينامية تظل واحدة من ورائها جميعا . ويمكن تصوير الموقف فى

هذه الحال على النحو الآتى : أى اختلال فى اتزان الشخص مع بيئته (نتيجة ظهور بعض حاجات لديه تطلب الإشباع ، ويلاحظ أن هذه الحاجات ليست سوى السبب المباشر فقط لاختلال الاتزان) يستتبع محاولات من الشخص لإعادة تنظيم الموقف سعياً وراء تكيف جديد . وبقدر وقوف جوانب البيئة المختلفة كعقبة تحول دون تحقيق هذا التكيف الجديد يقال عن البيئة إنها على درجة معينة من الصلابة . والمهم هنا أن نتتبع هذه الحقيقة الدينامية فى مظاهرها المختلفة .

وقد أشار لڤين K. Lewin إلى أحد هذه المظاهر تحت اسم « نطاق الحركة الحرة داخل الجماعة » . ذلك أن انتماء الشخص إلى جماعة لا يعنى ضرورة اتفاقه معها فى جميع أهدافها وقواعدها وأسلوب حياتها وتفكيرها . بل تظل للشخص بضع أهداف لا يشاركه فيها جميع الأعضاء . وهذه تتطلب « نطاقاً معيناً للحركة الحرة داخل الجماعة » يسمح بمتابعة تلك الأهداف وإرضاء ما يتعلق بها من رغبات . وكلما ازداد ضيق هذا النطاق المسموح به ازداد شعور الشخص بالإحباط ، فإذا اشتد هذا الإحباط فقد يدفعه ذلك إلى الانفصال عن الجماعة ، بل وقد يسعى إلى تدمير حياتها . على هذا الأساس نستطيع أن نفهم كيف أن عدم إشباع الحاجة الجنسية داخل الأسرة يؤذى كيانها . (K. Lewin 1948'a') ، كما أننا نستطيع أن نلقى بعض الضوء على أسباب تخلخل العلاقات بين المراهق وأسرته .

وفى تجربة ليبيت وهوايت R. Lippitt & R. White يتجلى ضيق نطاق الحركة الحرة داخل الجماعات التسلطية والفوضوية فى مظهرين : ففى الجماعات التسلطية يتجلى فى كثرة أوامر الرئيس وتوجيهاته بدرجة لا تكاد تترك للأعضاء أية فرصة لحرية التصرف . فقد أصدر الرئيس ٢٥٦ أمراً فى الاجتماعات الست ، بينما أصدر الرئيس فى الجماعات الديمقراطية فى نفس المدة ١١ أمراً فحسب . أما فى الجماعات الفوضوية فتتجلى الحقيقة الدينامية نفسها فى مظهر آخر ، هو جهل

الأفراد إذ لا يجدون أى إرشاد ممن هو أنضج منهم ، ونتيجة ذلك أن تبدو ميادين النشاط مغلقة فى وجه الأعضاء فلا يعرفون أين ولا كيف يبذلون جهودهم . ومن الجلى أن هذين العاملين يلقيان ضوءاً جانبياً على اتجاه التربية الرشيدة ؛ إذ أن التطرف فى مراقبة الطفل وإصدار الأوامر المتلاحقة ، أو تركه « للقوى الطبيعية تفعل فعلها » ، كلاهما يؤدى إلى نتيجة واحدة هى استعداداته التكيفية عن النمو والتفتح . فى حين أن التوجيهات التى تظل فى حدود المساعدة على تحقق الإمكانيات هى التى تستطيع أن تصنع الشخصية المتكاملة . وقد أجرى شرام G.J. Schramm تجربة فى هذا الصدد ، توضح أثر حرية الحركة فى عملية التكيف .

مادة التجربة :

٢٢ طفلا ، منهم ١٥ ذكور ، و ٧ إناث (تتراوح أعمارهم بين ٣٦ – ٦٤ شهرا) .

الطريقة :

(ا) يُمنع الطفل من الحركة ، ويُحرك حيوان ما قربا إليه وبعداً عنه .

(ب) تطلق للطفل حرية الحركة ، وتمنع حركة الحيوان .

(حـ) تلاحظ الاستجابات الانفعالية الصادرة من الأطفال نحو الحيوان فى الحالتين .

(د) أما الحيوانات فهى : ضفدعة صغيرة – ضفدعة كبيرة – فأر أبيض – أرنب – ببغاء .

النتيجة :

يكون تكيف الطفل أفضل فى المواقف التى يسمح له فيها بحرية الحركة (G. Murphy & others 1937, p. 150) وعلى ضوء هذه الدراسة التجريبية وأمثالها نستطيع أن ندرك الدلالة الدينامية لعدد من ظواهر الحياة الاجتماعية . فحيثما ازداد تصلت البيئة لأى سبب من الأسباب يغلب سوء التوافق [1] وتكثر مظاهر السلوك

(١) maladjustment

المنحرف . وكثير من الدراسات الحديثة التى تتبع درجة الارتباط بين أنماط العصاب أو الذهان وبين ظروف البيئة الاجتماعية تثبت هذه الحقيقة بالدليل الإحصائى ، وتشفع ذلك عادة بالتفسير الذى يوضح كيف أن الارتباط هنا ارتباط دينامى وليس مجرد « وجود معا » بمحض الصدفة .

يقرر كاتل R.B. Cattell أن معظم التقارير الإكلينيكية تدل على وجود ارتباط واضح بين الجناح[1] وبين المركز الاجتماعى ؛ فهو والاضطرابات السلوكية بوجه عام يزداد فى الطبقات الدنيا من المجتمع[2] (R.B. Cattell 1945 'b'). كما يقرر أيضاً أن الدراسات الحديثة تدل على أن أنواع الذهان الواضحة يكثر ظهورها فى الطبقات الاجتماعية الدنيا[3] (R.B. Cattell 1945 'a'). والصلة واضحة بين طرفى هذه الحقيقة ، فمن ناحية تصلب شديد فى بيئة هذه الطبقات الاجتماعية الاقتصادية يحول دون إشباع الكثير من مطالب الحياة ، ومن ناحية أخرى أثر ذلك فى ظهور التوترات لدى الأشخاص مما يترتب عليه ظهور هذه المظاهر السلوكية المنحرفة. ويرى لفين K. Lewin أن التوترات والصراعات المترتبة على تصلب البيئة تتأثر — إلى حد ما — بظروف أخرى فى موقف الشخص أو الطبقة . ومن ثم فإنه يقرر أن الطبقة الوسطى تتعرض لأكبر درجة من الصراع ، أكبر مما تتعرض له كل من الطبقتين العليا والدنيا . ويرى أن هذه الدرجة المرتفعة من الصراع نتيجة للتفاوت الشديد بين المستوى الذى تريد هذه الطبقة أن تبقى عنده وبين قدرتها الاقتصادية على تحقيق هذه الرغبة (K. Lewin 1947) . وتوضح روزالند جولد

---

(١) Delinquency

(٢) Burt, C.L. *The Young Deliquent*, New York : Appleton, 1925. (through R B. Cattell 1945 'b').

Shaw, C.R. & Mckay, H.D. *Juvenile Delinquency and Urban Areas*, Chicago : Univ. Chicago Press, 1942. (through R.B. Cattell 1945 'b').

Jaffe, A.J. & Shanas, E. Economic Differentials in the Proplem of Insanity, *Amer. J. Soc.*, 1939, 44. (through R.B. Cattell 1945 'a').

Zubin, J. The Economic Aspects of Mental Disease, *Amer. Assoc. Adv. Sci.*, No. 9, 1940 (through R.B. Cattell 1945 'a').

R. Gould هذه الحقيقة بقولها إنه حيثما بدت البيئة محتوية على إمكانيات لتحسين المستقبل ارتفع مستوى الطموح[1] وبالتالى ازدادت مطالب الشخص نحو بيئته واشتد إلحاحه فى الوصول إليها ، وهذا هو الوضع بالنسبة لأفراد الطبقة الوسطى . ولكن حيث تنعدم هذه الإمكانيات ينخفض مستوى طموح الشخص كرد فعل دفاعى ، مخافة أن يصدم فى مستقبله صدمة لا يحتملها (R. Gould 1941)
وقد توصلت الباحثة إلى هذه النتائج من خلال بحث تجريبى فى أثر العوامل الاجتماعية فى مستويات الطموح . ولما كان لهذا البحث أهميته فى توضيح الموضوع الذى نحن بصدده فإننا نوجزه فيما يلى :

أجرت الباحثة تجاربها على ٨١ طالبًا من طلاب إحدى الجامعات تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة . وكانت الظاهرة التى تدرسها هى مدى الاختلاف بين « تقدير الفرد لما سينجزه » وبين « ما ينجزه فعلا » .

ثم تناولت المتطرفين نحو أى من الطرفين (أعلى درجة من الاختلاف أو أقل درجة) ويبلغ عددهم ٤٢ طالبا . (٢١ فى كل طرف) . وقصدت إلى المقارنة بين المجموعتين .

النتائج :

لاحظت الباحثة أن المجموعة التى سجلت أقل درجة من الاختلاف بين مستوى الطموح وبين التحقيق الفعلى ، تقف موقفا ملائما . فهى تأتى من أصول أميريكية بروتستانتية ذات مكانة رفيعة . وأكثر المهن انتشارًا بين آبائهم المهن الفنية العالية . حيث يتراوح الدخل بين ٤٠٠٠ و ١٠٠٠٠ دولار . وفى مقابل ذلك لاحظت أن المجموعة التى سجلت أعلى درجة من الاختلاف تتوفر فيها الصفات الآتية : ٥٥٪ من الآباء أجانب من حيث المولد . و ٦٠ ٪ يقل دخلهم عن ٤٠٠٠ دولار

(١) level of aspiration

و ٥٥ ٪ ينتمون إلى أقليات دينية . و ١٥ ٪ فقط من الآباء حصلوا على إجازات جامعية .

كذلك لاحظت الباحثة أن ٥ ٪ فقط من المجموعة التى سجلت أكبر اختلاف لم يعملوا فى الصيف لكسب القوت ،

فى حين أن ٢٤٪ من المجموعة التى سجلت أقل اختلاف لم يعملوا فى الصيف لكسب القوت .

وفى حين أن ٥٥ ٪ من المجموعة الأولى كانوا يعملون بعض الوقت أيام الدراسة لكسب القوت .

نجد أن ٨٨ ٪ فقط من المجموعة الثانية كانوا يعملون بعض الوقت أيام الدراسة لكسب القوت ، .

و ٩٠ ٪ ممن يعملون فى المجموعة الأولى ينفقون نقودهم على شئون الدرس وحاجات الأهل ،

فى حين أن ٥٠ ٪ فقط ممن يعملون فى المجموعة الثانية ينفقون نقودهم على شئون الدرس وحاجات الأهل .

وفى تعليق الباحثة على هذه النتائج تقرر أن مستوى الطموح يتحدد على أساس نظرة الشخص إلى حاضره ونوع تقديره له ، هل يعتبره نجاحاً أم فشلا :

١ ــ فإذا كان يعتبره نجاحاً ، فهو راض عنه وبالتالى فالمستقبل (مستوى الطموح) سيكون قريباً منه .

٢ ــ وإذا كان يعتبره فشلا مؤقتاً فهو غير راض عنه وبالتالى فالمستقبل سيكون بعيداً عنه ليخلص صاحبه منه .

٣ ــ وإذا كان لا يرى أية إمكانية لتحسينه فسيكون مستوى الطموح منخفضا .

ولذلك نجد الطبقة الوسطى فى المجتمع أشد الطبقات نفوراً من الحاضر وتعلقاً بالمستقبل ، فى حين أن الطبقة الدنيا أقل توترًا ، لأنه بالرغم من أن حاضرها غير مرض فإنه لا يقدم أية فرصة للأمل فى مستقبل أفضل R. Gould 1941

فتصلب البيئة إذاً يترتب عليها ظهور نتائج لا تلائم تحقق درجة عالية من التكامل الاجتماعي؛ إذ يترتب عليها أحياناً ظهور توترات حادة كالعصاب والجناح والذهان، وشدة ابتعاد مستوى الطموح عن مقتضيات الواقع، كما يترتب عليها أحيانا أخرى ظهور الاتجاه الخضوعي[1] الذى يشل كل دافع إلى الخلق والابتكار. وقد أجرى هولينجز هد A.B. Hollingshead بحثاً أوضح فيه أثر تصلب البيئة الاقتصادية للأسرات العمالية فى عدم استقرارها وتفككها، وهو يعلق على ذلك بقوله، إذا كان لنا أن نقول أحياناً إن المصائب تقرب بين أعضاء الجماعة، فإنها فى الوقت نفسه قد تفرق بينهم (A.B. Hollingshead 1950). كذلك أجرى رادزينوفيتش L. Radzinowicz بحثاً فى أثر الانهيار الاقتصادى فى الإجرام فى بولندة، وذلك أثناء فترة الأزمة الاقتصادية العالمية التى حدثت فيما بين سنتى ١٩٢٩ و ١٩٣٢. فانتهى إلى أن اشتداد وطأة الأزمة كان يتبعه فى تناسب طردى ازدياد جرائم السرقة. ولم ينحصر ذلك فى بلدة أو مقاطعة دون سواها بل انتشر فى جميع المدن والمقاطعات، ولم توجد منطقة واحدة انخفض فيها الإجرام أو بقى ثابتاً (L. Radzinowicz 1941). وكذلك تكشف الدراسات التى أجريت فى الإحباط عن هذه الحقائق نفسها، فهو يولد أحياناً أرجاعاً عدوانية، وأحياناً أخرى يولد أرجاعاً خضوعية. فشريكل H.G. Schrickle يرى أن السبب الرئيسى لتنازع الأفراد والجماعات هو الإحباط. (1945). وسوتى Suttie يقرر أن العدوان ليس غريزة أولية كما يعتقد فرويد بل رد فعل للإحباط، فإحباط الطفل عن تبادل الحب يولد فيه القلق والبغض والعدوان، كما أن الحاجة إلى السلطة والسيطرة التى يعتبرها أدلر A. Adler من المقومات الأساسية للطبيعة البشرية ليست هى الأخرى سوى رد فعل للإحباط (ى. مراد ١٩٤٧). وفى تجربة ليبيت وهوايت نلاحظ أن بعض الجماعات التسلطية قد ظهرت بين أعضائها مظاهر السلوك العدوانى، والبعض الآخر ظهرت بين أعضائها مظاهر السلوك الخضوعى.

---

(١) submissive attitude

ويرى مورفى G. Murphy أن الإحباط يؤدى كذلك إلى ظهور سلوك نكوصى يتجلى فى بعث القيم القديمة التى يكون الشخص قد عبرها أثناء ارتقائه (1937 p. 214) . وبوجه عام يؤدى تصلب البيئة فى وجه مطالب الشخص إلى سلوك مضاد لتكامل الجماعة (م . سويف ١٩٤٩) . ويرى جورج رسك G.Y. Rusk أن الطفل يستطيع أن ينمى فى نفسه ضميرا ، أى أنه يستطيع أن يقبل القواعد المفروضة عليه والأوامر وبعض الإحباط لا لشىء إلا لأنه يتعلم بخبرته اليومية أن قبوله لهذه القيود يكسبه بين الحين والحين تعويضات مناسبة . وكذلك لا يشعر بالتضامن الاجتماعى من أبناء المجتمع إلا أولئك الذين يشعرون بأن الجماعة تعنى بحاجاتهم واهتماماتهم . (G.Y. Rusk 1941) .

مدى التكامل بين مناطق البيئة الاجتماعية :

أشرنا من قبل إلى أن المجتمع يتألف من عدد من الجماعات الصغيرة نسبيا ، تتحقق فيها حالة « النحن » بدرجات متفاوتة . وسنتكلم عن هذه الجماعات فى هذا الموضع باعتبارها مناطق متغايرة فى داخل البيئة الاجتماعية المحيطة بالشخصية. ويرى بارتلت أن من أهم الفوارق بين المجتمع البدائى والمجتمع الحديث أنه كلما ارتقى المجتمع ظهرت فى سلوك أبنائه « آثار عضويتهم فى الجماعات الصغرى » (الداخلية). إذ تزداد هذه الجماعات تعدداً وتغايراً. (F.C. Bartlett 1923, p. 257) وتختلف العلاقات القائمة بين هذه الجماعات الداخلية ، فهى تتراوح بين الاعتماد المتبادل من ناحية ، والتعارض والعداء السافر من ناحية أخرى ، وفى الوسط بين الطرفين توجد عدة درجات وأنماط من التقارب والتفاعل . كذلك تختلف درجة النفاذ[1] التى تسمح بها حدودها (R, Thouless 1939) فحدود الأسرة فى بعض المجتمعات لا تسمح بتبادل الأفراد على سبيل الزواج ، لكنها فى مجتمعات أخرى تسمح بذلك ، وحدود الجماعة الدينية لا تسمح بذلك فى كثير من

---

(١) permeability

المجتمعات ، وحدود بعض الطوائف فى بعض المجتمعات كالهند مثلا تكاد تمتنع على النفاذ ، وحدود الطبقات الاجتماعية الاقتصادية تتفاوت فى هذه الخاصية الدينامية تبعاً لعدة عوامل . على أن درجة النفاذ التى تسمح بها حدود الجماعة لا تتجلى فى تبادل الأفراد فحسب ولكن فى عدة مظاهر أخرى كتبادل الصداقات والقيم .

وثمة حقيقة هامة هى أن الفرد الواحد يكون فى العادة عضواً فى عدة جماعات من هذا القبيل ، فهو عضو فى أسرة معينة ، وفى جماعة دينية معينة ، وفى جماعة مهنية معينة ، وفى جماعة طبقية معينة ، . . . وهكذا . ومن هنا يكون الفرد بؤرة تتجه إليها عدة نظم للمعتقدات[1] غير متكاملة غالباً ، ولما كان الفرد ينزع دائماً إلى التكامل (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 380) محققاً ذلك بوجه خاص فى نظام القيم التى يحملها فإنه يحاول دائماً التوفيق بين هذه النظم المتعددة للقيم . وبقدر ما يكون الاختلاف عميقاً بين هذه القيم (وبقدر تعلق الفرد بها) يكون تعرضه للصراع الشديد الذى يتعارض مع تحقيق درجة سوية من الاستقرار الاجتماعى ؛ وتلك هى بؤرة المشكلة الاجتماعية التى تواجهها المجتمعات فى فترات الانتقال . فأفراد المجتمع يكونون أعضاء فى عدة جماعات داخلية ، تابعين لعدة نظم للقيم يتفاوت حظها من سرعة التغير بما يلائم ظروف الحياة الجديدة ، مما يورطهم فى صراعات حادة . ويكفى أن نتأمل نظام القيم الذى يتلقاه الطفل فى أسرته وجماعته الدينية بتحبيذ الصدق والصراحة ومساعدة الغير . . . الخ ، وكيف يتعارض هذا مع نظام القيم الذى يتلقاه من خلال عضويته فى جماعة مهنية بضرورة حسن التصرف ولو بالكذب والنفاق والسعى إلى النجاح والمجد حتى ولو كان ذلك على حساب الغير .

وقد أجرى أليسون دافيز (A. Davis 1943) بحثاً أوضح فيه كيف أن المجتمع الأمريكى ينقسم إلى عدة جماعات مختلفة ، إثنولوجية وريفية ومدنية

---

(١) belief systems

وعنصرية واجتماعية اقتصادية ، تقوم كبيئات ارتقائية وتربوية مختلفة ، يكتسب الطفل فيها أشكالاً وقوالب مختلفة للسلوك فيما يتعلق بالأسرة والشقى والسلالة والعمل ، كما يرتبط بأهداف اجتماعية متباينة وحاجات مختلفة وقواعد متعارضة أحياناً لتقدير الخطأ والصواب ، ويتلقى المكافآت ويعانى المآزق السيكولوجية المتباينة . وقد أورد قائمة بالتعليمات والقيم المختلفة التى يتلقاها الطفل فى جماعتين مختلفتين من جماعات هذا المجتمع ، هما أسرة من الطبقة الدنيا من المجتمع الزنجى وأسرة من الطبقة المتوسطة من هذا المجتمع (الزنجى الأمريكى) ، ونكتفى بأن نورد منها ما يلى :

قائمة بالتعليمات والقيم المختلفة التى يتلقاها الطفل
فى طبقتين مختلفتين من طبقات المجتمع

فى الطبقة الدنيا	فى الطبقة الوسطى
١ - اضرب من يضربك ، بل اضربه قبل أن يضربك	١ - إذا ضربك أحد فاشكه لأمك أو لأبيك
٢ - يعرف الأبناء والبنات فى سن مبكرة كثيراً من المسائل الجنسية . ويعنى الآباء بإعطائهم المعلومات الدقيقة فى هذا الموضوع ، بل وبإمدادهم بالكتب فى هذا الموضوع أحياناً .	٢ - يكاد الأبناء والبنات يجهلون معظم الأمور الجنسية ويجبنون عن الاقتراب منها ، ويلقون العقاب الصارم إذا اكتشفت لهم علاقة جنسية .
٣ - تكون الزوجات علاقات جنسية خارج الأسرة ، دون أن تلقى استنكاراً أو عقاباً .	٣ - إذا كونت الزوجة علاقة جنسية خارج الأسرة فإنها تلقى الاستنكار والعقاب الشديدين .

على أن مثل هذه الدراسات لا تزال ضئيلة ، مع أنها تبدو عظيمة الفائدة فى تفهمنا للجانب الاجتماعى من الأزمة التى تعانيها المجتمعات الحديثة .

والخلاصة أن التفاعل والانسجام بين مناطق المجتمع شرط هام فى تحقيق تكامله واستقراره ، لا يقل أهمية عن شرط مطاوعة البيئة بحيث تسمح بحرية الحركة بالقدر الذى يقتضيه تحقق التوافق السوى .

الفصل الخامس

شروط التكامل الاجتماعى

(٢) شروط خاصة بالشخصية

من الحقائق الهامة فى موضوع التكامل الاجتماعى مدى مطاوعة شخصيات الأعضاء ، واستعدادهم لإعادة النظر فى مواقفهم ، وإعادة تشكيل أنماطهم السلوكية بالتخلى عن اتجاهات وعادات معينة أظهرت خبرات الحياة اليومية عدم كفاءتها ، واكتساب اتجاهات وعادات أخرى أكثر ملاءمة لمقتضيات الموقف الاجتماعى .

وقد أوضحنا فى مواضع سابقة كيف أن التكامل الاجتماعى يعتمد على توفر عدة عوامل وشروط دينامية ؛ من بينها تحقق درجة من التشابه لا غنى عنها بين أعضاء المجتمع ، فى استعداداتهم واتجاهاتهم ونظم القيم التى يتعاملون على أسلسها وعاداتهم الحركية والذهنية جميعاً ، ولما كان نمط التكامل المتحقق فى المجتمع البشرى يحتم الالتقاء بين الأعضاء فى مستويات من النشاط متعددة بصورة لا مثيل لها فى التجمعات تحت البشرية ، فإن توفر درجة عالية من المطاوعة فى الشخصية يبدو شرطا لابد منه لتحقق هذا النمط .

إلا أن هذا المفهوم العلمى ، أعنى مفهوم « مطاوعة الشخصية »، شأنه شأن جميع المفاهيم العلمية ، لا يكتسب أهميته وقيمته كأداة للبحث العلمى تعين على تنظيم الوقائع المبعثرة وبالتالى على زيادة فهمنا وقدرتنا على تفسير الواقع الاجتماعى إلا من خلال المعالجة التجريبية والتحليلات النظرية التى تثريها وتثبت كفاءتها الحقيقية فى أداء مهمتها .

وقد أجرى بالفعل عدد كبير من البحوث داخل نطاق هذا المفهوم ، وكان ذلك بوجه خاص فى الثلاثين سنة الأخيرة بعد أن خفتت دعوى الغرائز نتيجة لجهود عدد من الباحثين ولا سيما بارتلت. وهذا ما يقرره مورفى G. Murphy ويعزو إليه أهمية كبيرة ، إذ يقول إن من أهم الحركات التى تمت فى البحوث السيكولوجية الحديثة ازدياد تقدير وجهة النظر الحضارية (البيئية) ، والتسليم بأن طبيعة الإنسان الباطنية البيولوجية لا تستطيع أن تظهرنا على كثير من جوانب سلوكه ككائن اجتماعى (G. Murphy & others 1937, p. 20) . ويرجع الفضل فى قيادة هذه الحركة الجديدة وتوجيهها إلى عدد كبير من العلماء كل من زاوية معينة . فعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية جعلوا يوضحون ويؤكدون أهمية الجماعات والنظم الحضارية المختلفة فى تحديد نمط سلوك الفرد واتجاهاته . وعلماء التحليل النفسى والمشتغلون بالعيادات السيكولوجية جعلوا يؤكدون أهمية البيئة العائلية فى الطفولة بوجه خاص ، وكورت لفين والجشطلتيون بوجه عام أخذوا على عاتقهم مهمة تقديم المفاهيم العلمية التى من خلالها يمكن معالجة التفاعلات الجارية بين الشخصية والبيئة مؤكدين بذلك ضرورة المزج بين العوامل الذاتية والموضوعية لفهم السلوك. (ibid p. 337) ويجب أن نضيف إلى هؤلاء أسماء شريف M. Sherif وبرونر J.S. Bruner وجودمان C. C. Goodman وبارتلت وغيرهم ممن تكلموا فى « أطر الدلالة »[1] ، ونفوذ العوامل الاجتماعية فى العمليات العليا كالإدراك والتذكر (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 82) .

هؤلاء جميعاً ساهموا فى تعميق مفهوم مطاوعة الشخصية، وفصلوا القول فى الكثير من جوانبه . إلا أننا لا نزال بحاجة إلى المزيد من هذه البحوث . ذلك أن البحوث التى أجريت بالفعل لا تزال عاجزة عن أن تقدم لنا صورة واضحة متكاملة عن مضمون هذا المفهوم ، وعن حدود استخدامه . فبعضها متضارب فى نتائجه مع البعض الآخر ، كما أننا لا نستطيع أن نخرج منها برأى واضح مفصل فى

(١) frames of reference

الفرق بين جوانب الشخصية المختلفة من حيث درجة قابليتها للتشكل ، أو برأى مفصل فى الفرق بين جوانب البيئة المختلفة من حيث قدرتها على تشكيل جوانب الشخصية المتعددة .

لكن هذا العجز لا ينفى حقيقة هامة هى أن مفهوم المطاوعة قد استقر فى البحوث الحديثة ، وأننا من خلال العدد الكبير من البحوث التى أجريت وبرغم تضارب بعض نتائجها ، نتقدم فعلا نحو زيادة توضيح هذا المفهوم وزيادة كفاءته كأداة من أدوات البحث العلمى . ويلخص لابيير وفارنز ورث R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth هذا التقدم بقولهما : كان الرأى الشائع لدى الدراسين الأوائل لسلوك الأطفال ، أن الأطفال يولدون مزودين بانفعالات ثلاثة ، الخوف والغضب والحب ، أما الرأى السائد الآن فهو أن المرء يولد مزوداً بإمكانيات فقط لسلوكه الوجدانى المقبل (R.T. LaPiere & P.R. Farnsuorth 1942, p. 38) . على أن هذا القول يؤرخ للتقدم منذ سلوكية وطسن ، ويمكن أن نبعد حدوده التاريخية إلى ما وراء ذلك حيث القول بالغرائز عند مكدوجل وحيث التضخيم من شأن العوامل الوراثية فى أواخر القرن الماضى كما أنه يخص بالذكر الجانب الوجدانى من السلوك ، ويمكن تعميمه بحيث يشمل الجوانب الأخرى كذلك .

وقد بينا فى الفصول التى عقدناها على أنتوجينية التكامل الاجتماعى كيف أن الطفل البشرى يولد على قسط من المطاوعة يفوق كثيراً ما يتوفر منها لدى الصغار فى أى مستوى آخر من مستويات السلسلة الحيوانية ، وذكرنا أن كثيراً من الدلائل تدل على أن درجة مطاوعة الكائن تزداد بازدياد درجة ارتقائه ، وأن من أهم الدلائل على ذلك ازدياد المدة اللازمة للحضانة ، وازدياد القدرة على الاكتساب . وهذه الحقيقة التى ذكرناها فى الفصول الأنتوجينية هى نفسها التى نعود فنؤكدها هنا ، ونزيد من توضيحها .

* * *

١ ــ تكشف البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية بتفصيلها القول فى الأنماط

الحضارية المختلفة وفى أساليب التفكير والتعامل والقيم التى تتعامل القبائل والشعوب المختلفة على أساسها تكشف بوجه عام عن شدة مطاوعة الشخصية واتساع إمكانياتها، كما تكشف عن أن هذه الإمكانيات عندما تتشكل تتخذ أشكالاً معينة تلائم النمط الحضارى السائد. وهذا ما أوضحه كاتس وشانك فى أحاديثهما عن طابع الشخصية السائد فى كل من مجتمعات الاسكيمو (فى جرينلند) والماورى (فى نيوزيلنده) والزونى (فى نيوميكسيكو) (D. Katz & R. Shanck 1947, p. 519) وما أوضحته روث بندكت فى بحوثها فى مجتمعات هنود السهول، والزونى، والكواكيوتل (فى الساحل الشمالى الغربى) والدوبوان (فى ميلانيزيا) (R. Benedict 1951) وما أوضحه لوسيان ليفى بريل فى حديثه عن الأزاندا (فى الكونغو البلجيكية) وعن البانتو والماورى (L.L. Bruhl 1930).

وقد أجرى إيرفنج هالول A.I. Hallowell بحثاً تجريبياً ثبت فيه العامل البيولوجى الوراثى واستطاع بذلك أن يميز أثر النمط الحضارى فى تشكيل الشخصية. وخلاصة هذا البحث أنه اختار قبيلتين من قبائل الهنود الحمر بينهما صلات وراثية واضحة لأنهما ينحدران من عدد قليل من الأصول التى كثر بينهما التزاوج، لكن بينهما اختلافات حضارية واضحة. فإحداهما تقيم على شاطئ بحيرة وينبج وتكثر من الاتصال بالبيض لأغراض سلمية. أما القبيلة الأخرى فتقيم فى أرض داخلية على مساحة مائة ميل من البحيرة تقريباً، وقلما تتصل بالبيض. وقد انتخب الباحث من هاتين القبيلتين مجموعة من الرجال والنساء والأطفال على النحو الآتى :

٣٥ رجلاً و ٢٣ امرأة من المقيمين بالقرب من الشاطئ .

٣١ « و ١٣ « من المقيمين بالأراضى الداخلية .

٤٩ طفلا تتراوح أعمارهم بين ٦ سنوات وبين ١٥ سنة و ١١ شهراً من الفريقين معاً. وبتطبيق اختبار رورشاخ لبقع الحبر على هؤلاء جميعاً، تبين ما يأتى :

(ا) الجماعة الساحلية، يغلب على طابع الشخصية فيها « الانبساط ».

أما الجماعة الداخلية ، فيغلب على طابع الشخصية فيها « الانطواء » .

(ب) يغلب على اتجاهات الشخصية فى الجماعة الداخلية «الشك والارتياب ويبدو ذلك بوضوح فى بطء الإجابة على الاختبار .

وعلى العكس من ذلك وجد أن ٥٣ ٪ من الذين أجرى عليهم الاختبار من أبناء الجماعة الساحلية أجابوا فيما لا يزيد على دقيقتين . فى حين أن ١٥ ٪ فقط من أعضاء الجماعة الداخلية أجابوا فى مثل هذه المدة .

كذلك وجد أن ١٦ ٪ من أبناء الجماعة الساحلية أجابوا بعد دقيقة واحدة . ولم يجب أى فرد من أفراد الجماعة الداخلية فى مثل هذه المدة .

(حـ) لوحظ أن الأطفال من الجماعة الداخلية تبدو عليهم الجوانب الانبساطية أكثر مما تبدو على الراشدين . مما يدل على أنه يمكن أن يكون لدى الأطفال اتجاهات انبساطية لكنها سرعان ما تُقمع أو تمنع مع الظهور تحت تأثير عوامل التربية والمعتقدات والطقوس ، وتغلّب الاتجاهات الانطوائية .

(د) ٤٩ ٪ من مجموع الأطفال بوجه عام لم يستغرقوا أكثر من دقيقتين للبدء فى الإجابة . (A.I. Hallowell 1949) .

ومن الجلى أن هذا البحث يلقى ضوءاً لا بأس به على أهمية العوامل الحضارية فى تشكيل الشخصية ؛ وذلك من ناحيتين : الأولى هى وحدة الأصول الوراثية للجماعتين رغم هذه الاختلافات فى أنماط الشخصية والاستجابات الصادرة عنها ، والثانية تشابه استجابات الأطفال من الجماعتين ، مع ازدياد التباين باطراد العمر وازدياد نفوذ آثار عمليات التحضير[1] . كذلك أجريت دراسة تجريبية لمعرفة كيف ينشأ تقارب الشبان البيض الأمريكيين من بعضهم البعض وابتعادهم عن الزنوج وإساءتهم الظن بهم . وذلك بأن أقام الباحث عدة شهور فى قرية أمريكية ، فلاحظ ما يأتى :

أن الأطفال الصغار البيض يُسمح لهم باللعب مع الأطفال الزنوج .

---

(١) acculturation

وبعد فترة معينة من العمر يحرم عليهم هذا اللعب والاختلاط. ويعصى الأطفال هذه الأوامر فى البداية، لكن الآباء البيض يستعينون على تنفيذ رغباتهم بالتأنيب ثم بالضرب.

ويعلق جاردنر مورفى على ذلك بقوله، يبدو من ذلك أنه ليس ثمة شىء غامض من قبيل نمو «الوعى العنصرى» نمواً تلقائيا. بل المسألة تتم تحت وطأة التوجيه الملح والجزاء. (G. Murphy & others 1937, p. 240)

وقد لوحظ فى دراسات تجريبية أخرى أن الاتجاه العدائى الذى ينمو على هذا النحو لدى الشبان البيض نحو الزنوج له آثاره الواضحة العميقة عند الصبيان فى نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية. إذ تنفذ هذه الآثار إلى إدراك الصبى وتذكره وتخيله.

وقد ألقت البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية كثيراً من الأضواء على موضوع «نظام القيم» وكيف يتحدد من خلال النمط الحضارى. وربما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التى فازت بالقسط الأوفر من عناية الأنثروبولوجيين والاجتماعيين، وكان من أهم نتائج هذه البحوث القضاء على كثير من التفسيرات السطحية باسم الفطرة أو الغريزة التى كان يتقدم بها المفكرون لتفسير ظهور بعض القيم أو ثباتها. فقد فُسر انتشار الأسرة المونوجامية (الزواج بزوجة واحدة) فى وقت من الأوقات على أنه استجابة لمقتضيات الفطرة والغريزة، ثم تبين فيما بعد أن الأسرة بهذا الوضع ليست سوى نمط من الأنماط المتعددة التى تشكلت بها فى تاريخها الطويل. وفُسرت كثير من الدوافع التى يقوم عليها الزواج فى الأسرة الحديثة بأنها من وحى الطبيعة لكن كثيراً من البحوث الحديثة أوضحت أنها ليست إلا من وحى حياتنا الاجتماعية الحاضرة التى تضخم النزعات الفردية على حساب مقتضيات التكامل الاجتماعى. فالجاذبية الجنسية مثلا التى تتدخل بشكل واضح فى اختيار الزوج لزوجه فى الأسرة الحديثة لم يكن لها هذا الشأن دائماً فى سائر النظم الاجتماعية. بل كان ما يؤهل المرأة للزواج فى كثير من المجتمعات

البدائية مكانتها وامتيازاتها الاجتماعية وألقابها وأهمية هذه الألقاب J.B. Maller) 1938) . كذلك فسر الاقتصاديون فى أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميل إلى الربح من المشروعات التجارية والصناعية الذى كان أقوى دافع وراء النهضة الصناعية فى أوربا بأنه فطرى فى الإنسان حيثما وجد. لكن بحوث مالينوفسكى فى سيكولوجية العمل لدى البدائيين أوضحت مدى نسبية هذا الرأى. فالربح كقيمة لا يكاد يدفع أحداً من أبناء القبائل البدائية إلى العمل . ولكن ليس صحيحاً ما رتبه بعض الكتاب على ذلك من القول بأن هؤلاء البدائيين كسالى خاملون بطبيعتهم أو بحكم ظروفهم الطبيعية . فالواقع أنهم ذوو قدرات فائقة على العمل المتصل ؛ على شريطة أن يكون الدافع إليه واجباً تحتمه بعض معايير القبيلة . أما هذا الحكم عليهم بالخمول فمصدره أننا نحاول أن نطبق عليهم المعايير التى نتعامل نحن بها من خلال نظامنا الاجتماعى الاقتصادى الراهن . (B. Malinowsky 1932, p. 156) .

على ضوء هذه البحوث وأمثالها نستطيع أن نعمق فكرتنا التى قدمناها فى القسم الأول من هذا البحث على سبيل المقارنة بين الجماعات البشرية والتجمعات تحت البشرية ، وذلك بقولنا إن نمط الجماعات البشرية متطور دون أن يكون هذا التطور مشروطاً بتغيرات عضوية فى الأفراد، وهو ما لا مثيل له فى التجمعات تحت البشرية . وفى ذلك يقول جوليان هكسلى J. Huxley : فى عصر كارليل كان المعروف عن الألمان أنهم ذوو ميول سلمية وفلسفية وموسيقية وفردية ، حتى إذا وقعت الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ أصبحوا عسكريين متهورين ، ثم إذا بهم فى عام ١٩٤٣ يعبدون الدولة ويتحمسون لها إلى درجة الجنون . فهل تغيرت أصولهم التكوينية بهذه السرعة ؟ كلا . ولكن تغير الجو الاجتماعى الذى يعيشون فيه (J. Huxley 1943, p. 113) .

٢ – إلى جانب البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية أجريت عدة بحوث تجريبية تابعة لميدان علم النفس الاجتماعى، للكشف عن مدى مطاوعة الشخصية

أيضاً . وقد استعان الباحثون فيها بعدد من المناهج المختلفة . ويمكن تلخيص أهم هذه المناهج فى منهجين : أحدهما يتمثل فى انتقاء عينة من الأفراد تحيا فى ظل بعض الظروف الاجتماعية المماثلة ، ومحاولة تتبع بعض جوانب الشخصية لدى هؤلاء الأفراد (كالذكاء مثلا وهذا هو الحادث فى معظم البحوث) بالاختبارات والمقاييس المختلفة لتحديد المستوى الذى تبلغه هذه الجوانب فى تحققها من خلال هذه الظروف . ثم اختيار عينات أخرى تحيا فى ظل ظروف اجتماعية أخرى محددة ، ومحاولة تتبع جوانب الشخصية لدى أفراد هذه العينات على النحو السابق ، والمقارنة بين النتيجتين ، مع افتراض الارتباط بين الاختلافات السيكولوجية وأوجه الاختلاف فى الظروف الاجتماعية بين أفراد العينات .

والمنهج الآخر يتمثل فى تثبيت العوامل الوراثية ثم الربط بين تغيرات الشخصية وتغيرات البيئة الاجتماعية . ويكون ذلك بدراسة التوائم المماثلين[1] (حيث الخصائص الوراثية مماثلة إلى حد كبير) المنشأين فى بيئات اجتماعية مختلفة .

ويشير نيومان M. Newman إلى إمكان الإفادة من منهج ثالث ، يتمثل فى تثبيت أثر البيئة ، وذلك بالمقارنة بين التوائم غير المماثلين[2] وبين الإخوة العاديين . ولما كنا نعلم أن البيئة فى حالة التوائم غير المماثلين واحدة إلى حد كبير (إذ يوجدان معاً فى وقت واحد داخل الرحم) ، بينما هى مختلفة فى حالة الإخوة غير التوائم ، ولما كنا نعلم من جهة أخرى أنه لا يوجد تماثل وراثى بين التوائم غير المماثلين إلا بقدر ما يوجد بين الإخوة غير التوائم ، فإن التشابه الذى قد نجده بين التوائم غير المماثلين إذ نقارن بينهم وبين الإخوة العاديين يمكن إرجاعه بدرجة كبيرة من الصدق إلى أثر البيئة الواحدة . كما أننا نستطيع أن نقارن كذلك بين توأمين غير مماثلين ظلا بعد الولادة يعيشان فى بيئة واحدة ، وبين أخوين غير توأمين افترقا بعد الولادة مباشرة ونشأ كل منهما فى بيئة مختلفة (M. Newman 1946) .

---

(١) identical twins

(٢) fraternal twins

غير أن هذا المنهج الأخير لا يزال فى حاجة إلى تطبيقات تظهر مدى كفاءته .

ويرى لاپيير وفارنزورت أن المنهج الثانى الذى يتمثل فى ملاحظة الآثار المترتبة على تنشئة «التوأمين المماثلين» فى بيئتين مختلفتين هو أهم المناهج المستخدمة فى هذا الموضوع . ويمكن الركون إلى نتائجه بدرجة كبيرة من اليقين . لكنهما يثيران الشكوك فى القيمة الموضوعية للمنهج الأول (R.T. La Piere & P.R. Farnsworth 1942, p. 390)

على أننا لا نتفق معهما فى إثارة هذه الشكوك ، وكل ما نراه من اعتراضات إنما هى اعتراضات مؤقتة تتلخص فى ضرورة المضى قدما فى سبيل زيادة تحليل البيئة إلى عدد أكبر من المتغيرات حتى يمكن الوصول إلى نتائج أكثر دقة وثباتا ، كما أنه لابد من الاهتمام بكثير من جوانب الشخصية التى لا تزال تلقى الإغفال ، رغم وضوح أهميتها فى عملية التكامل الاجتماعى . فى محاولة الباحثين أن يثبتوا بعض متغيرات البيئة نجدهم يتحدثون أحياناً عن البيئة « الاجتماعية الاقتصادية » للشخص ، ويعنون بذلك مستوى دخل الأسرة غالباً فى ظل نظام معين من الأثمان لكنهم يتحدثون أحياناً أخرى عن مهنة الشخص أو مهنة الأب ، ويبدو من النتائج التى يحصلون عليها أن هناك نوعاً من التماثل فى هذه النتائج ، فأبناء ذوى المهن الفنية العليا يكونون على درجة عالية من الذكاء ، فى حين يكون أبناء العمال غير الفنيين على درجة منخفضة من الذكاء ، وكذلك يبدو أن أبناء الأسر ذات الدخل المرتفع يكونون على درجة عالية من الذكاء بالنسبة لأبناء الأسر ذات الدخل المنخفض . ومع ذلك فنحن نعلم أن المهن الفنية العالية لا تعنى دائماً دخلاً مرتفعا ، كما أن المهن اليدوية لا تعنى دائماً دخلاً منخفضا. فما هى العلاقة بين هذين المتغيرين ، « دخل الأسرة » و « مهنة الأب أو الشخص » ؟ لا نزال بحاجة إلى توضيح جوانب هذه المشكلة ، وهل يصلح « دخل الأسرة » أن يعتبر متغيراً قائماً هكذا ، أم أنه لابد من تحليله إلى متغيرات أبسط منه ؟ وقد أشرنا فى موضع سابق إلى بعض البحوث التى أجريت على نظام تناول الأجر وما لهذا النظام من تأثير فى سيكولوجية الأفراد . كذلك لابد من الإشارة إلى أن

بعض البحوث الحديثة بدأت تلقى الضوء على تفاوت جوانب الشخصية فى تأثرها بعوامل البيئة الاجتماعية، وهذه النتائج لا تزال بحاجة إلى مزيد من التعميق. (G. Murphy & others 1937, p. 43; R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 32) على أننا كما قلنا من قبل، برغم هذه الاعتراضات جميعاً، نستطيع أن نعمق فهمنا لمطاوعة الشخصية – إلى حد ما – من خلال البحوث القائمة فعلاً.

يقول جاردنر مورفى إن آثار التطبيع الاجتماعى تصل إلى درجة كبيرة من العمق فى الشخصية، حتى إن كثيراً من التقارير التى تذاع عن الفوارق العنصرية من حيث العوامل الفيزيولوجية والغدية بوجه خاص تبدو فى ضوء الدراسات التجريبية المدققة أثراً من آثار الحضارة السائدة. ومن الملاحظات المعروفة أن الرجل الأبيض عندما يذهب إلى الصين ينخفض ضغط الدم لديه حتى يقارب متوسط ضغط الدم عند الصينيين (وهو منخفض نسبيًّا عادة)، كما أن الطالب الصينى الذى يذهب إلى أمريكا يرتفع ضغط الدم لديه حتى يقارب المتوسط السائد عند الأمريكيين (وهو مرتفع نسبياً عادة) (G. Murphy & others 1937, p. 227) وتدل بعض البحوث على أن الفتيات الدانمركيات فى كوبنهاجن يتأخرن فى بدء سن البلوغ عن الفتيات فى شعوب البحر الأبيض المتوسط فى روما. ويترتب على ذلك طبعاً اختلافات واضحة فى ارتقاء السلوك الاجتماعى لدى الفريقين، ويلاحظ أن هذه البحوث نفسها تدل على أن هذه الاختلافات الفيزيولوجية ليست ثابتة فى وجه جميع الظروف الخارجية؛ فقد تبين أن هذه الفوارق تقل بشكل ملحوظ بين الفتيات الدانمركيات والفتيات الإيطاليات اللاتى يعشن معاً فى الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا تغيرت الفوارق العنصرية تحت ضغط الظروف البيئية. وأجرى كلينبرج O. Klineberg عدداً من الاختبارات على مجموعة من الصبيان تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثالثة عشرة للنظر فى مدى ثبات الذكاء وجوانب أخرى من الشخصية فى بضع سلالات مختلفة. وقد انتخب الأفراد مادة البحث

على أساس الصفات الجسدية التى يقررها الأنثروبولوجيين الطبيعيون للسلالات المختلفة فى أوربا ، وأهم هذه السلالات النوردى والألبى وشعوب البحر الأبيض المتوسط . وراعى كذلك أن يكون بعضهم من سكان المدن والبعض من سكان الريف . فانتهى إلى النتائج الآتية :

١ — وجود فوارق سيكولوجية واضحة بين سكان المدن بوجه عام (روما وباريس وهامبورج) وبين سكان الريف بوجه عام .

٢ — أما بين سكان المدن أنفسهم فليس ثمة فوارق ملحوظة .

٣ — ليس ثمة اختلافات سيكولوجية واضحة مستقرة بين أبناء السلالات المختلفة .

٤ — لا يمكن أن نستنتج ببساطة أن العامل الرئيسى هو اختلاف « إطار الحضارة القومية » . ذلك أن الصبيان الفرنسيين مثلا كان بينهم فوارق ملحوظة مع أنهم أبناء قومية واحدة . (ibid.pp. 58-67) ويلاحظ أن النتيجة الأخيرة تشير إلى ضرورة تحليل « الحضارة القومية » إلى عدد من المتغيرات أبسط منها .

وفى بحث آخر أجراه كلينبرج انتهى إلى نفس الحقيقة العامة ولكن من طريق آخر . فقد تناول ٤٢٥ صبيًّا زنجيا فى حوالى الثانية عشرة ، (ممن يقيمون فى نيو أورليانز)، قسمهم إلى عدة مجموعات تبعاً لقدوم كل مجموعة إلى المدينة (من الريف) ومدة بقائها فيها ، أو أن يكون بعضهم قد ولد فى المدينة وقضى عمره كله فيها . وبتطبيق اختبار الذكاء القومى National Intell. Test عليهم تبين أن لبيئة المدينة أثراً واضحاً ، يزداد وضوحاً كلما طالت مدة إقامة الشخص فيها . فالذين قضوا فيها أقل من سنة كانوا يصلون فى تقديرهم إلى ٤٠ ، بينما كان المولودون فيها يصلون إلى ٧٥ . وفى تعليق مورفى على هذه النتيجة يقول إنها تقوم حجة ضد القائلين بأن أهل المدينة أذكى من أهل الريف لا لشىء إلا لأن ذوى الذكاء الوراثى المرتفع هم الذين تجتذبهم بيئة المدينة (ibid. p. 64) .

ويستنتج مورفى من هذه البحوث وأمثالها أن التعبيرات الانفعالية ، والقدرة على النمو العقلى من الجوانب المطاوعة فى الشخصية ، التى تتحدد تبعاً لعوامل حضارية (ibid.pp. 68, 153) . ويستطرد فى موضع آخر فيقول إنه حتى الأسس العميقة للعمليات الكيميائية العضوية فى الفرد لا تقتصر على أن تعكس مجموعة من الخصائص الوراثية بل إنها لتعكس كذلك خصائص العالم الاجتماعى الذى نعيش فيه . فالعالم الاجتماعى لا يتضمن ثنائية ما ، كأن يكون فى حقيقته عالمين أحدهما بيولوجى والآخر حضارى ، بل هو عالم واحد . ونحن مضطرون — فى سبيل الإيضاح فحسب — أن نقسم موضوعنا إلى مستويات (كيميائى وبيولوجى واجتماعى) ، ولكن ينبغى ألا ينسينا ذلك وحدة الكائن (ibid. p. 22) . وهذا ما يقرره أليسون داڤيز A. Davis أيضًا ، إذ يقول إن الحاجات الكيميائية العضوية للكائن البشرى لا تعبر عن نفسها إلا فى نظام اجتماعى. وأيًّا ما كان الجانب السلوكى الذى يفحصه الباحث فإن صورته التى يظهر عليها هى دائماً من نتائج البيئة الحضارية التى تؤثر بطرقها الخاصة فى الفرد . وليس ثمة حافز ولا مطلب بيوكيميائى ولا حاجة تستطيع أن تفر من هذه العملية ، عملية التوجيه الاجتماعى من حيث الصورة أو الزمن أو الشروط التى لابد من توفرها لظهورها . (A. Davis 1943)

ومن أوضح الأمثلة التى تهم الباحث فى علم النفس الاجتماعى فيما يتعلق بنفوذ آثار البيئة الاجتماعية إلى سير التفاعلات الكيميائية العضوية فينا ما نعلمه من أن انفعال الخوف الشديد الذى قد نعانيه فى أى موقف اجتماعى يمكن أن يؤثر فى نشاط الغدة الدرقية [1] تأثيراً يبقى لمدد متفاوتة . ومن المعلوم أن زيادة إفراز الغدة الدرقية يعود فينعكس على سلوكنا الاجتماعى بأن يؤدى إلى خفض العتبات الخاصة بالاستجابات الانفعالية ، كما أن الخلل بنقصان الإفرازات يرفع هذه

---

(١) thyroid gland

العتبات كما هو واضح فى حالات الخُدرة(١) والسبات(٢) . كذلك مسألة إيقاع بعض الحوافز كالجوع والعطش ، وانتظام هذا الإيقاع فى دورات معينة، يمكن القول بأنه يرجع من ناحية إلى التراكم التدريجى لبعض المواد فى بعض الأنسجة، أو إلى النقص التدريجى لمادة معينة كالماء أو الأوكسيجين ، لكنه من ناحية أخرى لا يمكن تصوره مستقلا عن البيئة الخارجية ، بل هو متغير ومتكيف تبعاً لظروفها . فالدورة الإيقاعية لظهور الانقباضات فى جدران المعدة مثلاً تتوقف على خبرة الشخص ومرانه . فكما أن الشخص يكيف طريقة إشباعه لحوافزه تبعاً لظروف بيئته كذلك نجده يكيف إيقاع هذه الحوافز تبعاً لظروفه (G. Murphy & others 1937, pp. 791, 225)

كذلك تبدو مطاوعة الشخصية وتشكلها تبعاً لمؤثرات البيئة الاجتماعية من خلال البحوث الكثيرة التى أجريت فى توضيح الارتباط بين الذكاء والبيئة الاجتماعية الاقتصادية ، أو بين الذكاء والوضع المهنى . فقد لاحظ ترمان L.M. Terman فى دراساته على الأطفال الموهوبين ازدياد نسبة الاستعدادات الممتازة فى الجماعات الاقتصادية العليا عنها فى الجماعات الاقتصادية الدنيا. (O. Klineberg 1947, p. 240). كما أثبت كل من فرير D. Fryer وستوك S.M. Stoke وليمان H.C. Lehman وكاتل R.B. Cattell وجود تضايف بين نسبة الذكاء وبين المركز الاجتماعى للفرد. كما أثبت برسى S.L. Pressy وهاجرتى M.E. Haggerty وناش H.B. Nash وكولنز J.E. Collins وجود ارتباط بين ذكاء الأطفال والمركز الاجتماعى للآباء . (R.B. Cattell 1945 'a') كذلك وجد كولنز J.E. Collins بعض التجانس بين درجات ذكاء الأفراد فى الأسرة الواحدة . فمتوسط نسبة الذكاء فى أسرات أصحاب المهن الفنية العالية حوالى ١١٦ ، وفى أسرات العمال الفنيين ١٠٤ ، وفى أسرات العمال غير الفنيين ٩٥ . فإذا أخذنا برأى فريمن F.N. Freeman القائل بأن البيئة

---

(١) torpidity
(٢) lethargy

الأفضل تستطيع أن ترفع نسبة الذكاء بشكل ملحوظ (١٠ درجات تقريباً
فمن الواضح إذاً أن البيئة الاجتماعية على جانب كبير من الأهمية فى التقريب
بين أرفع نسبة للذكاء وأقل نسبة. وتلك مسألة على جانب كبير من الأهمية من الناحية
الاجتماعية (G. Murphy & others 1937, p. 47). ويفرق نيومان H.H. Newman
كما ذكرنا من قبل بين أثر البيئة الاجتماعية بوجه عام فى الشخصية ، وأثر التربية
فيها . ويقول إن الحديث فى أثر البيئة أصعب من الحديث فى أثر التربية المدرسية ،
لأن التربية المدرسية يمكن حسابها على أساس عدد السنوات المدرسية التى يفوز
بها الأشخاص ، وبذلك تمكننا من المقارنة . ويرى أن الوسيلة التى يجب الاستعانة
بها لتبين أثر البيئة هى دراسة حالات فردية دراسة استقصائية تتبعية . وفى
دراسة قام بها هذا الباحث ، بالاشتراك مع فريمان وهولزنجر K.J. Holzinger عقد
فيها مقارنات بين ٥٠ زوجا من التوائم المتماثلين المنشأين فى بيئة واحدة و ٢٠ زوجاً
من التوائم المتماثلين المنشأين فى بيئات مختلفة ، انتهى إلى النتيجة الآتية :

متوسط الفرق فى مقياس الذكاء (استنفورد — بينيه) فى حالة التوائم المنشأين
معاً فى بيئة واحدة لا تزيد على ٣ , ٥ . I. Q فى حين أن الفوارق فى حالة
التوائم المنشأين فى بيئات مختلفة ٢ , ٨ فى المتوسط .

أما الفوارق بين أنماط الشخصية فتكشف بشكل واضح عن أثر البيئة ،
أكثر مما تكشف عنه أية فوارق أخرى. (H.H. Newman 1947) وفى دراسة استقصائية
يقدم لنا الباحث بعض النماذج من آثار البيئة فى التوائم على النحو الآتى :

(ا) حالة ميلدرد وروث : فميلدرد تبناها مدير أحد البنوك وهو فى الوقت
نفسه عمدة لمدينة متوسطة . كان الرجل على جانب كبير من الثقافة ، وكان بيته
ملتقى لجماعة من المثقفين ، وقد اشتركت ميلدرد فى هذا الجو ، أما أختها التوأم
روث فقد تبناها رجل قليل الحظ من الثقافة ، يعمل كرئيس لعدد من العمال ،
وقد حرصت زوجته على أن تبعد روث عن صديقاتها الصغار وألزمتها بالبقاء فى
البيت بعد انقضاء اليوم المدرسى تلعب بالدمى وحدها . وقد اختبرت الأختان

بمعظم اختبارات الشخصية ، فكانت النتائج كما يلى :

١ — روث شخصية مكبوتة ، خجولة ، غير واثقة بنفسها ، ساكنة ، ذات لثغة فى نطقها ، وتعبير بالتعاسة على وجهها . أما ميلدرد فقد كانت أكثر ثقة بنفسها ، غير مضطربة ، كثيرة الكلام ، ذات تعبير على وجهها ينم عن السعادة وليس فى نطقها ما يعيبه .

٢ — ومن الجدير بالذكر هنا أن الأختين لقيتا حظًّا متماثلا من التربيــة المدرسية ، ومع ذلك فإنهما عندما اختبرتا ببعض اختبارات الذكاء كانت النتائج على النحو الآتى : فى حالة اختبار ستانفورد بينيه وأوتس حصلت ميلدرد على ١٥ نقطة أعلى مما حصلت عليه روث .

(ب) حالة التوأمتين مارى ومابل : اختلف حظهما من التربيــة ، واختلفت بيئاتهما الاجتماعية اختلافا واضحا كذلك . فقد عاشت مارى كل حياتها فى المدينة تكرس وقتها للدراسة الموسيقى وتدريسها . أما مابل فقد عاشت فى مزرعة كبيرة وكانت تشترك فى جميع أعمال المزرعة . وقد أجريت عليهما معظم اختبارات الشخصية وكان عمرهما ٢٩ سنة وقت إجراء هذه الاختبارات . فتبين أن بينهما اختلافات كبيرة فى نمطى الشخصية .

فكانت مابل بطيئة الانفعال (لفاوية المزاج) [١] . وكانت كذلك عدوانية قليلة المخاوف ، ولا تكاد تهتم للألفاظ النابية . وكانت تمشى كأنها رجل . أما مارى فكانت أكثر استعداداً للإثارة وأسرع إلى الاستجابة ، وكانت أكثر أنوثة فى مشيتها وعاداتها . كذلك كانت نسبة الذكاء لدى مارى حسب مقياس سانفورد بينيه ١٠٦ .I.Q ولدى مابل ٨٩ .I.Q .

أما فيما يتعلق بأثر التربية كتغير مستقل ، فنورد الأمثلة الآتية ، من دراسات نيومان أيضا :

(حـ) حالة جلاديس وهيلين : توقفت جلاديس عن الاستمرار فى الدراسة

---

(١) phlegmatic

قبل أن تتمها (وذلك بعد السنة الثالثة) . أما هيلين فقد استمرت حتى أصبحت مدرسة . وعلى ذلك تكون هيلين قد حصلت على ١٣ سنة من الانتظام المدرسى زيادة عما حصلت عليه أختها . وقد اختبرت الأختان بالاختبارات الآتية :

اختبار ستانفورد بينيه ، فحصلت هيلين على I.Q. ١١٦ فى حين حصلت جلاديس على I.Q. ٩٢ . واختبار أوتس فحصلت هيلين على I.Q. ١٠٦ فى حين حصلت جلاديس على I.Q. ٩٤ والاختبار الدولى فحصلت هيلين على ١٨٨ درجة فى حين حصلت جلاديس على ١٤٣ درجة واختبار ستانفورد للتحصيل[1] فحصلت هيلين على عمر عقلى مقداره ١٨ سنة و١٠ شهور . بينما حصلت جلاديس على عمر عقلى مقداره ١٣ سنة و١ شهر .

(د) حالة جيمس وريس : أكمل جيمس تعليمه حتى الدراسة العالية ، فى مدينة صغيرة ، فى حين التحق ريس بمدرسة أولية فى الجبال لم تكن تفتح أبوابها لأكثر من خمسة أشهر فى السنة . وقد التحق عندما رغب فى الالتحاق ، ثم انقطع بعد قليل . وقد اختبر التوأمان بالاختبارات التالية :

اختبار ستانفورد بينيه ، فحصل جيمس على I.Q. ٩٦ بينما حصل ريس على I.Q. ٧٧ . واختبار أوتس ، فحصل جيمس على I.Q. ١٠٤ بينما حصل ريس على I.Q. ٨٤ . والاختبار الدولى ، فحصل جيمس على ١٢٤ درجة وحصل ريس على ٨٩ درجة . واختبار ستانفورد للتحصيل ، فحصل جيمس على عمر عقلى مقداره ١٦ سنة . بينما حصل ريس على عمر عقلى مقداره ١٣ سنة و١ شهر .

(هـ) حالة إلينور وجورجيانا : توقفت إلينور عن الدراسة فى نهاية السنة الخامسة . فى حين أتمت جورجيانا الدراسة الأولية والثانوية وقضت ثلاث سنوات فى مدرسة المعلمات . أى أن جورجيانا فازت بعشر سنوات من التعليم أكثر مما فازت به إلينور . وقد اختبرت التوأمتان بالاختبارات الآتية :

---

(١) achievement test

اختبار ستانفورد بينيه فحصلت جورجيانا على I. Q. ٧٨ وحصلت إلينور على I.Q. ٦٦ واختبار أوتس فحصلت جورجيانا على I.Q. ٨٤ وحصلت إلينور على I.Q. ٦٩ واختبار ستنفورد للتحصيل، فحصلت جورجيانا على عمر عقلى مقداره ١٤سنة و ١شهر. بينما حصلت إلينور على عمر عقلى مقداره ١٠سنوات و ١١شهر. ومن الجلى أن دلائل مطاوعة الشخصية واضحة فى هذه الاختلافات العميقة التى تبدو بين شخصيات التوائم فى مختلف جوانبها رغم الاتفاق فى الخصائص الموروثة. ويهمنا بوجه خاص أن نلخص النتائج التى انتهى إليها نيومان من عرض الحالات الثلاثة الأخيرة وحالات أخرى مماثلة، فيما يتعلق بأثر التربية فى مستوى الذكاء. وهذه النتائج هى :

١ ــ أن القدرات الذهنية يمكن أن تتحسن إلى حد ما بوساطة التربية.

٢ ــ فى كل حالة من الحالات الثلاثة السابقة يقرر أنه لولا الفرق فى التربية لاستطاع التوأم المتأخر أن يبلغ ما بلغه التوأم المتقدم، وذلك لأن الإمكانيات الموروثة فى التوأمين متساوية.

٣ ــ لو أن الاختلافات فى حظ كل من التربية كانت أكبر مما رأينا فى الأمثلة السابقة لكانت الفوارق فى نسب الذكاء أكبر هى الأخرى. وعلى ذلك فنسبة الذكاء لا تنفرد الوراثة بتحديدها، لكنها إمكانية مطاوعة قد ترتفع أو تنخفض عدة نقاط تبعاً لطراز التربية ومقدارها.

٤ ــ الاختلافات الطفيفة فى التربية لا تحدث فارقاً يستحق الذكر فى القدرات العقلية (H.H. Newman 1947).

ومن البحوث التى تكشف أيضاً عن مطاوعة الشخصية تجارب بارتلت فى التذكر، إذ تعتبر من المحاولات الممتازة للكشف عن العوامل الاجتماعية فى تشكيل عملية التذكر. وقد امتدت جهوده فى هذا السبيل مدى عشرين سنه. وتبين

أن المشكلات التى كانت تواجه الأشخاص موضوع تجاربه كانت تؤثر فى إدراكهم وفى تذكرهم . وأن ما يؤثر فى إدراك الموقف الراهن بإبراز أحد جوانبه يؤثر كذلك فى تذكر هذا الموقف . ولاحظ كذلك خلال بحثه فى التذكر عند البدائيين أن هذه العملية وعملية الإدراك مشروطتان بالاهتمامات الحضارية للجماعة (G. Murphy & others 1937, p. 222). كذلك تعتبر تجارب شريف M. Sherif ذات أهمية بالغة فى الكشف عن أثر الحياة الاجتماعية فى عمليات الإدراك . وقد أوضح أن كل مدرك فى العالم الاجتماعى يعتمد على إطار معين لتعيين دلالته . وهذا الإطار يرجع تكوينياً إلى عدد من الأطر المبكرة . ومن النتائج التجريبية التى توصل إليها عن أثر الإطار الاجتماعى فى الإدراك ما شاهده عند أفراد قبائل التروبرياند من أنهم يقررون أن الأبناء يشبهون الآباء لكنهم لا يشبهون بعضهم بعضا ، وعلى أساس هذه الفكرة العامة لا يرون أى تشابه بين الإخوة مع أن الباحث الأنثروبولوجى الاجتماعى يدهش لشدة التشابه بينهم (ibid. p. 220) .

كذلك نستطيع أن نفيد من بعض الدراسات الإكلينيكية فى تعميق مفهوم مطاوعة الشخصية ؛ ففى دراسة قام بها هنت Mc V. Hunt . J نجده يتتبع نشوء بعض أنواع الذهان (النواب)[1] من خلال مجموعة من الظروف النفسية الاجتماعية المحيطة بعدد من الشبان (J. Mc V. Hunt 1949) ومن الجدير بالذكر أن التعليل التقليدى للنواب كان يعتمد على القول باستعدادات وراثية ، لكن الرأى السائد الآن هو أنه لابد من ظروف اجتماعية حادة لكى يتخذ هذا الاستعداد هذه الصورة المرضية . ومن أهم هذه الظروف فقدان المحبوب أو الحرمان الشديد (J.F. Brown 1940, p. 326).

وقد أورد بولبى J. Bowlby موجزاً لعدد كبير من الدراسات التى قام بها باحثون فى عدد كبير من الدول ، تدور كلها حول أثر بعض الخبرات الطفولية الحادة فى تشكيل الشخصية ومدى قابلية الشخصية للتشكل ، لا سيا فى سنوات

---

(١) manic-depressive psychosis

الطفولة المبكرة ، تحت وطأة هذه الخبرات . وأوضح بكثير من الأدلة كيف أن الانحرافات السلوكية الناتجة مترتبة على التغيرات العنيفة فى البيئة وليست نتيجة خصائص وراثية معينة (J. Bowlby 1951) . كذلك أوضح مالينوفسكى ببحوثه فى قبائل التروبرياند أن نظام الأسرة والنظام الاجتماعى بوجه عام يحددان شكل الصراعات والتعقيدات التى تظهر فى الشخصية . ومن الأمثلة الموضحة لهذه الحقيقة أنه فى مجتمع أمومى [1] كقبائل التروبرياند نجد أن التجاذب الجنسى المكبوت يكون غالباً بين الأخ وأخته أكثر منه بين الأم وابنها كما أن البغض المكبوت يقوم غالباً بين الولد وخاله أكثر منه بين الولد وأبيه (J. Gillin 1949) ومن ذلك يتضح أن النمط الذى يقرره فرويد لعقدة أوديب وليد نظامنا الحضارى ونظام الأسرة فيه . ويرى جون جيلين أن معرفة البيئة الحضارية الاجتماعية للشخصية شرط ضرورى لفهم طرازها السوى وأمراضها . ذلك أنه حتى فى حالات الذهانيين نجد أن معظم مضمون الشخصية مستمد من البيئة الحضارية الاجتماعية. ومن ثم فإنه فى الحالات التى يرجى شفاؤها ينبغى على الطبيب المعالج أن يتفهم جيداً تلك المركبات الحضارية التى امتصها المريض قبل أن يمرض .

وتشير بعض البحوث إلى الفرق بين درجة مطاوعة جوانب الشخصية المختلفة فى تشكلها تبعاً لمؤثرات البيئة . وهى بوجه عام تشير إلى أن مستوى الذكاء أقل مطاوعة من كثير من جوانب الشخصية الأخرى. وتدل بعض البحوث التى أجريت على الأطفال على أن أقل الجوانب تأثراً بتغيرات البيئة جانب الارتقاء العضلى العصبى كما يتجلى فى المشى وسائر ضروب النشاط الحركى والمهارة اليدوية . أما أسرع الجوانب تأثراً فهو الكلام والقدرة التعبيرية . وفى الوسط بين أقل الجوانب وأكثرها تأثراً تقع الاستجابات الاجتماعية (J. Bowlby 1951, p. 20)

هذه البحوث متجمعة تلقى أضواءلا بأس بها على مفهوم مطاوعة الشخصية .

---

(١) matriarchal

ومن الجلى – رغم أن هذه البحوث لا تزال ضيقة النطاق وبحاجة إلى كثير من التوسع والصقل المنهجى – أن هذه المطاوعة شديدة، ولو أننا لا نستطيع أن نقرر أنها لا نهائية[١] . ومن هنا نستطيع أن ندرك أحد الأسباب الهامة فى تحقيق هذا المستوى من التكامل الاجتماعى فى المجتمع البشرى . فهذه المطاوعة تتيح للمجتمع من ناحية أن يشكل الشخصية – إلى حد كبير – بحيث يصنع منها النمط الذى يلائم نظامه وظروفه التاريخية ،ويجد أعظم الفرص لذلك فى ازدياد هذه المطاوعة فى فترة الطفولة بوجه خاص ، وطول مدة هذه الفترة بشكل لا مثيل له فى المستويات تحت البشرية . ثم إن هذه المطاوعة نفسها تتيح للشخصية فى المجتمع أن تغير من سلوكها من حين لآخر بما يلائم مقتضيات المواقف الاجتماعية المختلفة ، ومطالب الغير .

على أننا لا نستطيع أن نقتصر فى فهمنا لخاصية المطاوعة فى الشخصية على كونها صفة فطرية يحددها المستوى التطورى للإنسان . فهذا الفهم لا يكفى . بل يلزمنا أن نفهمها بصورة أكثر دينامية ؛ فهى تتأثر بمواقف الحياة المختلفة التى يجتازها الشخص ، ومن هذه المواقف ما يقلل من كفاءتها إلى حد كبير ويطبع الشخصية بطابع التصلب والتحجر . من هذا القبيل مواقف الإحباط الشديد وجميع المواقف المشحونة بالتوترات . فإذا صادفت الشخصية هذه المواقف بشكل متكرر ، وإذا كانت هذه المواقف شديدة الوطأة دائماً كأن تهدد أمن الشخص وطمأنينته أو تكون منذرة إياه بالحرمان من مصدر هام من مصادر شبعه ورضاه ، فالنتيجة شخصية متحجرة إلى حد كبير .

فضيق نطاق الحركة الحرة ، وتصلب البيئة الاجتماعية بوجه عام ، وعدم استقرارها ، والصراع العميق بين قيمها ، من شأنها جميعاً أن تقلل من حظ الشخصية من المطاوعة والقدرة على التكيف . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم

---

(١) أوضحنا بعض حدود هذه المطاوعة بشىء من التفصيل ، فى بعض الفصول الأنتوجينية .

قول فرويد إن العصاب يجعل فريسته غير اجتماعية (S. Freud 1940, p. 124). ذلك أن البيئة التى تتمثل فيها هذه الصفات أو بعضها هى أخصب البيئات لاستثارة الأعراض العصابية .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تقرره هورنى K. Horney من أن أخص خصائص بيئتنا الحضارية الراهنة التناقضات السيكولوجية العميقة بين توجيهاتها (G. Murphy & others 1937, p. 365) ، وما يقرره مورفى من خصائص أخرى كالتنافس ، وعدم الاستقرار الاقتصادى ، والإلحاح على فكرة المركز الاجتماعى ، والتعبير العدوانى عن السلطة لدى الراشدين (ibid. p. 345) استطعنا أن نلقى بعض الضوء على أسباب التفكك الاجتماعى البالغ الخطورة فى مجتمعاتنا الحديثة .

والخلاصة أن توفر درجة عالية من مطاوعة الشخصية شرط لابد منه لتحقيق هذا المستوى البشرى الفريد من التكامل الاجتماعى . إلا أن هذه المطاوعة نفسها مشروطة بظروف البيئة وتاريخها .

خاتمة

على هذا النحو ينتهى البحث . وفيما يلى نوجز خطواته ونتائجه العامة .

ليس التكامل الاجتماعى مجرد « حالة » لكنه « عملية » . كما أنه ليس مجرد عملية تجرى فى مستوى واحد ، لكنه عملية تجرى فى عدة مستويات ارتقائية ، وتتشكل فى أنماط وقوالب تختلف باختلاف هذه المستويات . منذ تجمعات النمل والطيور والقردة العليا ، إلى أرقى الجماعات البشرية وأكثرها كفاءة . وقد تقدمنا نحو دراسة هذه العملية على أساس المنهج التكاملى الذى يتلخص فى تناول الموضوع بنظرتين أساسيتين : نظرة ارتقائية ، ونظرة شبكية . الأولى تتتبع ارتقاء أنماط التكامل منذ أدنى المستويات إلى أرقاها ، والثانية تتبع التفاعلات داخل كل مستوى لتكشف عن ديناميانه .

وقد قسمنا القسم الارتقائى من البحث إلى جزئين : جزء فيلوجينى يتتبع ارتقاء الظاهرة فى السلسلة الحيوانية من حيث خطوطها العامة فحسب . والغاية منه أن يزيد من قدرتنا على وضع الفروض العامة فيما يتعلق بتفسير الظاهرة . والجزء الآخر أنتوجينى ، يتتبع ارتقاء السلوك الاجتماعى لدى الفرد البشرى منذ الطفولة المبكرة حتى الرشد . أما القسم الشبكى فقد عمدنا فيه إلى تحليل عوامل التكامل الاجتماعى وشروطه ، كما تبدو من خلال المواقف الاجتماعية المختلفة . وعلى ضوء هذه الدراسة المتعددة الجوانب ، استطعنا أن نصل إلى مجموعة من النتائج تساهم فى إلقاء الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع .

فالتكامل الاجتماعى فى جميع مستوياته يتضمن التقارب ، والتفاعل ، وبعض مظاهر التنظيم . وقد أوضحنا كيف أنه فى المستويات الدنيا يكون مشروطاً مباشرة بشروط عضوية محددة ، وكلما ارتفع مستوى النمط اتسعت المسافة بينه وبين

هذه الشروط العضوية ، وأصبحت هـذه الشروط نفسها أكثر قابلية للتشكل .

وقد حرصنا فى الجزء الفيلوجينى على أن نوضح الصلة بين المستويات الارتقائية المختلفة للتكامل وبين نمو الجهاز العصبى وتغاير أعضاء هذا الجهاز ، وأوضحنا كيف أن تغاير اللحاء شرط لابد منه لتحقق المستويات العليا من التكامل الاجتماعى . فهو يعنى زيادة مطاوعة الكائن، وزيادة قابليته للتعلم والتشكل، وزيادة قدرته على التلقى عن الآخرين والاشتراك معهم فى تراث واحد . كما أنه يعنى توفر الشرط العضوى الضرورى لظهور الوظائف العقلية العليا كالتذكر والإبداع والوظيفة الرمزية (القائمة وراء اللغة) ودقة الإدراك (التى لابد منها لإتقان المحاكاة) .

كذلك أوضحنا — فى الجزء الفيلوجينى وما بعده — كيف أن التكامل الاجتماعى لا يعنى فقط الاستقرار الناجم عن اندماج أعضاء الجماعة وتشابه أنماطهم السلوكية ، لكنه يعنى كذلك تطور نمط التنظيم الناتج عن تغاير أعضاء الجماعة وتفاعلهم . وتبينا كيف أن توفر أعلى درجة من الاستقرار والتطور معاً لا يتحقق إلا فى أعلى مستويات التكامل ، أعنى فى الجماعات القائمة على تقسيم العمل الاجتماعى . أما فى المستويات الدنيا فلا يكاد يتوفر إلا أحد الطرفين وحده . ومن الجدير بالذكر أن صفة الاستقرار الذى يصل إلى حد الجمود هى الغالبة على التجمعات الحيوانية ، فى حين أن جماعات الأطفال (من الرابعة إلى الثامنة) تبدو كمجموعات من الأفراد يحتكون على السطح دون اندماج ولا استقرار . فأدنى مراتب التكامل من وجهة النظر الفيلوجينية يغلب عليها الاستقرار إلى درجة الجمود ، وأدنى المراتب من وجهة النظر الأنتوجينية يغلب عليها الإفراد إلى درجة التفكك تقريباً . لكن أعلى المراتب سواء نظرنا بنظرة فيلوجينية أم بنظرة أنتوجينية هى الجماعات البشرية التى يتوفر فيها الاستقرار الدينامى . تلك الجماعات التى تتيح الفرص لإظهار الفوارق الفردية ومن خلالها تتطور إلى أنماط جديدة ملائمة . وقد بينا فى الفصول الأنتوجينية الأساس العميق لهذه الحقيقة متمثلاً فى نمط

ارتقاء الشخصية، ذلك الارتقاء الذى يمضى دائماً — خلال الظروف السوية — فى شعبتين: إحداهما تتجه نحو زيادة الشعور بالإنية وزيادة استقلال الذات، والأخرى تتجه نحو زيادة الارتباط بالآخرين والاندماج فيهم. وقد عنينا بتوضيح كثير من تفاصيل الارتقاء فى هاتين الشعبتين فى مختلف مراحل النمو منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة، وذلك بالرجوع إلى مظاهر النمو والارتقاء المتعددة، ومن خلال تفاعلات الشخصية مع الجوانب الرئيسية فى مواقفها الاجتماعية، كما عنينا بتوضيح كيفية مساهمة هذا الارتقاء ذى الشعبتين فى الاقتراب بالشخصية النامية شيئاً فشيئا نحو العضوية الاجتماعية المستقرة والمتطورة فى آن معاً. ومن الجدير بالذكر أن ارتقاء جماعات الأطفال يمضى نحو زيادة الاستقرار والتغاير.

وقد زادت الفصول الشبكية هذه الحقائق تأكيداً وتوضيحا. ومن أهم النتائج التى أضافتها هذه الفصول الكشف عن أهمية « مواقف العمل معاً، فى مشروع واحد. ونحو هدف واحد » وذلك بالكشف عن ديناميتها.

وعلى ضوء هذه الدراسة يمكن القول بأن نمط التكامل الاجتماعى البشرى، هذا النمط الفريد، يرتكز أساساً على دعامتين:

إحداهما: هذا العجز الفطرى الشديد المتمثل لدى الوليد، وما يتبعه من مطاوعة عظيمة، وتلهف إلى التحصيل والتعبير — وهذا واضح فيما يختص باللغة — وشدة اعتماد على الآخرين، واستمرار هذا الاعتماد لمدة طويلة بشكل لا مثيل له فى أى مستوى من مستويات السلسلة الحيوانية.

والثانية: مواقف تقسيم العمل الاجتماعى، وما تنطوى عليه من ضرورة التواصل والتعاون، وتعميق الشعور بالحاجة إلى الآخرين.

هذه هى الخطوط العامة للبحث، خطواته الرئيسية ونتائجه فى أهم صورها. ولا جدال فى أننا قد تركنا بعض النقاط الغامضة، وبعض الثغرات التى لم نستطع أن نوفيها حقها من البحث والاستقصاء. وإذا كنا لا نستطيع الآن تجلية

هذه المسائل ، فإننا نرجو أن تصبح أسباباً لاستثارة الاهتمام الجدى العميق لدى غيرنا من الباحثين ، بالتفكير فى هذا الموضوع ، فما أشد حاجة المجتمعات الحاضرة ، فى أزمتها الحضارية الراهنة ، إلى زيادة الاستبصار بأسس التكامل الاجتماعى ، عسى أن تفيد من ذلك فى توجيه حياتها وجهة رشيدة .

مراجع البحث

Allee, W.C. Relatively Simple Animal Aggregations, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Alverdes, F. The Behavior of Mammalian Herds Packs, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Ames, L.B. Development of Interpersonal Smiling Responses in The Preschool Years, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Ames, L.B. The Sense of Self of Nursery School Children As Manifested by Their Verbal Behavior, *J. genet. Psychol.*, 1952, 81.

Ames, L.B. & Learned, J. Imaginary Companions and Related Phenomena, *J. genet. Psychol.*, 1946, 69.

Ames, L.B., Ilg, F., Learned. J. & Lockwood, A. The Three-and-a-half-year Old, *J. genet. Psychol.*, 1949, 75.

Anderson, H.H. Domination and Socially Integrative Behavior, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Bain, R. The Self-and-Other Words of A Child, *Amer. J. Sociol.*, 1936-41.

Bartlett, F.C. *Psychology and Primitive Culture*, Cambridge : University Press, 1923.

Benedict, R. *Patterns of Culture*, New York : Mentor Books, 1951.

Bergson, H. *Les Deux Source de La Morale et de La Religion*, Paris : Alcan, 1932.

Beveridge, W.I.B. *The Art of Scientific Investigation*, London : Heinemann, 2nd. ed., 1953.

Blumer, H. Science Without Concepts, *Amer. J. Sociol.*, 1931, 36.

Blumer, H. The Problem of The Concept in Social Psychology, *Amer. J. Sociol.*, 1940, 45.

Bowlby, J. *Maternal Care and Mental Health*, Geneva : WHO, 2nd. ed., 1954.

Briffault, R.B. Group Marriage and Sexual Communism, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Brown, J.F. *Psychology and The Social Order*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Brown, J.F. *Psychodynamics of Abnormal Behavior*, New York : McGraw-Hill, 1940.

Brown, J.F. The Theory of The Aggressive Urges and War-Time Behavior, *J. soc. Psychol.*, 1942, 15.

Bruhl, L.L. The Solidarity of The individual With His Group, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Buhler, C. *From Birth to Maturity*, London : Kegan Paul, 1937.

Buhler, C. *The Child and His Family*, London : Kegan Paul, 1940.

Cantril, H. Fublic Opinion in Flux, *Readings in Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : H. Holt, 1947.

Cattell, R.B. The Concept of Social Status, *J. soc. Psychol.*, 1942, 15.

Cattell, R.B. Fluctuation of Sentiments and Attitudes As a Measure of Character integration and Temperament. *Amer. J. Psychol.*, 1943, 46.

Cattell, R.B. (a) The Cultural Functions of Social Stratification; I. Regarding The Genetic Bases of Society, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Cattell, R.B. (b) The Cultural Functions of Social Stratification : Regarding Individual and Group Dynamics, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Collins, M. Modern Trends in Child Psychology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Cohen, J. Analysis of Psychological Fields, *Science News*, Penguin Books, 1949, 13.

Crawford, M.P. The Cooperative Solving by Chimpanzees of Problems Requiring Serial Responses to Color Cues, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Das, C. Some Notes On The Economic and Agricultural Life of A Little Known Tribe On The Eastern Frontiers of India, *Anthropos*, 1937, 32.

Dashiell, J.F. Experimental Studies of The Influence of Social Situations on The Behavior of Individual Human Adults, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University. Press, 1935.

Davis, A. Child Training and Social Class, *Child Behavior and Development*, R. Barker. J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Dennis, W. Does Culture Appreciably Affect Patterns of infant Behavior, *Readings in Social Psychology*, T.M. Newcomb &Others eds., New York : H. Holt, 1947.

Dewey, J. *Human Nature and Conduct*, New York : H. Holt, 1922.

Durkheim, E. *La Division. du Travail Social*, Paris : Alcan, 1926.

Embree, J.F. Thailand A Loosly Structured Social System, *Amer. Anthropologist*, 1950, 52.

Esper, E.A. Language, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Eysenck, H.J. *Uses and Abuses of Psychology*, London : Penguin Books, 1953.

Faris, E. The Primary Group : Essence and Accident, *Amer. J. Sociol.*, 1932, 37.

Farmer, E. The Study of Social Groups In Industry, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Festinger, L. Laboratory Experiments : The Role of Group Belongingness, *Experiments in Social Process*, J.C. Miller ed., New York : McGraw-Hill, 1950.

Fleming, C.M. *Adolescence*, London : Kegan Paul, 1945.

Flugel, J.C. *A Hundred Years of Psychology*, Andover : Duckworth, 1935.

Form, W.H. Toward An Occupational Social Psychology, *J. soc. Psychol.*, 1946, 24.

Freud, S. *Totem and Taboo*, The Basic Writings of S. Freud, A.A. Brill ed., New York : The Modern Library, 1938.

Freud, S. Why War, (A Letter Adressed to Prof. A. Einstein, Sept. 1932), *Civilization, War and Death*, J. Rickman ed., London : Hogarth Press, 1939.

Freud, S. *Group Psychology and The Analysis of The Ego*, E. Jones ed., London : The Hogarth Press, 1940.

Freud, S. *The Ego and The Id*, E. Jones ed., London : The Hogarth Press, 1942.

Friedman, H. Bird Societies, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison, London : Clark University Press, 1935.

Fulton, J.F. *Physiology of The Nervous System*, New York : Oxford University Press, 2nd. ed., 1945.

Gesell, A. & Ilg., F. *Infant and Child in The Culture of Today*, New York : Harper, 1943.

Gesell, A. & Ilg, F. *The Child From Five to Ten*, New York : Harper, 1946.

Gillin, J. Personality Formation From The Comparative Cultural Point of View, *Personality In Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn and H.A. Murray eds., New York : A.A. Knopf, 1949.

Ginsberg, M. The Problems and Methods of Sociology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Ginsberg, M. *Sosiology*, London : Home University Library, 1950.

Goodenough, F.L. *Developmental Psychology*, New York : D. Appleton, 1934.

Gorer, G. The Concept of National Character, *Science News*, Penguin Books, 1950, 18.

Gould, R. Some Sociological Determinants of Goal Strivings, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Guillaume, P. *L'Imitation Chez L'Anfant*, Paris : Alcan, 1925.

Gurvitch, G. *La Vocation Actuelle de La Sociologie*, Paris : Presses Universitaires de France, 1950.

Haldane, J.S. *The Philosophical Basis of Biology*, New York : D. Doran, 1931.

Hallowell, A.I. Acculturation Processes and Personality Changes, *Personality In Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn and H.A. Murray, New York : A. Knopf, 1949.

Henderson, D. & Gillespie, R.D. *A Text-Book of Psychiatry*, London: Oxford University Press, 7th. ed., 1950.

Herrick, C.J. A Biological Survey of Integrative Levels, *Philosophy For The Future*, R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Holcombe, A.N. The Foundations of The Modern Commonwealth, *Readings In Public Opinion*, W.B. Graves ed., New York : D. Appleton, 1928.

Hollingshead, A.B. Class Differences in Family Stability, *The Annals of The American Academy of Political and Social Science*, 1950, 272.

Hooton, E.A. *Up From The Ape*, New York : Macmillan, 2nd. ed., 1947.

Horrocks, J.E. & Thompson, G.G. A Study of The Friendship Fluctuations of Rural Boys and Girls. *J. genet. Psychol.*, 1946, 69.

Horrocks, J.E. & Thompson, G.G. A Study of The Frieneship Fluctuations of Urban Boys and Girls, *J. genet. Psychol.*, 1947, 70.

Horrocks, J.E. & Buker, M.E. A Study of The Friendship Fluctuations of Preadolescents, *J. genet. Psychol.*, 1951, 78.

Hunt, J. Mc V. An Instance of The Social Origin of Conflict Resulting in Psychoses, *Personality in Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn & H. Murray eds., New York : A.A. Knopf, 1949.

Hurlock, E. *Adolescent Development*, New York : McGraw-Hill, 1949.

Hurlock, E. *Child Development*, New York : McGraw-Hill, 2nd. ed., 1950.

Huxley, J. *The Uniqueness of Man*, London : Readers Union-Ch. & W., 1943.

Huxley, J., Wells, H.G. & Wells, G.P. *The Science of Life*, London : Cassell, 1938.

Irwin, O. The Activities of Newborn Infants, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Isaacs, S. *Social Development in Young Children*, London : Routledge, 1933.

Israeli, N. Gesell, A. and Ilg, F.L., Infant and Child In The Culture of Today, *J. genet. Psychol.*, 1945, 67.

James, W. T. Dominant and Sulmissive Behavior In Puppies As Indicated By Food Intake, *J. genet. Psychol.*, 1949, 75.

Jennings, H.H. A Sociometric Study of Emotional and Social Expansiveness, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Joussain, A. *Les Classes Sociales*, Paris : Presses Universitaires de France, Collection "Que Sais-je", 1949.

Kardiner, A. *The Psychological Frontiers of Society*, New York : Columbia University Press, 1945.

Katz, D. & Schanck, R.L. *Social Psychology*, New York : J. Wiley, 1947.

Kellog, W.N. & Kellog, L.A. *Le Singe et L'Enfant*, Paris : Libr. Stock., 1936.

King, C. Introduction, *Readings in Public Opinion*, W.B. Graves ed., New York : D. Appleton, 1928.

Klineberg, O. *Social Psychology*, New York : H. Holt, 1947.

Koffka, K. *The Growth of The Mind*, London : Kegan Paul, 1931.

Koffka, K. *Principles of Gestalt Psychology*, New York : Harcourt & Brace, 1935.

Kohler, W. *The Mentality of Apes*, London : Kegan Paul, 2nd. ed., 1931.

Krech, D. & Crutchfield, R.S. *Theory and Problems of Social Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1948.

Kuo, Z.Y. The Origin of The Cat's Responses to Rats and Mice, *Recent Experiments in Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Lalande, A. *Vocabulaire Technique et Critique de La Philosophie*, Paris : Alcan, 1926.

LaPiere, R.T. & Farnsworth, P.R. *Social Psychology*, New York : McGraw-Hill, 2nd. ed., 1942.

Laswell, H.D. Propaganda, *Encyclop. Soc. Sci.*

Latham, A.J. The Relationship Between Pubertal Status and Leadership In Junior High School Boys. *J. genet. Psychol.*, 1951, 78.

Lazarsfeld, R.F. & Others, Social Factors In Voting, *Readings in Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Lewin, K. (a) Environmental Forces In Child Behavior and Development, *A Dynamic Theory of Personality*, New York : McGraw-Hill, 1935.

Lewin, K. (b) The Conflict Between Aristotelian and Galileian Modes of Thought in Contemporary Psychology, *A Dynamic. Theory of Personality*, New York : McGraw-Hill, 1935.

Lewin, K. *Principles of Topological Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Lewin, K. Psychology and The Process of Group Living, *J. soc. Psychol.*, 1943, 17.

Lewin, K. Group Decision and Social Change, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Lewin, K. (a) The Background of Conflict in Marriage, *Resolving Social Conflicts*, G.W. Lewin ed., New York : Harper, 1948.

Lewin, K. (b) Some Social Psychological Differences Between The United States and Germany, *Resolving Social Conflicts*, G.W. Lewin ed., New York : Harper, 1948.

Lewis, M.M. *Infant Speech*, London : Kegan Paul, 1936.

Lippitt, R. & White, R. The Social Climate of Children's Groups, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Lippmann, W. *Public Opinion*, New York : Macmillan, 1943.

Luchins, A.S. Social Influences on Perception of Complex Drawings, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

MacCurdy, J.T. The Relation of Psychopathology to Social Psychology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

McGill, V.J. A Psychological Approach to Personality, *Philosophy For The Future*, Sellars, R.W. & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Maisonneuve, J. *La Psychologie Sociale*, Paris : Presses Universitaires de France, Collection 'Que Sais-je', 1949.

Malinowski, B. *The Argonouts of The Western Pacific*, London : G. Routledge, 1932.

Malinowski, B. *Coral Gardens And Their Magic*, London : G. Allen & Unwin, 1935.

Maller, J.B. Cooperation And Competition, *Recent Experiments in Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Manhattan, A. Of Ants And Men, *The Rationalist Annual*, F. Watts ed., London : Watts, 1950.

Markey, J.F. *The Symbolic Process*, London : Kegan Paul, 1928.

Marmor, J. Psychoanalysis, *Philosophy For The Future*, R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Mayo, E. *The Social Problems of An Industrial Civilization*, London : Kegan Paul, 1949.

Mead, G. *The Philosophy of The Act*, C.W. Morris & Others eds, Chicago : The University of Chicago Press, 1938.

Montagu, M.F.A. The Origin And Nature of Social Life And The Biological Basis of Cooperation, *J. soc. Psychol.*, 1949.

Moreno, J.L. & Moreno, F.B. Spontaneity Theory of Child Development, *Sociometry*, 1944, 3.

Morley, D.W. *The Ant World*, London : Penguin Books, 1953.

Mourad, Y., *L'Eveil de L'Intelligence*, Paris : Alcan, 1939.

Murphy, G., Murphy, L.B. & Newcomb, T.M. *Experimental Social Psychology*, New York : Harper, 2nd. ed., 1937.

Murphy, L.B. Social Behavior and Child Personality, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Murphy, L.B. Social Factors In Child Development, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Newman, H.H. How Differences In Environment Affected Separated One-Egg Twins, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Newman, M. Measurement of The Minimum Effect of Environment, Using Two-Egg Twins, *J. genet. Psychol.*, 1946, 68.

Olson,, W.C. & Whole, B.O. Growth of The Child As A Whole, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin & H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Parten, M. Social Behavior of Preschool Children, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin & H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Pear, T.H. Some Problems And Topics of Contemporary Social Psychology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Peristiany, J.G. *The Social Institutions of The Kipsigis*, London : Routledge, 1939.

Piaget, J. *Le Langage et La Pensée Chez L'Enfant*, Paris : Delachaux & Niestlé, 1923.

Piaget, J. *Le jugement Morale Chez L'Enfant*, Paris : Alcan, 1932.

Plath, O.E. Insect Societies, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Pratt, K.C., Nelson, A. & Sun, K.H. The Behavior of The Newb rn Infant, *Recent Experiments In Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York: McGraw-Hill, 1938.

Przyluski, J. *La Participation*, Paris : Alcan, 1940.

Rabaux, E., Grasse, P.P., Lantier, R. & Smets, G. *Les Origines de La Société*, Paris : Alcan, 1931.

Radzinowicz, L. The Influence of Economic Conditions On Crime, *Soc. Rev.*, 1941.

Richardson, J.E., Forrester, J.F., Shukla, J.K. & Higginbtham, P.J. *Adolescence*, London : Kegan Paul, 1951.

Ross, S. & Ross, J.G. (a) Social Facilitation of Feeding Behavior In Dogs : Group And Solitary Feeding, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Ross, S. & Ross, J.G. (b) Social Facilitation of Feeding Behavior In Dogs : Feeding After Satiation, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Rowan, W., Roule, L. & Ward, H. Migration and The Instinct Problem, *Recent Experiments In Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Rusk; G.Y. The Methodology of Social Psychology : Social Psychology In Relation to Economics, Ethics and Religion, *J. soc. Psychol.*, 1941, 14.

Schjelderup-Ebbe social Behavior Of Birds, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Schneirla, T.C. Social Organization In Insects, As Related To Individual Function, *Psychol. Rev.*, 1941, 48.

Schneirla, T.C. Levels In The Psychological Capacities Of Animals, *Philosophy For The Future*, R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Schrag, J. Measuring Basic Community Attitudes, *Social. soc. Res.*, 1951, 35

Schrickel, H.G. Group Conflict And Social Reform, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Schulte, H. An Approach To A Gestalt Theory of Paranoic Phenomena, *A Source Book of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Sherif, M. & Cantril, H. *The Psychology of Ego-Involvements*, New York : J. Wiley, 1947.

Stranger, R. & Osgood, G.E. An Experimental Analysis Of A Nationalistic France Of Reference, *J. soc. Psychol.*, 1941, 14.

Strecker, E.A., Ebaugh, F.G. & Kanner, L. Practical Clinical Psychiatry, Philadelphia : Blakiston, 5th. ed., 1945.

Sumner, W.G. Cannibalism, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Suttie, I.D. *The Origins of Love And Hate*, London : Kegan Paul, 1935.

Taylor, G. Group Dynamics, *Science News*, Penguin Books, 1950, 16

Thcmson, G. *Studies In Ancient Greek Society*, London : Lawrence & Wishart, 1949.

Thomson, G. *Aeschylus And Others*, London : Lawrence & Wishart, 1950.

Thouless, R. Problems Of Terminology In The Social Sciences, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Thouless, R. The Place Of Theory In Experimental Psychology, *Brit. J. Psychol.*, 1950, 41.

Tredgold, A.F., Tindal, B. & Cox *Manual of Psychological Medicene* London : 1943.

Walker, K.F. Sociology And Psychology In The Prediction Of Behavior, *Psychol. Rev.*, 1941, 48.

Wallon, H. *L'Evolution Psychologique de l Enfant*, Paris : Colin, 1941.

Wallon, H. Le Rôle De L'Autre Dans La Conscience Du Moi, *Egypt. J. Psychol.*, 1946, 2.

Wallon, H. *Les Origines Du Caractère Chez L'Enfant*, Paris : Presses Universitaires de France, 1949.

Warden, C.J. & Galt, W. A Study Of Cooperation, Dominance, Grooming And Other Social Factors In Monkeys, *J. genet. Psychol.*, 1943, 63.

Weitzmann, E. A Study Of Social Maturity in Persons Sixteen Through Twenty-Four Years Of Age, *J. genet Psychol.*, 1944,46.

Wertheimer, M. (a) The Laws Of Perception, *A Source Book Of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Wertheimer, M. (b) Gestalt Theory, *A Source Book Of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Winslow, C.N. & Frankel, M.N. A Quetionnaire Study Of The Traits That Adults Consider To Be Important In The Formation of Friendship With Members Of Their Own Sex, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Winspear, A.D. *The Genesis Of Plato's Thought*, New York : Dryden Press, 1940.

Winthrop, H.W. Semantic Factors In The Measurement Of Personality Integration, *J. soc. Psychol.*, 1946, 24.

Wolman, B. Spontaneous Groups Of Children And Adolescents In Israel, *J. soc. Psychol.*, 1951, 34.

Yerkes, R.M. & Yerkes, A.W. *The Great Apes*, New Haven : Yale University Press, 1929.

Yerkes, R.M. & Yarkes, A.W. Social Behavior In Infrahuman Primates, *A Handbook Of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Zuckerman, S. *The Social Life Of Monkeys And Apes*, London : Kegan Paul, 1932.

المراجع العربية للبحث

أيزاك (سوزان) « الحضانة » ترجمة سمية أحمد فهمى ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ .

جرجس (صبرى) « مشكلة السلوك السيكوباتى » ، القاهرة : دار المعارف ١٩٤٩ .

رمزى (اسحق) « مقاييس الشخصية : اختبار رورشاخ » مجلة علم النفس ، ١٩٤٦ مجلد ٢ .

زيور (مصطفى) « سيكولوجية التعصب » ، مجلة علم النفس ١٩٥٢ مجلد ٧ .

سويف (مصطفى) (ا) « الأسس الدينامية للسلوك الإجرامى » مجلة علم النفس ١٩٤٩ مجلد ٤ .

سويف (مصطفى) (ب) « معنى التكامل الاجتماعى عند برجسون » ، مجلة علم النفس ، ١٩٤٩ مجلد ٥ .

سويف (مصطفى) (ا) « الأسس النفسية للإبداع الفنى » القاهرة: دار المعارف ، ١٩٥١.

سويف (مصطفى) (ب) « الأزمة الراهنة فى علم النفس الاجتماعى » ، مجلة علم النفس ، ١٩٥١ مجلد ٧ .

عزت (عبد العزيز) « دوركهيم والاتجاه الاجتماعى فى التربية » مجلة علم النفس ، ١٩٥١ مجلد ٧ .

الفندى (محمد ثابت) « الطبقات الاجتماعية » ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٤٩ .

مراد (يوسف) « شفاء النفس » ، القاهرة : دار المعارف (مجموعة « اقرأ ») ، ١٩٤٣.

مراد (يوسف) « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » مجلة علم النفس، ١٩٤٦، مجلد ٢.

مراد (يوسف) « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » ، مجلة علم النفس، ١٩٤٧ مجلد ٢.

مراد (يوسف) « مبادىء علم النفس العام » ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٨ .

قراءات مقترحة

أولا : فى الفرق بين الحتمية determinism والعلية causality فى العلم ، وكذلك بين الوصف والتفسير (وقد أثيرت هذه المسائل ابتداء من ص ١٤٣ ، يمكن للقارئ المستزيد الرجوع إلى بعض البحوث فى فلسفة العلوم ، مثل :

Born, M. Physics And Metaphysics, *Science News*, Penguin Books, 1950, 17.

Dingle, H. *Science And Human Experience*, 1931.

Frank, P. *Modern Science And Its Philosophy*, 1949.

Toulmin, S. *The Philosophy of Science*, 1953.

ثانياً : فى الفرض hypothesis وحاجة الباحث العلمى إليه ، والشروط التى ينبغى توافرها فى الفرض العامل ، (وقد أثيرت بعض هذه المسائل ابتداء من ص ١٤٥ يمكن الرجوع إلى البحوث الآتية :

George, W.H. *The Scientist in Action*, 1936.

Poincaré, H. *La Science et L'Hypothèse*, 1902.

ثالثاً : فى موضوع المفاهيم العلمية (وقد أثير ابتداء من ص ١٨٢ يمكن الرجوع إلى :

Boring, E.G. The Use of Operational definitions in Science, *Psychol. Rev.* 1945, 52.

Lewin, K. Constructs in Field Theory, *Field Theory in Social Science*, E. Cartwright ed., 1951.

Lewin, K. Frontiers in Group Dynamics, *Field Theory in Social Science*, E. Cartwright ed., 1951.

Pratt C.C. *The Logic of Modern Psychology*, 1939.

قاموس

المفاهيم العلمية

مقدمة

تعتمد لغة العلم – فى بعض مراحل تقدمه – على لغة الحياة اليومية ، لكنها مع ذلك تختلف عنها اختلافاً واضحاً . فهى تستمد من لغة الحياة بعض مفرداتها ، وفى الوقت نفسه تشترط شروطاً خاصة فى طريقة استخدامها لهذه المفردات . وأوضح شرط لها هو تحديد مضمون اللفظ تحديداً دقيقاً . ولما كان هذا الشرط لا يتوفر عادة فى اللفظ كما نستخدمه فى لغة الحياة اليومية ، بل الغالب أن يشير هذا اللفظ إلى نطاق من المعانى المختلفة ، المتفاوتة الوضوح ، المتداخلة مع معان أخرى تنتمى إلى نطاق لفظ آخر ، فقد تحتم على الباحثين أن يفرضوا على ألفاظهم حدوداً معينة . ومن هنا كان الفرق الرئيسى بين القاموس اللغوى والقاموس العلمى هو أن الأول للتسجيل ، أما الثانى فللتشريع . فالقاموس اللغوى يسجل كيف يستخدم الناس فعلا هذا اللفظ أو ذاك ، أما القاموس العلمى فيشرع وجوب استخدام هذا اللفظ أو ذاك فى حدود معينة بغض النظر – إلى حد ما – عما اعتاده الناس فى لغتهم العادية .

ويحدث أحياناً أن يستمد أحد فروع العلم بعض مصطلحاته من فرع آخر أكثر تقدماً . ويتم ذلك غالباً مع إدخال بعض التغيير على ما وراء هذه المصطلحات من مفاهيم ، بما يلائم طبيعة الظواهر التى يبحثها كل من العلمين . وقد استعار علم النفس فعلا بعض مصطلحاته من علم الطبيعة ومن الفيزيولوجيا . ولا سبيل إلى الإفادة من هذه الاستعارة إلا بتحديد موضع هذا التغير ومداه .

إن لغة العلم تؤدى مهمتين رئيسيتين بالنسبة للباحثين :

فهى أولا تساعدهم على ضبط تفكيرهم ، وتوجيهه ، وتعميقه .

وهى ثانياً تساعدهم على تبادل خبراتهم وأفكارهم .

ولا يمكن للعلم أن يتقدم بدون الاعتماد على هاتين الوظيفتين . ولا يمكن لهاتين الوظيفتين أن يتما على وجههما السليم بدون العناية بالفوارق الدقيقة بين المفاهيم .

أمام هذه الاعتبارات ، التى تزداد قيمتها بالنسبة لأى فرع من فروع العلم تبعاً لحداثة سنه ، رأينا أن نقدم هذا القاموس لتحديد بعض المفاهيم الواردة فى بحثنا ، وهو ينتمى إلى فرع علم النفس الاجتماعى الذى يعتبر من أحدث فروع علم النفس بوجه عام . وقد قصدنا فى ذلك إلى بعض كبار الباحثين المختصين وأوردنا تعاريفهم . على أساس أنهم المشرعون الرئيسيون فى الميدان ،

وسيلحظ القارئ أنه قلما يتوفر الاتفاق التام بين عدد من الباحثين على تعريف أحد المفاهيم . ولهذا السبب نفسه كان لابد من إبراز الفوارق بين التعريفات المختلفة ، حتى لا تتسرب آثار هذه الفوارق فى بحوثنا على غفلة منا فلا يترتب عليها سوى الخلط فى الفكر والغموض فى التعبير وتشتت البحث أو تعطله .

قاموس
المفاهيم العلمية

تجمع (حيوانى) : Aggregation (animal)

يستخدم آلى W.C. Allee هذا المفهوم للإشارة إلى المضمون الذى يقصده يركيز R.M. Yerkes من استخدام مفهوم association*

[W.C. Allee 1935]

استعداد : Aptitude (*Eng.* & *Fr.*)

القابلية الفطرية لاكتساب معرفة أو مهارات عامة أو خاصة .

[J. Drever 1952]

حالة أو مجموعة من الخصائص تعتبر إفصاحات لقابلية الشخص لاكتساب معرفة معينة أو مهارة أو نمط من الاستجابات ، إذا لقى التمرين الكافى .

[H.C. Warren 1934]

تجمع (حيوانى) : Association (animal)

يستخدم يركيز R.M. Yerkes هذا المفهوم للإشارة إلى أى عدد من أفراد نوع حيوانى واحد يحيون معاً فى مكان واحد ، ويجرى بينهم نمط معين من التفاعل . كتجمعات النمل والطيور والشمبانزيه . ويقصر استخدام مفهوم « المجتمع society » على الإشارة إلى الجماعة البشرية .

[R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935]

(*) المصطلح المشار إليه بهذه العلامة سوف يأتى ذكره مفصلا فى هذا القاموس .

والفرق الدينامى بين التجمع والمجتمع هو فى درجة التكامل الاجتماعى . فالتجمع ينطوى على درجة من التكامل الاجتماعى منخفضة جداً إذا ما قورنت بما يتحقق فى المجتمع . وتتحدد درجة التكامل الاجتماعى بناء على مدى ما يتوفر فى الجماعة من استقرار وتغاير معاً .

Boundaries (*Fr.* frontières) : حدود

(حدود منطقة سيكولوچية معينة)

مجموعة المواضع فى أية منطقة (فى المجال) ، تلك المواضع التى إذا انتظمها محيط خرج بعضه عن المحيط الأصلى للمنطقة . ويمكن التحقق من وجود حدود معينة داخل البيئة أو الشخص عن طريق الحركة أو التواصل * على أنه لا يتحتم أن تكون حدود المنطقة السيكولوجية عقبة فى سبيل الحركة أو التواصل .

[K. Lewin 1936]

وقد استخدمنا هذا المفهوم بالنسبة للجماعة . ويمكن إثبات وجود هذه الحدود عن طريق العمليات الخاصة بعبورها . مثل طقوس تلقين الأسرار initiation (للدخول) وطقوس اللعنة الجماعية (للخروج) . كما يمكن إثباتها عن طريق ما يترتب على عمليات العبور من تغيير شامل فى الدلالة الاجتماعية للشخصية ، وتغيير فى نمط العلاقات القائم داخل الجماعة وتغيير فى سلوك الفرد .

Communication (*Eng.* & *Fr.*) : تواصل

العملية * التى يمكن بواسطتها نقل آثار التغير الذى يحدث فى إحدى مناطق المجال السلوكى إلى منطقة أخرى . ويقال عن أية منطقتين فى المجال

إنهما متواصلتان إذا كان التغير فى حالة إحداهما يترتب عليه حدوث تغير فى حالة الأخرى . ويتم التواصل على درجات متفاوتة . وتتحدد الدرجة التى يتم بها على أسس ثلاث :

١ – نوع العمليات القائمة بتحقيق التواصل . (ونلاحظ أننا عند ما نتحدث عن أنواع من العمليات فى هذا الصدد نستخدم لغة فينوتيبية * ، فنتكلم مثلاً عن لغة الألفاظ أو لغة الإشارة إذا كان التواصل يجرى بين شخصين) .

٢ – خصائص المناطق المتواصلة .

٣ – الحدود الفاصلة بين تلك المناطق .

وليس بحتم أن تكون درجة التواصل من ا إلى ب هى نفسها من ب إلى ا .

[K. Lewin 1936]

بناء على ذلك يمكن القول بأن التواصل شرط أساسى لتحقق التكيف المتبادل داخل أى نظام * . ويستدل على تحقق هذا التكيف بحدوث الاتزان داخل النظام .

ويرى وارن H.C. Warren أن مفهوم التواصل يشير إلى (١) نقل انطباع أو تأثير من منطقة إلى أخرى دون نقل فعلى لمادة ما . (٢) أو نقل انطباعات من البيئة إلى الكائن أو العكس ، أو من فرد إلى آخر . (ويستخدم مفهوم التواصل عادة فى حدود المعنى الأخير للإشارة إلى الظاهرة الأساسية فى علم النفس الاجتماعى : مثال : الكلام وسيلة من وسائل التواصل) .

[H.C. Warren 1934]

ورد فى « مختار الصحاح » ما نصه : والتواصل ضد التصارم ، أى التقاطع .

Development (*Fr.* développement) : ارتقاء

عملية النضوج * كما تتم فى الكائن ، وتفصح عن نفسها فى التغيرات المتلاحقة التى تقع منذ الحمل حتى اكتمال النضج . ويميز بعض الكتاب بين هذا المفهوم وبين مفهوم النمو growth . ويرى آخرون أن النمو يشير إلى نطاق أضيق من الظواهر . فالنمو يعنى تغيرات كمية . بينما يشير الارتقاء إلى تغيرات كيفية متدرجة ثابتة فى المظاهر الجسمية والذهنية .

[P. L. Harriman 1947]

التغيرات المطردة فى الكائن الحى ، المتجهة دائماً نحو نهاية معينة ، (مثل التغيرات المطردة من الجنين إلى اليافع فى أى نوع حيوانى) .

[J. Drever 1952]

التغيرات التى تطرأ على البناء والصورة ، تلك التغيرات التى تحدث أثناء انتقال الكائن من بداية العمر إلى اكتمال النضج . (يطلق هذا المفهوم على التغيرات التى تطرأ على الصورة نتيجة لظهور عضو أو نسيج ، وما يترتب على ذلك من تغيرات وظيفية ، كما يطلق على التغيرات التى تنتاب جماعة من الأفراد كالمجتمع ، والنوع ، والجنس ، والرتبة) .

[H.C. Warren 1934]

Dynamic (*Fr.* dynamique) : دينامى

يستخدم هذا المفهوم بمعنيين : يستخدم أحياناً باعتباره مضاداً لمفهوم « ثباتى » static (Fr. statique) . ومعناه حينئذ ما يتضمن التحول والصيرورة . وأحياناً أخرى يستخدم باعتباره مضاداً لمفهوم « آلى » mechanical (Fr. mecanique) . ومعناه حينئذ ما يتضمن مجموعة من التغيرات المترابطة فيما بينها تبعاً لقوانين حتمية ، كما يتضمن زيادة على

ذلك معنى القوة الدافعة ونوعاً من الغائية .

[A. Lalande 1926]

ونحن نستخدمه بمعنى التغير داخل نظام * . وعندئذ لا يقف التغير عند حدود جزء معين من أجزاء النظام ، لكنه يشمل النظام كله لينتقل به إلى مستوى جديد من مستويات الاتزان . وليس فى هذا الاستخدام مجال للمعانى الميتافيزيقية واللاهوتية للغائية .

وفى بعض الدراسات الطبيعية يكثر استخدام مفهوم « اتزان دينامى » dynamic equilibrium : وذلك إذا كنا بصدد عمليتين متضادتين داخل نظام واحد تجريان بسرعة واحدة بحيث تحولان دون تغير النظام . مثال ذلك حالة الاتزان بين سائل وبين بخاره المشبع ، فإن سرعة التبخر من سطح السائل تكون مساوية لسرعة تكثف البخار .

[E.B. Uvarov & D.R Chapman 1951]

ويرى لڤين أن مفهوم « دينامى » يشير إلى مجموعة الوقائع أو المفاهيم التى تتعلق بالتغير وشروطه . ويلاحظ أن الحقائق الدينامية لا يمكن تعيينها إلا بطريق غير مباشر .

[K Lewin 1936]

ويستخدم كرش وكرتشفيلد D Krech & R.S. Crutchfield هذا المفهوم للإشارة إلى مجموعة التغيرات التكيفية التى تحدث فى بناء الجماعة ككل ، نتيجة لحدوث تغيرات فى أى جزء من أجزائها .

[D. Krech & R.S. Crutchfield]

ويقدم وارن أربعة استعمالات لهذا المفهوم ، على النحو التالى :

١ — فهو يستخدم فى علم النفس للإشارة إلى ما للسلوك والحالات النفسية من علل ونتائج ، مع الإشارة إلى الحوافز بوجه خاص .

٢ – كمرادف لما يتضمن القوة أو القدرة ، أو التحريك والتغيير .

٣ – للإشارة إلى السلوك الصادر عن مجالات الطاقة الموحَّدة تبعاً لما تقضى به مبادئ الاتزان ، حيث تحدث أنواع النشاط المختلفة نتيجة للفوارق أو التغايرات .

٤ – يستخدم فى التحليل النفسى للإشارة إلى العمليات الذهنية اللاشعورية من حيث هى فعالة أو مشحونة بالطاقة . (الليبيدو)

(وبوجه عام يستخدم فى البحوث السيكولوچية فى مقابل مفهوم « ثباتى » وهذا المفهوم الأخير يشير إلى البناء الذهنى أو إلى وصف مرحلة معينة من مراحل التنظيم الذهنى) .

[H.C. Warren 1934]

تمركز فى الذات : Egocentrism (*Fr.* égocentrisme)

قدم بياچيه J. Piaget هذا المفهوم للإشارة إلى مرحلة معينة من مراحل الارتقاء النفسى يمر بها الطفل السوى عادة فيما بين الرابعة والسابعة من العمر . وهذه المرحلة مظهران ، أحدهما إدراكى والآخر وجدانى :

فأما المظهر الإدراكى فيتمثل فى أن الطفل يعجز عن أن يضع نفسه موضع الآخر ، ليرى بعينيه . ومن ثم فإنه لا يفكر ولا يهمه أن يفكر إلا من وجهة نظره الخاصة . وتنعكس هذه الحقيقة فى كلامه التلقائى ، فهو يوجه معظم هذا الكلام إلى ذاته لا إلى الآخرين . ولذلك يغلب عليه فى كلامه الاهتمام بالتأكيد أكثر مما يهتم بالتفسير والتبرير . ويتضاءل أثر هذه الحالة فى قدرات الطفل الإدراكية بعد السابعة . لكنها تظل تؤثر فى استخدامه للغة إلى حوالى الحادية عشرة .

[J. Piaget 1923, p. 55-65]

. وأما المظهر الوجدانى فيتمثل فيما يبدو على الطفل من أنانية فى كثير من مواقف الحياة . فللطفل قيمه الخاصة التى يتعلق بها ، وهو غير مستعد للتنازل التلقائى عنها وتقدير قيم الآخرين والتعلق بها . وهناك تواز دقيق فى الارتقاء النفسى العام للطفل بين هذين المظهرين .

[J. Piaget 1932, p. 462-466]

Environment (*Fr.* & *Eng.* milieu) : بيئة

كل ما يستطيع الشخص أن يتحرك فيه ، أو نحوه ، أو بعيداً عنه ، يعتبر جزءاً من البيئة .

[K. Lewin 1936]

يستخدم هذا المفهوم للإشارة إلى جميع الظواهر الاجتماعية والبيولوجية والفيزيقية الكيميائية التى تؤثر فى الكائنات من خارجها .

[H.C. Warren 1934]

Extraversion (*Eng.* & *Fr.*) : انبساط

قدم يونج C.G. Jung هذا المفهوم للإشارة إلى طراز معين من الاتجاهات يتسم بدرجة عالية من الارتباط بالجماعة والنفور من تأمل أحوال الذات ، والعواطف غير المستقرة ، والاستعداد دائماً للاستجابة لمنبهات البيئة . فإذا استخدمنا المصطلحات الفرويدية قلنا إن هذا المفهوم يشير إلى اتجاه الليبيدو نحو الخارج .

[P. L .Harriman 1947]

اتجاه أو طراز معين من الشخصية ، يمتاز بتوجيه اهتماماته أساساً نحو الطبيعة الخارجية والظواهر الاجتماعية أكثر من توجيهها نحو ذاته وخبراته

[يونج] . أو انطلاق الليبيدو إلى العالم الخارجى . [فرويد S. Freud]

[H.C. Warren 1934]

Genotypical : جينوتيبية (لغة)

لغة الباحث عند ما يفسر تتابع الظواهر بالرجوع إلى الأبنية الفرضية hypothetical constructs (لڤين) فى مقابل لغة فينوتيبية . *

[مثال : عند ما نفسر بعض الاضطرابات السلوكية بالرجوع إلى مفهوم « التوترات » * بدلاً من الاقتصار على وصف مظاهر هذه الاضطرابات]

Integration (*Eng.* & *Fr.*) : تكامل

يستخدم هذا المفهوم فى البحوث الفيزيولوجية للإشارة إلى مختلف العمليات التى تربط بين جوانب النشاط والوظائف المتعددة فى الكائن ، وذلك لتحقق وحدته . ويعتبر الجهاز العصبى أهم وسيلة لتحقيق التكامل . فبالإشارات العصبية تتمكن الأعضاء والأنسجة فى أحد أجزاء الكائن من التأثير تأثيراً تعاونياً على أجزاء أخرى بعيدة . ثم إن الإشارات العصبية نفسها متكاملة فى أنماط متناسقة بفعل الوصلات synapses الموجودة فى الجهاز العصبى المركزى . وللهرمونات أثر هام أيضاً فى الربط بين جوانب النشاط المختلفة للجسم .

[Encyclopedia Britanica]

يستخدم كاتل R.B. Cattell هذا المفهوم فى مستوى الظواهر - السيكولوجية . فيقول إن بعض الباحثين يشيرون به إلى التآزر بين جميع حوافز الشخصية وقدراتها (الشعورية واللاشعورية) إذ تعمل معاً فى سبيل الوصول إلى هدف واحد أو مجموعة متناسقة من الأهداف . ويرى كاتل أن هذا الاستخدام يجعل مفهوم التكامل مرادفاً لمفهوم التوافق adjustment

ولكن إذا كان للتكامل أن ينفرد بمعنى خاص فيجب أن نقصر

استعماله على الحوافز الشعورية والسلوك الخارجى . وقد يعترض على ذلك بأن هذا المعنى يجعله قريباً من الذكاء لأن الأحمق وحده هو الذى يضع الخطط المتضاربة . والواقع أن الذكاء يدخل ضمن مفهوم التكامل ، وتدخل معه كذلك القدرة على إتيان السلوك الالتفافى ، أعنى قمع الدوافع . وتدل المشاهدة على وجود تضايف بين تكامل الشخصية وتوافقها .

[R.B. Cattell 1950, p. 263]

وإلى جانب الإشارة بهذا المفهوم إلى معنى التآزر بين الحوافز يشير كاتل إلى معنى ثبات هذه الحوافز واستقرارها . فيقول إن فساد التكامل فى الشخصية يمكن الاستدلال عليه من مظهرين :

١ — عدم استقرار اتجاهاتها (العميقة والسطحية) وتذبذبها تحت تأثير بعض المنبهات الخارجية أو الداخلية .

٢ — التعارض المؤلم داخل الكائن بالنسبة لخطته فى الحياة .

ويقرر أن الشخصية « ذات التكامل الجيد » تتغير اتجاهاتها السطحية فى المواقف المختلفة دون أن تتغير اتجاهاتها العميقة .

[R.B. Cattell 1943]

يشير مفهوم التكامل إلى عمليتين :

(ا) التآزر والتضامن من جهة .

(ب) والائتمار ، من جهة أخرى ، أى خضوع بعض المراكز السفلى لسلطة المراكز العليا فى الجهاز العصبى .

[ى . مراد ١٩٤٨ ص ٨٢]

ويفرق ونثروب H. Winthrop بين معنيين للتكامل :

(ا) المعنى العلمى الدقيق ، وهو تطابق الاتجاهات الشعورية عند الشخص أو تماسكها .

(ب) والمعنى الشائع ، وهو أن تكون الشخصية ممثلة أصدق تمثيل للاتجاهات السائدة فى الجماعة التى هى عضو فيها . وليس بحتم أن تكون الشخصية حينئذ متكاملة بالمعنى العلمى الدقيق . فقد تمثل تلك الشخصية كمية الصراع الحادث فى الجماعة بلا زيادة ولا نقصان. والصراع conflict أو تفكك الاتجاهات وتضاربها عكس المعنى العلمى للتكامل .

[H. Winthrop 1946]

ويرى هيريك J. Herrick أن مفهوم التكامل يشير إلى معنيين :

(ا) تغاير الأجزاء وتخصصها .

(ب) تعاون الأجزاء أو تآزرها فى سبيل الإبقاء على الكل .

[J. Herrick 1949]

١ — يستخدم هذا المفهوم فى الدراسات البيولوجية والاجتماعية للإشارة إلى العملية التى بوساطتها تصبح أية مادة من أى نوع منظمة (أو مرتبة بناء على خطة معينة) فى شكل وحدات فى مستوى أعلى .

٢ — ويستخدم فى علم الأعصاب للإشارة إلى ربط وتنظيم الإثارات العصبية داخل المراكز العصبية بطريقة تمكن من قيام نشاط تكيفى يتضمن التآزر .

٣ — ويستخدم فى التحليل النفسى للإشارة إلى التجميع المنظم للعناصر العضوية النفسية فى بناء متناسق متكامل .

ويرى وارن أن الفرق الأساسى بين التكامل من ناحية وبين التآزر والتنظيم من ناحية أخرى يتمثل فى أن الأجزاء تفقد شخصيتها إلى حد ما بعد التكامل .

[H.C. Warren 1934]

وقد شاع استخدام هذا المفهوم عند سبنسر H. Spencer ، وكان يشير به إلى عدة معان ، منها :

١ – الانتقال من حالة الانتشار والغموض ، إلى حالة التركز والوضوح .

٢ – نمو المادة التى يحتوى عليها نظام معين .

كذلك شاع استخدام هذا المفهوم استخداماً مجازياً ، حتى عند سبنسر نفسه ؛ فكان يشير به أحياناً إلى قيام علاقات الاعتماد المتبادل بين أعضاء الكائن الحى ، أو بين أعضاء المجتمع .

[A. Lalande 1926]

Interaction (*Eng.* & *Fr.*) : تفاعل

علاقة بين وحدتين أو نظامين من أى نوع بحيث نجد أن نشاط أحدهما يتحدد – جزئيا – تبعاً لنشاط الآخر .

[H.C. Warren 1934]

Introversion (*Eng.* & *Fr.*) : انطواء

قدم هذا المفهوم يونج C.G. Jung للإشارة إلى نمط من الاتجاهات يتسم بوجهة نظر ذاتية وميل إلى تقييم جوانب البيئة المختلفة على أساس أن الذات هى محور الارتكاز . والانطواء ضد الانبساط . ويلاحظ أن أنماط الوظائف التالية تجعل التفرقة بين الانطواء والانبساط مسألة معقدة ، ونعنى بهذه الوظائف : التفكير والحدس والإحساس والوجدان . ومن ثم فهناك ثمانى إمكانيات لتصنيف أى فرد تبعاً لنمط الاتجاهات ونمط الوظائف . وقد قال فرايد Freyd بوجود علاقة بين الانطواء وبين الميول الشبيهة بالفصامية . ولذلك بدأ كثير من الخلط حول تعاليم يونج نفسه . ويستخدم فرويد S. Freud هذا المفهوم للإشارة إلى حالة الانشغال بالتهويمات الشبقية erotic phantasies التى لا يمكن إشباعها فى الواقع .

[P. L. Harriman 1947]

١ – اتجاه الليبيدو (الطاقة الوجدانية) إلى داخل الشخصية وانسحاب الاهتمام من العالم الخارجى . وعلى هذا النحو يستخدمه يونج فى علم النفس التحليلى .

٢ – اتجاه معين أو طراز معين من الشخصية يمتاز بتوجيه الطاقة النفسية نحو الذات وخبراتها .

[H.C. Warren 1934]

Longitudinal study : دراسة تتبعية

دراسة الظاهرة أو الوظيفة بمتابعة تغيراتها داخل مرحلة واحدة من مراحل العمر . [وهى تختلف عن الدراسة الارتقائية devنlopmental التى تتابع الظاهرة أو الوظيفة عبر مستويات ارتقائية مختلفة] .

Maturation (*Eng.* & *Fr.*) : نضج

عملية النمو والارتقاء نفسها ، فى مقابل عملية التعلم أو الاكتساب .

[J. Drever 1952]

Morale (*Eng.* & *Fr.*) : الروح المعنوية (للجماعة)

يستخدم نيوكوم T. M. Newcomb هذا المفهوم بالنسبة إلى الجماعة ؛ لا بالنسبة إلى الفرد . ويجعله مساوياً تماماً لمفهوم « التماسك » cohesiveness ويرى نيوكوم أن ثمة علاقة دائرية بين « الروح المعنوية » من ناحية وبين التواصل والمشاركة فى المعايير والاتجاهات والشعور بالرضا عند أعضاء الجماعة من ناحية أخرى . فهذه العوامل جميعاً شروط لتوفر درجة عالية من « الروح المعنوية » للجماعة ، وفى الوقت نفسه يمكن القول بأن درجة « الروح المعنوية » المتوفرة تؤثر فى هذه العوامل .

ويضيف نيوكوم كذلك الشعور بالحب المتبادل بين أعضاء الجماعة

كشرط من شروط « الروح المعنوية » وله معها نفس العلاقة الدائرية .

ويقترن انخفاض الروح المعنوية للجماعة بالشعور بعدم الرضا لدى الأعضاء (لأسباب من خارج الجماعة أو من داخلها) ، وبالتفكك divisiveness إلى جماعات صغرى cliques .

ولما كان ارتفاع أو انخفاض الروح المعنوية فى الجماعة (فى الجماعات العمالية فى المصانع مثلاً) يقترن أحياناً بإنتاجها (من حيث رضاها أو عدم رضاها عن مستوى إنتاجها) فإنه يمكن اتخاذ مستوى الإنتاج مقياساً لقياس الروح المعنوية . كذلك يمكن اتخاذ التعبير عن الحب المتبادل بين أعضاء الجماعة (وتستخدم لتسجيله الطرق السوسيومترية) مقياساً لقياس هذه الروح المعنوية . هذا إذا أردنا وضع تعريف إجرائى « للمفهوم . على أن هذين المقياسين وغيرهما يظلان مشوبين ببعض الشوائب ، لأن « الروح المعنوية » ليست ناتجة عن الشعور بالحب المتبادل بين الأعضاء فحسب ، لكنها ناتجة عن فعل عدة عوامل أخرى فى الوقت نفسه .

[T. M. Newcomb 1952, p. 637-642]

يستخدم هذا المفهوم أيضاً بالنسبة للفرد والجماعة ، للإشارة إلى حالتهما من حيث ضبط النفس ، والثقة بالنفس ، وتنظيم الفعل .

[J. Drever 1952]

Mutualism (*Fr.* réciprocité) : التبادل (مرحلة)

يشير جيزيل وإلج A. Gesell & F. Ilg إلى أن هذه المرحلة من مراحل الارتقاء الاجتماعى للفرد تبدأ منذ منتصف السنة الثانية . وهما يشيران إلى مجموعة من الألعاب يهواها الطفل بوجه خاص فى هذه المرحلة ، وهى « ألعاب التبادل » .

[A. Gesell & F. Ilg 1943, p. 141-151]

يستخدم ڤالون هذا المفهوم للإشارة إلى نفس المرحلة سالفة الذكر . ويتلخص المضمون الدينامى لهذه المرحلة فى أن « الأنا » و « الآخر » يقفان من بعضهما البعض موقف الندين المتكافئين . ولذلك يميل الطفل إلى تبادل الدور الذى يقوم به مع « الآخر » بين الحين والحين .

[H. Wallon 1941, p. 205]

National Character الطابع القومى (للشخصية

(طابع العضوية القومية : national membership-character)

ذلك الجانب من الشخصية الذى يرجع إلى عضوية الفرد فى قومية معينة أو ذلك النمط من الخصائص السلوكية الذى يميز أبناء قومية معينة من أبناء القوميات الأخرى . ويكون هذا النمط على درجة واضحة من الاستقرار . لكنه فى الوقت نفسه يرتبط بالخصائص الكبرى للمرحلة التاريخية التى تمر بها الجماعة القومية . ومن ثم فليس له ذلك الثبات الميتافيزيقى الذى يخلعه عليه بعض الباحثين .

وهو يستند فى قيامه إلى وجود حد أدنى من التشابه فى عمليات التكيف الأساسية التى تتم لدى أبناء القومية الواحدة ، نتيجة لتوفر درجة من التشابه بين الشروط البيئية التى تواجه الجميع . على أن هذه الدرجة من التشابه فى شروط البيئة تتضاءل أحياناً وتتضخم أحياناً أخرى ، تبعاً لعدة عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية وجغرافية وسيكولوجية . وبالتالى يتضاءل أو يتضخم ذلك القدر من التشابه فى عمليات التكيف المترتب عليها . وهكذا يصعب أحياناً تحديد معالم الطابع القومى للشخصية ، وأحياناً أخرى يكون هذا العمل ميسوراً نسبياً .

وهذا المفهوم من المفاهيم التى يتعرض استخدامها لكثير من الميوعة ، بل وإساءة الاستعمال أحياناً . وقد كتب أيزنك H.J. Eysenck فصلا فى

هذا الموضوع فى كتابه "Uses & Abuses of Psychology" 1953، يقرر فيه أن البحوث فى هذا الموضوع لم تقم بعد على أسس علمية متينة ، وخاصة فيما يتعلق بالطابع القومى للشخصية فى المجتمعات المتمدينة الحديثة لتعقدها الشديد . ثم يشير إلى الطرق الإحصائية الدقيقة التى يمكن انتهاجها نحو بحث الموضوع .

ويمكن القول بالإضافة إلى ذلك بأن الآداب الشعبية تعتبر مصدراً هاماً ينبغى الرجوع إليه فى مثل هذه الدراسة ، فى بعض مراحل البحث على الأقل . فهى كفيلة بأن تمدنا بالمادة اللازمة لإقامة بعض الفروض .

ويرى كرش وكرتشفيلد أن هذا المفهوم إحصائى ، بمعنى أنه يشير إلى توزيع بضع سمات بين أفراد قومية ما . وقد يكون له دلالة أخرى ، إذ يشير إلى الأنماط الممثلة فعلاً للسلوك الاجتماعى الشائع داخل قومية معينة .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948 p. 591-593]

ويرى كلانيبرج O. Klineberg أن المعنيين لا غنى عنهما ، وأنهما متصلان فيما بينهما ؛ فسمات الأفراد فى قومية ما تساهم فى تشكيل نظامها الاجتماعى ، كما أن التنظيم الاجتماعى يساهم فى تشكيل سمات أعضائه .

[O. Klineberg 1944]

[through "D. Krech & R.S. Crutchfield" 1948]

ويثير كرش وكرتشفيلد بعض الشكوك حول مدى صحة القول بوجود « الطابع القومى للشخصية » فى المجتمعات المتمدينة الحديثة ، لاتساعها وتعقدها الشديد . لكنهما يقرران أنه إذا ثبت بالبحث العلمى الدقيق مشروعية وجوده فلن يستمد هذا الوجود من فوارق فطرية بين الشعوب المختلفة ، بل سيعتمد على مصادر ثلاث :

(ا) مستوى الإحباط لدى شعب ما ، وهو يرتبط بنمط السلوك الذى يتبعه أفراد هذا الشعب لخفض التوتر الناتج عن هذا الإحباط .

(ب) نمط الحضارة السائد ، وهو يرتبط بنمط الشخصية الذى يسمح له بالظهور لدى معظم أفراد الشعب .

(حـ) أنماط الاعتقادات والاتجاهات السائدة لدى معظم أفراد الشعب ، والقائمة على دعائم من العرف الحضارى والتربية والخبرات القومية السابقة . . . الخ .

يرى براون J.F. Brown أن هذا المفهوم يشير إلى درجة من التشابه بين الأنماط السلوكية الصادرة عن جميع أبناء القومية أو معظمهم فى وقت معين وتحت ظروف محددة . ويظل مضمون هذا المفهوم كما يتحدد فى وقت ما منطبقاً على أفراد القومية ما دام البناء الاجتماعى الدينامى مستقراً . فإذا تغير هذا البناء تغيرت أنماط السلوك الصادرة عن الأفراد وبالتالى لزمت إعادة النظر فى مضمون المفهوم كما سبق تحديده . والمفهوم بهذا المعنى ضرب من التصنيف ، ولا يقوم بمهمة التفسير .

[J.F. Brown 1936 p. 124]

Norms (*Eng.* & *Fr.*) : المعايير

أطر الدلالة المشتركة common frame-works أى التى يشارك فيها أفراد الجماعة .

[T. M. Newcomb 1952, p. 276]

مقياس للرجوع إليه فى إصدار الأحكام .

[P. L. Harriman 1947]

Ontogeny : أنتوچينى

نمو الفرد وارتقاؤه . وهذا المفهوم يقابل مفهوم الفيلوچينى * .

[P. L. Harriman]

المشكلات العامة المتعلقة بتطور الفرد وارتقائه .

[J. Drever 1952]

Ontogenetic study : دراسة أنتوچينية

يقال دراسة أنتوچينية أى الدراسة التى تتتبع ظاهرة أو وظيفة ما عبر عدة مستويات ارتقائية فى حياة الفرد . (وذلك فى مقابل دراسة فيلوچينية *) .

Operational definition : تعريف إجرائى (أو وظيفى)

قدم بردجمان P. Bridgman هذا المفهوم [operationism] للإشارة إلى المقاييس العملية الثابتة ، المحددة ، التى يمكن تكرار العمل بها ، والتى تؤدى بنا إلى مفاهيم أكثر صدقاً ، والتى تكون مرتبطة بالواقع الموضوعى . ومن ثم فإن التعاريف الإجرائية لا تشير إلى خصائص أو قيم مطلقة تتجاوز حدود أية تجربة محددة أو مجموعة معينة من التجارب . بل هى تشمل مفاهيم تستمد معانيها من العمليات التى نوجه هذه المفاهيم نحوها ونستخدمها من أجلها فى تجربة معينة . وعلى ذلك يقرر سكنر Skinner أن النزعة الإجرائية فى وضع التعاريف تعنى أن تقارير البحوث السيكولوجية يجب أن تكون محدودة بحدود الملاحظات والإجراءات والخطوات التى تتوسط ما بين الملاحظات الأولية والتقارير النهائية .

[P. L. Harriman 1947]

المقصود بالتعريف الإجرائى للمفاهيم تعريفها من خلال مجموعة العمليات أو المعالجات التى تقيم هذه المفاهيم . وعلى ذلك فمفهوم المكان يعرّف من خلال العمليات التى تستخدم فى قياسه . ومفهوم الذكاء يعرّف بأنه ما يقيسه اختبار الذكاء . ولا قيمة للمفاهيم التى لا يمكن تعريفها تعريفاً إجرائيا .

[J.F. Brown 1936, p. 56]

منظّمة أو تنظيم : Organization (*Eng.* & *Fr.*)

يستخدم هذا المفهوم أحياناً للإشارة إلى عملية معينة ، وهى تغاير الأجزاء والوظائف وتكاملها داخل كلٍّ متشابك .

[J. Drever 1952]

ويرى لالاند إمكان استخدام هذا المفهوم للدلالة على الكل من حيث هو بناء مستقر . ويقارن بينه وبين مفهوم « الكائن المتعضى organism » . ويقرر أن هذا الأخير يشير إلى نفس المضمون مع فارق واحد هو أنه أضيق نطاقاً . فالكل الذى يشير إليه بيولوجى فحسب .

[A. Lalande 1926]

ويستخدم كرش وكرتشفيلد مفهوم « المنظمات أو التنظيمات الاجتماعية social organizations » للإشارة إلى الجماعات الاجتماعية (بأنواعها المختلفة) تمييزاً لها عن « الجماعات السيكولوجية » * . ويقرران أن هذا المفهوم (أى المنظمات الاجتماعية) يعادل فى مضمونه – إلى حد كبير – مفهوم « المؤسسات الاجتماعية social institution » ، غير أنهما يفضلان استخدام مفهوم « المنظمات » لأسباب متعددة ، أوردا ذكرها . ومن أهم مميزات المنظمات الاجتماعية :

١ – أن تكون لها منتجات حضارية . (كالمبانى ، والملابس ، والأغانى . إلخ) .

٢ – أن يكون لها اسم أو رمز جمعى .

٣ – أن يكون ثمة أنماط خاصة لأفعالها .

٤ – أن يكون ثمة نظام من المعتقدات خاص بأعضائها .

٥ – أن تكون لديها وسائل لإرغام أعضائها ، تستخدمها أحياناً .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 369]

Pattern (*Fr.* type) : نمط

يستخدم للإشارة إلى خطة العلاقات القائمة بين الأجزاء داخل كل معين، فيمكن التفرقة بين عدة أنماط من العلاقات السوسيومترية * القائمة بين الأفراد داخل جماعة ما أو عدد من الجماعات؛ فهناك نمط السلسلة، ونمط التجمة، ونمط الشبكة.

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 377]

ويلاحظ أن هذا المفهوم على درجة عالية من التجريد. فهو لا يشير مباشرة إلى ظواهر معينة، لكنه يشير إلى مفاهيم أخرى أقرب منه إلى الظواهر. فالمونوجامى monogamy (الزواج بين رجل واحد وامرأة واحدة) والبوليچينى polygeny (الزواج بين رجل واحد وعدة نساء)، والبوليباندرى polyandry (الزواج بين امرأة واحدة وعدد من الرجال) أنماط مختلفة لبناء الأسرة البشرية. كما أن الانطواء * والانبساط * نمطان مختلفان لبناء الشخصية، و «الثنائى الجدران diploblastic» و «الثلاثى الجدران triploblastic» نمطان مختلفان لبناء أجسام الكائنات عديدة الخلايا. و «البلورات الجزيئية» («التى تتركب من جزيئات») و «البلورات الأيونية» (التى تتركب من أيونات موجبة وأخرى سالبة) نمطان مختلفان لبناء الأجسام الصلبة.

ورد فى «تاج العروس» ما مؤداه:

١ — النمط الطريقة، يقال الزم هذا النمط أى هذا الطريق.

٢ — والنمط النوع من الشىء. (وهذا يماثل المعنى الثانى من بين المعانى المتعددة التى أوردها لالاند لهذا المفهوم).

٣ — والتنميط الدلالة على الشىء. يقال من نمّطك على هذا؟

٤ – ومن استدراكات الشارح قوله : والنمط المذهب والفن . والأنمط الطريقة .

وورد فى دوزى R. Dozy أن لفظ « النمط » استخدم بما يقابل اللفظ اللاتينى ordinare أى التنضيد .

Pecking order : تدرج السيطرة (نظام)

عند ما تعيش مجموعة من الطيور أو الثدييات (تحت البشرية) معاً فإن العلاقات بين أفرادها تنتظم فى صورة نظام للسيطرة ، فبعضها مسيطر وبعضها خاضع . ولا توجد مساواة بين الخاضعين جميعاً ، بل توجد سلسلة متتالية الحلقات من السيطرة والخضوع .

[R.M. Yerkes & A.W. Yerkes 1935]

ويكون لهذا النظام درجة واضحة من الاستقرار . وهو يبدو بوضوح أثناء إقدام المجموعة على ممارسة ضروب من النشاط ذات قيمة بيولوچية أساسية ؛ كتناول الطعام ، وممارسة العملية الجنسية ، ومحاولة الفرار من بعض الأخطار المحدقة بالتجمع . فيكون للفرد المسيطر السبق دائماً . ويلاحظ أن نمط هذا النظام لا يكون هو الخط المستقيم الممتد من أكثر الأفراد سيطرة إلى أكثر الأفراد خضوعاً . بل غالباً ما يكون النمط دائرياً . فالطائر ا يسيطر على الطائر ب ، و ب يسيطر على جـ ، و جـ يسيطر على ا . وهذه الحقيقة تدل على أن سيطرة أحد أفراد التجمع وخضوع الآخر لا يرجع إلى عامل واحد كالقوة الجسدية مثلاً . بل يرجع إلى عدة عوامل .

[T. Schjelderup-Ebbe 1935]

ويعتبر نظام تدرج السيطرة من المظاهر البدائية للتفاعل الاجتماعى .

Permeability (*Fr.* perméabilité) : نفاذ

« درجة النفاذ » فى أحد الحواجز barriers هى الدرجة التى يسمح

بها لبعض العناصر أن تتسرب خلاله .

[J.F. Brown 1936, p. 59]

ويستخدم هذا المفهوم أصلاً في بحوث الكيمياء الطبيعية ، حيث يفرق الباحثون بين أغشية نفاذة وأغشية نصف نفاذة ، والأغشية الأخيرة هى التى تسمح بحدوث ظاهرة الانتشار الغشائى .

وقد استعير المفهوم من مجاله الأصلى ليستخدم فى بحوث علم النفس الاجتماعى . وللجشطلتيين الفضل فى تدشين هذه الاستعارة . ولا يزال المفهوم يحتفظ فى مجاله الجديد بالخطوط الكبرى لمعناه فى مجاله الأصلى .

فكل جماعة مثلاً تحيط نفسها بحدود معينة تفصل بينها وبين الجماعات الأخرى . وهذه الحدود تقوم غالباً كحواجز لا تسمح بتبادل الأفراد والقيم والعادات السلوكية مع الجماعات الأخرى إلا بطريقة معينة وفى نطاق معين . هذه حقيقة دينامية تصدق بالنسبة لأية جماعة سواء أكانت هذه الجماعة أمة أم طائفة دينية أم جماعة سياسية ... إلخ. وتختلف درجة النفاذ فى الحواجز باختلاف ديناميات المجال الذى يضم الجماعة والجماعة الأخرى المتفاعلة معها . فمثلاً فى أثناء الحروب واشتداد حملات التعصب الدينى لا يكاد يُسمح بأى تبادل مع الجماعات الأخرى المناهضة ، أى تقل جداً درجة النفاذ — فى اتجاه معين — عبر الحواجز التى تحيط بالجماعات . ويمكن القول على هذا الأساس أيضاً بأن التفرقة التى عقدها برجسون H. Bergson بين « جماعات مغلقة » و « جماعات مفتوحة » إنما تشير إلى فرق فى الدرجة ، أعنى فى درجة النفاذ التى تسمح بها الحواجز المحيطة بكل جماعة .

وإذا سمحت الحواجز القائمة بين جماعتين أو أية منطقتين من مناطق المجال بدرجة معينة من النفاذ فلا يعنى هذا بالضرورة تحرك العناصر فى الاتجاهين ، بل قد تعنى هذه الدرجة السماح لبعض عناصر إحدى

المنطقتين بالتحرك عبر الحاجز دون السماح بالعكس . وتبدو هذه الحقيقة بوضوح فى عملية انتشار الثقافات culture diffusion . فبعض الدول تقوم بالحصول على كثير من التسهيلات لنشر ثقافتها بين شعوب أخرى ، وفى الوقت نفسه تقيم العقبات الكثيرة أمام ثقافات هذه الشعوب إذا حاولت الانتقال إلى شعوبها .

Phenotypical: فينوتيبية (لغة)

يستخدم لڤين هذا الاصطلاح للإشارة إلى اللغة التى يستخدمها الباحث عند ما يكون بصدد وصف ظاهرة ما دون تفسيرها . فهو يصفها باستخدام لغة الحياة اليومية . (فى مقابل « لغة چينوتيبية » *) .

Phylogeny : فيلوچينى

تطور الأنواع من أبسط الحيوانات ، (وحيدة الخلية) ، إلى الإنسان .

[P. L. Harriman 1947]

نشوء السلالات أو الأنواع وتطورها .

[J. Drever 1952]

Phylogenetic study : دراسة فيلوچينية

يقال دراسة فيلوچينية أى الدراسة التى تتتبع ظاهرة أو وظيفة ما عبر عدة مستويات ارتقائية فى السلسلة الحيوانية .

Plasticity (*Fr.* plasticité) : مطاوعة (القابلية للتشكل)

يرى لڤين أن مطاوعة منطقة ما (فى الشخصية ، أو فى المجال السلوكى بوجه عام) تشير إلى السهولة التى يمكن أن يحدث بها تغيير فى بناء هذه

المنطقة ، بشرط أن يكون هذا التغيير مستقراً ويظل أثره باقياً لفترة طويلة نسبياً .

[K. Lewin 1936]

Plastic response : استجابة مطاوعة

أى استجابة تصدر عن الكائن وتكون معرضة لأن تطرأ عليها تغيرات متعاقبة (مثال : الفعل المنعكس الشرطى) ، وعن طريق هذه التغيرات تحقق التكيف بين السلوك وتغيرات البيئة . (ويكون مصدر هذه الاستجابات لحائياً cortical فى الفقريات العليا ، أما فى الفقريات الدنيا فيكون مصدرها فى المراكز الرابطة) .

[H.C. Warren 1934]

Process (*Fr.* processus) : عملية

تتابع الظواهر تتابعاً يكشف عن وحدة ما أو تتابعاً منتظماً . ويرى بعض المفكرين وجوب التفرقة بين العملية والظاهرة . فالعملية هى الوظيفة الفعالة ، والظاهرة هى النتيجة الناجمة عن هذه الوظيفة .

[A. Lalande 1926]

١ — تغير أو تحول فى النشاط الصادر عن شيء أو عن كائن ، فى مقابل جبلته أو بنائه .

٢ — الطريقة التى يتم بها تغير ما .

٣ — أى إحساس أو مضمون نفسى آخر نلاحظه من حيث هو حدثٌ فقط دون الرجوع إلى معناه أو قيمته . (تتشنر Titchener)

[H.C. Warren 1934]

Psychological group : جماعة سيكولوجية

يستخدم كرش وكرتشفيلد هذا المفهوم للإشارة إلى الجماعة إذا توفرت

فيها الخصائص الدينامية الآتية :

١ — أن يكون جميع الأعضاء موجودين كجماعة فى المجال السيكولوجى لكل فرد من أفرادها . (أى أن يدركهم كل فرد ويستجيب لهم كأعضاء معه فى نفس الجماعة) .

٢ — أن يكون جميع الأعضاء فى تفاعل دينامى فيما بينهم .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 368]

Reference group الجماعة المرجع

١ — الجماعة التى نعتبر أنفسنا أعضاء فيها . وهى الجماعة التى أستمد منها قيمى وأهدافى ومعاييرى الرئيسية . أو بعبارة أخرى هى الجماعة التى أستمد منها مجموعة من الاتجاهات وأتمثلها فتصبح اتجاهاتى ، تصبح جزءاً منى « أنا » . ويتحدد « مركزى » * أساساً من خلال هذه الجماعة . واكتسابى العضوية فى هذه الجماعة يكسبنى الشعور بالأمن والطمأنينة ، ما دامت القيم السائدة فى هذه الجماعة ملائمة . ولا تقتصر الجماعة المرجع على أن تقدم لنا القيم والمعايير التى تصبح اتجاهات لنا ، بل إن لها وظيفة أخرى : فهى تظل تطالبنا بإلحاح بأن نبقى على ولائنا لها .

٢ — الجماعة التى يعتبرها الفرد مقيّمة لمركزه ، وبذلك يعتبرهانقطة ارتكاز يبدأ منها ليحدد مركزه الاجتماعى كما يتخيله فى نظر تلك الجماعة . ويلاحظ أن الموضع الذى يحدده الفرد لمركزه يتغير بتغير الجماعة المرجع بهذا المعنى .

[W. Mcghee 1940, through: "M. Sherif & H. Cantril, 1947, p. 155]

٣ — ويفرق شريف وكانترل بين : « جماعة العضوية » membership group والجماعة المرجع .

فجماعة العضوية هى الجماعة التى يكون الشخص عضواً فيها بالفعل.
أما الجماعة المرجع فهى الجماعة التى يرتبط الشخص بها (أى يرتبط بقيمها وأهدافها ومعاييرها أى يتمثلها) دون أن يكون عضواً فيها بشكل مباشر ، بل وقد لا يكون على صلة بها . وهى تؤدى للفرد نفس الوظيفة السيكولوجية التى تؤديها جماعة العضوية .

٤ – يستخدم شريف وكانترل مفهوم « الجماعة المرجع » فى بعض المواضع باعتباره مفهوماً عاماً ، يتضمن أيضاً مفهوم « جماعة العضوية » . بعبارة أخرى إن « جماعة العضوية » صورة خاصة من صور « الجماعة المرجع » .

[M. Sherif & H. Cantril 1947, pp. 7, 114, 137, 155, 223, 274]

يلاحظ أن المقصود فى (٤) هو تأكيد وظيفة « الجماعة المرجع » . ذلك أنها تُكسب الأنا مضمونه (من الاتجاهات) بالرجوع إليها . فإذا نظرنا من هذه الزاوية الوظيفية إلى « جماعة العضوية » وجدنا أنها تقوم بنفس الوظيفة ، وربما بدرجة أوضح . ومن هنا يمكن القول بأن « جماعة العضوية » صورة خاصة من صور الجماعة المرجع . على هذا الأساس يمكن القول بأن المفهوم يستخدم بمعنيين :

الأول : هو الجماعة التى تُكسب الأنا دلالته ، من حيث إنها إطار .

الثانى : هو الجماعة التى تكسب الأنا دلالته ، دون أن يكون الفرد عضواً فيها بطريق مباشر . وهى بذلك تختلف عن « جماعة العضوية » .

ويفرق نيوكوم T. M. Newcomb بين « جماعة العضوية » و « الجماعة المرجع » على النحو الآتى :

« جماعة العضوية » بالنسبة لشخص ما هى الجماعة التى يعترف أعضاؤها بعضوية الشخص معهم بداخلها ؛ كالأسرة والجماعات السياسية والدينية

والاجتماعية . ويشارك الشخص فى معايير جماعة العضوية التى ينتمى إليها لالأن أعضاءها يعترفون بعضويته بينهم فحسب ، ولكن لأنه تعلم كيف يُرضى دوافعه من خلال هذه المعايير . أما « الجماعة المرجع » فيحددها على النحو الآتى : إذا كانت اتجاهات شخص ما واقعة تحت تأثير نمط من المعايير يعتبر هو أنه يشارك فيه مع أفراد آخرين ، فإن هؤلاء الأفراد يكوّنون بالنسبة له الجماعة المرجع . ومن ثم فليس لهذه الجماعة وجود إلا فى الواقع السيكولوجى للشخص الذى يتأثر نمط سلوكه بأنماط معاييرها . وقد تكون « الجماعة المرجع » جماعة لم يرها الشخص فى حياته قط ، أو يكون أعضاؤها من الأموات منذ زمن بعيد . ويمكن أن تكون جماعة من صنع خياله تماماً ، كجماعة المضطهدين الذين تزخر بهم عوالم بعض المرضى الذهانيين . فكثيراً ما نعجز عن فهم سلوك هؤلاء المرضى إلا إذا عرفنا شيئاً عن « الجماعات المراجع » التى يرتبطون بها والمعايير السائدة بداخلها والتى يقرر هؤلاء المرضى أنهم واقعون تحت تأثيرها .

والمهم فى « الجماعات المراجع » أن معاييرها تكون بمثابة أطر للدلالة تؤثر فعلاً فى اتجاهات الشخص وفى سلوكه . وبهذا المعنى تكون جماعة العضوية غالباً بمثابة « جماعة مرجع » بالنسبة للشخص . لكن ليس من الضرورى أن تكون « الجماعة المرجع » « جماعة عضوية » بالنسبة للشخص وتكون جماعة العضوية بالنسبة للشخص جماعة مرجع أو لا تكون بقدر ما تكون عضويته فيها مرضية لدوافعه أو غير مرضية .

ويمكن التفرقة بين « جماعة مرجع إيجابية » و « جماعة مرجع سلبية ». والجماعة السلبية هنا تعنى : الجماعة التى لها أنماط معينة من المعايير تؤثر فى اتجاهات الفرد الذى لا يقبلها (وقد يكون على علم بها) ؛ تؤثر فيه بأن توجهه إلى انتهاج أنماط سلوكية معينة لمعارضتها .

وعلى الضد من ذلك « الجماعة المرجع الإيجابية » : فهى الجماعة التى

يشارك الفرد فى أنماط معاييرها مشاركة القابل لها الذى يتحرك فى اتجاه اكتساب العضوية بداخلها .

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن « جماعة العضوية » الواحدة قد تقوم بالنسبة للفرد الواحد من أعضائها بمهمة « الجماعة المرجع الإيجابية » (بقدر مشاركته وقبوله لبعض معاييرهم واهتمامه باعترافهم بعضويته بينهم) ، و « الجماعة المرجع السلبية » فى نفس الوقت (بقدر نفوره من معاييرهم الأخرى واهتمامه بانتهاج نمط سلوكى يجدى فى معارضتهم) .

[Th. M. Newcomb 1952, pp. 225-227]

Rigidity (*Fr.* rigidité) : التصلب

تتوفر هذه الصفة فى الحدود المحيطة بأية منطقة من مناطق المجال السلوكى كلما كانت القوى اللازمة للتغلب عليها أضخم . وليست المنطقة على درجة واحدة من التصلب دائماً ، ولكنها تختلف فى درجة تصلبها بالنسبةللعمليات المختلفة .

[K. Lewin 1936]

Situation : موقف

نمط مركب من المنبهات ؛ جميع العوامل التى تحدد سلوك الفرد فى لحظة ما .

[P. L Harriman. 1947]

حيز الحياة life space أو جزء منه من حيث مضمونه ، أى من حيث معناه . (ويلاحظ أن « حيز الحياة » مفهوم يستخدمه لڤين للإشارة إلى جميع العوامل التى تحدد سلوك الفرد فىلحظة ما . أى أنه يشتمل على الشخص والبيئة) . ويشير مفهوم الموقف أحياناً إلى موقف الحياة بوجه عام أو إلى الموقف الراهن .

[K. Lewin 1936]

١ – النمط المنبه الذى يؤثر فى فرد ما فى لحظة ما أو أثناء فترة استقبال المنبه .
٢ – البيئة والكائن الموجود فى هذه البيئة فى لحظة معينة .

(ويلاحظ أن مفهوم « الموقف » أشمل من مفهوم البيئة ، لأنه يشتمل على المنبهات الداخلية والخارجية) .

[H.C. Warren 1934]

يلاحظ أن كوفكا K. Koffka (1935) يستخدم مفهوم « المجال » field للدلالة على المعنى الثانى لمفهوم الموقف . أى البيئة والكائن الموجود فى هذه البيئة .

Social approval : تحبيذ اجتماعى

مجرد تعبير أعضاء الجماعة عن رضاهم عن عمل معين صادر عن أحدهم . ويكون لهذا « التحبيذ الاجتماعى » تأثير حافز . ويستند هذا التأثير إلى أحد مصدرين : الارتباط الشرطى بين تعبيرات الرضا وبين المكافأة ، أو بين تعبيرات عدم الرضا وبين العقاب . أما المصدر الثانى فهو عملية « الاستزادة من المنبه اللاذ adience » . وفى هذه الحالة يبدو « التحبيذ » فى مجرد محاكاة للفعل الذى تحبذه الجماعة ، كما هى الحال عند ما تحاكى الأم ابتسامة الطفل ومناغاته فيحفزه ذلك إلى إعادة الابتسام والمناغاة .

[D. Katz & R.L. Schanck 1947, p. 278]

Social distance : المسافة الاجتماعية

١ – الفرق بين جماعتين فى درجة الارتقاء الحضارى لكل منهما .
٢ – درجة النفور التى يبديها الأعضاء المنتمون إلى جماعة ما نحو الأعضاء المنتمين إلى جماعة أخرى .

[J. Drever 1952]

درجة سوء الظن أو النفور التى يبديها أعضاء جماعة ما نحو أعضاء جماعة أخرى ، ويعبر عن ذلك عادة فى حدود العلاقات التى يمكن أن يسمح بها أعضاء الجماعة الأولى لأعضاء الجماعة الأخرى . (من هذه العلاقات : الزواج والصداقة والجوار . . .) .

[H.C. Warren 1934]

تيسير اجتماعى : Social Facilitation

يستخدم ألبورت F.H. Allport هذا المفهوم للإشارة إلى الزيادة الملحوظة فى نشاط الفرد نتيجة لكونه يرى ويسمع آخرين يقومون بنوع النشاط نفسه الذى يقوم به .

[كانت هذه الظاهرة من بين الظواهر الأولى التى أجرى عليها التجريب فى علم النفس الاجتماعى . وقد بدأت المحاولات الأولى فى هذا الصدد فى سنتى ١٩٠٣ و ١٩٠٤ . ويمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى :

[G. Murphy 1938, p. 298]

أما فيما يتعلق بطبيعة « التيسير الاجتماعى » : فيرى ألبورت أنه لا ينطوى على التنافس rivalry . بل يتم لمجرد رؤية آخرين أو سماعهم وهم يقومون بنفس العمل . (أما ما يلاحظ من ازدياد شدة النشاط فى المواقف التى تتضمن التنافس فمرجعه إلى « التقوية الوجدانية emotional reinforcement » وهذا التأثير المباشر للسمع والبصر يمكن أن يفسر بأحد التفسيرات الآتية :

١ — إن رؤية الفرد وسمعه لأنواع نشاطه الخاصة تعتبر هى نفسها منبهات شرطية تنبهه للاستمرار فى نشاطه . كذلك رؤية الحركات المماثلة إذ يقوم بها الآخرون تقوم بمهمة مماثلة لذلك « التنبيه الذاتى » .

٢ — ربما تضمن الموقف بضعة اتجاهات معقدة : كأن تجعلنا معرفتنا بأن المحيطين بنا يقومون بنفس العمل الذى نقوم به ، تجعلنا

مستعدين للعمل بسرعة منذ البداية .

٣ — ويرى موبمان E. Meumann أنه ربما رجع هذا التيسير الاجتماعى إلى : أنه نتيجة للتشتت الذى نعانيه فى المواقف الجماعية نحاول أن نعوّض عنه بزيادة النشاط عما اعتدنا فى المواقف العادية .

٤ — ويرى باحثون آخرون أن « التيسير الاجتماعى » يرجع إلى أسباب عصبية فى أساسة . فجرد العمل فى حضور الآخرين يزوّد الشخص بتنبيهات زيادة على التنبيهات التى يتعرض لها وهو يعمل منعزلاً ، وهذه التنبيهات ينتج عنها زيادة فى الشحنة العصبية ، وتنطلق هذه الشحنة العصبية ويحدث التفريغ من خلال أكثر الممرات انفتاحاً . وبذلك تزداد شدة النشاط المبذول فى هذه اللحظات .

وينص كاتس وشانك D. Katz & R.L. Schanck على أنهما يستخدمان هذا المفهوم للإشارة أساساً إلى «الزيادة فى الأداء increase in performance» بغض النظر عن الدافع وراء ذلك .

[D. Katz & R.L. Schanck 1947, pp. 292-295]

يرى لابيير وفارنزورث R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth أن كثيراً من النتائج التى تعزى إلى « التيسير الاجتماعى » كما يعرّفه ألبورت ترجع جزئياً إلى عامل التنافس حيث أنه فى كثير من الحالات يتعذر علينا أن نعرف بيقين إذا ما كان للتنافس وجود أم لا . بعبارة أخرى ربما كان ما يعرف بالتيسير الاجتماعى ليس سوى « تنافس هادئ » .

ويرجع الاختلاف فى تحديد مضمون هذا المفهوم بين الباحثين إلى نظرتهم ومعالجتهم لعملية « العزل » . ففى بعض التجارب التى اعتبر الأشخاص فيها « منعزلين » كان المجرّب حاضراً . كذلك الاختلاف فى طبيعة الاختبارات التى أجريت على الأشخاص تعتبر سبباً آخر لهذا التباين فى النتائج . ويلاحظ أيضاً أن بعض الباحثين استخدموا أشخاصاً ذوى نسبة

ذكاء مرتفعة ، بينما استخدم باحثون آخرون أشخاصاً متوسطى الذكاء، فى حين أن فريقاً ثالثاً استخدم أشخاصاً أغبياء . والراجح أن يكون متوسطو الذكاء أكثر من غيرهم تأثراً بهذا الذى نسميه « التيسير الاجتماعى » ، أكثر من ذوى الذكاء المرتفع ، ومن ذوى الذكاء المنخفض أيضاً .

وقد أجريت دراسات كثيرة فيما يتعلق بأثر « التيسير الاجتماعى » فى مظاهر نشاط الفرد المتعددة . نذكر من بينها أثره فى :

(ا) النشاط الحركى .

(ب) النشاط الذهنى .

(حـ) نشاط التذكر .

[R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 442]

يلاحظ أن هذا المفهوم يشبه مفهوم « تبادل التقوية فى الجماعة » group reinforcement فى نواحيه المختلفة ، عدا ناحية واحدة . ذلك أن مفهوم « تبادل التقوية فى الجماعة » يعتمد على ما يسمى « بالمعايير المشتركة » shared norms ، (وهذه هى التى تلون إدراك الفرد للأمور المختلفة بلون جديد ، وهذا بدوره يتدخل فى « زيادة شدة النشاط » الصادر عن الفرد أثناء وجوده فى الجماعة ، بأن يجعل له دلالة أخرى غير تلك التى يقررها ألبورت ، ألا وهى تأكيد « انتماء » الفرد للجماعة بممارسة « دوره » فيها بأوضح صورة ممكنة) . فى حين أن مفهوم « التيسير الاجتماعى » لا يشير إلا إلى مجرد الزيادة الكمية فى التنبيه ، والزيادة الكمية فى سرعة النشاط وفى ناتجه .

[T. M. Newcomb 1952, p. 633]

زيادة شدة استجابة ما ، نتيجة لفعل منبهات اجتماعية مثل منظر أو صوت أشخاص آخرين مشتغلين بنفس النشاط .

[H.C. Warren 1934]

Social Group : جماعة

أى عدد من الأشخاص يشاركون فى معايير معينة . وتتداخل أدوارهم الاجتماعية ، بحيث إن أى تغير فى أحد الأدوار ينجم عنه تغيير فى الأدوار الأخرى .

[T. M. Newcomb 1952, p. 492]

ولا يشترط فى « الجماعة » التقارب المكانى ، أو الالتقاء وجهاً لوجه . وعلى هذا الأساس أقام كولى C.H. Cooley تفرقته بين « جماعة أولية » primary group وهى الجماعة التى يتم فيها التفاعل بين الأعضاء من خلال الالتقاء وجهاً لوجه ، وبين « جماعة ثانوية » secondary group وهى الجماعة التى لا يتم فيها التفاعل عن طريق الالتقاء وجهاً لوجه (كالدولة والأمة والجماعة الدينية) .

[J.F. Brown 1936, p. 119]

عدد من الأفراد يشعرون ويعملون – إلى حد ما – كأنهم وحدة .

[J. Drever 1952]

مجموعة من الآدميين يعيشون معظم حياتهم متقاربين ، أو يستجيبون لبعضهم البعض ، أو يستجيبون لمنبه مشترك .

[H.C. Warren 1934]

Social Interaction : تفاعل اجتماعى

العمليات الاجتماعية عند ما نحللها من زاوية التنبيهات المتبادلة والاستجابات بين الأشخاص والجماعات . والأشكال الرئيسية للتفاعل هى التعارض (ويشمل التنافس والتنازع) والتعاون . ويعتبر الانعزال هو درجة الصفر للتفاعل الاجتماعى .

[H.P. Fairchild 1944]

يشار بهذا المفهوم إلى العملية التى بوساطتها تتم ملاحظة الفرد واستجابته للآخرين الذين يلاحظونه ويستجيبون له . وتحدث هذه العملية فى المستوى الواقعى كما تحدث فى المستوى التخيلى . وتكون استجابة الفرد للآخرين هى نفسها بمثابة منبه لهم يستجيبون له باستجابات تصبح بدورها منبهاً للفرد . وهكذا . ويشغل مضمون هذا المفهوم معظم مجال علم النفس الاجتماعى . وينطوى التفاعل الاجتماعى دائماً على عنصر إيجابى فى الشخصية المتفاعلة . ويتمثل هذا العنصر فى كون الشخصية تستجيب لبعض ما يرد إليها من تنبيهات اجتماعية ، فهى تنتخب بعض المنبهات دون البعض الآخر . ويكون التفاعل الاجتماعى مصحوباً دائماً بدرجة معينة من الاكتساب . ويلاحظ أن التفاعل يمضى فى معظم المواقف الاجتماعية من الشخص وإليه ، ولا يمضى فى اتجاه واحد إلا نادراً . ويظهر التفاعل الاجتماعى فى أشكال مختلفة : كالتعاون والحب والتشجيع والمحاكاة .

[T. M. Newcomb 1952, p. 21]

Social Role : الدور الاجتماعى

الدلالة الوظيفية للفرد فى الجماعة . الشخصية كما تكشف عن نفسها فى نمط معين من السلوك نحو الجماعة . ويرى نيوكوم ضرورة التفرقة بين مجموع الخدمات التى يضطلع بها « الدور » فى الجماعة ، وما يقوم وراء هذا الدور من « دوافع » معينة لدى صاحب هذا الدور . والمهم من وجهة نظر الجماعة هو « مجموع الخدمات » ، والمهم من وجهة نظر الفرد هو « الحوافز » وكيف أنها تجد إرضاءها من خلال دوره .

[T. M. Newcomb 1952, p. 461]

ويعتمد دور الفرد فى الجماعة على أدوار جميع الأفراد الآخرين فيها ، بحيث يتغير تبعاً لحدوث أى تغير فيها .

[ibid. p. 286]

ويرى لابيير وفارنزورث أن الدور الاجتماعى يتخذ مظاهر (من أنماط حركية ولغوية وتعبيرية ... الخ) تتفق مع الأوضاع الحضارية السائدة فى المجتمع ، وتفرضه الجماعة على الفرد كما يفرض « الدور » فى المسرحية على الممثل . وبناء على ذلك تتوقع الجماعة من الفرد نمطاً معيناً من السلوك . وتستجيب له – إلى حد كبير – على حسب الدور الذى تحدده له .

[R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 211]

ويرى كرش وكرتشفيلد أن طريقة تحديد الدور الاجتماعى للفرد تختلف باختلاف نمط الجماعة . فنى « المنظمات الاجتماعية » يجد الفرد دوره معداً له ، ويغلب عليه أن يكون محدداً فى كثير من تفاصيله ، أما فى« الجماعات السيكولوجية » فيتحدد دور الفرد – إلى حد كبير – من خلال تفاعلاته مع الآخرين وبالتالى يعتمد غالباً على خصائص هذا الفرد .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 373]

طابع العضوية الاجتماعية : Social Membership-Character

عضوية الفرد فى جماعة ما تتحدد بدرجة التشابه فى بعض الخصائص السيكولوجية بينه وبين سائر أعضاء الجماعة ، تلك الخصائص التى تميز بينهم وبين من ليسوا بأعضاء . فالأفراد الذين ينتمون إلى ناد معين يشتركون جميعاً فى الخضوع لقيود معينة ، (أداء اشتراكات ، وحضور اجتماعات معينة ، والقيام بضروب معينة من النشاط ... الخ) وفى تنظيم بعض جوانب سلوكهم تنظيماً معيناً .

وفى التمثيل الطوبولوجى لهذه الحقيقة يمثل جميع الأفراد المنتمين إلى جماعة واحدة بعدد من النقاط داخل منطقة محددة .

وثمة تفاوت بين المناطق الاجتماعية المختلفة من حيث درجة التنوع variation المسموح بها للأعضاء .

وتتحدد هذه الدرجة بناء على ديناميات المجال الذى يضم هذه المنطقة ومناطق أخرى . (فالجماعات ذات النشاط السرى تكون درجة التنوع المسموح بها لأفرادها عادةً ضئيلة) كما أن هذه الدرجة تختلف من مرحلة تاريخية إلى أخرى . ويشير هذا المفهوم إلى حقيقة دينامية تتجلى بشكل واضح فيما يتعرض له الشخص من صراع إذا ما تعارضت التزاماته نحو جماعتين ينتمى إلى كل منهما . وهنا يلزمنا أن نتكلم عن درجات متفاوتة من قوة العضوية الاجتماعية ، على أساس أن العضوية الأقوى هى التى تتغلب فى هذا الصراع ويسلك الفرد تبعاً لمقتضياتها .

[J.F. Brown 1936, pp. 53, 51]

والانعكاس الشعورى لعضوية الفرد الاجتماعية يتمثل أساساً فى « الشعور بالنحن » . ويمكن القول بأن مفهوم « حالة النحن » يشير إلى نفس الحقيقة الدينامية التى يشير إليها مفهوم « العضوية الاجتماعية » . غير أن الأول يشير إليها من ناحية الجماعة ، أما الثانى فيشير إليها من ناحية الفرد .

درجة التصلب الاجتماعى : Social Rigidity (degree of)

يستخدم هذا المفهوم للإشارة إلى مدى تمسك الفرد بصفات معينة يشترط توفرها فيمن يعقد معهم علاقات إيجابية تلقائية (كالصداقة) . فكلما ازداد تمسكه بهذه الصفات ارتفعت درجة تصلبه الاجتماعى .

موقف اجتماعى : Social Situation

البيئة الاجتماعية ، من حيث إنها تقدم للفرد – فى أية لحظة – نمطاً معيناً من المنبهات تستثير رد فعله أو استجابته .

[J. Drever 1952]

مجموع أو نمط المنبهات كما تواجه فرداً معيناً فى وقت معين ، بقدر ما

تتعلق هذه المنبهات بأفراد آخرين من النوع نفسه .

[H.C. Warren 1934]

Social Status : مركز اجتماعى

وضع الفرد فى الجماعة ، كما يتحدد من خلال اتجاهات سائر الأعضاء نحوه .

[J. Drever 1952]

أبسط عناصر البناء الاجتماعى . إذ يمكن القول بأن الجماعات على اختلاف أنواعها تتألف من شبكة من المراكز ، ويرتبط كل مركز بوظيفة (أى بخدمة) يؤديها للجماعة . ويمكن اعتبار الدور الاجتماعى هو المركز فى حالة أداء للوظيفة المتوقعة . وللمركز الاجتماعى خاصيتان رئيسيتان :

(ا) أولاهما أن المركز يرتبط بهدف النظام الذى يضمه .

(ب) وثانيهما أنه يرتبط بكل مركز اجتماعى نمط معين من السلوك المتوقع نحو الأشخاص الذين يشغلون مراكز متصلة بذلك المركز .

[T. M. Newcomb 1952, pp. 277, 278]

وضع الفرد أو وظيفته الخاصة فى جماعة ما ، كما يتحدد من خلال اتجاهات أعضاء الجماعة نحوه .

[H.C. Warren 1934]

Social Status (power of) : قوة المركز الاجتماعى

تحدّد بعدد الأشخاص الذين أجمعوا على اختيار الشخص صديقاً أو مقرباً وترتفع قوة المركز الاجتماعى للشخص لا بعدد هؤلاء الأشخاص فحسب ، ولكن بمقدار قوة المركز الاجتماعى لكل منهم .

Socialization : تطبيع (أو تنشئة اجتماعية)

عملية التفاعل الاجتماعى التى يتم من خلالها تشكيل الوليد البشرى . ومن

خلالها يمتص المعايير الاجتماعية ، ويتخذ مكاناً معيناً فى « نظام الأدوار الاجتماعية » ويكتسب شخصية .

[Th. M. Newcomb 1952, p. 475]

العملية التى يتم من خلالها تكييف الفرد مع بيئته الاجتماعية ، ويصبح عضواً معترفاً به متعاوناً مع الآخرين .

[J. Drever 1952]

العملية التى بواسطتها يكتسب الأفراد عادات مقبولة اجتماعية ويصبحون قادرين على أن يعيشوا كأعضاء فى المجتمع .

[H.C. Warren 1934]

سوسيومترى (أو تخطيط العلاقات الاجتماعية) : Sociometry

دراسة العلاقات الدينامية بين الأعضاء فى جماعة ما ، مع الاستعانة بطرق التمثيل الجغرافية أو المكانية .

[J. Drever 1952]

ويقصد الباحث على هذا الأساس إلى وضع سوسيوجرام sociogram أى رسم تخطيطى لتوزيع علاقات الاختيار والاختيار المتبادل بين أعضاء الجماعة . ويمكن الاستعانة بمثل هذا التخطيط لدراسة كيفية انتقال « الشائعات » بين الأفراد . كما يمكن الإستعانة به لدراسة ديناميات « المؤامرات » و « الزعامة » وغيرهما من مظاهر التفاعل فى الجماعة .

يهدف السوسيومترى إلى الكشف عن الجغرافيا السيكولوجية للمجتمع ، أى عن أنماط العلاقات المتبادلة بين أعضاء الجماعة . وهى لا تعنى بالعلاقات الرسمية بين الأعضاء ، بل بالعناصر السيكولوجية الفعالة فى علاقاتهم الدينامية .

[H. Jennings 1946]

Solidarity (*Fr.* solidarité) : تضامن

عملية التآزر أو الاعتماد المتبادل كما تظهر فى الحياة الاجتماعية . وقد شاع استخدام هذا المفهوم بشكل واضح منذ أوجست كونت A. Comte .

إلا أن كلود برنار C. Bernard استخدمه فى ميدان الدراسات البيولوجية (حيث يشيع الآن استخدام مفهوم التآزر coordination) إذ تكلم عن التضامن بين ظواهر المادة الحية .

والمعنى الأصلى لهذا المفهوم معنى تشريعى . فقد كان يستخدم للإشارة إلى « تضامن » الفرد مع جماعته فى المسئولية . والأصل اللاتينى الذى كان مستخدماً عند المشرعين الرومان هو solidum .

وقد فرق أوجست كونت بين نوعين من التضامن الاجتماعى : التضامن بين أفراد الجيل الواحد ، وأطلق عليه كلمة solidarité ، والتضامن بين الأجيال المتتابعة ، وأطلق عليه كلمة continuité (الاستمرار) .

[A. Lalande 1926]

التماسك الذاتى للجماعة — ارتباط الجماعة بالعناصر الموحدة التى تمسك عليها وحدتها .

[H.P. Fairchild 1944]

Solidity (*Fr.* solidité) : صلابة

انظر rigidity

Stability (*Fr.* stabilité) : استقرار

(فى الدراسات الفيزيقية) يقال « اتزان مستقر » stable equilibrium ، ويقصد به الإشارة إلى حالة الجسم الثابت إذا كان يميل إلى العودة إلى وضعه الأصلى كلما أزيح إزاحة طفيفة .

ويكون « الاتزان غير مستقر » إذا كانت إزاحته الطفيفة تميل إلى الزيادة.
[E.B. Uvarov & D.R. Chapman 1951]

ويستخدم لفين مفهوم « الاستقرار » فى مقابل مفهوم الميوعة fluidity (ويعرّف مفهوم الميوعة على النحو التالى : كلما تضاءلت القوى اللازمة لإحداث تغير معين فى وسط ما كان حظ هذا الوسط من الميوعة أكبر.) ويلاحظ أن لڤين يصف « المواقف » و « الجماعات » بالاستقرار أو بالميوعة . ويستخدم مفهوم « الصلابة » ، بمعنى درجة المقاومة التى تبديها الأشياء لأى تأثير يرد عليها من الخارج . وعلى ذلك يكون مفهوم « الاستقرار » مماثلاً فى معناه لمفهوم « الصلابة » . غير أن الاستقرار يطلق على المواقف والجماعات (كما يطلق على المجال والبيئة و « حيز الحياة » life space) . ولا يجوز أن نستنتج بناء على ذلك أن « الميوعة » تساوى « المطاوعة » ، بحجة أن الميوعة صفة للمواقف بينما (المطاوعة) صفة للأشياء.
[K. Lewin 1936, pp. 159, 160]

يستخدم كرش وكرتشفيلد هذا المفهوم بالنسبة للجماعات بنفس المعنى الذى يحدده لڤين .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 395]

ويستخدم مورفى G. Murphy مفهوم « الاستقرار الوجدانى » .
[G. Murphy & others 1937]

وورد فى مختار الصحاح ما نصه : يقال أقره فى مكانه فاستقر . والقرار فى المكان الاستقرار فيه .

Stage (*Fr.* phase) : مرحلة

أى قسم من الأقسام الطبيعية التى تنقسم إليها سلسلة مطردة من الأحداث أو من التغيرات التطورية .

[H.C. Warren 1934]

Stereotype (*Eng.* & *Fr.*) : قالب (نمط متجمد) :

أول من استخدم هذا المفهوم فى ميدان علم النفس الاجتماعى هو الكاتب الصحفى ليبمان W. Lippman سنة ١٩٢٢ (فى كتابه "Public Opinion") .

نمط شخصية الآخر كما تحدده لنا الجماعة ، وقد يكون هذا مخالفاً لما هو فى الواقع . هو الصنف الذى نضع فيه الشخصية بمجرد معرفتنا بعدد ضئيل من المعلومات عنها ، ونتعامل معها متنبئين باستجاباتها تبعاً لخصائص هذا الصنف . ونحن غالباً لا نستمد معرفتنا بخصائص هذا الصنف من الخبرة الواقعية المباشرة مع الأفراد ، عن طريق عملية استقراء لهم ثم تعميم ، بل نستمدها « مصنوعة » فعلاً من المجتمع أثناء العمليات التربوية المختلفة .
[R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 190]

فهناك مثلاً قالب معين « للمسيحيين » فى نظر المسلمين . وهناك قالب معين « للريفيين » فى نظر « أهل المدن » . وهناك قالب معين « للصعيدى » فى نظر القاهريين ، وهكذا .

ويلاحظ أن العلاقات الودية الوثيقة وما تتيحه من خبرات واقعية متتالية من شأنها أن تؤدى إلى انهيار بعض هذه القوالب أو إدخال تعديلات حاسمة عليها .

ويمكن الرجوع إلى مفهوم « القالب » والإفادة منه فى بحوث التعصب (بين الطوائف أو القوميات أو السلالات) ، مع استخدام مفهوم « المسافة الاجتماعية » . ويمكن اعتباره مظهراً من مظاهر أطر الدلالة frames of reference

ويرى نيوكوم أن علماء النفس الاجتماعيين يستخدمون هذا المفهوم بمعنى « إدراك مقنن أو منمط standardized » لجميع الأعضاء فى أية فئة من الناس بوجه خاص أو من الأشياء بوجه عام . بحيث يتغاضى إلى حد

كبير عن الفوارق الفردية بين أعضاء الفئة . ويشير « القالب » غالباً إلى صفات يلصقها بالشخصية والذكاء والخلق .

ويستخدم نيوكوم هذا المفهوم نفسه استخداماً آخر . إذ يتكلم فى « تنميط الشخصية » ، بمعنى إكسابها (عن طريق عمليات التعلم المختلفة) القوالب السائدة بين أعضاء الجماعة .

[T. M. Newcomb 1952, p. 578]

يقول والترليپمان ، المبتكر الأصلى للمفهوم :

« القوالب صورة منظمة للعالم يتفاوت حظها من التماسك ، وقدتكيفت تبعاً لها أذواقنا وقدراتنا وآمالنا ومسراتنا . وقد لاتكون صورة مكتملة للعالم ، ومع ذلك فهى صورة لعالم ممكن نتكيف معه . وفى هذا العالم يحتل الناس والأشياء أماكن محددة لهم بكل وضوح ، ويقومون بأعمال نتوقعها منهم . وهنا نشعر بأننا فى عالمنا ، فنستقر . ذلك أننا أعضاء فى هذا العالم . إننا نعرف الطريق، هنا نستمتع بالعادى والسوى ،ومايمكن الاطمئنان إليه[1] » .

ويشير ليپمان هنا إلى الوظيفة التكيفية التى تقوم بها القوالب .

ويرى كاتس وشانك أن مفهوم القوالب يساوى مفهوم « التصورات الجمعية collective representations كما يرد عند دوركهيم E. Durkheim وليفى بريل L. Bruhl

[D. Katz & R.L. Schanck 1947, pp. 79, 87]

Stereotyped Responses : استجابات منمطة

صفة تطلق على الاستجابات التى تؤدى دائماً بطريقة واحدة .

[H.C. Warren 1934]

(١) Lippmann, W.1920 "*Public Opinion*", New York: Macmillan, (through D. katz & R.L. Schanck 1947)

Subordination (*Eng.* & *Fr.*) : ائتمار

خضوع المراكز الدنيا – فى أى نظام – للمراكز العليا . ويستخدم هذا المفهوم بوجه خاص للإشارة إلى خضوع المراكز الدنيا فى الجهاز العصبى للمراكز العليا .

(ى . مراد ١٩٤٨)

ويجوز استخدام هذا المفهوم فى الدراسات السيكولوجية والاجتماعية .

System (*Fr.* système) : نظام

يستخدم هذا المفهوم فى الكيمياء الطبيعية لوصف مجموعة من المواد عند ما ندخل فى حسابنا صفة شاملة للمجموعة ككل دون اعتبار لتوزيعها على الأجزاء .

[P.J. Durrant 1952, p. 16]

مجموعة من الأشياء أو الوقائع المترابطة فيما بينها بالتفاعل أو الاعتماد المتبادل .

[H.C. Warren 1934]

Tension (*Eng.* & *Fr.*) : توتر

حالة منطقة من مناطق « المجال » بالنسبة لسائر المناطق . وتنشأ هذه الحالة عن وجود قوى تضغط على حدود المنطقة وتتجه إلى إحداث تغيير من شأنه أن يقلل من فوارق التوتر بين مناطق المجال .

[K. Lewin 1936]

شعور بالشد strain . أو شعور عام باختلال الاتزان ، والاستعداد لتغيير السلوك لمواجهة عامل يتهددنا فى موقفنا .

[J. Drever 1952]

وقد استخدم فونت Wundt هذا المفهوم فى أواخر القرن التاسع عشر . وذلك بأن قرر أن « التوتر – والارتخاء » من الأبعاد الرئيسية للوجدان .

ويستخدم كرش وكرتشفيلد مفهوم التوتر كذلك بالنسبة للجماعات "group tension" . ويكون التوتر فى الجماعة دليلاً على اختلال التوازن بين قوى الجماعة . وينتج عنه حدوث تغير فى بنائها فى الاتجاه الذى يؤدى إلى خفض التوتر بتحقيق اتزان جديد بين القوى .

ويعالج الباحثان هذا المفهوم أيضاً بالنسبة للشخصية بتوسع . ويقرران أن « التوتر » يتخذ عدة أشكال شعورية ، منها :

(ا) مشاعر غامضة بالقلق وعدم الرضا والحصر ، دون إشارة واضحة إلى جانب معين فى مجال السلوك .

(ب) مشاعر بالرغبة أو الحاجة موجهة نحو أهداف معينة فى المجال .

(حـ) مطالب معينة على أساس أنها صادرة عن جوانب معينة من المجال .

فإذا لم يكن الفرد يدرك تماماً نتائج التوترات التى يعانيها فنحن هنا نتكلم عن دوافع لاشعورية . ويمكن القول بوجه عام بأن مفهوم التوتر يقوم وراء ذلك الجانب من جوانب السلوك الذى نسميه « بالدوافع » .

[D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 395, 40]

ويعتبر كورت لفين صاحب الفضل فى توضيح أهمية مفهوم « التوتر » فى البحوث الحديثة فى سيكولوجية الدوافع .

[K. Lewin 1935]

استخدم الفلاسفة الرواقيون هذا المفهوم بمعنى الجهد الباطنى الذى يبذله كل موجود للاحتفاظ بوحدته الطبيعية وتماسكه .

كما استخدم بيير جانيه P. Janet مفهوم «التوتر السيكولوجى» للإشارة

إلى الحقيقتين الرئيسيتين اللتين تميزان الدرجات العليا فى سلم الوظائف العقلية وهما :

١ ــ الوحدة والتركيز .

٢ ــ الكثرة أو مجموعة الحالات السيكولوجية التى تقوم كأجزاء فى تلك الوحدة . والعملية السيكولوجية التى توحد بين هاتين الحقيقتين هى التى تسمى « بالتوتر السيكولوجى » .

[A. Lalande 1926]

ويستخدم هذا المفهوم فى الدراسات الطبيعية . (وربما تأثر لڤين بهذه الحقيقة فى محاولة إشاعة استخدامه فى البحوث السيكولوجية الحديثة) . فيشار « بالتوتر السطحى » surface tension إلى درجة التجاذب بين جزئيات السائل الواقعة عند سطحه ، وتكون أعلى مما هى بين سائر جزيئاته . ولذلك تكوّن جزئيات السطح ما يشبه الغشاء المطاط المتعرض لدرجة عالية من الشد .

كذلك يستخدم هذا المفهوم فى الدراسات الفيزيولوجية . « فالتوتر العضلى » يشار به إلى درجة الشد الواقعة على عدد معين من الألياف العضلية .

ويعتبر هذا المفهوم ممثلاً لطراز جديد من المفاهيم السيكولوجية . وذلك من حيث اتساع مضمونه (إذ يمكن استخدامه بدلاً من عدة مفاهيم معاً ، مثل : حاجة ، ورغبة ، ودافع ، وحافز . . . الخ) ، كما أنه يشير إلى حقيقة دينامية أكثر مما يشير إلى حقيقة شعورية ، (ولذلك فهو من هذه الناحية أفضل من مفهوم الرغبة ، وبالتالى فلسنا بحاجة عند ما نستخدمه إلى تحديد موضعه بالنسبة لمستويات الشعور) . أضف إلى ذلك أنه يستخدم فى الدراسات الفيزيقية والفزيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . وهو بذلك يمثل محاولة نحو توحيد لغة العلم .

إلا أن الخطر فى مثل هذه المفاهيم يتمثل فى كونها يمكن أن تستخدم

استخداماً مائعاً دون أن ترتبط بمضمون محدد وهذا مما يعرقل البحث العلمى.

طبولوچيا : Topology

العلم الذى يدرس العلاقات بين المواضع المختلفة بغض النظر عن المسافة والاتجاه . ولما كان التفكير فى العلاقات يميل إلى أن ينظم نفسه فى علاقات مكانية فإن الطوبولوچيا تقدم لنا الأساس الرياضى اللازم لإقامة نظريات سيكولوجية حيث القياس بمعناه التقليدى (أى القياس ابتداء من الصفر ، والتقدم بوحدات متساوية) تواجهه كثير من الصعوبات فى المرحلة الحاضرة من تاريخ علم النفس . ومن الجلى أن لهذا التعريف مساساً ببعض المفاهيم السيكولوچية الحديثة مثل الصيغة configuration ، والانتماء belongingness والعضوية membership . ويمكن القول من وجهة نظر المهتمين بالدراسات السيكولوچية بأن الطوبولوچيا هى العلم الدارس « لانتماء » المناطق المكانية ، وما قد يكون بين هذه المناطق ومناطق أخرى من علاقات .

[J.F. Brown 1936, p. 48]

أما عن الأسس المنهجية فى كيفية الاستعانة بالطوبولوچيا فى دراسة ظواهر السلوك فيمكن الرجوع إلى لڤين بوجه خاص .

[K. Lewin 1936]

وقد حاول براون إقامة علم النفس اجتماعى على أساس المفاهيم الطوبولوچية

[J.F. Brown 1936]

كما أن الدراسات السوسيومترية التى بدأها مورينو J.L. Moreno تقوم على أسس طوبولوچية أيضاً .

أما عن القيمة العلمية لهذه المحاولات فيمكن الرجوع إلى :

[M.H. Marx 1951]

Le transitivisme : مرحلة التعدى

يستخدم فالون هذا المفهوم للإشارة إلى إحدى مراحل الارتقاء الاجتماعى للفرد . وهى تحدث فى خلال السنة الثالثة من العمر . وتتحدد فيها علاقة « الأنا » « بالآخر » على أساس اعتبار « الآخر » كبش فداء .

[H. Wallon 1949, p. 216]

Trophallaxis : التلامس

يستخدم هويلر W.M. Wheeler هذا المفهوم للإشارة إلى عمليات « التواصل » التى تتم بين أفراد النمل داخل المسكن الواحد . وتمثل هذه العملية أدنى مستويات التواصل . (فى مقابل لغة الألفاظ . وهى تمثل أرقى مستويات التواصل) . وهى عبارة عن : تبادل التنبيهات اللمسية بوساطة قرون الاستشعار بين أفراد النمل ، على أساس أن الآخر مصدر للطعام .

وإقدام النملة اليافعة على تنبيه نملة يافعة بلمسها بقرنى الاستشعار عبارة عن فعل منعكس شرطى يقترن بخروج كمية من الطعام من حوصلة النملة التى تتلقى التنبيه .

وتكتسب النملة منذ طور اليرقة الآلية اللازمة للقيام بهذا العمل . على أساس أن النملة اليرقة تكون فى حالة جوع دائماً يصحبه اهتزاز شديد فى قرنى الاستشعار كفعل منعكس ، فإذا ما اقترب منها النمل اليافع مصادفة وتعرض للمسات قرنى الاستشعار خرجت من حوصلته كمية من الطعام وسقطت فى أفواه اليرقات ، وبتكرار هذه العملية تثبت فى الصغار عملية لمس النمل الآخر كفعل منعكس شرطى مقترن بتوقع الطعام .

Type (of personality) : طراز (الشخصية) :

انظر " نمط " pattern

قاموس المفاهيم

مرتبة تبعاً لترتيب الحروف الأبجدية العربية

ائتمار	subordination
ارتقاء	development
استجابة مطاوعة	plastic response
استجابات منمّطة	stereotyped responses
استعداد	aptitude
استقرار	stability
انبساط	extraversion
انطواء	introversion
أونتوچيى	ontogeny
أونتوچينية (دراسة)	ontogenetic study
بيئة	environment
تبادل (مرحلة)	mutualism
تجمّع حيوانى	association
تحبيذ اجتماعى	approval (social)
تدرج السيطرة (نظام)	pecking order
تضامن	solidarity
تطبيع	socialization
تعدى	le transitivisme

operational definition	تعريف إجرائى أو وظيفى
social interaction	تفاعل اجتماعى
integration	تكامل
trophallaxis	تلامس
egocentrism	تمركز فى الذات
communication	تواصل
tension	توتر
facilitation	تيسير
social group	جماعة اجتماعية
psychological group	جماعة سيكولوجية
reference group	الجماعة المرجع
boundaries	حدود
longitudinal study	دراسة تتبعية
social role	دور اجتماعى
dynamic	دينامى
morale	روح معنوية
sociometry	سوسيومترى
rigidity (or solidity)	تصلُّب
degree of social rigidity	تصلُّب اجتماعى (درجة)
national membership character	طابع العضوية القومية
national character	طابع قومى
type	طراز
topology	طوبولوجيا
process	عملية
phylogeny	فيلوجينى

phylogenetic study	فيلوجينية (دراسة)
stereotype	قالب (نمط متجمد)
stage	مرحلة
social status	مركز اجتماعى
power of social status	مركز اجتماعى (قوة)
social distance	مسافة اجتماعية
plasticity	مطاوعة
norms	معايير
organization	منظمة (أو تنظيم)
situation	موقف
social situatior	موقف اجتماعى
maturation	نضج
system	نظام
permeabilit	نفاذ
pattern	نمط

مراجع القاموس

Allee, W.C. Relatively Simple Animal Aggregations, *A. Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Brown, J.F. *Psychology and The Social Order*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Cattell, R.B. Fluctuation of Sentiments and Attitudes as a Measure of Character Integration and Temperament, *Amer. J. Psychol.*, 1943, 56.

Cattell, R.B. *Personality*, New York : McGraw-Hill, 1950.

Drever, J. *A Dictionary of Psychology*, Middlesex : Penguin Books, 1952.

Durrant, P.J. *General and Inorganic Chemistry*, London : Longmans, 1952.

Fairchild, H.P. *Dictionary of Sociology*, New York : Philos. Libr., 1944.

Harriman, P.L. *The New Dictionary of Psychology*, Now York : Philos. Libr., 1947.

Jennings, H. Sociometry, *Encyclopedia of Psychology*, P.L. Harriman ed., New York : Philos. Libr., 1946.

Katz, D. & Schanck, R.L. *Social Psychology*, New York : John Wiley, 1938.

Klineberg, O. A Science of National Character, *J. soc. Psychol.*, 1944, 19.

Krech, D. & Crutchfield, R.S: *Theory and Problems of Social Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1948.

Lalande, A. *Vocabulaire Technique et Critique de La Philosophie*, Paris : Alcan, 1926.

La Piere, R.T. & Farnsworth, P.R. *Social Psychology*, New York: Mcgram-Hill 2nd. ed., 1942.

Lewin, K. *Dynamic Theory of Personality*, New York : McGraw-Hill, 1935.

Lewin, K. *Principles of Topological Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Marx, M.H. *Psychological Theory*, New York : Macmillan, 1951.

Murphy, G., Murphy, L.B. & Newcomb, T.M. *Experimental Social Psychology*, New York : Harper. 2rd. ed., 1937.

Murphy, G. *An Historical Introduction to Modern Psychology*, London : Kegan Paul, 1938.

Newcomb, T.M. *Social Psychology*, London : Tavistock : 1952.

Piaget, J. *Le Langage et La Pensée Chez l'Enfant*, Paris : Delachaux, 1923.

Piaget, J. *Le Jugement Moral Chez L'Enfant*, Paris : Alcan, 1932.

Schjelderup Ebbe, Social Behavior of Birds, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Sherif, M. & Cantril, H. *The Psychology of Ego-Involvements*, New York : John Wiley, 1947.

Uvarov, E.B. & Chapman, D.R. *A Dictionary of Science*, Middlesex : Penguin Books : 1951.

Wallon, H. *L'Evolution Psychologique de l'Enfant*, Paris; Colin, 1941.

Wallon, H. *Les Origines du Caractère Chez L'Enfant*, Paris : Presses Universitaires de France, 1949.

Warren, H.C. *Dictionary of Psychology*, New York : The Riverside Press. 1934.

Winthrop, H.W. Semantic Factors in The Measurement of Personality Integration, *J. Soc. Psychol.*, 1946, 24.

Yerkes, R.M. & Yerkes, A.W. Social Behavior in Infrahuman Primates, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

مراد (يوسف) مبادئ علم النفس العام ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٨ .

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

● صدر فى هذه المجموعة :

مبادئ علم النفس العام	للدكتور يوسف مراد
علم النفس الفردى	للدكتور إسحق رمزى
مشكلة السلوك السيكوباتى	للدكتور صبرى جرجس
مدارس علم النفس المعاصرة	تأليف روبرت ودورث ترجمة الأستاذ كمال دسوقى
الأسس النفسية للإبداع الفنى	للدكتور مصطفى سويف
المدخل إلى علم النفس الجماعى	تأليف شارل بلوندل ترجمة الدكتور حكمت هاشم
الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى	للدكتور مصطفى سويف
اللغة عند الطفل	للأستاذ صالح الشماع
تطور الشعور الدينى عند الفرد	للدكتور عبد المنعم عبد العزيز المليجى
ميادين علم النفس	تأليف ج. ب. جيلفورد ترجم بإشراف الدكتور يوسف مراد
الكتاب السنوى فى علم النفس	ترجم بإشراف الدكتور يوسف مراد.
سيكولوجية المرضى وذوى العاهات	للدكتور مختار حمزة

رقم الإيداع	١٩٨١/٤٩٦٤
الترقيم الدولى . ٩٧٧-٧٣٥١-٧٣-٩	ISBN

١/٨١/٢٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة علمية دقيقة لإقامة نظرية فى طبيعة العمليات النفسية الاجتماعية التى تربط الفرد بمجتمعه .

ولكى تكون النظرة شاملة ومتعمقة كان من الضرورى أن تتناول هذه العمليات من زاوية تطورية أو ارتقائية من ناحية ، ثم من زاوية تشريح المواقف الإنسانية الرئيسية من ناحية أخرى . لذلك كانت الخطوة الأولى هى الكشف عن الجذور العميقة للصلة بين الفرد والجماعة فى المستويات التطورية المختلفة ، على أساس أن هذه الصلة فى أى شكل من أشكالها إن هى إلا مظهر من مظاهر القدرة على التكيف التى هى من أهم خصائص المادة الحية . ثم كانت الخطوة التالية وهى تتمثل فى متابعة المراحل الرئيسية التى تمر بها الشخصية فى ارتقائها من حيث إن هذه المراحل نتاج التفاعل بين الفرد بقدراته واستعداداته الجبلية وبين خصائص التنشئة الاجتماعية التى يتلقاها . وقد أقام المؤلف دراسته فى هذه الفصول على أساس من ملاحظاته الدقيقة المتتابعة التى أجراها على طفلته فى البيئة المصرية . كما اعتمد فى دراسته لمرحلة المراهقة وخصائصها الاجتماعية على دراسة تجريبية إحصائية أجراها على أكثر من ألف مراهق مصرى .

وكان طبيعياً أن ينتقل المؤلف بعد هذه النظرة التاريخية إلى نظرة تحليلية يكشف فيها عن شبكة العلاقات فى المواقف الاجتماعية الإنسانية الرئيسية ، وبذلك يكشف عن عوامل التكامل الاجتماعى وشروطه ، العوامل والشروط الحاضرة والتاريخية معاً .